نادية سمير

عنوان الكتاب: **سـمـير نادية**

اسم المؤلف: **نائف حسان**

المراجعة اللغوية: دار الفراعنة للنشر

رقم الإيداع: 2020/4441

الترقيم الدولي: ISBN:978-977-6780-26-2

محمول: 01006141645

ت: 0239769176

نائف حسان

سمير نادية

رواية

دار الفراعنة للنشر والتوزيع والترجمة

1

تعامل سمير نادية مع امتهان شقيقته الكبرى للدعارة كتقويم زمني. أراد في ذروة انسحاقه أن يتذكَّر عام 2001، فلم يستطع تذكُّره إلَّا باعتباره "سَنَةْ ما أقحَبت سلوى أختي". تاليًا، سحب الأمر ذاته على العامين اللذين تحوَّلت فيهما شقيقتاه الوسطى والصُغرى إلى عاهرتين؛ إذ أصبح يُعَرِّف عام 2002 بـ"سَنَةْ ما أقحَبت إيمان أختي"، وعام 2005 بـ"سَنَةْ ما أقحَبت سُه أختي".

دونما قصد، وَضَعَ هذا التقويم الشخصي الخاص بهدف ضبط الأحداث في حياته. تعامل مع الأمر بجدِّية كاملة، وحَرِصَ على إبقائه طَيّ السِّرية. وعندما كانت تعصف به النوبات غِير المفاجئة، كان يحاول التخفيف من احتدامه وغضبه، عبر تأكيد اعتزامه التخلُّص من هذا التقويم المخزي. بيد أنه فَشِل، مرارًا، في ذلك. ضُعف الذاكرة جعله يرتهن، بشكل كامل، لهذا التقويم، ويربط به مسار حياته وأحداثها.

أراد، في ذروة وحشيته، أن يتذكَّر السنة التي توقَّف فيها عن الدِّراسة؛ فلم يستطع. بعد دقائق من التفكير، بلغ النتيجة السهلة: "توقَّفت عن الدِّراسة قبل ست سنوات من انحراف سلوى أختي".

قبل أن يَذبح الجندي، أغمض عينيه محاولًا تذكُّر السنة التي تحوَّل فيها إلى إرهابي. استنهض ذاكرته، فتوصَّل للإجابة: "أصبحتُ مُجاهِدًا في سبيل الله بعد ثلاث سنوات على امتهان أختي سُهى للدعارة".

ذَبَحَ الجندي دونما رحمة؛ إذ كان قد صار "المُجاهِد أبو الليث سمير اليمني".

2

كان الجندي بيدين وقدمين موثوقة. وكان سمير ملتحيًا، يحمل مصحفًا في جيبه، وفي يده اليمنى سكين من النوع المستخدم لذبح الخِراف.

أوثقتْ يدا الجندي بحبل صغير إلى الخلف، لهذا تمرَّغ وجهه في التراب وهو يزحف خلف قَدَمَيْ قاتله محاولًا تقبيلهما طلبًا للرحمة. حظيت الأرض بقُبُلات أخطأت هدفها؛ لأن الحركة غير الواعية للقاتل حالت دون وصول الضحية إلى قَدِميه. حين انتبه سمير للمشهد أحسَّ بمتعة كبيرة. شَعَرَ بذاته كما لم يشعر بها من قبل؛ ذلك أن حياة القسوة والمهانة التي عاشها جعلت من إذلال الآخرين والتنكيل بهم شرطًا ضروريًا لبعث ذاته المسحوقة بفعل سنوات طويلة من الاستكانة والقهر. وإذ تدفَّقت النَّشوة فيه، اعتزم الحصول على أكبر قدر منها. وقف في مكانه؛ مانحًا الجندي فرصة الوصول إلى قَدِميه. المسكين فقد ملامح شجاعة الجندي، وخار جسده الفتي؛ فرمى بوجهه على قدمَيْ قاتله، وأمطرهما بِقُبَل مصحوبة بعبارات توسُّل متتابعة.

حَكَّ سمير لِحْيَتهُ الشعثاء، ونظر إلى الأسفل، بطريقة تُمكِّنه من بلوغ أقصى درجات الاستمتاع بالمشهد. اجتاحته نوبة ابتهاج، وهو يرى الجندي يُقَبِّل قَدِميه بتذلُّل وانسحاق كاملين. تهلَّلت أساريره فرحًا، وامتلأ صدره حبورًا. باختيال، رَفَعَ رأسه المطأطئ، ونصب قامته المنحنية. انتبه، فجأة، إلى خطورة ما هو فيه من زهو وكِبر. تلفَّت حوله بارتباك، وهو يطأطئ رأسه، ويحنِي جسده إلى وضعيته السابقة. استرق نظرات وَجِلة في المكان، بطريقة حَرِصَ أن يبدو فيها كما لو أنه غير مكترث بتَقبِيل الجندي لقَدَمَيْه. تنفَّس الصُّعداء حين تأكد أن رفاقه المسلَّحين لم ينتبهوا لنشوة الجبروت التي ظهرت عليه. لاحت ابتسامة مطمئنة على محياه، وأعاد النظر إلى الأسفل لمواصلة

الاستمتاع بالمشهد. تصاعد شعوره بالنَّشوة، وهو يرى الجندي ذا السبعة والعشرين عامًا مستمرًا في تَقبِيل قَدميه، ويلهج بالقول:

– أنا بوجهك ارحمنا.. أنا عند الله وعندك لا تقتلنا..

كست وجه سمير غطرسة واهنة. كانت تلك هي المرة الأولى التي يجد فيها من هو أكثر ذُلًا منه. كانت تلك هي المرة الأولى التي يجد فيها نفسه في موقع القوي الذي يتضرَّع الآخرون بين قدميه متوسِّلين عطفه وشفقته. تضاعف شعوره بالزهو. رفع رأسه، وفتح عينيه باستكبار وأنفة شخص مسكون برغبة متَّقِدة للتَّجَبُّر. قال لنفسه، وهو يقرص شفتيه:

– ما فيش أفضل من أن الواحد يكون قويًا، يركع الناس بين أرْجُله ويبوِّسوها.

انتبه، مرة أخرى، للغطرسة التي هو فيها، فامتقع لونه؛ إذ أدرك أن من غير الحكمة المبالغة في إظهار ذلك القدر من العنجهِية والتِّيه. ابتعد عن الجندي بضع خطوات أتاحت له تغيير ملامح وجهه، والتخلُّص من غطرسته الزائفة. همهم:

– يا سمير، أمسك نفسك، ولا تَخَلِّي مشاعرك تفضحك بين المُجاهِدين. يا ابن نادية، أنت مُجاهِد في سبيل الله، مش واحد يشتي يذوق طعم القوة، ويفرح لأن أعداء الله يبوِّسوا أرْجُله.

أجال نظره في المكان بعينين خفيضتين، وتطلَّع إلى قائده بتصاغر. كان الأخير لا يزال منشغلًا في حديث جانبي، لهذا لم يستطع سمير منع نفسه من استراق لحظات أخرى للمتعة. أخفض عينيه، واستسلم لتأمُّل مشهد الجندي، الذي لم تكن قد مرَّت عليه أكثر من دقيقتين وهو يُقَبِّل قَدميه بخضوع واسترحام مهينين. ضبط سمير نفسه وقد انتعشت فيه موجة أعتى من نوازع الغطرسة والتَّجَبُّر. أغمض عينيه وفتحهما بطريقة من يريد تحذير ذاته من

شيء خطر. بيد أن الإحساس بالنَّشوة كان مرتفعًا لديه؛ حتى كاد يحرك شفتيه وهو يغرق في أحاديث النَّفس:

– أخيرًا، يا بن نادية، ما عَد أنت هَيِّن وذَلِيل. أخيرًا، يا بن نادية، صار هناك من يُبَوِّس أرْجُلك عشان ترحمه! الحمد لله على نعمة الجِهاد إللي خَلَّاني أكون أبو الليث سمير اليمني، ولولاه أني بقيت سمير ابن نادية.

استيقظت أكثر ذكرياته غورًا، وأشدُّها ألمًا وخزيًا. تذكَّر يوم اقتحم شرطيان منزل أُسرته، واعتديا على أبيه، ومارسا الجنس مع أمه بالقوة. كان في التاسعة من عمره يوم حدث ذلك في مساء أحد أيام شتاء عام **1990**. اندفع الشرطيان إلى المنزل وهما يشهران مسدسيهما. ما إن أغلقا الباب خلفهما، حتى وَجَدَا الأب واقفًا في الصالة، فباشرا الاعتداء عليه، وهما يصرخان فيه: أين زوجتك القحبة؟ سقط المسكين أرضًا، واكتفى بإخفاء رأسه بين ذراعيه. تعالى صراخ وبكاء أطفاله، الذين كانوا يقفون مرتعبين في الركن الأيمن للصالة، منذ توقفوا عن اللعب في اللحظة الأولى للاقتحام المباغت. كان سمير أكثر هلعًا من شقيقاته، اللاتي كانت كبراهن (سلوى) تسير في الحادية عشرة من عمرها.

أصيبت نادية بالهلع وهي تسمع أصوات رجلين غريبين في المنزل، ثم صراخ أطفالها. غادرت غرفة نومها فورًا، كي تعرف ما يجري. ما إن ظهرت أمام الغرفة، حتى أسرع إليها الشرطي رشيق الجسد، ووجَّه لها صفعة أفقدتها توازنها. شَدَّها بقوة من شَعَرَها، وأخذ يشتمها ويصفع وجهها صفعات مهينة أكثر منها مؤلمة. فَعَلَ ذلك بشكل متكرِّر. ومع تصاعد قوة الشَّد والصفعات، كان يؤكد اعتزامه، ورفيقه، أخذها وزوجها إلى السجن، بتهمة "إفساد الأخلاق ونشر الرذيلة" عبر إدارة شبكة للدعارة. انهارت، وهي تسمعه يقول ذلك. أحسَّت جسدها يرتعش، ثم سقطت أرضًا. أخذت تبكي

وتتوسَّل، دون أن تأبه لأولادها وصرخاتهم الفَزِعة. لم تَعُد ترى إلا الشرطيين، ولا تسمع إلا ما يقولان. لم تكن قد بدأت العمل كقوادة؛ لكنها كانت مستكينة وترتجف رعبًا، كأية عاهرة في مجتمع محافظ. أمسك الشرطي جيدًا بشَعَرَها، وسحبها إلى جوار زوجها، الذي كان مستمرًا في إخفاء وجهه بين ذراعيه، وعاجزًا حتى عن استراق النظر لمعرفة ما يجري. سَمِعَ وقع الاعتداء على زوجته، والتهديدات والشتائم النابية التي وجِّهت لها. سَمِعَ توسُّلاتها المرتعدة، وبكاءها الجَزِع. أحسَّ بالرعب في صراخ وبكاء أطفاله، لكنه ظَلّ عاجزًا عن رفع رأسه أو قول كلمة.

ستمُرّ دقيقتان على نادية قبل أن تستوعب كامل المشهد. عندها انتبهت إلى أن صراخ أطفالها سيلفت انتباه الجيران، وسَيُحَوِّل ما يجري إلى "فضيحة". التفتت إليهم، وأمرتهم: "اسكتوا يا تفضحونا". صار خوفها من "الفضيحة" أكبر من خوفها من الشرطيين والسجن. تأكد الشرطيان أنها صارت جاهزة لتنفيذ ما يريدانه. أمرها الشرطي ممتلئ الجسد أن تدخل معه الغرفة. "عشان نتفاهم"؛ غمز برمش عينه اليمنى وهو يقول لها ذلك. أدركت ما يريد، فتنفَّست الصعداء. مسحت الدموع من على خدّيها، ونهضت، وهي تقول:

– تمام، بس لا تَفَجِّعوا الجُهَال ولا تضربوا أبوهم.

اندفعت نحو الركن المقابل، واحتضنت أطفالها، دون أن ترى الشرطي وهو يَهُزّ رأسه معلنًا موافقته على ما قالت. طبطبت على أولادها محاولة تهدئتهم. تشبَّثوا بها، وتصاعد بُكاؤهم المُختَضِل. أخذت تمسح دموعهم، وتوَزِّع قُبلات مرتعشة عليهم. أمرتهم بالهدوء والتزام الصمت. ألقت عليهم نظرة مفعمة بالتَّوجُّس والرجاء، ثم سارت نحو غرفة نومها. وقفت أمام باب

الغرفة المفتوح على مصراعيه، ونظرت إلى الشرطي ممتلئ الجسد. "تعال"، قالت له بانكسار، ثم دخلت الغرفة.

أخيرًا، رفع زوجها رأسه، فرأى الشرطي المتين يدخل الغرفة، ويغلق الباب خلفه، فيما أطفاله يراقبون ما يجري في صمت ورعب. مازال سمير يتذكَّر الابتسامة الظافرة التي ظهرت على محيا الشرطي النَّحيل وهو ينظر بلؤم إليه وإلى شقيقاته وأبيه. لم يستطع أن ينسى تلك الابتسامة القذرة، وملامح الاستكانة والخنوع التي كست وجه والده وهو ينهض من مكانه تنفيذًا لأمر أرفقه الشرطي بركلة مهينة. أمره بأن يأخذ أطفاله ويدخل وإياهم غرفة الجلوس. لكن الأطفال عادوا إلى البكاء، وجلسوا وسط الصالة يحدِّقون في باب الغرفة المقابلة في انتظار خروج أمهم.

وإذا استطاع سمير أن ينسى فلن ينسى اللحظة التي خرج فيها الشرطي الممتلئ الجسد من غرفة أمه، وهو يربط حزام بنطلونه، ويطلب من زميله أن يأخذ دوره في دخول الغرفة. لا يستطيع أن ينسى كيف دخل الشرطي الرشيق غرفة أمه، وأغلق بابها، وهو يبتسم ابتسامة لئيمة وماكرة. مازال يتذكَّر كيف غادر الشرطيان المنزل بهدوء، بينما ظَلّت أمه تبكي، وهي مستلقية في سريرها وتخفي وجهها بوسادة.

أفاق سمير من نوبة تَذَكُّرِه على صَخَب زملائه المسلَّحين، وصوت الجندي، الذي كان قد ارتفع منسوب الهلع لديه، وصار يتفوَّه بعبارات توسُّل غير مفهومة. أضفى "بن نادية" على وجهه مزيدًا من العبوس المختال، وقَلَّب عينيه المحمرَّتين، مظهرًا طاقة هائلة من القسوة والحقد. زاد ذلك من تجهُّم وجهه ذي البشرة الداكنة. بيسراه، مَسَّدَ لحيته غير المُرتَّبة، فيما صَوَّب نحو الجندي نظرة مليئة بضَغينَة غير مفهومة، ورغبة انتقام غير مبرَّرة. أطبق أسنان فكيه، بتشنُّج، ثم وَجَّه للضحية ركلات قوية. أعاد تقليب عينيه المُحمرَّتين،

وأصلح من وضعية المَشَدَّة([1]) المُلَّتفة حول رأسه. تلفَّت حوله، وقبض بشكل جيد على السكين التي في يده. بوجه مُكفَهِرّ، تقدَّم خطوة إلى حيث أمكنه وضع قدمه اليمنى على وجه الجندي، وأخذ يضغطها بقوة، وهو يصرخ فيه:

– يا كلاب! يا عملاء الطاغوت! أنتم كُفَّار، مُرتدَّون.. سنقتلكم تنفيذًا لحكم الله.. سنذبحكم مثل الكلاب، لأنكم تحاربون الله ورسوله والمُجاهِدين.

بتَبَاهٍ وخيلاء، رفع سمير رأسه إلى الأعلى، ولكزه صوت داخلي يقول: "اليوم يومك يا سمير! خَلِّيك قوي، لا تكن جبانًا وضعيفًا! ضروري تكون قوي، وتنسى إنك ابن نادية!".

أضفى على وجهه مزيدًا من العبوس المختال، وواصل الغرق في مونولوجه: "لا تضعُف يا سمير! لا تضعُف يا بن نادية! أنت الآن مُجاهِد في سبيل الله، وهذه فرصتك الأخيرة عشان تكون رَجَّال([2])! هذه فرصتك الأخيرة؛ يا تقع رَجَّال مثل الناس والناس، وإلاَّ باتبقى طول عمرك وأنت ابن نادية، وبايضحكوا عليك المُجاهِدين! لا تضعُف! اذبح هذا الجندي المُرتدّ! اذبحه!".

كان عشرات المسلَّحين ينتظرون، بفارغ الصبر، انتهاء الحديث الجانبي لقائدهم، الذي يطلقون عليه لقب "الأمير"، التزامًا بتقاليد قديمة من التاريخ الإسلامي. عندما فرغ الرَّجُل من حديثه الجانبي، أعطى الإذن ببدء عملية الإعدام، وأكد أنه سيتم ذبح خمسة جنود؛ لأنهم لم يعترفوا، أثناء التحقيق

([1]) المَشَدَّة: قطعة قماش يضعها الرِّجَال في اليمن على أكتافهم، أو يَلُفُّونها حول رءوسهم، لا سيما حين يرتدون الملابس التقليدية.

([2]) رَجَّال: تضخيم لمفردة رَجُلْ، وليست جمعاً لها. وفي اليمن، يشيع استخدام هذا التضخيم، بصيغة المبالغة. ويلزم هنا التنبيه إلى أن صيغة المبالغة هذه سترد في مواضع أخرى داخل الرواية.

معهم، بانتمائهم لقوات الجيش؛ فيما سيتم إعدام بقية الجنود رميًا بالرصاص؛ "تقديرًا" لاعترافهم بهوياتهم الحقيقية!

أطلق المسلَّحون صرخات التَّكْبير، فرحًا بما سمعوه. كانوا بوجوه كالحة، ولِحى كثَّة غير مُرتَّبة. وكان على سمير أن يثبت جدارته بالانتماء لهم. لهذا، استسلم للوحش الذي في داخله، وشَرَعَ في ذبح الجندي بقسوة رَجُل مؤمن يحمل مصحفًا في جيبه.

اختلط التراب بالدم، فدوَّت أصوات المسلَّحين: "الله أكبر.. الله أكبر..". تضاعفت هستيريا الجنون والتَّوحُّش في المكان، الذي يقع بين جبلين نائيين تفصلهما عشرات الكيلومترات عن قرى السكان المحلِّيين، في محافظة شبوة.

3

لم تكن السكين حادة بشكل جيد؛ لهذا بَذَلَ سمير جهدًا كبيرًا وهو يعارك عنق الجندي، الذي تم ذبحه بوضعية أبشع من وضعية ذبح الخرفان. ما إن انتهى من تنفيذ الجريمة، حتى نَصَبَ قامته، وأطلق زفرة طويلة، ثم رفع رأس الجندي إلى الأعلى، وصرخ: "الله أكبر.. الله أكبر..". أعاد المسلَّحون صرخات التَّكْبيرِ، بحماسة أكبر، فيما توقَّفت جثة الجندي عن رفس التراب.

احمرَّ وجه سمير خجلًا؛ لأنه لم يكن ماهرًا في الذبح. مسح نقاط الدم التي التصقت بوجهه، فانتبه إلى كمية العرق المتصبِّب من جبينه. أغمض عينيه، محاولًا استجماع ذاته. أحسَّ بجسده يرتجف، وقلبه يركل صدره بنبض متسارِع. فجأة، خيَّمت حالة من الذُعر على روحه. قال لنفسه:

– أنت الآن رَجُل آخر، يا سمير. ضروري تبقى قويًا وما تضعُف. أنت مُجاهِد، ذبحت هذا الجندي المُرتَدَّ من أجل إعلاء كلمة الله، ونُصرةً لدينه

ولرسوله، وأيّ ضُعف يظهر منك بايفضحك، وبايَخَلّي المُجاهِدين يضحكوا عليك. يا سمير، قَعْ رَجَّال مثل الناس والناس.. مش معقول تجلس طول عمرك وأنت ابن نادية!

حاول طمأنة نفسه، وإبداء قدر من القوة والتماسك؛ ذلك أن القسوة التي أظهرها كانت تخفي أَشَدَّ حالات الضعف والوهن. أراد التَّصرُّف كرَجُل مؤمن مسكون بالثقة واليقين؛ بيد أنه لم يستطع التَّغلُّب على الهلع المستوطن روحه الهشة. ظَنَّ أن ضعفه وخوفه صارا مكشوفين للجميع. بحث عما يبدِّد ذعره. أضفى على وجهه قدرًا أكبر من ملامح التَّجَهُّم، ورفع السكين ورأس الجندي إلى الأعلى، وصرخ: "الله أكبر.. الله أكبر..". أعاد المسلَّحون صرخات التَّكْبير، بحماسة أكبر. كانت الدماء تقطر من السكين التي رفعها بيده اليمنى، ورأس الجندي الذي رفعه بيسراه. تلفَّت في المكان وهو يتبسَّم بتوثُّب كاذب. غطَّت وجهه طبقة داكنة من السواد. عيناه الجاحظتان ازدادتا اتساعًا واحمرارًا، وصار يُقلِّبهما كما لو أن روحه ممسوسة. استيقظت نزعات الحقد الكامنة لديه تجاه المجتمع الذي عامله بقسوة، ونبذه بسبب امتهان أمه وأُسرته للدعارة. أومضت في ذاكرته كل الآلام التي كابدها، وكل المهانات التي تجرَّعها. استفاقت فيه نوبة السُّعار المتعطشة للانتقام، فأخذ يسير وهو يرفع رأس الجندي إلى الأعلى، ويطلق صرخات تكبير هستيرية.

سيطرت عليه نوبة محمومة من الهيجان، وحقد غير مبرَّر تجاه الجندي الذي ذبحه، رغم أنه لم يكن يعرفه، ولم يسبق له حتى الالتقاء به. استُنهِضت فيه نزعات الحقد، فكان هيجانه صادقًا وحقيقيًا. لم يَعِ ذلك. ظنَّ أنه مازال رازحًا تحت وطأة الذعر والهلع. مرة أخرى، بحث عما يُمَكِّنه من تبديد فزعه المتصاعد. رَفَعَ، مجددًا، رأس الجندي إلى الأعلى، وواصل السير وهو يطلق

صرخات تكبير أكثر هستيرية. فَطِنَ إلى أن بإمكانه إخفاء هلعه الشخصي خلف صرخات التَّكْبير، لهذا رَدَّدها مرارًا، حتى أحسَّ بأنه تغلَّب بالفعل على ما كان يعتريه من ذعر. كانت كل صرخة تكبير تزيد مشاعر الحقد فيه، وتُؤجِّج غريزة العدوان الحبيسة لديه، فتشتعل رغبته في الانتقام من المجتمع الذي أذله بسبب عمل أُسرته في الدعارة.

4

سيطر الرعب على بقية الجنود، فتبادلوا نظرات الوداع. بعضهم بكى فزعًا، بينما فَضَّلَ أغلبهم مواجهة الموت بشجاعة، دونما استجداء وتَوَسُّل. كانت أيديهم موثوقة إلى ظهورهم بحبال مهترئة، أو بمَشَدَّاتهم الخاصة. أُجْلِسَوا على رُكَبِهم لمشاهدة جريمة قتلهم واحدًا بعد الآخر. رُصَّوا في صف شبه مستقيم، وخلفهم وقف مسلَّحون مُلْتَحون يحملون أسلحة كلاشنكوف، ويرتدون ملابس تقليدية قصيرة. في الجهة الأخرى، انتشر عدد أكبر من المسلَّحين. قائدهم كان في المقدِّمة، حيث أشرف بنفسه على عملية الإعدام. تَضَاحَكَ قائد المسلَّحين، وهو يشاهد انتهاء عملية ذبح الجنود الخمسة، ثم أمر بإعدام بقية الجنود رميًا بالرصاص. تم عصب أعين الجنود الاثني عشر، بعد أن شاهدوا زملاءهم الخمسة يُذبحون. أنصت كل منهم لطلقات الرصاص وهي تقترب منه، وأصوات المسلَّحين تتعالى بعد كل رصاصة: "الله أكبر.. الله أكبر..".

تلقى كل جندي رصاصة في رأسه. ومع سقوط كل واحد منهم، كان الهتاف باسم الله يتصاعد بشكل هيستيري. كان كثير من المسلَّحين ينظرون نحو قائدهم، عندما نهض من مكانه، وانخرط معهم في إطلاق صرخات التَّكْبير.

5

"بن صالح" هو قائد المسلَّحين، الذين كانوا يطلقون عليه لقب "الأمير"، ويُنفِّذون أوامره دونما نقاش، أو تردُّد. لا تُعرف مسيرة هذا الرَّجُل، ولا تاريخ التحاقه بالتنظيمات "الجِهادية"؛ لكن المؤكد أنه من أُسرة جعلها الفقر تعيش حياة مثقلة بالبؤس وذُلِّ الحاجة.

انتمى، في تسعينيات القرن العشرين، إلى التنظيم الجِهادي الأشهر، حيث حصل على كُنية ذات وقع حماسي: "أبو القعقاع الشبواني". والغريب أن تدرُّجه القيادي داخل التنظيم ارتبط بإهمال تلك الكُنية، والعودة إلى لقبه الاجتماعي والأُسري: "بن صالح"!

عاش في الظِّل، طيلة عقدين من الزمن، حتى دفعت به تطورات الأحداث إلى قيادة مئات من المسلَّحين الجِهاديين استخدمهم للسيطرة على محافظة شبوة التي ينتمي إليها. من يعرِفونه قبل عملية تحوُّله، يؤكدون أنه كان شخصًا عاديًا يفتقد للجاذبية والحضور الشخصي. ويجري التدليل على ذلك بالإشارة إلى أن السلطات الأمنية في العاصمة صنعاء كانت قد اعتقلته، قبل سنوات، إلاَّ أنها أفرجت عنه، بعد أشهر، تلبية لوساطة قَبَلِيّة؛ إذ لم يكن من القيادات الإرهابية الخطرة، أو التي يُمكن التنبؤ بأنها ستصبح كذلك. والواقع أنه لم يستطع، أبدًا، دخول قائمة أخطر المطلوبين الإرهابيين لسلطات صنعاء أو واشنطن. لقد أصبح "أميرًا" للجِهاديين في محافظة شبوة النفطية، ذات المساحة الكبيرة، بيد أنه مازال مطلوبًا كأيّ إرهابي عادي.

تقول المرويات إنه عاش في هامش المسلَّحين الجِهاديين، وبعد مقتل قيادات الصف الأول، وكثير من قياداتهم الوسطى، صَعَدَ نجمه حتى صار "أمير ولاية شبوة".

هناك من يقول إن الانتماء الجغرافي دَفَعَه إلى الموقع الذي صار فيه؛ ذلك أن الجهل والفقر المجتمعيّيْن دفعاه، وبقية جِهادِيي المحافظة التي ينتمي إليها، إلى الواجهة، رغم أنهم كانوا مُجرَّد بيادق في أيدي جِهادِيي المحافظات الأخرى. لا يعني هذا إغفال "سابقتيه" في "مسيرة الجِهاد"، حتى إن هناك من يُشير، في سياق الإشادة به، إلى أنه كان أحد "المُجاهِدين الأوائل" في أفغانستان.

وبعيدًا عن كل المرويات، فالواقع يقول إن الرَّجُل الباحث عن مكانة اجتماعية استفاد من الفوضى التي ضربت اليمن، وأدت إلى انهيار الدولة المركزية فيها، فتحوَّل من إرهابي مغمور إلى "أمير". تلك هي التقلبات التاريخية المفاجئة التي يقال إنها تدفع البعض من قاع المجتمع إلى "قِمته". وبالنسبة لـ"بن صالح" فقاع المجتمع لم يكن الافتقاد إلى المكانة الأُسرية والقَبَلِيّة، بل الافتقاد إلى مورد مالي يُمكِّنه من الحصول على موقع اجتماعي. وفي أوضاع الفوضى، صارت قيادة جماعة إرهابية طريقًا سهلًا للصعود إلى قمة المجتمع.

كان مسلَّحوه بالعشرات؛ صاروا بالمئات. كان "صالح ابن صالح"؛ صار "الأمير الشبواني". على أنه لم يكن مجرَّد رَجُل محظوظ خدمته الظروف والحظ الطيب، وصنعته المصُادَفة وتقلُّبات الأحداث؛ ذلك أنه أحسن استغلال مأزق الفشل التاريخي الكبير الذي عاشته/ تعيشه اليمن، ووظَّفه بما ضاعف قوته، ووسَّع مجال سيطرته. لهذا، يُمكن القول بأنه مدين لذكائه بقدر ما هو مدين لتداعيات الفوضى والانهيار التي دفعت به من موقعه كإرهابي مغمور إلى قيادة جماعة جِهادية خَطِرة.

أن أُسرته هي الأفقر والأضعف داخل بنيتها القَبَلِيّة. تعتمد أُسرته على انتمائها القبلي؛ لكنها تعيش على هامش القبيلة؛ دون مكانة اجتماعية، أو بمكانة أَقَلَّ من مكانتها المُفترضة. تراجعت مكانة أُسرته داخل القبيلة

لصالح أُسر أخرى عزَّزت مكانتها ونفوذها اعتمادًا على قدرتها المالية، وعلاقتها بالسلطة المحلِّية والمركزية. الفقر المُدقع هو ما حال بين أُسرته ومكانتها القَبَلِيّة المُفترضة. لذلك، هرب من واقعه ومجتمعه، بحثًا عن دور يُمكِّنه من التغلب على الفقر، وتعويض ما يَظُنّ أنه صار تواضعًا في المكانة والنَّسب لديه. كان المجتمع قاسيًا، وكان "بن صالح" يُريد البحث عن دور وحضور اجتماعي. ومن سوء حظه، وسوء حظ المجتمع، أنه لم يجد ذلك ممكنًا إلاَّ في التحاقه بتنظيم إرهابي.

بدأ مسيرته "الجِهادية" ضمن مئات الفقراء الذين لم تكن لديهم خيارات للحياة الكريمة غير التحوُّل إلى إرهابيين. لكن هؤلاء ظَلُّوا في الهامش، فيما هو صار "أميرًا". ورغم أن القتل مكَّنه من أن يصبح زعيمًا محليًا، إلاَّ أنه مازال يُراوِح مكانه في منطقة وسطى بين النفوذ واللانفوذ، وبين الحاجة واللاحاجة. وفي كل الأحوال، فهو مازال هاربًا وملاحقًا، باعتباره قاتلًا إرهابيًا، لا "قائدًا جِهاديًا"؛ باعتباره إرهابيًا عاديًا، لا واحدًا من أخطر المطلوبين على ذمة الإرهاب؛ كالذين تُخصِّص واشنطن مبالغ مالية لمن يُدلِي بمعلومات تُمكِّن من قتلهم أو إلقاء القبض عليهم.

هو رجل مُتجهِّم، بلحية كثَّة وعُنق قصير. وإلى هذا، فهو سمين، يسير بكرش مُنتفخ ضاعف من قصر قامته. على الدوام، يرتدي ثوبًا قصيرًا، ويَلُفُّ رأسه بمَشَدَّة. كان بجسد أضعف، عندما التقاه سمير لأول مرة، قبل نحو ست سنوات، في منطقة نائية تابعة لمحافظة مأرب الشمالية. يومها، كان مُجرَّد إرهابي عادي، قادم من منطقة قبلية جنوبية يعيش أهلها في فقر مُدْقِع. وقد ظَلّ على تلك الحال، حتى أصبح "أميرًا"، وصار سمير "مُخبِرًا" له.

في بداية قيادته لـ"الجِهاديين" في شبوة، اعتمد "بن صالح" على أعمال التقطع والنهب لتمويل مسلَّحيه وحركتهم. تاليًا، اعتمد على تبرُّعات مالية

قدمها له سياسيون، وقادة عسكريون، وتُجار محليون وإقليميون، ذوو توجُّهات سَلَفيّة مُتطرِّفة، أو ذوي نوازِع عصبوية طائفية مُتحمِّسة. وإلى هذا، حَصَلَ على مبالغ مالية كبيرة من دول خارجية مقابل إطلاق رهائن؛ حيث كان قد اتَّخذ من عمليات خطف الأجانب مصدرًا مهمًا للحصول على الأموال. خلال تلك المرحلة استطاع بناء شبكة خطف مُكوَّنة من مسلَّحين قَبَلِيّين يُنفِّذون بعض عمليات الخطف، أو يُشاركون في تأمينها، وإخفاء الضحايا، الذين يتحوَّلون إلى رهائن. ضمن تلك الشبكة استقطب شخصيات اجتماعية وقَبَليّة مكَّنها من القيام بدور الوسطاء للتفاوض مع السلطة المركزية، أو الدول التي ينتمي إليها المخطوفون، من أجل إطلاق سراحهم. وقد كانت أعمال الخطف طريقًا سهلًا إلى الثراء. وحتى اليوم، مازال "بن صالح" يحنّ لتلك الأيام التي يصفها بـ"الخضراء"؛ ففي إحدى العمليات أَطلقَ سراح أحد المخطوفين الأجانب مقابل فدية بلغت ستة ملايين يورو، وآخر مُقابل خمسة ملايين دولار.

بعد انهيار السلطة المركزية في صنعاء، تعاظم نفوذ "بن صالح" في المحافظة التي ينتمي إليها؛ ذلك أن التحولات التي شهدتها اليمن دفعت بقوى قَبَليّة وسياسية إلى التحالف معه؛ بهدف مواجهة مسلَّحي جماعة الحوثي، الذين استولوا، بمساندة القوات الموالية للرئيس السابق، على عاصمة البلاد، في 21 سبتمبر 2014، ثم حاولوا السيطرة على بقية المحافظات، اعتمادًا على السلاح وقوة الغلبة.

باجتياح العاصمة، والانقلاب على الرئيس الانتقالي للجمهورية، انتقلت اليمن من الفوضى إلى الحرب الأهلية. توّجَ ذلك بإعلان "التحالف العربي"، بقيادة السعودية، دخول الحرب لـ"إعادة الشرعية في اليمن".

تلك التحولات أتاحت لـ"بن صالح" فرصة المشاركة في قيام تحالف محلي واسع ضَمَّ آلاف المسلَّحين وشخصيات قَبَليّة واجتماعية مؤثرة ومعروفة في شبوة. التفسير الشعبي المُقنع يقول إن جهودًا محلية وإقليمية وقفت خلف ظهور ذلك "التحالف القَبَلِي" المحلي، من أجل مواجهة "الانقلاب". وقد دشَّن مسلَّحوا هذا التحالف أعمالهم بالهجوم على معسكرات الجيش المتهمة بموالاة الرئيس السابق. تم البدء بمهاجمة معسكر يتمركز في مديرية بيحان الواقعة على الحدود الشَّطرِية السابقة، التي تفصل محافظتهم الجنوبية عن محافظة البيضاء الشمالية. سيطروا على المعسكر بجميع مواقعه وأسلحته. تزامن ذلك مع انتشار كثيف لعدد آخر منهم في مدينة عتق، عاصمة شبوة، ومهاجمة موقع عسكري يقع قربها. تاليًا، هاجموا جميع معسكرات ومواقع الجيش المنتشرة في المحافظة، وسيطروا عليها، بجميع أسلحتها الخفيفة والمتوسطة والثقيلة. وكان نصيب "بن صالح" كبيرًا من تلك "الغنائم".

ضمن تلك الموجة المحمومة، حاصر المسلَّحون معسكر اللواء الثاني مشاه جبلي، المكلَّف بحماية المواقع النفطية ومشروع تصدير الغاز المسال في المديرية الساحلية التابعة للمحافظة التي ينتمون إليها. اندفع مقاتلو "بن صالح" بقوة في الهجوم على هذا اللواء، لأنه كان لأفراده دور مهم في قتالهم وملاحقتهم خلال السنوات الماضية. بعد ساعات من الحصار، تَوَصَّل مسلَّحو "التحالف القَبَلِي" إلى اتفاق مع قيادة اللواء:

تسليم المعسكر وجميع مواقعه، وأسلحته ومعداته؛ مقابل الحفاظ على حياة ضباطه وجنوده، وتأمين عودتهم إلى مناطقهم في الشمال. نفَّذت قيادة اللواء الجزء الخاص بها من الاتفاق؛ إلاَّ أنه تم اختطاف وقتل عدد من جنودها، أثناء محاولتهم الرحيل. كان الجنود السبعة عشر أبرز ضحايا عدم التزام المسلَّحين بذلك الاتفاق. اعتُقِل هؤلاء الجنود مساء اليوم الذي تم فيه

تسليم معسكر ومواقع اللواء. وفجر اليوم التالي تم إعدامهم. كانوا قد استطاعوا الهروب من معسكرهم، عند بدء حصاره، وتخفوا في مدينة بلحاف الريفية القريبة منه، حيث تركوا أسلحتهم الشخصية، واستأجروا سيارة محاولين العودة إلى منازلهم وقراهم في الشمال. أُوقِفوا في نقطة تفتيش قبلية مستحدثة في الطريق، وسُلِّموا لـ"بن صالح" ومسلَّحيه، فأعدموهم، ونهبوا ما معهم. كان مع أحد الجنود خمسة ملايين ريال يمني، مُرتَّبات كتيبته، التي لم يستطع العودة إليها.

كان الجنود السبعة عشر شماليين يؤدون أعمالهم في محافظة جنوبية. وكانت قد تضاعفت في الجنوب مشاعر العداء لقوات الجيش المنتشرة هناك، ولكل ما هو شمالي. وإلى هذا فالمشاعر المناطقية والطائفية صارت قادرة على إعادة تعريف هوياتي للجماعات والأفراد والبنى الرسمية والمجتمعية؛ ما جعل الوعي العام يتجاهل الطبيعة الإرهابية لـ"بن صالح" وجماعته؛ إذ صار تعريف هذا الرَّجُل لا يتم اعتمادًا على ما يقوم به من أعمال إرهابية، بل انطلاقًا من وجود "آخر"، جهوي وطائفي، تجسَّد في جماعة الحوثي، التي دخلت الجنوب وحاولت إخضاعه لسلطتها بالقوة، ما ذكَّر باجتياح قوات الرئيس السابق للجنوب في حرب صيف **1994**.

في زخم الكراهية المتأجِّجة في الجنوب لـ"الآخر" الشمالي، صار "بن صالح" يحضُر، في الذهنية العامة لمجتمعه المحلِّي، باعتباره مقاتلًا جنوبيًا، أكثر من كونه مسلِّحًا إرهابيًا؛ لهذا حظي بدعم ضاعف من قوة جماعته، ومكَّنها من مهاجمة عدد من مواقع ومعسكرات الجيش، التي ينتمي أغلب أفرادها إلى الشمال.

6

أصيب ناصر قاسم، المثقف العاطل عن العمل، بالفزع وهو يشاهد مقطع الفيديو الذي وَثَّق جانبًا من جريمة إعدام الجنود. طفق يبكي، ويصرخ لاعنًا الإرهاب والمجتمع. بعد خمس دقائق، توقَّف عن صخب التلفظ بالشتائم، ثم صمت، وانطوى على نفسه في غرفته، حيث اعتزل العالم، وتخلَّى حتى عن شغفه بالكلام. سيطرت عليه حالة من الاكتئاب. وبعد أسبوع بدأ العودة للحياة بشكل تدريجي. قال أصدقاؤه المقرَّبون إن أول ما قاله كان: "الدِّين أفيون الشعوب. رضي الله عنك يا ماركس".

في مقطع الفيديو، الذي بُثّ على شبكة الإنترنت، مرَّت الكاميرا على وجوه الجنود واحدًا تلو آخر، بهدف التقاط لحظات الهلع والرعب التي كانوا فيها. أصيب ناصر برعب أكبر وهو يشاهد عملية ذبح الجنود الخمسة، ثم دحرجة رؤوسهم على الأرض. طيلة شهرين، ظَلّ يبكي كلَّما تذكَّر تلك التفاصيل.

قبل ثماني سنوات، تخرَّج ناصر فى كلية الآداب بجامعة صنعاء، حاملًا بكالوريوس في الأدب الإنجليزي، دونما إتقان للغة. ظَلّ بلا عمل. مازال بلا عمل. اهتماماته الثقافية عكست نفسها على شكله. ومع الوقت، كرَّس وجوده كتعبير عن المثقف المُتحمِّس، لا الشخص العاطل عن العمل.

بدأ الشعر الأبيض يجتاح جانبي رأسه، فأضفى على مظهره لمسة عزَّزت مظهره كمثقف عتيق يفتقد لأدنى مقتضيات الوسامة، ويعيش حياة مفتوحة من التَّبَطُّل والعوز. لديه قامة متوسطة الطول، وجسد نحيل، ووجه أسمر ذو شكل دائري مسنود بوجنتين نحيلتين. يُفترض أنه يسير في الرابع والثلاثين من عمره؛ لكنه يبدو كما لو أنه تجاوز الأربعين. البطالة جعلت

اليمنيين يشيخون قبل أوانهم. بيد أن تقدُّم ناصر في السِّنّ لا يرجع إلى البطالة وحدها، بل، أيضًا، إلى حاجته لضرورة اكتمال شخصية المثقف فيه.

يسيطر السأم على حياته وروحه. وقد انعكس ذلك عليه على شكل توتُّر ذهني مضطرب، وتقلُّب حاد في المزاج. البطالة زرعت فيه شعورًا دائمًا بالضياع تحوَّل إلى قلق وجودي، ووحشة ذاتية. وكي لا تأكله تلك الوحشة، اندفع أكثر في قراءة الكُتب، وضاعف من استرساله في الكلام، وحماسته لكل ما يقرأ. لقد غافل تلك الوحشة، لكنه لم يستطع التخلُّص منها. والمفارقة أن الشعور بعدم الأمان غذَّى نزوع الاستعلاء فيه، وصَعَّدَ من قدرته على ازدراء كل شيء.

"عدم الرضا عن الذات" جعله منقادًا لطبيعته الاندفاعية، ومزاجه المتقلِّب. وفي النهاية، كان نزوع الاستعلاء لديه بمثابة ردة فعل دفاعي أكثر منه سلوكًا عدوانيًا أصيلًا.

يقول إن قراءة الكتب والروايات مكَّنته من التغلُّب على مشاعر اليأس والإحباط المتولِّدة فيه بسبب البطالة الدائمة، التي مازال يسير فيها برباطة جأش منقطعة النظير. كثيرًا ما ردد، بنبرة متفاخرة، أن القراءة حمته من الجنون الذي وقع فيه أربعة من أصدقائه يحلو له إيراد الاسم الثلاثي لكل منهم، وسرد تفاصيل عن حياتهم، والطرق التي انتهت بهم إلى الجنون.

سيطرت عليه شخصية المثقف المُتحمِّس الذي لديه تأمُّلات خاصة سابرة للأعماق، والمندهش بكل ما يظنه عميقًا وجوهريًا. وكثيرًا ما كان يضبط نفسه وقد بالغ في الاندهاش بشيء سطحي وخال من المعنى. سيرًا على هذا الولع، كرَّس جهده لتقديم نفسه كصاحب نظرة ثاقبة قادرة على توصيف الأحداث، وتصنيف الأشخاص، عبر التَّفوُّه بجمل مكثَّفة ومقتضبة يَظُنَّها عميقة.

7

رزِح سمير تحت وطأة كابوس الجندي الذي ذبحه. لأيام، ظَلّ رهينة لصرخاته المُتَوَسِّلة، وحشرجاته الأخيرة التي انتهت بأنين ورفس للتراب؛ بعنق نصف مذبوح. نفخ بالونة القسوة في روحه كي يتغلَّب على أيّ مشاعر لتبكيت الضمير، ويحول دون تسلُّل الضعف إلى قلبه. واصل حماية نفسه من لحظات الضعف، عبر تأكيده الذاتي المستمر على هويته كـ"مُجاهِد" يعمل من أجل إعلاء كلمة الله ونصرة دينه. بذلك، نَمَّى شجرة العنف في روحه، وتابع مسيرته كـ"مُؤمن" لديه كلاشنكوف، وفي جيبه مصحف صغير. لكن قصته تؤكد، بين ما تؤكد، أن الإيمان يُقلق الإنسان ويُعذب روحه.

كان يريد تأكيد حضوره داخل جماعة من القتلة، لهذا قاوم الكابوس، وتعالى على التأنيب الأخلاقي. استحضر ما سمعه من قائد جماعته:

– هؤلاء الجنود روَافِض، ومُرتدّون، ومن قوى الكفر والطاغوت، لهذا يجب قتلهم. يجب قتلهم دون رحمة، لأنهم من الجيش المُتَحَوِّث، الموالي لجماعة الحوثي المجوسية.

شَعَرَ بنوعٍ من الاطمئنان؛ لكنه تذكَّر أن تسعة من الجنود، لا ينتمون إلى المناطق القَبَلِيّة والجغرافية التي تشترك مع جماعة الحوثي في انتماء مذهبي واحد؛ المناطق التي اعتاد رفاقه وصف المتشددين دينياً من أهلها بـ"الرَّوَافِض"؛ على ذمة خلاف عمره أكثر من **1400** سنة: رفضهم خِلافة أبي بكر وعمر وعثمان للنبي مُحَمَّد، وقولهم إن ابن عمه، علي ابن أبي طالب، كان أحق بالخلافة.

في اليوم الخامس للجريمة، التقى سمير بقائد جماعته. وبعد أن طلب الاختلاء به، قال له، وهو يحني رأسه، ويخفض عينيه بتصاغر:

– أيها الأمير، انتبهت إلى أن أغلب الجنود، الذين تم إعدامهم، ليسوا رَوَافِض؛ فتسعة منهم ينتمون إلى مناطق أهل السُّنَّة، والبقية من مناطق الرَّوَافِض، ومع ذلك قلنا إن جميعهم رَوَافِض..

أرعد "بن صالح" غاضبًا:

– الرَّافِضة عقيدة وليست انتماء لمنطقة جغرافية. صحيح أن تسعة من الجنود ينتمون إلى مناطق أهل السُّنَّة؛ لكنهم رَوَافِض. هم رَوَافِض لأنهم قَبِلوا البقاء في الجيش المُتَحَوِّث، وحاربوا الله ورسوله والمُجاهِدين من أهل السُّنَّة. وأنا حكمت حكم الله فيهم. ولا تنسَ، يا أبا الليث، أن جميع الجنود كُفَّار ومُرتدِّون عن دين الإسلام، وهذا بإجماع شيوخ الجِهاد وقادته في اليمن وجميع ديار الإسلام.

تلعثم سمير قبل أن يقول بشفتين مرتجفتين:

– ذاك هو الرأي، أيها الأمير.

أطلق "بن صالح" زفرة عميقة، ثم قال بصوت أجشّ:

– يا أبا الليث، لا تشغل نفسك بالخوض في هذه الأمور التي سبق أن فَصَلَ فيها أميرك، وأمراء الجِهاد وقادته. لا تشغل نفسك بأعمال الفكر، وأمور العقيدة. دع هذه الأمور للعلماء، وكبار المجاهِدين، الذين لهم وحدهم حق البت فيها. وإياك والجدل، فإنه من فعل الشيطان، وسيُضِلَّك عن دين الله وطريق الحق والجِهاد.

– أيها الأمير، إنما طرحت عليكم الموضوع كي أستفيد منكم، ولتكون لي حجة للرَدَّ على أعداء الله الذين يشكِّكون في الجِهاد وأعمال المُجاهِدين.

– بارك الله فيك يا أبا الليث. إذا كانت أسئلتك بهدف الاستفادة للرَدَّ على المتخرِّصين فلا مانع لدينا، ولك، في هذه الحالة، أن تسأل ما شئت؛ لكن إياك إياك والتورَّط في الجدل والتشكيك في أعمال وعقائد المُجاهِدين.

– معاذ الله، أيها الأمير، أن أتورَّط في أمور كهذه. لقد نذرت نفسي للجِهاد في سبيل الله، ونصرة دينه، والموت في سبيله لإعلاء كلمته، وسأبقى كذلك حتى ألقى ربي.

– اسمع يا أبا الليث، نعرف جميعًا أن هؤلاء الجنود ينتمون إلى لواء عسكري حارب الله ورسوله والمُجاهِدين، ووالى الطاغوت والكُفَّار، وكان ضمن القوات التي تحالفت مع الحوثيين الرَّوَافِض، وسهّلت سيطرتهم على صنعاء، وعدد من المناطق والمحافظات. والله لو أن هؤلاء الجنود لم يفعلوا إلا ذلك فقط لوجب قتالهم وقتلهم أينما وُجِدوا. يقول الله تعالى: "واقتلوهم حيث ثقفتموهم". ونحن نفَّذنا ما أمرنا به الله تعالى. هؤلاء الجنود بدَّلوا دينهم، وارتدّوا عن دين الله الإسلام، والله سبحانه وتعالى يقول في محكم كتابه: "ومن يبتغِ غير الإسلام دينًا فلن يقبل منه"!

– جزاك الله عنا خيرًا، أيها الأمير. إني والله لا أضع كلامك موضع نقاش أو شك أو ريبة، فأنت أميرنا، ولك في أعناقنا بيعة بايعناك فيها على السمع والطاعة في المنشط والمكره، في العسر واليسر، وعلى الجِهاد في سبيل الله، والدفاع عن دينه، ونصرته بأنفسنا وأرواحنا وأهالينا، وكل ما نملك.

نظر إليه قائد الجماعة بعين الرضا، وباركه بكلمات صادقة:

– بارك الله فيك. قد هداك الله إلى الطريق القويم، ووفقك إلى المضي في طريق الجِهاد، وقد أبليت بلاءً حسنًا، فاثبُت على دِينك، ولا تدع للجدال مجالًا إلى قلبك وعقلك، لأنه سيفتنك عن دِينك.

– سمعًا وطاعة، أيها الأمير.

قال سمير ذلك، ثم صَمَتَ. تسمَّر واقفًا في مكانه، محنيَّ الرأس، فيما خاطبه "بن صالح" بنبرة ودودة:

– اسمع يا أبا الليث، لقد قرَّرت أن أُقرِّبك مني، وأعتمد عليك في أمر مهم وضروري للجِهاد في سبيل الله، وإني أتَمَنَّى لك التوفيق في هذا الأمر، وأسأل الله أن يوفقك لما فيه نصرة دينه والجِهاد في سبيله.

– هذا شرف لي، أيها الأمير، وإن شاء الله ستجدني رهن إشارتك وطوعِ بنانك، فمرني بما تريد.

– أنت تعرف أني لم أعد قادرًا على الاختلاط المستمر والدائم بالمُجاهِدين، لهذا أريدك أن تكون عيني التي أرى بها، وأذني التي أسمع بها. لقد مَنَّ الله علينا بتوسُّع أعمال الجِهاد، وبازدياد عدد المُجاهِدين، حيث أصبحوا بالمئات، وهذا يقتضي منا الحذر والتمحيص، كي لا نتعرَّض للاختراقات من قبل قوى الطاغوت والكفر. لهذا أريدك أن تفتح، منذ الساعة، عينيك وأذنيك لمعرفة ما يدور ويجري في أوساط إخواننا المُجاهِدين، وإبلاغي بكل ذلك، أولًا بأول.

– سمعًا وطاعة، أيها الأمير.

– أريدك أن تجمع معلومات عن كل الموجودين معنا في المُخيَّم، وكل الملتحقين الجدد بنا. وإياك أن يعرف أحد بما كَلَّفتك به، فإني أُكَلِّفَكَ بهذا الأمر دون بقية المُجاهِدين، ودون معرفة صاحب شرطتنا.

– سمعًا وطاعة، أيها الأمير. لن تجدني، إن شاء الله، إلاَّ كما تُحِبُّ وترضى.

انفرجت أسارير "بن صالح"، وأخرج من جيبه ثلاثين ألف ريال مَدَّها لسمير، وهو يقول له:

– خُذ هذا المبلغ استعمله في قضاء حوائجك، وسأوجه صاحب بيت مال المسلمين بأن يصرف لك أربعين ألفًا شهريًا.

– حفظك الله، أيها الأمير. لا أحتاج شيئًا وأنا بالقرب منك، وكل ما يُهمّني هو الجِهاد في سبيل الله، ورضاه ورضاك عني، فأنت أميرنا وولي أمرنا.

– خذ هذا المبلغ فهو جزء بسيط من الغنيمة التي مَنَّ بها الله علينا من الجنود الرَّوَافِض الذين قتلناهم تنفيذًا لحكم الله فيهم. لقد عثرنا مع أحدهم على مبلغ لا بأس به أخذناه غنيمة، وقد عَهِدتُ به إلى صاحب بيت مال المسلمين، وكلَّفته بإرسال الجزء الأكبر منه إلى أُسر عدد من إخواننا الشهداء.

تناول سمير المبلغ ودَسَّه في جيبه، وهو يقول، بنبرة متصاغرة:

– بارك الله فيك، أيها الأمير، إذ تَرعى المُجاهِدين في حياتهم، وتَرعى أُسرهم بعد استشهادهم. والله إن الله لن يضيِّعنا وأنت قائدنا.

انصرف سمير، وهو في غاية السرور، ومن فوره بدأ مباشرة مهامه كـ"مُخبر سِرّيّ". وبعد ثلاثة أيام كان قد تقمَّص روح "المُخبِر"؛ إذ صار يهتم بكل شيء، ويتابع كل شيء. تخلَّى عن انطوائه، وبدأ يخالط مسلَّحي الجماعة، ويفتح عينيه وأذنيه لمعرفة ما يدور بينهم. وبشكل شبه يومي، كان يتَّجه إلى "الأمير"، ويسرد عليه كل ما سمعه ورآه، كل ما توصَّل إليه، أو ما توهَّمه، أو ما يخدم هواه. بالتدريج، تَقَوَّت علاقته بقائد الجماعة، وأصبح مقربًا منه.

في غمرة نشوته تلك، استحضر صوت وصورة الجندي الذي ذبحه، فعاد إلى التفكير فى الجريمة، وفى الجنود التسعة الذين ينتمون إلى المناطق السُنِّيّة. ضبط نفسه وقد تورَّط في حوار ذاتي بشأن ذلك. فتح عينيه وأغمضهما، وهمهم يؤكد أن عليه تجنُّب هذا الأمر، باعتباره "وسواسًا شيطانيًا" سيُضلَّهُ "عن دين الله وطريق الحق والجِهاد". أحسَّ بالوجل من عودته للتفكير في الأمر، وتذكَّر أن "الأمير" حذِّره من ذلك. قرَّر طرد "الوسواس الشيطاني" من رأسه، وعدم السماح له بالعودة لإغوائه. استعاد صوت قائد الجماعة وهو يقول له:

– هؤلاء الجنود كُفَّار ومُرتدِّون ورَوَافِض حاربوا الله ورسوله، والمُجاهِدين.

أشرق وجهه بابتسامة مطمئنة؛ إذ توهَّم أنه عثر على حيثية حاسمة تطرد "الوسواس" من رأسه، وتسدّ أيّ منفذ للتراخي والضعف قد يتسرَّب إلى نفسه عبر الشعور بالذنب. لاحت ابتسامة أعرض على محيّاه؛ إذ ظَنَّ أنه انتصر على الشيطان ووسواسه. لكن قبل أن تمضي سعادته تلك إلى النهاية، همس له صوت داخلي:

– صحيح أن جنود اللواء الثاني مشاة جبلي قاتلوا المُجاهِدين، وحاربوا الله ورسوله، ونصروا الطاغوت، ووالوا الكُفَّار؛ لكنهم ليسوا رَوَافِض، ولم يُقاتلوا في صف جماعة الحوثي، حتى إنهم لم يكونوا في صنعاء عندما اقتحمها الحوثيون.

فتح عينيه على اتساعهما، كمن ضبط نفسه متورِّطًا في أمر عواقبه وخيمة. لهج لسانه بذكر الله، استغفارًا وتسبيحًا، والدعاء طلبًا لتجنُّب "الوسواس الشيطاني"، و"الجدل البيزنطي"، الذي سبق لـ"الأمير" أن حذَّره، وبقية "المُجاهِدين"، من التورُّط فيه حتى مع أنفسهم.

أكد لنفسه أن عليه تنفيذ أوامر "الأمير"، دون وضعها، هي وأعمال "المُجاهِدين"، موضع بحث ونقاش. غمغم، مُشدِّدًا على ضرورة الالتزام بذلك؛ إلاَّ أن صوته الداخلي ألحّ عليه:

– أغلب الجنود القتلى ليسوا حوثيين، ولا رَوَافِض!

فتح عينيه وأغمضهما، كمن يريد التوقُّف عن ارتكاب خطأ كبير. تذكَّر ما قاله "الأمير":

– نحن ملزمون بقتل كل جندي نظفر به؛ لأن الجنود يحاربون الله ورسوله.

ابتلع ريقه، وحدَّث نفسه قائلًا:

– هؤلاء الجنود كلاب، يستحقون ما حدث لهم، سواءً كانوا رَوَافِض، أو من أهل السُّنَّة؛ يكفي أنهم حاربوا الله ورسوله.

حاول قراءة ما تيسر من القرآن الكريم؛ بحثًا عن الطمأنينة واليقين؛ لكنه اكتشف أنه لا يحفظ من القرآن إلاَّ "الفاتحة"، و"المعوذتين"، وثلاثًا أو أربعًا من قصار السُّور لم يمنحنه ما يبحث عنه. تنبَّه إلى أنه سيصبح مقربًا من "الأمير"، وأن ذلك يفرض عليه أن يحفظ أكبر قدر من القرآن، لاسيما من السُّور الكبيرة؛ إذ يُعدّ ذلك طريقًا سهلًا للترقي داخل الجماعة. قرَّر أن يبدأ عملية الحفظ من فوره؛ بيد أنه لم يكن مهيأ لذلك. نام وقد ألزم نفسه بالبدء من الغد في حفظ القرآن.

8

يعيش سمير، وخمسة من مسلحي جماعته، في غرفة صغيرة غير مكتملة البناء، داخل "مُخيَّم الإيمان والهجرة". الغرفة مبنية بشكل غير جيد، ولها نافذة واحدة، وسقف منخفض تمت تغطيته بخشب وألواح وضعت عليها كمية مناسبة من التراب.

لديه فرش وبطانية رخيصا الثمن صُرِفَا له، قبل ثلاثة أعوام، حين وصلت المُخيَّم شاحنة متوسطة عليها فرش وبطانيات قِيل إن أحد التجار تبرَّع بها لِـ"المُجاهِدين". اثنان من رفاقه في الغرفة حصلا معه على نصيبهما من تلك الكمية، فيما الثلاثة الآخرون حصلوا على نصيبهم من كمية أخرى تبرَّع بها، تاليًا، سياسي نافذ، وأوصلت على متن شاحنتين إلى المُخيَّم، الذي استُحدث، منذ اثني عشر عامًا، كملاذ يختبئ فيه المُتطرِّفون، ثم صار أهم مراكز تجمعاتهم الرئيسية في اليمن. ورغم ارتباط المُخيَّم بالقيادة الموحدة للإرهابيين في البلاد، فإنه يتمتَّع باستقلالية تامة باعتباره معسكرًا خاصًا بجماعة "بن صالح".

في أحد المساءات المظلمة، أصيب سمير بأرق مفاجئ. لربع ساعة، ظَلّ يتقلَّب في فراش نومه دون فائدة. بعد أن تعب من البحث عن النوم، غادر فراشه، الواقع في الزاوية المقابلة للباب الخشبي الخفيف وغير المحكم للغرفة. كانت العاشرة مساءً، وكان الظلام والصمت يلفان المُخيَّم، الذي يتمركز مسلَّحون على مدخله الرئيسي، وأطرافه، وفي نوبات حراسة تقع على بعد مسافة منه. وقف "المُخبِر السِّرِّيّ" خارج الغرفة، وتطلَّع نحو سكن "الأمير"، الذي يقع على مرتفع يُطِلّ على المُخيَّم من الجهة الشرقية الجنوبية. مع زوجاته الثلاث، يُقِيم قائد الجماعة في هذا السكن، المكوَّن من ثلاث غرف ملحقة بمطبخ وحمامين داخليين. كان هذا السكن عبارة عن غرفة مُلحقة بحمام ومطبخ؛ لكنه توسَّع، تدريجيًا، تلبية لرغبات "بن صالح" في الزَّواج. بدأ العيش فيه مع زوجته الأولى، وعندما قُتِلَ أحد رفاقه، تزوَّج زوجته، وبنى لها غرفة مُلاصقة لغرفة سكنه. بعد أشهر، بنى غرفة ثانية وحَمَّام؛ إذ قُتِلَ أحد مسلَّحيه فقرَّر الزَّواج بأرملته.

يستند سكن "بن صالح" على جبل صغير متوسط الانحدار في أعلاه نوبات حراسة. في المساء، يتمركز أسفل المنحدر مسلَّحان يمنعان الصعود إليه، باستثناء من يطلبهم قائد الجماعة، أو المقرَّبين منه. أمام السكن، تنبسط باحة ترابية تنتهي بزاوية منعزلة خصصها الرَّجُل لعقد لقاءاته المنفردة مع زواره، ومن يعتمد عليهم في قيادة مسلَّحيه. إلى اليمين، تمتدّ الباحة نحو عشرة أمتار، مُطِلَّة على المنحدر والمُخيِّم. ينتهي هذا الامتداد بتلك الزاوية المنعزلة، التي فرشت بحصيرتين قديمتين من السعف، يجلس قائد الجماعة على إحداهما، فيما يجلس زواره على الثانية، أمامه مباشرة. تبعد هذه الزاوية مسافة معقولة عن السكن، وتوفِّر لصاحبه إطلالة عامة على مجتمعه الجِهادي، وخلوة جيدة لمناقشة قضاياه بعيدًا عن مسلَّحيه وأهل بيته.

يتَّخذ "بن صالح" من المسجد مكانًا للالتقاء بمسلَّحيه، وإلقاء الخُطَبِ والمحاضرات عليهم. أما التخطيط لأنشطة وهجمات مقاتليه فيتم على نطاق ضيق، في أماكن أخرى، أهمها تلك الزاوية شبه المنعزلة الواقعة أمام سكنه. في الثامنة مساءً، ينهي لقاءاته المفتوحة مع أفراد جماعته في المسجد، ثم يُغادر قاطعًا نحو أربعمائة متر إلى سكنه. هناك، في الزاوية المنعزلة، يقضي من ساعة إلى ساعتين مجتمعًا بقادة مسلَّحيه. وحين يَدخُل مسكنه لا يُطرَق عليه بابه إلاَّ للضرورة القصوى.

حال الظلام دون ظهور ملامح ما كان ينظر إليه سمير. مع ذلك، ظَلّ يحدِّق، بذات متطَلِّعة، نحو المكان المرتفع، وروحه تهفو إلى اللحظة التي سيصبح فيها من زواره الليليين. لعله أراد التأكد من وضعه الجديد، كـ"مُخبر سِرّيّ". كان قد باشر عمله في خدمة قائده؛ لكنه يأمل أن يصبح مقربًا منه.

جال "المُخبِر" بنظره في أرجاء المُخيَّم، على أمل أن يرى ما يستحق إبلاغ قائده به في الغد. على مسافة بسيطة، شاهد ملامح العنبرين الطويلان اللذين يمتدان أسفل جبل صغير، يبدأ من يمين مدخل المُخيَّم غربًا، ويمتدّ نحو الجنوب، حيث توجد، في نهايته، نوبات حراسة ومتارس قتالية. الواجهة الخلفية للجبل صخرية شبه منتصبة؛ لكن جهته الداخلية تنحدر بانسياب متدرِّج أقيم أسفله العنبران الطوليان، اللذان يتجاوز طول الواحد منهما سبعين مترًا، بعرض خمسة عشر مترًا. في هذين العنبرين، ينام عشرات من مسلَّحي الجماعة، على فُرُشٍ مُتجاورة.

زاد الليل من الوحشة التي تحيط بالمُخيَّم. ظلام بهيم لفَّ المكان بالسكون. هبَّت نسمات عليلة غيَّرت المزاج الكئيب لسمير. تنشَّق بشكل جيد، وتقدَّم ثلاث خطوات إلى الأمام، وهو يتلَّفت حوله بحذر. شاهد أجزاء من الغرف الخمس المُجاورة للغرفة التي يسكنها. تقع هذه الغرف على مرتفع

بسيط، على يمين العنبرين المسكونين من قبل العدد الأكبر من المسلَّحين الشباب، أو الذين يعيشون هنا دون زوجاتهم. رغم أن هذين العنبرين يقعان في المُخيَّم، بيد أنهما في حالة عُزلة عنه؛ إذ ليس بإمكان ساكنيهما مشاهدة الجزء الآخر منه المخصص لـ"قسم العائلات". هذا العزل مفروض، بالضرورة، على الغرف الست التي يسكن سمير إحداها. كما أنه مفروض على ثلاثة عنابر طويلة أخرى تتوزع في المساحة الواقعة أسفل هذه الغرف والعنبرين.

شاهد "المُخبِر السِرّيّ" المطبخ، الواقع على بعد نحو عشرين مترًا إلى يسار العنبرين الرئيسيين. مرَّر نظره إلى اليمين، فتبيَّن مُقدِّمة المسجد الواقع وسط المُخيَّم، منحازًا إلى الشمال الغربي، وخلفه توجد مساحة واسعة غير مستوية تحوطها تلال جبلية صغيرة. لقد بُنِيَ المسجد وحوله أُقيم المُخيَّم؛ تمامًا كما كانت تُبنى المدن الإسلامية قديمًا.

وسط المُخيَّم، تمتدّ تلَّة طولية تفصل عنابر وغرف "المُجاهِدين الشباب" عن "قسم العائلات"، الذي يبدأ من خلف المسجد، وينتهي بالمنحدرات التي تحيط المُخيَّم من جهة الشرق؛ حيث تم بناء سلسلة غرف مخصصة للعائلات. ما بين هذه الغرف والتلَّة الطويلة، تمتد الساحة الرئيسية للمُخيَّم، ووسطها بُنِيت غرف مُتلاصقة ومرصوصة طوليًا، ضمن "قسم العائلات".

بسبب الظلام، والتلَّة المُمتدّة في الوسط، لم يتمكن سمير من رؤية "قسم العائلات"، الذي توجد فيه غرف أخرى بُنِيت مُتلاصقة نحو الجنوب الشرقي. على مُنحدر هذه الجهة، توجد غرفة المولد الكهربائي المتوسط الحجم، الذي يعمل قرابة ساعتين فقط في اليوم؛ بدءًا من آذان المغرب. تلك هي المدة الزمنية للتيار الكهربائي في المُخيَّم، الذي لا يوجد فيه إلا تلفزيون واحد، مع جهاز لاقط للقنوات الفضائية؛ داخل سكن "بن صالح".

في هذا المجتمع الجِهادي، هناك أربعة أجهزة راديو، تُستخدم لمتابعة الأخبار. وكان تصفُّح الإنترنت مسموحًا به لأربعة أشخاص فقط، هم المسؤلون عن القسم الإعلامي للجماعة، ولديهم موبايلات ولابتوبات حديثة. مع الوقت ازداد عدد المسموح لهم بتصفُّح الإنترنت؛ صاروا تسعة، لدى أغلبهم خبرة ممتازة في التعامل مع شبكة المعلومات ومواقع التواصل الاجتماعي. المسئول الأول على هؤلاء يتولَّى، عبر إيميلات بأسماء مستعارة، إدارة المراسلات الإلكترونية بين قائد الجماعة وجِهاديين آخرين في اليمن وخارجها.

يقع المُخيَّم في منطقة نائية تفصل شبوة عن محافظة أبين الجنوبية المجاورة لها. إثر إعدام الجنود السبعة عشر، قطع "بن صالح"، ومسلَّحوه، على سيارات ذات دفع رباعي، ثلاث ساعات في طرق ترابية وعرة، حتى وصلوا إليه. أُطلق عليه اسم "مُخيَّم الإيمان والهجرة" منذ تأسيسه على يد عشرات الجِهادِيين، ومازال كذلك اليوم وقد تجاوز عدد المقيمين فيه ستمائة مسلح جِهادِي؛ يعيش نحو سبعين منهم مع زوجاتهم في "قسم العائلات"، داخل الغرف الصغيرة الملحق بكل منها حمام ومطبخ.

بعد أن يئس من التقاط شيء، عاد سمير إلى فراشه. ظَلّ يتقلَّب بحثًا عن النوم، فيما كان شركاؤه في الغرفة يَغُطون في نوم عميق، واثنان منهم يصدران شخيرًا مرتفعًا. فكَّر أن بإمكانه أن ينام إذا مارس هوايته القديمة: العادة السِرّية. حاول استثارة نفسه جنسيًا. لم يستحضر زوجته، التي يهرب من تذكُّرها، منذ فرَّ منها، ومن أمه وشقيقاته الثلاث. "حُور العين" لا ينفعن في مثل هذه المواقف، وقد أعيته ممارسة العادة السِرّية على نساء افتراضيات لا وجود لهن في حياته الواقعية.

منذ ثلاث سنوات، وهو مشغول بِحُلم يقظة طويل: ممارسة الجنس مع "مُجاهِدة"! حين يُفكِّر في "المُجاهِدات" و"قسم العائلات"، تتصاعد لديه رغبة شبقية جامحة، ويجد نفسه في خضم استثارة جنسية غير مسبوقة. أكثر من مرة، نبَّهه صوت داخلي إلى أن "الدِّين يُحَرِّم عليه التفكير الشهواني بنساء إخوانه المُجاهِدين". وفي كل مرة كان يُجبر نفسه على التوقُّف عن ذلك التفكير؛ لكن سريعًا ما كان يعود إليه. ولتبرير الخطأ، منح "التفكير الشهواني" اسمًا جديدًا، هو "الترويح عن النَّفس"، وانغمس فيه بحُجَّة ألا مشكلة في أن يُسَرِّي "المُجاهِد" عن نفسه عبر استخدام الهيكل الشبحي لزوجة أحد إخوانه "المُجاهِدين". ولإزالة أيّ شعور بالذنب، كان يقول لذاته إنه "يجوز للمُجاهِدين ما لا يجوز لغيرهم".

زوجته مريم مُثِيرة وجامحة؛ غير أنه يتجنَّب التفكير فيها، ولا يريد حتى تَخَيُّلها؛ لأنها تُذَكِّره بكل جروحه ومهاناته. وإلى هذا، فهي لم تعد تستثيره جنسيًا، بل تُفَجِّر فيه نوازع الغضب، ورغبات الثأر والانتقام. وفي عامه الأخير معها، كانت لا تستطيع إثارته إلاَّ بعد أن تحكي له ممارساتها الجنسية مع الآخرين. كانت ترتدي له ملابس أنيقة ومغرية، وأثواب نوم عارية، فلا تجد استجابة منه. لجأت إلى إغرائه عبر التَّعَرِّي المتدرِّج لجسمها المكتنز والمُغوِي؛ فلم تجد استجابة. ثم انتبهت إلى أنه كان يُمارس معها الجنس بعد أن يطلب منها، بإصرار، أن تحكي له، بالتفصيل، ممارساتها الجنسية مع طالبي المُتعة. مذاك، تخلَّت عن السلاح التقليدي في الإغراء، ولجأت إلى أسلوب الحكي الأكثر فاعلية لديه.

تَتَمَتَّع مريم بجمال صارخ، ولديها جسم مثالي للإثارة. عيناها العسليتان شديدتا الاتساع أضفتا جاذبية على وجهها الطويل ذي الملامح الشبقية. كان فيها كل ما يُفجِّر الرغبة الجنسية لدى الرَّجُل؛ لكن سمير كان

يعيش بروحٍ كسيرة ورغبات ميِّتة. عملها في الدعارة جعله يكرهها حَدّ المقت. ودون قصد، واجه انحرافها ذاك بانحراف مضاد، تمثَّل في خلق مقومات أخرى للإثارة فيها. لم يكن الأمر مجرَّد احتجاج غير واعٍ، أو نهوض شاذ للرغبات المكبوتة، بل انعكاسًا مباشرًا لحجم التدمير الذي تعرَّض له جرَّاء حياة الإهانة والإذلال التي اكتوى بنارها.

مازال يتذكَّر الوجه الجميل لزوجته، وتفاصيل جسدها الفاتن؛ بيد أن ذلك لا يثيره، ولا يخلق فيه أيّة رغبة جنسية، بل يذكِّره بكل ما هو حقير ووضيع فيه، ويستنهض الحقد الكامن فيه على المجتمع وعلى أُسرته. يتحاشى حتى مجرَّد التفكير فيها؛ لأنها تُذَكِّره بكل مذلاته، وبماضيه الذي هرب منه، ومازال يحاول نسيانه. منذ سبع سنوات، لم يشعر بأيّة رغبة جنسية تجاهها، ومازال يهرب حتى من مرورها العابر كمجرَّد طيف في ذهنه.

عاش العامين التاليين لفراره من منزل أُسرته وهو دون رغبة جنسية. مطلع العام الثالث، انبعثت شهوته مجددًا. كانت ليلة مظلمة حين فوجئ بانتصاب قضيبه. تحسَّسه بسعادة بالغة، وفكَّر فى ممارسة العادة السِرّية. تذكَّر مريم، فذوى قضيبه المنتصب. وبدلًا من إفراغ شهوته، أخذ يندُب حظه، ويلعن زوجته وأمه وشقيقاته الثلاث. بعد ذلك بعام، انبعثت شهوته مجددًا، حين لمح، من بعيد، إحدى "المُجاهِدات" تتَّشِح السواد، داخل "قسم العائلات"، في المُخيَّم. تَقَلَّب في مرقده، تلك الليلة، ويده على قضيبه، وهو يُفكِّر فى تلك المرأة، التي لم يرَ شيئًا من ملامحها، بسبب ارتدائها للجلباب الإسلامي. حين استنفد رغبته في مداعبة قضيبه، اتَّجه إلى الحمّام، حيث مارس العادة السِرّية، وعاد للنوم وهو بذهن صافٍ، وروحٍ منتعشة. مذاك، غرق في التفكير فى "مُجاهِدات" متخيَّلات، واعتاد استخدامهن كأدوات إثارة وإغراء

لممارسة العادة السِرّية. ومع الوقت، تأكد أن استثارته الجنسية تكون عالية حين يُفكِّر فى مداعبة إحداهن؛ رغم أنه لم يسبق أن رأى وجه أيٍّ منهن.

طوال مسيرته "الجِهادِية"، لم يحظ سوى بمشاهدة تسع "مُجاهِدات"، وكُنَّ يرتدين "الجلباب الإسلامي"، الذي يخفي كل تفاصيل أجسادهن، بما في ذلك عيونهن اللواتي يحبسنها خلف "اللِّثْمَة" أو ما يُسمى "الحجاب الشرعي". أولاء النسوة التسع هن زوجات بعض رفاقه "المُجاهِدين"، ويقمن معهم في "قسم العائلات" داخل المُخيَّم.

قبل يومين، شاهد "المُجاهِدة" العاشرة، وهي زوجة "أبي البراء"، مسئول تجهيز السيارات المُفخخة. وللدقة، فهو لم يُشاهدها، بل شاهد هيئتها الشبحيّة المُتَّشِحة بجلباب أسود. يومها، أمره "بن صالح" بالذهاب إلى "قسم العائلات" لاستدعاء "أبي البراء". و"قسم العائلات" يُثير سمير جنسيًا، لمجرَّد التفكير فيه، أو تَخَيُّل وجود نساء يتحرَّكن خلف جدران غرفه المتواضعة البناء. كان جانب من تلك الإثارة المُغوِّية، التي تملَّكته حدَّ الهوس، عائدًا إلى التسمية التي تطلق على النساء اللواتي يسكن هذا القسم: "المُجاهِدات". هناك من كان يطلق عليهن اسم "زوجات المُجاهِدين". هذه التسمية لم ترق أبدًا لسمير؛ ربما لأنها تنزع أنوثة "المُجاهِدات" وتستبدلها بهوية ذكورية. ثم إنه يحلم بممارسة الجنس مع "مُجاهِدة"، لا مع "زوجة أحد المُجاهِدين".

شَعَرَ بسعادة كبيرة وهو في طريقه إلى "قسم العائلات"، فلطالما تمنَّى دخوله. سار فيه برويِّة، وعينين باحثتين عن أشباح "المُجاهِدات". وفيما هو يوزِّع نظراته الفاحِصة يمنة ويسرة، شاهد امرأة تنشر الغسيل أمام سكن "أبي البراء"؛ وهي مُكلَّلة بالجلباب الأسود، على الطريقة الإسلامية المتشدِّدة. توقَّع أن تكون المرأة زوجة الرَّجُل الذي جاء في طلبه. وكي يقترب منها أكثر تعمَّد أن تكون خطواته هامسة على الأرض. وحين وَجَدَ أنه اقترب منها بما

يكفي، اضطر أن يقول، بصوت مرتفع: "الله.. الله"؛ إذ اعتاد اليمنيون قول ذلك بأصوات مرتفعة، عند دخولهم منازل الآخرين، أو الاقتراب منها، بهدف الإعلان عن وجودهم؛ تنبيهًا للنساء، ودعوتهن للتواري.

فوجئت المرأة المرتدية الجلباب بالقادم الغريب وقد صار قريبًا منها، فعادت سريعًا إلى داخل سكنها. ألصقت أذنها اليسرى خلف الباب، لتسمع ما سيقوله "الأخ المُجاهِد"، الذي اقترب أكثر، وبدأ ينادي باسم "أبي البراء". أيقظت زوجها النائم. نهض الزُّوج وفتح النافذة الوحيدة في غرفة سكنه، لمعرفة القادم. تعرَّف على "أبي الليث"، وما جاء من أجله، وأبلغه أنه سيلحق به فورًا إلى "الأمير".

حال "الجلباب" دون ظهور أيّ من تفاصيل جسد زوجة "أبي البراء"، ولا حتى عينيها. كل ما استطاع سمير الخروج به هو أنها طويلة، وجسمها ممتلئ مائل إلى السمنة؛ كجسم زوجها. كان "الجلباب" ينسدل من على رأسها حتى أسفل فخذيها. لم يظهر منها شيء كي يُغرِي؛ بيد أن حاجة سمير إلى محفزات جنسية جعلته يُنقِّب في الحالة الشبحيّة التي ظهرت بها. كان عليه استخدام هوسه الشخصي بالحضور غير المُدرك لـ"المُجاهِدات" وسكنهن. لم يبذل جهدًا وهو يخلق روحًا وجسدًا متخيَّلًا لزوجة "أبي البراء"؛ رغم أنه لا يعرف وجهها، أو أيًا من تفاصيل جسدها. صنع لها وجهًا مُفترضًا، وشفتين مُفترضتين. صنع لها مُؤَخِّرة وأردافًا ونهدين لائقين بجسدها الممتلئ؛ محاولًا التغلُّب على سمنتها بخلق طول موازٍ لها. كانت الفكرة فاعلة ومثمرة، وكان يلاعب قضيبه وهو مسترخٍ على فراشه. عندما انتهى من ممارسة العادة السِرّية، قال: "أستغفر الله وأتوب إليه"، ثم غَطَّ في نوم عميق، وملابسه الداخلية مُبتلّة بسائله المنوي.

بعد سبع ساعات، أيقظه المسلَّح الذي ينام جواره، لأداء صلاة الفجر. انتظر دقيقتين أمام حمّامات مسجد المُخيَّم، ثم دخل أحدها. خرج من

الحمّام وهو مُبتلٌ، ويرتدي الملابس التي نام بها، بما فيها ملابسه الداخلية، التي أنعش الماء سائله المنوي، الذي كان قد جفَّ عليها. عند دخوله المسجد، شاهد "أبا البراء"، بلِحيته الكَثَّة، ووجهه المتجهِّم. وأثناء الصلاة، تذكَّر زوجته بالمواصفات الجنسية التي صنعها لها.

اصطف الجميع للصلاة، فوَجَدَ سمير نفسه مازال غارقًا في تخيُّل "المُجاهِدة" التي استخدمها، قبل ساعات، لممارسة العادة السِرِّية. حاول أن يطرد "الوسواس" من رأسه. أغمض عينيه، وأبدى قدرًا كبيرًا من الخشوع. وضع كَفّيه على صدره، ورفعهما حتى قُرْب ذقنه. وتعبيرًا عن الروحانية المبجَّلة، باعد ما بين ساقيه حتى لامس بعض أطراف الشخصين الواقفين على يمينه ويساره. رسم على وجهه حالة غير مسبوقة من الخشوع، محاولًا الاستماع بتدبُّر للآيات القرآنية التي كان يقرؤها "بن صالح"، وهو يَؤُم مسلَّحيه في الصلاة.

كثيرًا ما كان القتلة يَتَمَتَّعون بحساسية جمالية وإيمانية مرهفة، حتى إن ممارسي التعذيب في معسكرات الاعتقال الخاصة بالنازية كانوا "يستمتعون بعزف رباعيات شوبرت الموسيقية".

9

توقَّعَ ناصر قاسم حدوث ردَّة فعل اجتماعية وشعبية ضد جريمة قتل الجنود، ومرتكبيها، ومن يقف خلفهم؛ إلاَّ أن ذلك لم يحدث؛ لهذا تضاعفت حالة السخط والإحباط لديه. بدلًا من إدانة الإرهاب واتخاذ موقف مجتمعي منه، اتَّجَهَ الموقف العام نحو نقاش دوافع الإرهابيين؛ بين مؤيِّد ومعارض، مُتفهم ومُندِّد! أطلق على ذلك اسم "السَّلبيَّة المجتمعية"، واعتبرها أكثر خطرًا من جرائم الإرهابيين. كان يقول إن تلك السَّلبيَّة تشير إلى أن المجتمع تعايش مع

توحُّش المتطرِّفين، واعتاد جرائمهم، رغم بشاعتها؛ لهذا تحوَّل ضحاياها إلى مُجرَّد قصص خبرية في وسائل الإعلام.

أكد مرارًا أن غياب الموقف الأخلاقي الاجتماعي من الجريمة أصابه بفزع أكبر من الفزع الذي أصابته به الجريمة ذاتها. صَبَّ لعناته على الشعب، ثم قرَّر دراسة "السَّلبيَّة المجتمعية" لمعرفة أسبابها. تاليًا، تقمَّص شخصية المثقف، وبدأ يتحدَّث بإسهاب عن تلك الحالة من السَّلبيَّة التي قال إنها ساعدت في تَفريخ الإرهابيين وتعاظم قوتهم، وجعلت المجتمع يعيش في المنطقة الرمادية؛ حيث يَغُطّ في سبات عميق لا تَهُزَّهُ الجرائم مهما كانت بشاعتها، ويعجز عن اتخاذ موقف أخلاقي جماعي تجاهها. وفي أحاديثه، كان يقول إنه توصَّل إلى أن تلك السَّلبيَّة "نتاج الأزمة الاجتماعية والأخلاقية العامة"، التي قال إنها تتغذَّى على ثقافة دينية راسخة مدعومة ببُنى تقليدية مازالت فاعليتها حاكمة لليمن كمجتمع و"دولة". وضمن استطراداته، كان يقول:

غياب الضمير الأخلاقي المجتمعي جعل الأحداث العامة تبدو منفصلة عن الحياة الشخصية لأفراد المجتمع. هذا هو ما جعل غالبية العرب يرزحون في ظلال معتمة، محمَّلين بعجز ذاتي ووطني عام، وإحباط مثقل بضمائر معطوبة ومتذبذبة تفتقد لبنية أخلاقية مُتماسكة وراسخة، وتُحرِّكها نوازع السَّلبيَّة واللامبالاة والحقد.

بعد قراءات عدة، خلصَ إلى أن "الثورات الشعبية القادمة ستعمل على تنمية وعي إنساني مشترك في المجتمعات العربية، وستدفعها نحو مغادرة حالة السَّلبيَّة التي تعيشها".

لأسبوعين متتابعين، انشغل بالحديث عن حالة "السَّلبيَّة المجتمعية" تجاه جرائم الإرهابيين. في إحدى جلساته مع أصدقائه، تحدَّث عن الأمر بتجلٍّ واستطراد مدهش، ما دفعه إلى التعبير عن اندهاشه بقدرة مخيِّلته على ما سمّاه

"التداعي والتدفُّق الفكري الخَلاَّق". كشف عن اندهاشه ذاك لصديقه طه نعمان، ذي البنية الجسدية الضخمة، والرأس الذي يشق الصَّلع وسطه. بقسوة، رَدَّ عليه الأخير:

– يُقال إن هناك شَعْرَة خفيفة بين العقل والجنون. ويُقال إن الإحباط المتولِّد عن البطالة والشعور بالفشل والضياع، قد يفضي بالمرء إلى الجنون، وقد يُغرِقه في أوهام تضخيم الذات وعبادتها. أنت يا ناصر ما تزال بعيدًا عن كل ذلك، فلا تدفع نفسك إليه دفعًا!

تَسَعَّر ناصر، واحتقن وجهه غضبًا؛ إذ لم يكن يتوقَّع سماع هذا اللَّمز من الصديق الأقرب إليه. كانت تلك هي المرة الأولى التي يَشعُر فيها بأنه يكرهه، لهذا أشاح بوجهه عنه مشمئزًا. كان يتَمَنَّى أن يجد لديه نوعًا من التقدير، لا تلك الفضاضة القاتلة. حاول التماسك، واستعادة السيطرة على نفسه. وإذ كظم غيظه، قال، بصوت حزين:

– يا طه، مش حلو تعرّض بي هكذا لأني عاطل عن العمل! وبعدين، يا أخي، أنا مش ضائع ولا فاشل، ولا مصاب بالذاتية وأوهامها. كلامك هو اللي يؤدي إلى الجنون. الله المستعان بس!!

شَعَرَ ذو البنية الجسدية الضخمة بالخجل، وقال، وهو يرسم ابتسامة ودودة على وجهه، محاولًا تلطيف الجو مع صديقه المُتَبَطِّل:

– والله ما كان قصدي أسيء لك أو أزعِّلك. خانني التعبير. أنا أخطأت، وأعتذر.

زاد ظلال الحزن واحتقان الدم في وجه ناصر، حتى إنه تجنَّب النظر إلى طه، ولم يرُدَّ على ابتسامته الودودة.

"صَمْت"

لناصر قلب طفولي شغوف لا يحمل الحقد، وسريعًا ما ينسى الخصومات. لهذا، كسر حالة الصمت، واندفع في الحديث بشهية لافِتة، وكأن شيئًا لم يكن. ولأنه من أولئك الأشخاص الذين يُصرُّون على أن تكون الكلمة الأخيرة لهم، فقد أراد أن يوضح لصديقه ما كان يقصده عندما أبدى اندهاشه بقدرة مُخيِّلته على "التداعي والتدفُّق الفكري الخَلاَّق". قال، بعد أن حَكّ عُنقه وأغمض عينيه وفتحهما ثلاث مرات وحَرَّك رقبته إلى اليسار واليمين، إنه استطاع، بعد قراءة وتفكير طويل، ملامسة الأزمة الاجتماعية والأخلاقية التي يعيشها المجتمع اليمني، وأثناء حديثه اليومي عنها تدفَّقت لديه أفكار بالغة العمق أَثْرَت وأغنت ما كان قد توصَّل إليه. أعاد حَكّ عُنقه وإغماض عينيه وتحريك رقبته، ثم أوضح:

– أثناء ما كُنت مُنهمكًا، خلال جلسة أمس، في الحديث، وجدتني أقول إن الأزمة الاجتماعية والأخلاقية لمجتمعنا هي أزمة هوية، وأزمة قيم، وأزمة معتقدات وتقاليد، تكوَّنت بسبب أمور عدة، أهمها تعايشنا الطويل مع الاستبداد والتخلف والجهل والانتكاسات والإخفاقات الفردية والوطنية العامة. يعني، كل ذلك أنتج سلبية اجتماعية عامة، وثقافة حاضنة للتَّطَرُّفُ، أو متفهِّمة له؛ ثقافة غذَّت نوازع الإرهاب واختلقت تبريرات له.

أراد طه أن يقول لصديقه ألا جديد فيما قال، وأن آخرين سبق أن قالوا هذا الكلام، وهو كلام لا يستدعي الاندهاش، أو الحديث عن مُخيِّلة فكرية جبَّارة.. أراد طه أن يقول ذلك، بيد أن "ناصر" أضاف، دون أن يسمح له بالحديث:

– يعني، كل ذلك كان نتاج عقود طويلة من الإحباط والفشل، وافتقاد المجتمع لمعايير أخلاقية وقيم وتقاليد راسخة ونماذج مُلهِمة.

قرَّر طه التراجع عن قول ملاحظته السابقة، وفَضَّلَ الصمت، والاكتفاء بهز رأسه؛ إذ أقنع نفسه بأن من اللياقة تجنُّب الفجاجة في الحديث مع الأصدقاء.

ولأن "ناصر" ليس من أولئك الأشخاص الذين يؤمنون بحق الآخرين في الحديث، فقد واصل كلامه بحماسة، كما لو أن مهمة صديقه تتمثَّل، فقط، في الاستماع له. أعاد حَكّ عُنقه وإغماض عينيه وتحريك رقبته، ثم أكد أن الفوضى القائمة في اليمن، والمنطقة العربية، مقترنة بحالة اجتماعية عامة من الالتباس، وعدم الفهم، وغياب اليقين، مشيرًا إلى أن ذلك أدى إلى توسُّع الشروخ، وغياب الوعي بما يجب عمله. أوضح:

– يعيش العرب في حالة من الفراغ المُبهم، دون تحوُّلات أو حراك اجتماعي؛ دون أُفق أو تطلُّعات؛ ضمن حالة متأصلة من مشاعر الفشل والإحباط وخيبة الأمل. لكن مرحلة التدمير والفوضى التي نعيشها اليوم ستؤدي، لا ريب، إلى تشكيل مجتمعات جديدة بمنظومة قيم وتقاليد أخلاقية عصرية ذات مضامين إنسانية.

كان طه يبتسم لصديقه المُتحمِّس بودّ، لكن مزاجه تغيَّر فجأة. اجتاحه الملل والتبرُّم بغتة، فكفَّ عن الإصغاء، وانشغل بالحديث مع صديق آخر. تباغت ناصر بتصرُّف صديقه. التزم الصمت، وتشاغل في تقطيف أغصان القات، بهدف إخفاء غيضه وغضبه. بعد ربع ساعة غادر المقيل، مبكِّرًا على غير عادته. غادر وهو يحسّ بالحزن ينهش قلبه وكبده.

10

فرَّ سمير من جحيمه الأُسري والمجتمعي؛ بيْد أن عذاباته لم تهدأ، وروحه لم تتوقَّف عن اللُّهاث. هرب من أُسرته، وما سبّبته له من شعور دائم بالخزي والعار. أراد أن يترك حياة الذُّل خلف ظهره، ويبدأ حياة جديدة. لكنه فَشِلَ في نسيان الماضي، أو التصالح معه. بدلًا من الخلاص، انفتح في وجهه جحيم أكبر.

ارتدى ملابس نظيفة، وتسلَّل كلص من منزل أُسرته في صنعاء. انسحب خِلسة، وفي جيبه ثمانون ألف ريال سَرِقَها من زوجته مريم. توجَّه إلى مدينة المكلا، حيث ظَلّ فترة يعمل في مطعم شعبي، دون أن يجري اتصالًا واحدًا مع زوجته، أو أمه، أو إحدى شقيقاته. سرعان ما تعب من اغترابه، ومهنته كغاسل صحون في المطعم. خَفَّفَ من ذلك التعب بالمواظبة على أداء الصلوات في مسجد قريب، تَعَرَّفَ فيه على شخص متديِّن يُدعى "الشيخ محمَّد".

بدأ الرَّجُل الهارب من ماضيه يتصرَّف كرجل "مؤمن": أطلق لِحيته، وارتدى الأثواب التقليدية القصيرة. توطَّدت علاقته بـ"الشيخ محمَّد". وبعد شهرين ترك العمل في المطعم، واتَّجه معه إلى منطقة نائية في محافظة مأرب.

كان في نهاية عامه السابع والعشرين، عندما وَصَلَ مأرب، وأدَّى "البيعة" لقائد التنظيم الجِهادي الأول في اليمن والجزيرة العربية. بدأ في تلقي دورات تدريبية على استخدام السلاح، وصناعة العبوات الناسفة، فيما عاد "الشيخ محمَّد" إلى المكلا، حيث مضى في استقطاب شُبان جُدُد، وإرسالهم إلى التنظيم الجِهادي المتخفِّي في مناطق نائية.

حَمَلَ سمير كلاشنكوف، وبدأ حياته كإرهابي. نبذ المجتمع، وشَرَعَ يتصرَّف باعتباره "مُجاهِدًا" نذر حياته لله والدفاع عن دينه. منح نفسه اسمًا جديدًا، وكُنية جِهادية ذات طابع فروسي مبالغ فيه. لم يعد "سمير نادية"، بل "أبو الليث سمير اليمني". ركَّز جُهده على إعادة تعريف علاقته بالمجتمع. ورغم أنه صار يُعرَّف بكُنيته، واسمه الجديد؛ إلا أنه بَقِيَ رازحًا تحت وطأة هويته الحقيقية. لقد فَشِلَت هويته الجديدة في منح الطمأنينة لروحه المعذَّبة، والهدوء لعقله المضطرم. ظَلّ رهينة لماضيه، وكل ما هرب منه. حياته الجديدة صارت بمثابة هروب مستمر من شبح حياته الماضية. ولأن الجماعات الدِّينية "الطُهرانية" ترفع من حِدَّة شعور المرء بالمذلَّة والخزي، فقد غدا سمير أكثر رعبًا من ماضيه. زاد لُهاثه، وما برح تاريخه الشخصي والأُسري يُلاحقه بلا هوادة، ودون توقُّف. ما أفزعه هو شعوره المتعاظم بحالة الانكشاف والخزي، وتصاعد مشاعر الضِّعة والدناءة لديه.

وفَّر له "مجتمع الإرهاب" ملاذًا، ومنحه إطارًا عامًا لهوية جديدة. لكنه لم يُخَلِّصه من هويته كابن لعاهرة، وزوج لعاهرة، وشقيق لثلاث عاهرات. لم يكن بإمكانه الهروب من ماضيه دون الاندفاع أكثر نحو التَّديُّن، الذي يؤبِّد عبودية المرء، ويمنحه نوعًا من التخدير يجعله يرضى بواقعه، وما هو عليه من بؤس وفاقة؛ باعتبار ذلك "قدرًا" لا يستطيع تغييره، وابتلاءً إلهيًا يُطَهِّره من الخطايا والذنوب. تقوم الأديان على فكرة رئيسية: الوعد بخلود مُنَعَّم في الحياة الأخرى. بذلك تُخَدِّر أتباعها؛ إذ تجعلهم يجدون الخلاص في حياة التقشُّف والزُّهد والورع، أملًا في الحصول على تعويض في الحياة الأخرى: الجنة السماوية الموعودة.

وَقَعَ سمير تحت ذلك التخدير، الذي خَفَّف من آلامه، ومكَّنه من إعادة تعريف نفسه ضمن مشروع ديني حوَّله من مجرَّد شخص تعمل أمه في

الدعارة، إلى صاحب رسالة. التحق بـ"مجتمع الإرهاب" بحثًا عن وضع اجتماعي جديد يستطيع فيه تحقيق ذاته، وفَرض نفسه على المجتمع؛ كشخص سوي، لا كابن لعاهرة تدعى نادية. وفَّر له الإرهاب هوية جديدة؛ بيد أنه لم يُخَلِّصه من ماضيه، وفَشِلَ في جعله يتصالح معه.

لم يمنحه التَّشدُّد الدِّيني الطمأنينة، لهذا مازال يلهث، ويعيش مسكونًا بالفزع. يَتَلفَّت خلفه لا كقاتل، بل كهارب من ماضيه. أصبح التَلَفُّت المستمر إلى الخلف حركة لا إرادية لديه؛ لأنه يعيش بوعي الهارب من فضيحة. صار هروبه ترقُّبًا فزعًا، وانتظارًا مفتوحًا للسيرة الشبحيّة التي تلاحقه: العالم السِرّيّ لأمه وأُسرته. ولئن فَشِلَ في وضع الماضي خلف ظهره، فقد حوَّل ذاته إلى طريدة، وماضيه إلى ذئب شبحي. رسم الماضي تجاعيده على وجهه، فسكنه شعور دائم بالمهانة والخزي. مازال الماضي يُلاحِقه، وكلما تذكَّره تعاظمت لديه مشاعر العار والذُّل.

يعيش مُثقلًا بوهن ذاتي وآلام تنمو مع الزمن؛ كما لو أنها أشجار. يصغي لنفسه فلا يسمع غير أنين لاهث لوجع أخرس. تعب من التخفِّي المستمر، والحياة المتوجِّسة. تَعِبَ من كونه شخصًا بلا كرامة. تَعِبَ من ارتباكه المتزايد، وذاته الهشة المعطوبة من الداخل. تَعِبَ من روح العتمة التي تسكنه؛ العتمة التي حوَّلته إلى شبح مسعور بالمذلَّة المتنامية والخوف اللانهائي. يريد أن ينهار؛ لكنه لا يستطيع.

مخاوفه حوَّلت حالة القلق لديه إلى حشرات بالغة الصغر، يحسّها تتحرَّك تحت جلده. وكثيرًا ما يُصاب بنوبات هستيرية يَحُكُّ فيها أجزاء مختلفة من جسده حتى تصير جروحًا. لم يكن يتألم أو يهتم بذلك؛ فجروحه الداخلية أسوأ، وأَشَدُّ فتكًا به.

يسير الآن في "السنة السابعة إرهاب". أصبح ممتلئ الجسد، ويعصب رأسه بِمَشَدَّة، ولديه لِحية طويلة غير مُرتَّبة. يشعر بالرضا وهو يسمع "المُجاهِدين" ينادونه بـ"أبو الليث سمير اليمني"؛ بيد أنه مازال يرى نفسه باعتباره "سمير بن نادية"!

كَرَّس جهده لدفن حياته الماضية، والدفاع الوَجِل عن حياته الجديدة. وما جعله يعيش تحت وطأة ذلك القدر من الخوف والتآكل، هو فشله في التخلُّص من الشعور الدائم بالخزي والعار. سبع سنوات من الهروب المستمر، والتخفِّي خلف الإرهاب؛ إلاَّ أن ذلك لم يمنحه القدرة على التخلُّص من ماضيه، والتاريخ الشخصي لأُسرته.

لم يستطع تحويل آلامه القديمة إلى مجرد ذكريات. لذلك صار عبدًا لماضيه. لم يعد يعيش في الماضي؛ لكن الماضي صار يعيش فيه. لهذا، فهروبه الحاصل باعتباره مسلحًا في جماعة إرهابية يتداخل مع هروبه المستمر من ماضيه وسيرة أُسرته.

غدت حياته بمثابة جحيم من الفزع اللانهائي، واختبار مجهد لقدرته على الجَلَد. صار ذاتًا مروَّعة، مسكونة بالتوجُّس والفزع. يشعر بالإنهاك والتداعي حتى وهو نائم! كثيرًا ما استيقظ في الليل، وهو يلهث ويتصبَّب عرقًا. وفي كل مرة يحدث له ذلك، يصرّ أكثر على مواصلة الهروب، وعلى عدم العودة إلى تجرُّع مرارة العيش كمنبوذ، والحياة كذات مسكونة بالمذلَّة والعار. لكن كلَّما هرب أكثر، اشتدّ تَغَوّل كابوسه الشخصي. كثيرًا ما قال لنفسه إن أقسى ما يمكن أن يعانيه المرء هو أن يكون ابنًا لعاهرة، فما بالك إن كان أيضًا زوجًا لعاهرة، وشقيقًا لثلاث عاهرات.

11

كثيرًا ما تذكَّر سمير الطريقة التي ذَبَحَ بها الجندي؛ إلاَّ أنه لم يشعر بأي تأنيب ضمير. تلحّ عليه صورته وهو يستعرض الرأس المذبوح رافعًا إياه إلى الأعلى، قبل أن يرميه أرضًا، ثم يرفعه ويأخذ بدحرجته ككرة، أمام عدسة الكاميرا التي وثِّقت الجريمة. في لحظات الصفاء والمراجعة الذاتية، وهي قليلة، حاول البحث عن أسباب القسوة التي أظهرها، فلم يجد إلاَّ روحه الهشّة، وجراحه الذاتية الغائرة. لم يرَ إلاَّ مذلاته، وقسوة المجتمع عليه بسبب عمل أُسرته في الدعارة. والانتشاء الذي ظهر عليه كان تأكيدًا لتضعضع حياته الجديدة، وافتقاده فيها للسكينة والسلام الروحي.

حماسة التَّدَيُّن أشعلت النار في غريزة الحقد والعدوان الحبِيسة فيه، وفجَّرتها على ذلك النحو من القسوة، والاندفاع المتعصِّب للانتقام. كان قاسيًا لأنه مثقل بنزعات حقد ضارية ضد المجتمع. القسوة لم تكن تعبيرًا عن همجيته، بل عن الخوف السرمدي المستفحل في روحه. العدوانية لم تكن تعبيرًا عن شجاعته، بل عن الضعف اللانهائي المسيطر على ذاته. وإلى هذا، فهستيريا النَّشوة التي ظهر بها أثناء ارتكاب الجريمة وبعدها، تؤكد افتقاده للطمأنينة والثقة في حياته "الجِهادية". كلَّما استذكر هستيريا النَّشوة تلك، تحسَّس جروحه، ونزعات الحقد المتأجِّجة فيه.

طُبِعَت ذاكرته بتفاصيل الجريمة. وعادة ما كان يهرب، عندما يصل في تفكيره إلى أنِّ أحقاده المُتأجِّجة جعلته يتعامل على ذلك النحو من الهستيريا كما لو أن ذلك الجندي هو المجتمع الذي فرَّ منه كمنبوذ تعمل أُسرته في الدعارة. على الدوام، ظَلّ يتجاهل رغبة الانتقام المستعرة فيه، ويستخدم النوازع الدِّينية لتغليف دافعه في ارتكاب الجريمة. قرَّر، مرارًا، عدم التفكير في

الأمر؛ خوفًا من أن يؤدي ذلك إلى انكشاف ماضيه وهويته الحقيقية. ظَلّ محكومًا بهذا القدر من الخوف حتى بعد اكتشافه أنه ليس الشخص الوحيد، بين رفاقه المسلَّحين، الذي لديه ماضٍ مخجل ويحرص على إخفائه والهروب منه. يوم اكتشف ذلك، تذكَّر أن جميع رفاقه وقعوا تحت سيطرة النَّشوة الهستيرية ذاتها التي تملَّكته وسيطرت عليه، أثناء جريمة إعدام الجنود.

بالمصادفة، ركَّز على الأسماء والكُنى الجِهادية الفخمة التي يحملها رفاقه، ويُعرَّفون بها بدلًا من أسمائهم الحقيقية. حين فكَّر في الأمر، وكان ذلك بعد شهرين من الجريمة، توصَّل إلى أنه لم يتم ابتكار التعامل بالكُنى والأسماء الجِهادية من أجل الاقتداء بأصحاب النبي مُحَمَّد، أو محاولة لبعث الحياة الأولى للإسلام، بل من أجل منح "المُجاهِدين" هويات جديدة تُمكِّنهم من نسيان هوياتهم الحقيقية.

بذكائه الفطري، ونادرًا ما كان يظهر فيه ذلك، أدرك أن أغلب رفاقه يعيشون في حالة لُهاث دائم؛ هربًا من ماضيهم ومجتمعاتهم المحلِّية. وَصَلَ إلى هذا "الاكتشاف"، والحكم التعميمي، اعتمادًا على ملاحظاته اليومية، وعلى تجربته الشخصية؛ ذلك أنه مازال يلهث، بسبب فشله في ترك ماضيه خلف ظهره. وإلى هذا، لاحظ أن مسلَّحي جماعته يتلفَّتون خلفهم بذعر؛ مثله تمامًا.

خلال عمله كـ"مُخبر سِرّيّ" لصالح قائد الجماعة، عرف سمير أن عددًا غير قليل من "المُجاهِدين" جاءوا، مثله، من العوالم السُّفْلِيّة في المجتمع، وسبق أن أُلقي القبض على بعضهم متلبسين بجرائم مُخِلّة بالشرف، وسجنوا على ذمتها، وبعضهم عوقب بالجلد والتشهير. غير أن ماضي هؤلاء لا يجلب الخزي والعار كماضيه. شَغَلَ نفسه بالبحث عن الخلفيات الاجتماعية التي جاء منها مسلَّحو جماعته. وَصَلَ إلى معلومات تُفِيد بوجود حالات قريبة

الشَّبه بحالته؛ لكنه لم يلمس لدى أصحابها حالة الذعر التي لديه. ذلك ما جعله يواصل التعامل مع نفسه كنموذج فريد من الخطيئة والعار.

جاء كثير من مسلَّحي جماعته من أُسر فقيرة ومعدمة. البطالة، والتربية الدِّينية المُتشدِّدة، دفعتا بهم إلى الإرهاب. عاش أغلبهم في أُسر متضعضعة لم تمنحهم الفرصة ليكونوا أسوياء، كما لم تضئ طرقهم بقيم ومُثُل أخلاقية تُنمِّي فيهم الضمير الأخلاقي، وروح الإنسان. جاء أغلبهم من الفئات الهامشية المغبونة، لهذا بحثوا لأنفسهم عن دور يجبر المجتمع على الاعتراف بهم، أو الالتفات إليهم. لم يستطيعوا التعبير عن أنفسهم، وعن استيائهم من مجتمعاتهم، إلاَّ بالإرهاب؛ بعد أن وفَّر لهم الدِّين رابطة توحيدية كانوا بحاجة إليها، ومنحتهم تطورات الأحداث مساحة كافية للتعبير عن أنفسهم وتفريغ أحقادهم. عَمِلَ التطرُّف الدِّيني على رَصِّ صفوفهم، وتوجيه طاقة النِّقمة والغضب الكامنة لديهم، ومَنَحَ هياجهم المسعور قادحًا وغطاءً أخلاقيًا زائفًا. جَمَعَهم الدِّين حول شعائر وطقوس منحتهم اليقين، ودفعتهم نحو تحقيق ذواتهم بالعمل في خدمة ما اعتقدوا أنها "قضية كبرى". بذلك، فهم لم يعودوا مُجرَّد "صعاليك" ضائعين، أو فقراء معدمين يعيشون الحياة بقنوت وبلا آمال أو تطلعات، بل صاروا "مُجاهِدين" يعملون من "أجل إعلاء كلمة الله، ونُصرة دينه"!

12

يَتَمَثَّل مأزق سمير في عدم وجود أيّ غموض أو التباس في ماضيه، أو في مهنة أُسرته، التي خلَّفت فيه كل هذا القدر من التقرُّحات والجروح. بالنسبة له، كل شيء واضح؛ بشأن زوجته وأمه وشقيقاته، اللواتي فرضن عليه العيش 27 عامًا كابن لأسرة ملطَّخة بالخطيئة والعار. تلك الحياة، حياة المهانة

والانسحاق، أصابته بعطالة ذهنية، وفقدان شامل للإحساس، ما خلق لديه قابلية عالية للإذعان، والتعايش مع كل ما هو مُخْزٍ ومهين.

يتسعَّر غضبًا كلَّما تذكَّر أن أمه زَوَّجَتْهُ بابنة صديقتها كي تستخدمها فيما بعد للعمل معها ضمن شبكة الدعارة الصغيرة، التي كانت قد بدأت تديرها قبل سنوات من ذلك.

جرت العادة أن بعض العاهرات يتحوَّلن، بعد أن يتجاوزن الأربعين، إلى العمل كقوادات. يوم بلغت أمه الأربعين، كان في الثامنة عشر من عمره، وشقيقته سلوى في عامها العشرين، فيما شقيقته إيمان في السابعة عشر، وسُهى في الرابعة عشر. حينها، بدأت والدته العمل كقوادة، مستخدمة فتيات تعرَّفت عليهن في أماكن وظروف مختلفة. بعد عامين، انضمَّت شقيقته سلوى إلى الشبكة. بعد عام، التحقت بها إيمان. أما سُهى فقد كانت في العشرين من عمرها، حين ضَمَّتها أمها للعمل في الدعارة.

فُرِضت عليه عزلة اجتماعية جعلته يهرب من أهالي حَيّه إلى منزل أُسرته. حيث قضى حياته في العالم السِرّي لأمه، ثم في هامش العلاقات المُحرَّمة لشقيقاته الثلاث، وزوجته. في العالم السِرّي للرذيلة، عاش غربة مفتوحة، عن نفسه وعن مجتمعه، حتى تكرَّس باعتباره مجرَّد ظِلال لأمه وحياتها؛ حياة الدعارة والانحراف.

عاش بروحٍ مثخنة بالجراح، وذاتٍ مثقلة بالمذلَّة والخزي. لقد دُمِغت شخصيته بروحِ من يحمل عاره على كاهله. أمضى حياته تحت سطوة النَّبذ، بعيدًا عن الحياة السَّوِيّة، بعيدًا عن التَّسلِية والملذَّات، حتى غدا كائنًا شبحيًا. جعله الانطواء يبدو كشخص هادئ، وظهر الارتباك الذي في ملامحه كتعبير عن السكينة والدِّعة، لا انعكاسًا لحياة الخنوعِ والإذلال.

الألم والحزن ظاهران على وجهه المهزول والمتعب. تعلو هيئته هالة من الخوف والتردُّد، حتى إنَّ النظر إليه يُثِير الشفقة والرثاء. في صوته خفوت مذعن، وعلى ملامحه استكانة متصاغرة. وفوق هذا يُخامره شعور دائم بالضِّعة والدَّناءة. ذلك الشعور هو ما جعله يلهث على الدوام ويبدو كما لو أنه لا يستطيع التقاط أنفاسه.

لقد تحكمت فى حياته قوة غاشمة أفقدته "الميول النبيلة والمستقيمة"، وحقنته بميول ونزوات شاذة. أمه جَسَّدت تلك القوة الغاشمة التي سحقته بعنف ودونما رحمة. جرَّعته أمه صنوفًا شتى من الإهانات وصيَّرته رجلًا معتلّ الهيئة، محدودب الظهر. مع ذلك فهو مدين بكل شيء في حياته لأمه، التي اعتاد الخضوع لسطوتها، وجعلته يعيش بقوى خائرة، وروح اتكالية. كان كلَّما فكّر في مقاومتها، يزداد انصياعًا لها. انساق غريزيًا خلف الشعور بضرورة الخضوع لها، والانسحاق الذليل أمامها. أفنى ذاته في ذاتها، فاختلطت نفسه بالصغائر والدنايا، واصطبغ وجهه بهالة دائمة من الذُّل والمسكنة.

يفتقد للعاطفة الصادقة، والحد الأدنى من الثقة بالنَّفس. نشأ وهو لا يستطيع التعبير بوضوح عن أفكاره وعواطفه، أو قول ما يجول بخاطره بكلمات دقيقة ومفهومة. كلماته عاجزة عن التعبير عما يجول في خاطره. "يخاف مما سيقوله ومما لن يقوله"، ويصيخ السمع بشكل دائم كما لو أن هناك شيئًا ما سيداهمه. حتى نبرته في الكلام غُلِّفت بقدر وافر من الخنوع والإذعان.

هو تعبير أصيل عن قاع المجتمع، ونتاج مباشر لعوالمه السُّفْلِيّة. غَرِقَ في حياة مُذِلّة ومُهِينة، دون أن يستطيع التحرُّر منها، أو أن يزوِّد نفسه بالطموح والمشاعر الإنسانية اللازمة لعيش حياة سوية.

تلمَّس نفسه مرارًا، فوجدها تلهث، وغارقة في لُجَّة من الوحشة والخوف. الشعور بالفشل واليأس سَدَّ أمامه أبواب الحياة اللائقة، وحال بينه وبين مغادرة موقعه الاجتماعي، صعودًا في سلَّم المجتمع. فُرِضَ عليه العيش كمنبوذ يدعى "سمير نادية". وما كان يُفترض بها أن تكون فرصة للترقي في السُلَّم الاجتماعي، صارت منفذًا للهروب من جحيم الواقع. كان هو الضحية. وكان الإرهاب هو ذلك المنفذ.

شَبَّ وترعرع في حياة الإذعان، بروح منهكة، وذات مثقلة بالكراهية. وبعد أن فَرَّ من جحيمه الأُسري والاجتماعي، تفجَّرت مشاعر الكراهية الصامتة لديه، فحوَّلته إلى روح متعطشة للانتقام، وذات مسكونة بنوبات من العنف المضطرم.

أمضى حياته محكومًا بذهنية المنبوذ المُحتقَر. وعندما هرب غدت روح المنبوذ لديه دافعًا رئيسيًا للعنف؛ أخذًا بالثأر. حياة المذلَّة شوهت روحه، ثم حولَّته إلى وحش. عاش وهو يتألَّم من احتقاره لذاته، وليس من فشله في العثور عليها وتحقيقها. نشأ ذلك الاحتقار بفعل مهنة أُسرته، وحالة النَّبذ والعُزْلَة الاجتماعية التي فُرِضت عليه، وجعلته "يحمل في ذاته قُدرات حية من الحقد". بالإرهاب، أفرغ تلك القدرات الحيَّة، التي بلغت ذروة تَجَلِّيها في ذبح الجندي.

حاجته الدائمة للشَّفقة والعطف ضخَّمت نزوع الانتقام لديه، حتى بلغ درجة التلذُّذ بتعذيب الآخرين. الأرجح أن روح الوحش تَفَجَّرت فيه نتيجة لحياة الانسحاق والحاجة، التي جعلته يرى في القسوة والعنف الطريق الوحيد لتلبية حاجته، وتحقيق ذاته.

13

لدى ناصر قاسم ذاكرة قوية مكَّنته من حفظ جُمَل وعبارات كاملة من الكُتب التي يقرؤها. كذلك لديه لازمتان؛ لازمة حركية وأخرى لفظية. عندما يبدأ الحديث يَحُكّ عُنقه، ويُغمض عينيه ويفتحهما ثلاث مرات متتابعة وسريعة، ثم يُحرّك رقبته إلى اليسار واليمين، بحركتين سريعتين ومتتابعتين. غالبًا ما يفعل ذلك وهو يتهيأ للحديث، ويُكرِّره كلما اعتقد أنه يقول كلامًا مهمًا وعميقًا، أو قبل أن يتحدَّث بشيء يعتقده كذلك. وبين حين وآخر، يُكرِّر هذه الحركة أثناء الحديث. يفعلها حتى وهو يقرأ وحيدًا في غرفته، وهناك من شاهده يقوم بها وهو يسير بمفرده في الشارع. صارت هذه الحركة جزءًا من شخصيته. مع ذلك لا يُعرف سبب منشأها لديه. ليس معلومًا ما إذا كانت نوعًا من الاعتياد غير المدرك، أم أنها حركة لا إرادية أصيلة في جهازه العصبي. على أن في شخصيته ما هو لافت أكثر من ذلك.

كلمة "يعني" لازمة أكثر ارتباطًا بهويته، حتى إن هناك من اعتاد لَمزهُ، والسخرية منه، عبر تقليده وهو يُردِّد هذه اللّازِمة، أو عَدَّ مرات تكرارها أثناء حديثه. كثيرًا ما اعتزم التخلُّص من هذه اللّازمة اللفظية، خاصة بعد أن تأكد من أنه يقولها بين جملة وأخرى، لدرجة أن البعض أصبحوا يطلقون عليه "ناصر يعني".

في إحدى جلسات القات(3)، قرَّر أن يتجنَّب ترديد كلمة "يعني" أثناء الحديث. عندما حان دوره، راح يتحدث وهو يراقب كلماته. أراد أن

(3) القات: شجرة "الكيف" الشعبي في اليمن، تُقطف أغصاناً، ويتم مضغها وتخزينها في الفم دون بلعها، ومن هنا جاء الفعل "تَخزِين". يُباع القات في أسواق خاصة

يفرض حصارًا على تلك اللَّازمة، لمنعها من القفز إلى لسانه؛ لكنه فشل في ذلك. عندما انتهى من الحديث، تنبَّه إلى أنه قال كلامًا غير مترابط، وخاليًا من المعنى. أدرك أن محاولته تجنُّب تلك اللَّازمة قد استغرقت كل تركيزه. قرَّر العودة إلى طبيعته، وتجاهل اللَّمز الذي يتعرَّض له. أصرَّ على الحديث مرة أخرى في الجلسة ذاتها. انتظر طويلًا، وحين أُتيحت له الفرصة، تحدَّث بهويته الأصلية، باعتباره "ناصر يعني". حَلَّقَ بحديثه عاليًا، حتى إنه شاهد نظرات الإعجاب في وجوه حاضري تلك الجلسة، التي عُقِدَت في منزل أحد السياسيين. اجتاحه شعور طاغ بالزهو والرِّضا عن النَّفس وهو يتلقَّى كلمات الإطراء، بعد انتهائه من الكلام.

مساءً، انكفأ إلى غرفته، منتشيًا نشوة من أبلى بلاءً حسنًا في عمل يحبه. وإذ أحسَّ بمدى تلك النَّشوة في نفسه، خلصَ إلى أن أغلب المثقفين والسياسيين اليمنيين حوَّلوا جلسات القات من لقاءات للراحة والاسترخاء إلى معارك تحدٍّ يومية لإثبات ذواتهم عبر الأحاديث الإنشائية المُسهبة.

قبل أن ينام، عاد إلى التفكير في حالة "السّلبيَّة المجتمعية" تجاه جريمة إعدام الجنود، والإرهاب بشكل عام. تنبَّه إلى أنها حالة مُرتَبِطة بـ"المسألة الوطنية"، التي لم تتحوّل بعدُ، في اليمن، والوطن العربي ككل، إلى هاجس يَشْغَل الوعي والضمير المجتمعي العام. خطرت له هذه الفكرة فابتسم بفرح طفولي؛ إذ تأكد من أنه كان محقًّا حين أبدى اندهاشه بقدرة مُخيِّلته على التداعي والتدفُّق الفكري الخلَّاق. تذكَّر صديقه طه نعمان، وقال ساخرًا، مَاطًّا الكلمات والحروف:

– يُقاااااال إن بين العقل والجنوووون شعرررررة خفيييييييفة!

تنتشر في كل أرجاء اليمن، ويتناوله أغلب الرِّجَال وكثير من النساء، في مجالس تُسمى "مقايل"، ومفردها "مِقيل".

أضاف، بنبرة غاضبة:

– أنيك عارك يا طه أنت وكلامك الأهبل!

يَتَمَتَّع طه نعمان بروحٍ نهمة، مُحِبَّة للحياة والناس، وبشهية مفتوحة على الدوام. "يُخَزِّن القات" بنهم بالغ، كأيّ مدمن. لديه بنية جسدية ضخمة، ورأس يَشُقُّ الصَّلَعُ وسطه. وإلى هذا، لديه عينان تتناسبان مع وجهه العريض، وعظمتي وجنتيه المتهدِّجتين. يضحك بصوت مرتفع يعكس نفسه الكريمة والمسالمة.

درس طه هندسة مدنية في جامعة صنعاء؛ إلاَّ أنه خَصَّصَ جزءًا كبيرًا من وقته للنشاط السياسي والحزبي. نشاطه كيساري، جعله يتعرَّف على ناصر قاسم مبكرًا؛ في عامهما الجامعي الأول؛ رغم أنهما درسا في كليتين مختلفتين. وقد صارا صديقين مُقرَّبين من بعض.

حَصَلَ الحزبي النشط على بكالوريوس في الهندسة المدنية، وحَظِيَ بوظيفة حكومية مكَّنته من فتح مكتب هندسي خاص وفَّر له دخلًا جيدًا. استطاع الزَّواج بابنة عمه، وجاء بها من القرية إلى منزل استأجره في صنعاء.

كثيرون تجنَّبوا "ناصر"، بسبب احتياجه الدائم للنقود؛ إلا "طه"، فقد كان دائم البحث عنه. كان يتصل به مرتين في الأسبوع، على الأقل، ليشتري له قاتًا، أو ليدعوه لتناول وجبة الغداء معه. وكثيرًا ما دفع الإيجار الشهري للغرفة التي يسكنها.

14

برفقة ثلاثة مسلَّحين جِهاديين، وَصَلَ مجيب البَالِع، في ظهيرة مُشمِسة، إلى "مُخيَّم الإيمان والهجرة". تَمّ أخذه إلى العنبر الأقل ازدحامًا، وزُوِّد بفرش كالح وبطانية رثَّة. كان هناك ثلاثة وستون جِهاديًا في العنبر تم تعريفهم برفيقهم الجديد. قُلِّصت المسافة الفاصلة بين بعض الفُرُش المُرتَصَّة في صفوف متجاورة، فأُتِيح المجال لمجيب كي يَمُدَّ فرشه على الأرض، في الزاوية الداخلية للعنبر، حيث وضع كيس ملابسه، ثم استلقى على الفرش محاولًا الاسترخاء للتخفف من التعب الذي ناله جراء ساعات السفر الطويلة. بعد أَقَلَّ من ربع ساعة، صدح آذان صلاة الظهر، فسار الجميع نحو المسجد.

خارج المسجد، بعد انتهاء الصلاة، وقف مجيب يَتَلَفَّت، بحثًا عن رفاقه الثلاثة، الذين سيقولون عنه فيما بعد، إنه هاجر وإياهم من "مجتمع الجاهلية" إلى "مجتمع الإيمان". وبينما هو يلوي عُنُقه يمنة ويسرة، شاهد وجهًا مألوفًا. أحسَّ أنه يعرف هذا الوجه قبل أن تكون لصاحبه لِحية على هذا النحو الكثّ وغير المرتَّب. أمعن النظر فيه، ثم نادى باسمه. التفت سمير، ووقف ينظر بارتياب إلى الغريب الذي نادى باسمه الأول دون اسمه الجِهادي أو كُنيته. تأكد "الجِهادي الجديد" من هوية ابن حَيِّه القديم، فاندفع نحوه بابتسامة أنيسة، وذراعين مفتوحتين. بريبة وبرود قَلِق، مَدَّ سمير يده اليمنى، فيما اندفع مجيب يحضنه ويُقَبِّلَه بحرارة.

ارتجف جسد سمير، وتسارعت دقات قلبه، حين تبيَّن ملامح مجيب، وعرف هويته. داهمت روحه موجة عاتية من الخوف، وبَلَعَ ريقه مرات عدة. كان هذا ما يخشاه: ملاحقة الماضي له. أفزعه الحضور المفاجئ لأحد أبطال حياته الماضية؛ لأنه قد يُفجِّر حياته الجديدة. وإلى هذا فمجيب ليس مجرَّد

شخص عادي، بل المُتنمّر الأَشَدُّ رعبًا في ماضيه. لم يستطع سمير إخفاء الرعب الذي سيطر عليه، وظهر في ملامحه. لكن فزعه خَفَّ عندما سَمِعَ "مجيب" يخاطبه، تكرارًا، باسمه الأول، دون أن يُلحق به كُنيته القديمة: اسم أمه نادية.

لم يكن مجيب يعرف اسم والد سمير، ولم يسبق له أن شاهده إلاَّ مرة واحدة أو مرتين؛ رغم أنهما عاشا سنوات طويلة في حيٍّ واحد. كان الأب غائبًا في حياة سمير، مقابل الحضور الطاغي لأمه؛ لهذا أُطلق عليه اسم "سمير نادية". كان أهالي حيِّه يعرِفون أمه جيدًا، وعدد محدود منهم حاول ممارسة الجنس معها، أو مع بناتها، بالقوة؛ شأن مجيب.

أيقن الرَّجُل الهارب من ماضيه كم أنه هَشٌّ وضعيف، لاسيما وقد جَفَّ اللُّعاب في فمه، وهو يتحدَّث مع ابن حيِّه القديم، خارج مسجد "مُخَيَّم الإيمان والهجرة". مَرَّ اللقاء على خير؛ بيد أنه جعل "سمير" يقف، لأول مرة، بعد سنوات طويلة من هروبه، وجهًا لوجه مع ماضيه المُذِلّ والمُخزِي. تحوَّل الخوف إلى رعب لاهث لديه؛ لهذا صار يُفَكِّر بشكل جدي في الهروب من حياته "الجِهادية"، بيد أنه لا يعرف كيف ولا إلى أين؟

فوجئ بماضيه يلاحقه إلى مكان ناءٍ؛ لا كزائر، بل كعضو دائم في جماعته المسلَّحة. تأكد أنه غير قادر على الهروب من ماضيه، وعاجز عن التصالح معه. ازداد شعوره بالاغتراب في مجتمعه الجديد، "مجتمع المُجاهِدين"، دون أن تكون لديه ملاذات بديلة للهروب. تأكد أن الحياة قاسية وغير عادلة؛ لكنه لا يستطيع الهروب مرة أخرى.

كان يحاول تطمين نفسه عبر القول بأن لكل شخص من "المُجاهِدين" ماضيًا مهينًا يخجل منه، ويعيش وهو يحاول إخفاءه. أخبر نفسه، مرارًا، أن كثيرًا من "المُجاهِدين" هاربون من ماضيهم مثله؛ بيد أنه كان يحسّ بالفزع

كلَّما تذكَّر ما يهرب منه: أُسرة تمتهن الدعارة. ولتجنُّب مجرَّد التفكير في هذا الكابوس، اعتاد الهروب إلى الصلاة، وقراءة القرآن. كثيرًا ما أَجْبَرَ ذاته على الهدوء والنسيان؛ لكن الطقوس الإيمانية التي كان يمارسها لم تفعل شيئًا سوى تربية مخاوفه، وتعزيز نوازع الانتقام والقسوة والعنف في روحه.

عاد المُتنمِّر القديم للظهور فجأة في حياة سمير. كان ذلك بعد نحو ثلاثة أسابيع من إعدام الجنود السبعة عشر. عبر المصافحة ذات الوِدّ المُبالَغ فيه، حاول مجيب تبديد صورته القديمة كمُتنمِّر؛ بيد أن "سمير" كان ما يزال غير قادر على نسيان دوره القديم كضحية.

شَعَرَ سمير بالامتنان لمجيب لأنه لم يدعه باسم أمه، وحَرِصَ على تعريفه باسمه الجديد، وكُنيته الجِهادية:

– أخي مجيب، في أيّ وقت تحتاجني اسأل عن "أبي الليث سمير اليمني"، وأيّ شخص سيقول لك أين أنا.

لم يقل مجيب شيئًا عن الماضي؛ إلاَّ أن حضوره المفاجئ، في "المجتمع الجِهادي"، أَجَّجَ الكابوس الشخصي لسمير، الذي لم يكن قد تحرَّر من ظِلَال أمه وظَلامها. كان سمير مازال يعيش خوفه القديم، ويفتقد حتى لكبرياء الضحية!

في الثامنة عشر من عمره، عَرَفَ مجيب البَالِع حياة البلطجة، وشَرِبَ الكحول، وتَعَاطَى المخدرات. يسير اليوم في عامه الثالث والثلاثين، بجسد ضخم، ووجه عريض. أصبح يرتدي ثوبًا قصيرًا، ولديه لِحية كَثَّة غير مرتَّبة. ومنذ صار الإرهاب والقتل وسيلة للخلاص بالنسبة لكثيرين، كان المظهر الشَكليّ للمضي في هذا الطريق يتمثَّل في لبس الثياب القصيرة، وتربية اللِّحى الكَثَّة.

لم يستطع الرَّجُل الهارب من ماضيه تجاهل ابن حَيِّه القديم، أو التَّخَفِّي منه؛ إلاَّ أنه ظَلّ يتحاشاه. وفي كل مرة كان مجيب يحاول التقرُّب منه، كان هو يبتعد عنه ويتجنَّبه. وإذ أحَسَّ "المُجاهِد المُستَجَدّ" بذلك، حاول تطمين الهارب من ماضيه، معتقدًا أنه يعرف السبب:

– أخي سمير، إحنا اليوم إخوة، يجمعنا الجِهاد في سبيل الله. إحنا تركنا الماضي خلف ظهورنا، وعلينا أن ننساه. وأنا أريد أن أعتذر لك عن أيّ شيء صدر مني في حياة الجاهلية والطيش.

ابتسم سمير ابتسامة كئيبة، وقال، معتقدًا أن ابن حَيِّه القديم عرف سبب تحاشيه له:

– نحن تركنا الماضي خلفنا، ونعيش هنا كمُجاهِدين، وأنت لم تفعل شيئا كي تعتذر.

تبادلا ابتسامات مُزَيَّفة، ثم ودَّعَا بعضهما. بعد أن افترقا، غَرِقَ كل منهما في استرجاع الماضي.

اعتدى مجيب على سمير مرات عدة، في الماضي. أما مرات تهجُّمه عليه فلا تُحصى. في إحدى المرات، ضربه بقوة، ونهب منه مبلغًا ماليًا، وهو يصرخ فيه:

– يا ابن القحبة.. رَبِّي أمك وخواتك، أو انقلوا من حارتنا. هذي حارة محترمة، وأنت فَتَّال وأمك وخواتك قِحَاب.

يومها، اعترض طريقه، بشكل مفاجئ. سَدَّدًا له صفعة قوية، أتبعها بسيل من اللَّكمات والركلات. سقط سمير أرضًا، ولم يستطع، كالعادة، إخفاء وجهه بين ذراعيه. تكوَّمَ على نفسه كسلحفاة، فيما واصل مجيب ضربه، حتى أدمى وجهه، وتسبب له فى ندبة صغيرة في وجنته اليمنى، مازالت في وجهه شاهدة على فداحة ما تعرَّض له من عنف وإذلال.

تذكَّر سمير تلك التفاصيل، فدمعت عيناه، وتأجَّج حقده على المُتنمِّر الأَشَدّ رعبًا في ماضيه. تَمَنَّى لو يستطيع الانتقام منه، وذبحه كما ذبح الجندي.

كلاهما كان ضحية لثقافة وممارسات اجتماعية عنيفة وقاسية. أصبحا اليوم ضحية لسوء فهم متبادل على ذمة الماضي. ظَنَّ المُتنمِّر القديم أن ذلك الاعتداء هو سبب الجفاء الذي وَجَدَهُ من سمير، فيما ظَنَّ هذا أن "مجيب" حاول تطمينه بشأن ماضيه كابن لعاهرة، وزوج لعاهرة، وشقيق لثلاث عاهرات. لم ينس مجيب ماضي سمير، وامتهان أُسرته للدعارة؛ لكنه كان مُتحمِّسًا لحياته الجديدة في "مجتمع الجِهاد"، ولم يكن قد وَجَدَ سببًا يدعوه لإشهار ذلك الماضي في وجه الهارب منه. لم يكن الرَّجُل الهارب من ماضيه يخشى من أن يُذَكِّره المُتنمِّر القديم بالتاريخ الشخصي لأُسرته، بل من حديثه عن ذلك وسط "المُجاهِدين".

ينتمي مجيب إلى أُسرة فقيرة. وهو نتاج طبيعي لمرحلة اليأس والضياع التي عاشتها اليمن منذ ما بعد حرب صيف **1994**، التي شنها نظام الحكم في صنعاء على الجنوب. في تلك المرحلة، خيَّم الإحباط على الجميع، وتصاحب ذلك مع ارتفاع منسوب الفساد، والنهب المنظَّم للمال العام، وتعميم قيم "المُنتصِر"، وهي قيم قَبَلِيّة على كل حال.

لم يكمل مجيب وسمير دراستهما، شأن عشرات الآلاف من الشباب. وبسبب اختلاف خلفيتيهما الاجتماعيتين، اتَّجَهَ الأول إلى مجتمع "الفُتُوَّات"، وأصبح أحد أبطاله؛ فيما فُرِضت العُزْلَة على الثاني، وصار أحد ضحاياها. شَبَّ مجيب في حياة العصابات، بينما ذوى سمير في حياة الانطواء القسريَّة. وبعد سنوات من الضياع والتّيه، أعاد التَّدَيُّن دمجهما في جماعة إرهابية. ورغم أن التَّدَيُّن وَظَّفَ ما لديهما من فشل ويأس وإحباط، ومنحها قسوة مُبَجَّلة

وتبريرات إيمانية متماهية؛ إلاَّ أنه لم يُحَرِّرهما من ماضيهما، ولم يُمَكِّنهما حتى من التصالح معه.

يعرف سمير ماضي مجيب؛ لكنه يدرك أن "الفُتُوَّة"، وكل ما يرتبط بها من ممارسات غير أخلاقية، أمور لا تستدعي الخجل أو تنكِيس الرأس، كعمل الأم والزوجة والشقيقات في الدعارة. والحاصل أن المجتمع ككل ينظر بنوعٍ من التقدير لـ"الفُتُوَّات"، وباحتقار بالغ لمن تعمل نساؤهم كعاهرات.

تذكَّر أن لمجيب البَالِع أربع شقيقات كانت لإحداهن علاقات غرامية عدة، وصلت حَدّ إجبار شاب على الزَّواج بها بعد اتهامه بسلب عُذرِيَتها. ابتسم وخامره فرح بالغ؛ لكن ابتسامته تبدَّدت إذ انتبه إلى أن شقيقة مجيب كانت شابة مُراهِقة، ولم تكنّ عاهِرة تعمل في الدعارة؛ كشقيقاته وأمه وزوجته. بحزن، همهم يقول لنفسه:

– هذا هو الفارق بيني وبين مجيب واللي مثله من المُجاهِدين.

استدرك، وهو يهرش رأسه:

– لكن، في الأخير، كُلّهن قِحَاب. عاد أمي وزوجتي وخواتي أشرف، لأنهن يَقْحِبْنَ من أجل لقمة العيش، مش من أجل المتعة.

غَرِقَ في تفكير طويل حاول فيه تبيُّن الفوارق بين الحالتين. تنبَّه إلى أن المجتمع يُصَنِّف أمه وزوجته وشقيقاته في خانة العاهِرات، فيما يتعامل مع شقيقة مجيب باعتبارها "مُراهِقة". تبيَّنَ له فارق آخر: مجيب، ومن هم على شاكلته، جاءوا إلى التَّديُّن هاربين من الفقر والبؤس، فيما جاء هو إليه هاربًا من النَّبذ الاجتماعي. أحسَّ بالمرارة، وازداد شعوره بالخوف والخزي. أَحسَّ بوطَّأة الماضي وهو يلاحقه دون رحمة. لم يجد مخرجًا غير قتل الماضي، الذي لم يعد يتجسَّد في أمه وزوجته وشقيقاته، بل في شخص مجيب البَالِع. ولأن الأخير نجا من المواجهات التي اشترك فيها كمقاتل في صفوف الجماعة، فلم

يكن أمام سمير سوى التفكير بشكل جدي بأن يقتله بنفسه، أو يدفع به إلى مهمة يصعب عليه العودة منها. ولأنه لا يستطيع القيام بأي من الخيارين، فقد عَلَّقَ آماله على الله والقدر كي يقوما بما عجز هو عن القيام به.

15

بمثابرة وإخلاص، مضى سمير في تأدية مهامه كـ"مُخبر سِرّيّ"، وسط مسلَّحي جماعته، لصالح قائدهم. بدأ في جمع المعلومات عن الجميع، ونَشطَ في التنقُّل من مكان إلى آخر، داخل المُخيَّم وخارجه. سرعان ما تكشَّفت مهمته، فصار مسلَّحو الجماعة يخشونه ويتجنَّبونه، لاسيما بعد أن وشى بثلاثة منهم على خلفية خلاف شخصي وقع بينه وبينهم.

تقرَّب من الجميع، باستثناء ابن حَيِّه القديم؛ إذ كان يواصل الهروب من حياته الماضية ومُتنمِّرها. حَرِصَ على أن يتعامل بدماثة مع مجيب البَالِع. كان يبتسم له ويصافحه بود كاذب؛ لكنه ركَّز جهده على تجنُّبه. كان لا يجلس في مكان يَجِدَهُ فيه، ويغادر سريعًا المكان الذي يلتقيه فيه. لم يعد مجيب البلطجي والمُتنمِّر الذي كان عليه؛ إلاَّ أن "سمير" مازال معتقلًا في شخصية الضحية التي كان عليها. فكَّر كثيرًا في كَيفِيَّة استخدام سلطته كـ"مُخبر سِرّيّ" للتخلُّص من هذا الكابوس؛ بيد أنه فَشِلَ في ذلك.

أغلق كل الأبواب أمام محاولات مجيب التَّقَرُّب منه. وحين عاتبه الأخير على ذلك، أمطره بكلام معسول وابتسامات زائفة، محاولًا التخفيف من غضبه. أكد لمجيب أنهما صارا اليوم "إخوة" يجمعهما "الجِهاد في سبيل الله"؛ بيد أنه استمر في الهروب منه. مذاك، غَيَّرَ مجيب موقفه؛ توقف عن الابتسام لسمير، وبدأ يتجاهله، وينظر إليه بغيظ. هذا الأمر ضاعف من الخوف المُتضخِّم في نفس الرَّجُل الهارب من ماضيه، فأرغم نفسه على

الاقتراب من مجيب لتبديد العداوة الجديدة التي أقامها معه دونما داعٍ. مع ذلك، واصل جهوده محاولًا التَخلُّص منه. عَمِلَ على إدراج اسمه في كشف الانتحاريين؛ إلاَّ أن "أبو القعقاع"، المسئول عن "كتيبة الاستشهاديين"، اشترط أن يأتي مجيب بنفسه ليطلب ذلك. لم يتوقَّف سمير عن محاولاته، التي أراد منها إسكات ذاته المُعذَّبة. وبعد مساعٍ حثيثة، تمكَّن، أخيرًا، من تسجيل ابن حَيِّه القديم ضمن من يُسمَّون "فرسان الاقتحامات". وظَلّ يترقب خبر مقتله. طول فترة الانتظار تلك، عاش تحت وطأة الشعور الدائم بقلق الروحِ المُعذَّبة المسكونة بالرعب.

16

أنهى ناصر قاسم دراسته المتوسطة دون أن يكون قد قرأ كتابًا واحدًا خارج المنهج المدرسي. لم تكن القراءة من هواياته؛ لكنه قرَّر، بشكل مفاجئ، أن يكون مثقفًا. اتَّخَذَ ذلك القرار بعد أن حضر، وهو في إجازة الصف العاشر، جلسة عامة عُقِدت في قريته لاستقبال ثلاثة سياسيين قَدِموا من مركز المحافظة: مدينة تعز.

ارتبطت قريته بالنضال الوطني، وظَلّت محتفظة بهويتها اليَساريّة المعارضة لنظام الحكم. أبرز أهلها رجل أربعيني معروف باشتراكيته، وانتظامه في قراءة الكُتب وصحف المعارضة. أهل القرية مداومون بشكل شبه يومي على "تَخْزِين القات" في منزله. هذا الرَّجُل يدعى عبده غالب. وفي ضيافته وَصَلَ رفاقه الزوار، في مهمة حزبية.

حضر أغلب الأهالي لاستقبال الضيوف الثلاثة، وعُقِدت جلسة المِقيل، يومها، في الساحة الصغيرة، أمام منزل عبده غالب. لم يسبق للسياسيين الثلاثة أن زاروا القرية، ولا يجمعهم سابق معرفة بأهلها. كانوا

يعرفون "الرفيق عبده غالب"، وشعبية الحزب الذي ينتمون إليه في صفوف أهالي القرية، وفي المنطقة بشكل عام. كثير من الأهالي كانوا يعرفون أسماء زوارهم الثلاثة، ويحفظون صفاتهم القيادية داخل الحزب؛ لكن لم يسبق لهم الالتقاء بهم بشكل مباشر، أو مصافحتهم؛ لهذا كانت تلك الزيارة حدثًا كبيرًا بالنسبة لأهالي القرية، حتى إنها ظَلّت الموضوعِ الرئيسي لأحاديثهم وأحاديث القرى المجاورة قرابة ستة أشهر.

انبهر ناصر، ذو الستة عشر عامًا، وهو يسمع الزوار الثلاثة يتحدثون بِثقة، وبكلام طويل ومُرتَّب، دون تحضير كتابي مُسبق. أدهشته قدرتهم على الاسترسال في الحديث، وإيرادهم مصطلحات لا يفهمها، كالعولمة والديالكتيك والمادية الجدلية والماركسية. رأى كيف احتفى أهالي قريته بأولئك الزوار، وكيف كانوا ينصتون لهم باهتمام بالغ، أقرب إلى الخشوع. حينها، قرَّر أن يكون سياسيًا ومثقفًا. واظب على "تَخْزِين القات" في مقيل عبده غالب، ثم بدأ في استعارة الكُتب منه، بعد شهر من إدمانه قراءة صحف المعارضة لديه. لم ينقضِ شهران إلاَّ وهو أحد المُقرَّبين من عبده غالب، وصار يطلق عليه لقب "الرفيق". كان أول كتاب قرأه هو "اليمن الجمهوري"، لعبد الله البردُّوني. الكتاب مهم وشائق؛ لكن الفتى المُتحمِّس قرأه بصعوبة بالغة. أجبر نفسه على القراءة، وبين وقت وآخر كان يتوقَّف ليَعُدَّ الصفحات التي قرأها. لم يفهم أشياء كثيرة في الكتاب؛ بيد أنه مضى في قراءته، مدفوعًا بالرغبة في أن يصبح مثقفًا قادرًا على الحديث لجمع من المُنصِتين دون الالتفات إلى ورقة مكتوبة. لم يهتم بضرورة فهم كل ما يقرؤه. المهم لديه كان تحقيق إنجازه الأول: الانتهاء من قراءة كتاب. حين انتهى من قراءته، أعاره "الرفيق عبده" رواية "الأم" لماكسيم غوركي. قرأها باهتمام؛ لكنه حين أعادها طلب من صاحبها، وكان قد صار يطلق عليه اسم "الأستاذ عبده"، تزويده بكُتب سياسية

وفكرية. ظَلّ لفترة يُجْبِر نفسه على قراءة الكتب، ويداوم على عدِّ الصفحاتها التي تمكَّن من قراءتها، بهدف مراقبةً لإنجازه اليومي في مشروعِ تحوُّله إلى مثقف.

مع الوقت، اعتاد الفتى المُتحمِّس قراءة الكتب، وشَغَلَ أوقات فراغه بها. عدم تمتعه بأيّ قدر من الوسامة لعب دورًا رئيسيًا في جعله يخصص جُلَّ وقته للقراءة. أيقن أنه لم يكن لديه غير الثقافة والسياسة لتحقيق ذاته وما يطمح إليه من حضور اجتماعي. كان ذلك رهانًا مصيريًا بالنسبة إليه؛ لهذا كرَّس كل جهده من أجل الفوز به.

في الإجازات الأسبوعية، واظب على حضور مجلس "الأستاذ عبده". كان يبقى صامتًا ينصت لما يقوله "الأستاذ" وبقية الضيوف، لاسيما السياسيين والمثقفين الذين كانوا يأتون، أحيانًا، من قرى مجاورة، أو من المدينة، وذلك أمر نادر.

بعد ثلاث سنوات من القراءة والصمت، عاد الفتى المُتحمِّس بروحٍ جديدة إلى مجلس أُستاذه. يومها تغلَّب على تردُّده وخوفه، وبدأ الحديث عن الصراع الاجتماعي، والمادية الجدلية، وكارل ماركس، الذي كان ينطق اسمه بلكنة قروية تحريفية غير دقيقة، يَكسِر فيها حرف الكاف ويُلحِقَهُ بياء خفيفة وممدودة. تحدَّث عن تلك الأمور بقلب مرتجف، ويدين مرتعشتين، ووجه محمرّ، وجسد يتصبَّب عرقًا. حين أنهى كلامه اكتشف أنه نسي كثيرًا من الأفكار التي كان يريد التطرُّق لها. داوم على الحديث اليومي في مجلس أُستاذه، كي يتخطى رهابه الشخصي من الحديث في المجالس العامة. وإلى هذا، أراد تدريب نفسه على الخطابة. مع الوقت، كَفَّت يداه عن الارتعاش، وزال احمرار الخجل عن وجهه. تاليًا، كَفَّ قلبه عن الارتجاف، ولم يعد جسده

يتصبَّب عرقًا. وبالتدريج، اتَّسعت شهيته للكلام، حتى صار يتحدَّث بحماسة لا تعرف الكَلَل.

صار يفهم الكُتب التي يقرؤها، ويتشيَّع لأفكارها. تعلَّم الإخلاص لقراءة الكُتب، حتى أدمنها. لم تصبح القراءة مجرَّد عادة يومية، بل جزءًا أصيلًا من ذاته، وأداته الحاسمة لتأكيد حضوره الاجتماعي. لكن تلك التجربة رسَّخت لديه عادة الكسل، ثم جعلته يعتاد النوم حتى الظهيرة.

الفتى المُتحمِّس صار شابًا مندفعًا. كَبُرَ، وكَبُرَ معه الرهان المصيري، الذي ربط حياته به. كَبُرت رغبته في تحقيق ذاته كمثقف مُميَّز ومُتحدِّث بارِع قادر على قراءة وتحليل الأحداث. انهمك، بإخلاص، في متابعة الأحداث السياسية والاجتماعية، كي يستطيع الحديث عنها بِقُدرة تثير إعجاب الآخرين. بالانهماك والإخلاص ذاتيهما، واصل حياته حتى أنهى دراسته الجامعية في صنعاء، وعاش هناك حياة مفتوحة على البطالة والعوز.

باعدت صنعاء بينه وبين "الأستاذ عبده". في نهاية عامه الجامعي الأول، عاد إلى القرية، محمولًا بشوق جارف. لم يكن مشتاقًا لأستاذه القديم، بل لمجلسه. عاد وفي ذهنه خوض جولة النِّزال الأولى مع الرهان المصيري الذي كَرَّس حياته لتحقيقه. تبادلَ القُبُلات مع صاحب المجلس، وأبدى حرصًا ملحوظًا على أن يدعوه باسم "الرفيق عبده"، لا "الأستاذ عبده"؛ رغم أن هذا لم يعامله وفقًا للتراتبية القديمة التي كانت قائمة بينهما.

استُقبِل الطالب الجامعي العائد من صنعاء بحرارة، وأُجلِس في صدر المكان، لا قرب الباب، مكان جلوسه القديم. سَرَّهُ هذا التحوُّل، واعتبره مؤشرًا يؤكد قدرته على كسب رهانه المصيري. تبادل وحاضرو المقِيل الأسئلة المعتادة عن الحال والأحوال. سأله المُضِيف عن الأوضاع في العاصمة، وتطورات الأزمة السياسية بين النظام الحاكم وأحزاب المعارضة. التزم الطالب

الجامعي المُتحمِّس بالشكليات السائدة لدى السياسيين والمثقفين؛ إذ بدأ حديثه بشكر "الرفيق عبده"، وجميع أهالي القرية. وجريًا خلف غوايته، حوَّل إجابته عن ذلك السؤال إلى حديث طويل أشبه بمحاضرة؛ غير أنه قوطع بأحاديث جانبية، وأسئلة غير جادة عن قضايا أخرى. استرسل في الكلام، مدفوعًا بقوة الطِّبَاع، والجَلَد الذاتي. استعرض ما حفظه من معلومات وأسماء كُتب ومؤلِّفين. حشد أسماء مُفكِّرين كُثر، على رأسهم كارل ماركس، الذي كان ما يزال ينطق اسمه بلكنة قروية تحريفية غير دقيقة، يَكسِر فيها حرف الكاف ويُلحِقَهُ بياء خفيفة وممدودة. أراد إثبات قدرته على الحديث الطويل دون النظر إلى ورقة مكتوبة، كالسياسيين الثلاثة الذين زاروا القرية قبل سنوات. أَجْبَرَ الحاضرين على الإنصات له؛ لكنه فشل في أن ينتزع منهم ذلك التقدير الذي أبدوه لأولئك السياسيين الثلاثة. أيقن أنه خَسِرَ جولة النِّزال الأولى في رهانه المصيري. أُجْبِرَ، أخيرًا، دونما تخطيط أو تَقَصُّد، على تحرير الجلسة من سيطرته الكلامية. صمت وهو يحتدم غضبًا، وكتلة كبيرة من الضَّجر ترزح على صدره. غادر قبل الموعد المعتاد، معتذرًا بارتباطه بموعد عائلي. وَصَلَ منزل أُسرته منهكًا، غير راض عن نفسه، وأَقَلّ انبهارًا بـ"الرفيق عبده". أجرى مقارنة سريعة خلصَ فيها إلى أنه صار أكثر ثقافة من أستاذه القديم الذي علَّمه قراءة الصحف والكُتب. وعندما أنهى دراسته الجامعية، أدرك مدى اتِّساع الهوة بينهما. خلال سنوات تبطُّله، تعاظم شعوره بالتميُّز كمثقف وكسياسي. وفي جميع المراحل، ظَلّ متمسِّكًا بعادته القديمة: الدَّأَب بإخلاص على تثقيف نفسه، والتعامل بجدية مع كل ما يمكن أن يثبت تميُّزه في هذا المجال.

الشاب المُتحمِّس صار مثقفًا مُتحمِّسًا. رهانه المصيري أصبح أكبر منه. كَبُرَت رغبته في تأكيد ذاته كمثقف مميز، ومُتحدِّث بارع لديه قدرة على

قراءة وتحليل الأحداث. بالانهماك والإخلاص ذاتيهما، واصل متابعة الأحداث، والحديث عنها بحماسة، بهدف إثارة إعجاب الآخرين.

17

ضمن عمله الدءوب كـ"مُخبِر"، اكتشف سمير شخصًا مُختَرِقًا جماعته، جاسوسًا عليها. زاده ذلك قُربًا من "الأمير"، وعزَّز مكانته لديه. يُدعى "الجاسوس" أحمد الوَذِح، وهو شخص بعينين جاحظتين، ولِحية كَثّة، وقامة متوسِّطة الطول. وإلى هذا، كان يتحرَّك بتثاقل متصنَّع أراد منه الظهور بحالة راسخة من الاطمئنان. لكن ذلك عكس القلق المُتخفِّي فيه.

انضَمَّ الوَذِح إلى صفوف الجماعة حديثًا. وما لفت نظر سمير إليه هو تنقُّله الدائم داخل المُخيِّم. على أن جولته الصباحية المنفردة، التي يقوم بها إلى جبل يبعد عن المُخيَّم حوالى كيلومتر واحد، هي التي أثارت شكوك "المُخبِر". كان يقوم بهذه الجولة بحجة ممارسة رياضة المشي؛ لهذا لم يُثِير شكوك أحد من مسلَّحي الجماعة، لاسيما أن عددًا منهم يمارسون هذه الرياضة في المنطقة وجبالها. لكن كثرة حركته داخل المُخيَّم، جعلت "المُخبِر" يَشُكّ في جولته الصباحية. وفي أحد الأيام، تبعه مُتخفِّيًا، فعرف المكان الذي يقصده. صباح اليوم التالي، سبقه واختبأ هناك. وما إن وَصَلَ الوذح، رآه سمير يُخرج موبايلًا، ويُجري منه اتِّصالات. مساء ذلك اليوم، ذهب سمير إلى "بن صالح"، وأبلغه بالأمر. على الفور، تم اعتقال الوَذِح، وخضع موبايله لعملية تفتيش دقيقة كشفت جانبًا من عمله. بعد ثلاثة أيام من التعذيب، اعترف بأن شخصًا ما جَنَّدهُ للعمل جاسوسًا لصالح المخابرات الأمريكية. ووردَ بين اعترافاته أنه قبض ثلاثة آلاف دولار من ذلك الشخص. قال إنه سلَّم المبلغ لأُسرته لتغطية نفقاتها اليومية، منذ التحاقه بالجماعة قبل خمسة أشهر. في اليوم

السابع لاعتقاله، اعترف بأنه تلقى مبالغ مالية أخرى من الشخص الذي جَنَّدهُ.

ضاعف المسلَّحون من تعذيب الوَذِح، وبعد ثلاثة أيام أعدموه رميًا بالرصاص. أخذوا جثته إلى مدخل أقرب تجمع سكاني محلِّي، وربطوها هناك على جذع شجرة. كُتِبَ على الجثة جريمة صاحبها: "خائن أعان الكُفَّار على قتل المُجاهِدين".

صَرَفَ "الأمير" عشرين ألف ريال مكافأة لـ"مُخبره"، الذي تمنَّع في البداية عن أخذها، ثم دَسَّها في جيبه بعينين خفيضتين. عَرَضَ عليه "بن صالح" أن يأخذ إجازة ويذهب لقضاء أسبوع بين أهله، فقال إنه قد وهب نفسه لـ"الجِهاد في سبيل الله". ثم أضاف، بارتباك وتلعثم، أنه ليس لديه أحد ليذهب إليه؛ فأبوه وأمه متوفَّيان، وشقيقاته الثلاث مُتزوِّجات، وهو طَلَّقَ زوجته منذ سنوات.

– إذن، سنزوِّجك يا أبا الليث.

هتف "بن صالح".

ابتسم سمير ابتسامة من أدرك حجم التقدير الذي أصبح يُكِنّه له "الأمير".

– سأبحث لك عن زوجة، وسأخصِّص لكما سكنًا في قسم العائلات.

– حفظك الله وأبقاك أيها الأمير. أنت أدرى بما هو مناسب لديننا ودنيانا، فأنت ولِي أمرنا، ونحن طوع أمرك، ورهن إشارة من بنانك.

بعد ثلاثة أيام، استدعى قائد الجماعة "مُخبِره"، وأبلغه أنه وَجَدَ له عَروسًا. تهلَّل وجه سمير، وأعرب عن سعادته. أخبره "الأمير"، برصانة:

– هي أخت نائبنا الشيخ أبي البيداء، الذي زار أُسرته، قبل أسبوعين، وعاد ومعه أخته، وقد رأيت أنها تصلح زوجة لك.

عَلَّق سمير، وهو يخفض رأسه:

– حفظك الله أيها الأمير. هذا الزَّواج سيزيدني إخلاصًا، وتفانيًا في الجِهاد لإعلاء كلمة الله ونُصرة دينه.

– اِعلم أنك ستتزوج امرأة من أُسرة فاضلة، وأنك ستُناسِب واحدًا من كبار المُجاهِدين وأقدمهم، وأكثرهم زُهدًا وعلمًا، وأشدهم ثباتًا وإقدامًا.

– هذا نسب يُشرِّفني ويزيدني فخرًا أيها الأمير، والرأي ما تراه.

– هي مُطلّقَة، منذ عام تقريبا، وباعتباري أميرك وأميرها، ولِي أمركما، فقد قرَّرتُ أن أزوِّجك بها اليوم، وأنا سأدفع المهر من بيت مال المسلمين.

– لا رأي لنا ولا قرار، بعد رأيك وقرارك أيها الأمير.

– بارك الله فيك يا أبا الليث. المرأة تنزل في سكن منفصل جوار سكن أخيها، في قسم العائلات. وأنا تحدَّثت بهذا الأمر، أمس، مع الشيخ أبا البيداء، وهو موافق على زواجك من أخته. والآن سأستدعيه، ونَعْقِد بها لك، وبعد ذلك تذهب إليها من فورِك، في سكنها، فسيصبح سكنك منذ الليلة.

وقف سمير واتَّجه إلى قائده، وأخذ يقَبِّل رأسه ويده، ثم قال له بتذلُّل وخضوع بالغين:

– لن يُضيِّعنا الله وأنت فينا أيها الأمير.

جاء "أبو البيداء"، بقامته الطويلة، ولِحيته الكَثّة والعريضة. صافح "بن صالح" و"سمير"، وأكد موافقته على الزَّواج. لم يتحدَّث عن المهر المطلوب، أو أي مطالب أخرى. فقط، اشترط معاملة شقيقته "وفقًا لكتاب الله وسنة رسوله".

قال سمير، بقلب واجف وصوت مختلج:

– إن شاء الله، سأكون عند حسن ظَنّ الأمير، وعند حسن ظَنِّك يا شيخنا الجليل، ولن تجد مني ما يزعجك، أو ما قد يُزعِج العروس؛ لن أهجرها، ولن أؤذيها ولن أضربها..

– قلت لك عاملها وفقًا لكتاب الله وسنة رسوله؛ اهجرها في المضجع، واضربها حيث ينبغي أن تضربها تأديبًا لها. أنا أعرف أنك مُخلِص للجِهاد، وقديم في مسيرته، وهذا هو ما يُهمَّني.

طلب منهما "بن صالح" أن يمدَّا يديهما ويتصافحا. ثم غَطَّى يديهما بمَشَدَّته، وعَقَدَ الزَّواج، وفقًا للتقاليد الإسلامية، بحضور شاهدين. حينها، عَرَفَ الرَّجُل الهارب من ماضيه أن المرأة التي سيتزوَّجها تُدعى جليلة.

أمسك "أبو البيداء" بيد سمير، وأخذه إلى سكن العروس.

18

وَصَلَ "أبو البيداء" إلى سكن أخته وهو يمسك بيد سمير. سَمِعت جليلة صوت أخيها مع شخص غريب في الخارج، ففتحت الباب، ثم عادت سريعًا إلى المطبخ الصغير، حيث توارت عن الأنظار. دخل "أبو البيداء"، وطلب من صِهرهُ أن يَدخُل. عَبَرَ سمير عتبة الباب، مُرتَبِكًا ويتصبَّب عرقًا، وجلس حيث أشار صِهرهُ؛ على فرش رَثّ ومهلهل.

كان "أبو البيداء" قد أبلغ أخته، مساء اليوم السابق، أنه سيُزوِّجها من أحد "المُجاهِدين" اختاره لها "الأمير"؛ لكنها لم تتوقَّعَ أن ذلك سيتم بهذه السرعة. وعندما فتحت له الباب، لم تكن تعرِف أن الشخص الغريب القادم برفقته هو من سيكون زوجها.

من مكانها في المطبخ، أصاخت السمع، محاولة معرفة ما يجري. سَمِعَت أخاها يغلق الباب، ويطلب من الغريب أن يجلس، فخمَّنت أن الأخير

سيجلس على الفرش الاسفنجي المهترئ المُمتدّ خلف الجدار الذي يفصل الغرفة عن المطبخ. لم يكن هناك غير فرش آخر ممتد في رأس الغرفة، والمنطقي أن يجلس عليه أخوها؛ كون المكان يُظهِر جانبًا من المطبخ.

بصوت أجشّ، قال "أبو البيداء" مخاطبًا "سمير":

– يا أبا الليث، ارفع رأسك، ودعك من الخجل، فأنت الآن في بيتك، وجليلة أصبحت زوجتك على سنة الله ورسوله، وهذا بفضل الله، وفضل الأمير، وفضل أسبِقيَّتك في الجِهاد.

فوجئت جليلة بما سَمِعَت، وأَحسَّت قلبها يَدُقّ بقوة بين ضلوعها؛ دون أن تعرِف ما إذا كان ذلك فرحًا أم خوفًا. وقف "أبو البيداء"، وبعد ثلاث خطوات وجدته أمامها، في المطبخ. كانت ترتدي ملابس واسعة، وتُغَطِّي رأسها بـ"مَقْرَمة"(4). شَعَرَ الأخ بسعادة وهو يشاهد أخته تُغطِّي جسدها وفقًا للتعاليم الدِّينية. قال لها، بصوت سمعه الجالس في الغرفة الملاصقة:

– لقد عَقَدتُ قِرَانِك على أخينا المُجاهِد أبي الليث سمير اليمني، وقد جئت به معي. هو الآن زوجك على سنة الله ورسوله، فاتبعيني إلى الغرفة لتتعرفي عليه ويتعرف عليك.

تسمَّرت في مكانها غير مُصدِّقة ما يحدث. استدار أخوها عائدًا إلى الغرفة، وحين تأخرت عن اللَّحاق به، رفع صوته، يناديها:

– تعالي يا جليلة! لا تستحي، تعالي سَلِّمي على زوجك!

([4]) المَقْرَمة: قطعة قماش، وبشكل أدق منديل كبير تستخدمه المرأة اليمنية لتغطية رأسها.

تفقَّدت هيئتها كي تتأكد من أنها تُغطِّي رأسها ووجهها بشكل جيد. بخطى وئيدة، دخلت الغرفة، وهي مُطرِقةً الرأس.

سكنها عبارة عن غرفة واحدة، مُلْحَق بها حمام ومطبخ. ولضيق الغرفة، فإنها تضع شنطة ملابسها، المتوسطة الحجم، في ركن المطبخ. في الغرفة فرشان إسفنجيان مهترئان، وبطانيتان رثَّتان تفوح منهما رائحة كريهة هي خليط من روائح أجساد عدة عاشت هنا. جَلَسَ سمير على أحد الفرشين، فيما جلس "أبو البيداء" على الثاني المُمتدّ في صدر المكان. حين دخلت جليلة جلست جوار شقيقها، قرب المدخل المؤدي إلى المطبخ والحَمّام. بتجهُّم، قال أخوها وهو يرمقها بنظرة سيطرة:

– هذا زوجك، أبو الليث سمير اليمني. اختاره لكِ الأمير، وعَقَدَ قِرَانكما، قبل قليل. هذا زوجك أطيعيه ونفِّذي أوامره، وهو سينتقل للعيش معكِ هنا.

ثم نهض وغادر، وهو يقول لهما:

– بارك الله زواجكما وجمع بينكما على خير. أستودعكما الله.

أغلق سمير الباب خلف صِهرهُ، ثم استدار بوجه نحو الغرفة. كانت جليلة لا تزال جالسة في مكانها مغطاة الوجه، ومُطرِقة الرأس خجلًا. لم يعد إلى المكان الذي كان يجلس فيه، بل جَلَسَ جوارها، حيث كان يجلس صِهره. نظر إليها وقال بسعادة بالغة:

– لا تستحي، خلاص أنا قدنا زوجك!

وجمت تسترق النظر إليه بعينين متصنِّعة للخجل، أكثر منها خجولة. طلب منها أن تكشف وجهها، ففعلت بعد تمنّع قصير. ظهرت بوجه مدوَّر، وفم واسع، ووجنتين مكتنزتين بياضًا. حدَّق فيها، فوجد أنها ليست جميلة؛ لكنها أكثر من ممتازة بالنسبة لحياة المُخيِّم و"الجِهاد". تأمَّلها أكثر، وعندما تأكد أنها ليست امرأة بشعة، انهمك يبحث عن مواضع الجمال فيها. لاحظ

أن لديها قامة مناسبة، وعنق طويل، وصدر ممتلئ. ظَلّ يُمعِن النظر فيها، ثم أخبرها، بشكل مباغت، أنه سيذهب ليأتي بأشيائه وملابسه من الغرفة التي كان يسكنها.

– أشتي أرجع وأنتِ قد جَهَّزَت نفسك وتزيَّنتِ كعَرُوس.

غادر وقلبه يكاد يطير فرحًا؛ ليس لأنه تزوَّج فحسب، بل ولأنه انتقل للسكن في "قسم العائلات". بعد ربع ساعة، عاد يَحمِل كيسًا فيه ملابسه؛ أربعة أثواب تقليدية، قميصان، وطاقما ملابس داخلية؛ كلّها كالحة وقديمة.

19

مضى الأسبوع الأول وسمير في سعادة بالغة؛ مع امرأة آنست وحشته؛ لكنها لم توقف هروبه المستمر من الماضي، ولم تُروِّض حالة الخوف والفزع التي داخله.

لم ينقطع عن تأدية الصلوات الخمس في المسجد، وما كان له أن يفعل؛ ذلك أن أمرًا كهذا يعتبر جريمة لا تغتفر في المُخيّم. كان يتحرَّك باعتباره عَرِيسًا جديدًا. وكان المسلَّحون يتجهون إليه مهنئين. أَحسَّ أن كثيرين يحسدونه؛ على قربه من "الأمير"، وتزويجه له. دفعه ذلك إلى المثابرة والإخلاص بشكل أكبر لقائد الجماعة.

انتهى الأسبوع الثاني من زواجه وهو أكثر سعادة، وأكثر نشاطًا. نشأ بينه وبين زوجته نوع من المودَّة. لم يكن ذلك غريبًا؛ فهو من ذلك النوع من الرِّجَال الذين تَطمَئِنّ لهم النساء. أدركت جليلة حالة الغربة التي يعيشها، فشعرت نحوه بشيء من الألفة. وإلى هذا، فحالة الاستكانة والانسحاق الواضحة عليه تدفع نحو التعامل معه بنوع من الرحمة. لم تتأسس علاقتهما

على الحُبّ، بل على خليط من الشفقة والازدراء. ولأن مشاعر الشفقة كانت متبادلة بينهما فقد توطَّدت علاقتهما سريعًا.

مطلع الأسبوع الثالث لزواجهما، وعدته جليلة بمفاجأة قالت إنها ستنتظره بها عند عودته في المساء. عاد مُبكِّرًا إلى سكنه، مدفوعًا بحالة من اللهفة. وجدها ترتدي "الجِلباب الأسود". سألها عن المفاجأة، فطلبت منه أن ينتظر. دخلت المطبخ، حيث حلَّت "الجلباب"، وعادت وهي بملابس عارية، وتتصنَّع شيئًا من الخجل. فغر فاهه وهو يشاهدها على ذلك النحو. كانت تخشى من نوبة غضب مفاجئة قد تصيب زوجها، لهذا ارتدت بنطلونًا تحت التنورة. شعرت بسعادة أنه لم يغضب. بعد العشاء، خلعت البنطلون، فظهر ساقاها وأجزاء من فخذيها المُكتنِزين إثارة وفتنة. كانت تُعوِّض افتقارها للجمال بالتبرجِ والتَّغَنُّج الجنسي، بالاهتمام بجسدها، وتدليل مناطق الإثارة فيه. طلب منها أن تجلس جواره، ثم أمسك يدها، وقال، ويده ترتعش:

– هذي الملابس جعلتكِ أكثر جمالًا، وأظهرتكِ أصغر كثيرًا مما كنتِ عليه. أنتِ حلوة، وملابسك جميلة ذكَّرتني بحياتي السابقة في المدينة. بس ضروري تعرِفي إنه ممنوع ارتداء هذي الملابس هنا في المُخيَّم، لذلك لا تلبسيها أمام أيّة امرأة، ولا حتى أمام ابتهال، زوجة أبي البيداء.

– أني دارية. لا تخاف، أني باكون ألبسها لك أنت بس. أني جبت معي بعض ملابسي، وهي كلَّها هكذا، ملابس مدينة، مش مثل ملابس النِّسوان حَقَّكم اللي هنا. لكن من لمَّا جئت إلى هنا ما ألبس إلا الملابس اللي اشتراها لي أبو البيداء، وهي ملابس مثل اللي تلبسها نسوان المُخيَّم. أني الصِّدق ضبحت منها؛ لأنها تخلِّيني عجوزة وقروية.

سألها عما إذا جلبت معها من المدينة ملابس كثيرة، فأخبرته أنها أتت بنصف شنطة منها. ابتسم لها بفرح غامر، وضغط يدها بحنان متواطئ. كانت

ارتعاشات يده قد خَفَّت؛ لكن الارتباك والقلق كانا لا يزالان واضحين عليه. كان خائفًا من أن يعلم "الأمير" بالملابس التي ارتدتها زوجته. اجتاحه فزع كبير بمجرَّد ما تذكَّر "الأمير"، وفكَّر في غضبه المتوقع. بذعر، سحب يده من على يدي جليلة، وطلب منها أن تقوم لتغيير ملابسها. قَطَّبَ حاجبيه، وأمرها بأن تُجَهِّز الملابس التي جاءت بها من المدينة لأنه سيأخذها معه، غدًا، كي يتخلَّص منها في مكان بعيد عن المُخيَّم.

فوجئت بالهلع الذي ظهر على ملامحه. حاولت تهدئته، وتمكَّنت من ذلك بقليل من الجهد والكلام. طمأنته أن أحدًا لن يعرف شيئًا عن ملابسها؛ لأنها لن ترتديها إلا له فقط، في المساء. أطال النظر فيها، وهو يَزُمّ شفتيه وحاجبيه. أمسك يدها وقال، وغمامة من الخوف مازالت تُحلِّق عليه:

– أنا خائف تشوفك بعض نسوان المُخيَّم وأنتِ لابسة هذه الملابس.. بعدين الله أعلم كيف با يعملنا الأمير.

أكدت له أن أحدًا لن يرى ملابسها تلك. أقسمت أيمانًا على ذلك، فانقشعت عن وجهه غُمَّةُ الفزع، واستحالت فجأة إلى دفقة من السعادة والفرح. ضَمَّها إلى صدره، وتحسّس ساقيها وفخذيها العاريين، وبعض مناطق الفتنة في جسدها. مال عليها بشكل أكبر، ومرَّر يده اليمنى على فخذيها، وهو يبدي إعجابه ببياضهما وبامتلائهما اللحمي. قالت له إن صديقاتها كن يقلن لها إن ساقَيْها فاتنتان، وتثيران حتى النساء. سألته عن صحة ما يتردَّد من أن ساقَي المرأة من أكثر ما يثير شهوة الرَّجُل، فقال إنه لم يسمع بهذا من قبل، لكنه يُفضِّل "الأفخاذ". لم يقل إن أفخاذ النساء أكثر إثارة لشهوته، بل قال إنه يُفضَّلها، كما لو أنه سيأكلها! أخذ يُمرِّر يده على فخذيها، ويخبط ربلتيهما المشدودتين، ويقول ببلاهة:

ما شاء الله!.. لحم.. لحم..

ارتسمت ابتسامة تائهة على وجهها، لأنها لم تعرِف ما تقول له.

كان سعيدًا بتلك اللحظات؛ فقد أَحسَّ بأنه يجلس مع امرأة حقيقية، بعد سنوات من الحرمان. خامره خوف من أن يكون في حُلم. تلمَّس يديها وفخذيها كي يتأكد من أنها حقيقية. تسارعت دقات قلبيهما، كما لو أنهما عاشقان مُراهِقان التقيا بعد أعوام من الحب العذري. قطعت جليلة تلك اللحظة المُرتَبِكة بسؤال وجهته إليه:

– يعني، ما باتزعل لو أكون ألبس لك هذي الملابس؟!

– لا، ما بازعل، بس انتبهي تشوفك أيّ واحدة!.. انتبهي..! باتعملي لنا مشكلة كبيرة!

– لا تخاف، باكون ألبسها لك في الليل بس.

– لما تغسِّليها كوني ضَحِّيها في الحمّام، مش خارج.. انتبهي.. انتبهي.. وكوني خَبِّئيها في شنطتكِ، عشان إذا جاءت أيّ واحدة من نسوان المُخيَّم تزورك ما تشوفها.

– ولا يهمك.. لا تخاف.. لا تُوَصِّي حريصًا!

أظهرت خجلًا مُتصنَّعًا، وهي تراه يُنَقِّل نظراته على مناطق العري من جسدها. احتضنها، وأخذ يُقَبِّلَها بنهم جائع. سحب الفرش الثاني، وقَرَّبَهُ من الفرش الذي كانا يجلسان عليه. انتهى خجلها المُتصنَّع، بتأوهات وصرخات مكتومة. اِستلقيا على ظهريهما وغطَّيا جسديهما العاريين بالبطانية ذات الرائحة الكريهة. أجال نظره في المكان، وابتسم مُتعمِّدًا جعلها تشاهده وهو يفعل ذلك.

– ليش تضحك؟!

سألته.

رَدَّ بابتهاج:

– ملابسك الداخلية حلوة ومثيرة، خاصة وهي في المُخيِّم! مش عارف أيش من ملابس داخلية تلبسها النِّسوان هنا؛ لكن أنا متأكد أنها مش مثيرة مثل ملابسك هذي.

– النِّسوان حَقَّكم ما يلبسين ملابس داخلية، لا مثيرة ولا غير مثيرة. قبل أمس، شفت ابتهال، زوجة أخي أبو البيداء، لابسة سروال طويل، من حق زماااااااااان، حق نسوان القرى. أكيد أنت تعرف هذي السراويل؛ تجي واسعة وطويلة الى هنا (أشارت إلى مرفق قدمها). نسوان المُخيَّم يلبسين هذي السراويل بدون ملابس داخلية تحتها، وبدون سنتيانات فوق. أنت أيش تشتيني أكون ألبس لك؟! ملابسي الداخلية هذي، وإلاَّ السراويل حق زمااااااااان؟!

– أجاب، وسعادة طاغية تُكَلِّل ملامحه:

– كوني البسي ملابسك هذي، بس بشرط ما حَدّ يشوفها.

– ولا يهمك.. لا تخاف..

فجأة، شَرَدَ ذهنه.

– ما لك سارِح؟! بأيش تفكِّر؟!

– الأمير!.. المفروض انه هو اللي يستمتع بهذي الملابس حَقِّكِ.. مش أنا! تقولي أيش بايعمل لو يشوفكِ.. قصدي لو يشوف واحدة لابسة هذي الملابس؟!

– بايلَجِّج(5)!!

– ضحكت وهي تقول ذلك.

([5]) سيسيل لعابه.

– والله حرام ان الأمير ما يستمتع بهذي الملابس! لو أقدر باخَلِّي نسوانه يلبسين له هذي الملابس حَقِّكِ، عشان يستمتع. هو أميرنا، وضروري نكون حريصين عليه، ونعمل ما يسعده.

– بس، الملابس مش هي المهم.. المهم اللي تلبسها.

غمزت برمش عينها اليمنى وهي تقول ذلك.

– أنا عارف ان ما فيش مرة(6) مثلك؛ بس انتبهي تشوف ملابسك هذي أيّ واحدة من نسوان المُخيَّم.

أكدت له مجددًا أن أحدًا لن يرى ملابسها تلك، ثم اقتربت منه، حتى لامس جسدها جسده. مرَّرت يمناها على أجزاء من جسده حتى وصلت إلى قضيبه، فأمسكت به ورَاحت تداعبه. حدَّقت فيه بعينين ناعستين، وطلبت منه أن يطمئن وينسى أمر ملابسها.

كان قلبه يرتجف بين ضلوعه. وحين سحبت يديها من بين فخذيه، قال لها، بجدِّية:

– كلِّميني عن نفسك؛ لكن بصراحة! نشتي نكون صريحين مع بعضنا.

– مات أبي قبل ست سنوات، وما معه إلاَّ أبي وأخي مُحَمَّد (تقصد أبا البيداء). مُحَمَّد مشى من البيت قبل موت أبي بثلاث سنوات. سيَّبنا، وراح مع المُجاهِدين، يُجاهِد. كان يزورنا بين فترة وفترة. وبعد موت أبي بشهر، جاء يزورنا، ورجع مشى؛ رجع يُجاهِد.

– أيوه..؟!

– عشت أني وأمي براتب أبي، وكان ما يكفينا. إيجار الشُّقَّة غالي، وأمي تخَزِّن قات كل يوم. أني تزوَّجت، يمكن قبل أربع سنوات، على واحد ابن كلب.

---

(6) لفظة شعبية دارجة تعني: امرأة.

مُدَرِّس اسمه عبد الجبار. أمي زوَّجتني عليه واني عمري 17 سنة، وهو كبير، أكبر مني، وهو طَلَّقني قبل سنة. طبعا أني الآن عمري اثنان وعشرون سنة. جلست معه أربع سنوات، وبعدما طَلَّقني، رجعت عند أمي، عشت معها هي وزوجها؛ طبعًا أمي تزوَّجت قبل سنتين. ولمَّا جاء أبو البيداء أخذني من عندهم بالقوة..

– ليش طلَّقكِ زوجكِ؟!

– مريض، يتوهم!

– كيف؟!

– لأنه أكبر مني بـ 12 سنة، تجي له أوهام.

– أيش تقصدي؟! قولي لي الصِّدق! أشتيك تتكلَّمي معي بصراحة، وتأكدي أننا أحبك، وأننا سعيد بأن الله وفقني بكِ.

أطلقت زفرة طويلة محمَّلة بالحزن، ثم قالت:

– طَلَّقني لأنه مش واثق من نفسه؛ مرَّة يَشُكّ أن لي علاقة مع فهد، بن جارنا، ومرّة يَشُكّ بواحد من حارتنا اسمه مفيد، ومرّة يَشُكّ بفكري، بن أخو زوجِ أمي.. كلَّها أوهام، وهو داري أنها أوهام. بعدما رحت بيت أمي حاول يرجِّعني، بس أني رفضت، وطلبت منه الطلاق.

– أيش خلاه يَشُكّ بكِ هكذا؟!

– أصلًا هو مش حلو، وأكبر مني بكثير، واني شابة وحلوة.. وهذا كان مُسَوِّي له مشكلة، ومشكلته أنه داري أنه ما ملا عيني. وبعدين، هو ما كان يقوم بواجباته الزوجية على الفراش!

قالت ذلك بغنج وابتسامة غامزة.

– صِدق صِدق؟!

سأل بودّ، محاولًا تطمينها.

– مَرَّة جاء وفهد عندي يصَلِّح دبة الغاز. زعل، وشَكّ لأني كنت مغلقة باب الشُّقَّة. غلَّقت الباب بدون شعور، وهذا مش معناه أني كنت أعمل حاجة مع فهد! وبعدين فهد هذا عاده صغير، عمره عشرين سنة بس.

– أيوه..؟!

– ومَرَّة شاف مفيد خارج من العمارة فزِعل.. ومَرَّة شافني راكبة بسيارة منصور، أخو صاحبتي، وصلني معه من السوق، فزِعل وشَكّ.. كلّها شكوك وأوهام!

– وليش أبو البيداء أَصرَّ يشُلِّك معه للمُخيَّم؟!

– هو جاء فجأة، وحَصَّلني جالسة مع فكري، في بيت أمي، وباب الشُّقة مغلَّق، واني لابسة ملابس عادية. فكري عاده صغير، عاده كَمَّل الثانوية، ويومها جاء يشتي يخَزِّن مع عمّه، زوج أمي، هو عمّه أخو أبوه، وما يصح أقول له لا يدخُل بيت عمّه! وفكري هو اللي غلَّق باب الشُّقَّة، وأصلا مش معقول كنا نِخَلِّيه مفتوح، حتى لو احنا وحدنا في البيت.

– أيوه؟! كَمِّلي!

– المهم، فكري جلس يخَزِّن، واني جلست جَنْبُه أشوف التلفزيون، لأن التلفزيون في المجلس. قام فكري جاب لي قات، وحلف يمين أني أخَزِّن معه. خَزَّنت معه، لأنه صغير. وبعدين هو من الأُسرة، وأني كنت لابسة ملابس عادية. المهم، جاء أخي أبو البيداء وجِنن؛ صَيَّح، وضربني. قال إن إحنا كنا في خلوة غير شرعية، وأِنّ كنت مُتَبَرِّجة بملابس خليعة، وأن فكري مش عارفة أيش كان يعمل معي. كلام كلّه كذب.

– طيب ليش جلستي تخَزِّني مع فكري وأنتِ لابسة ملابس خليعة، وباب الشُّقَّة مُغَلَّق؟!

– خليعة؟! قد أنت مثل أبو البيداء؟! قلت لك كنت لابسة ملابس عادية. صحيح أنها قصيرة، بس مش خليعة. أخي عنده كل شيء خليع وعورة، وأنت تعرفه. أمي وعمي خرجوا، وبعدين جاء فكري فجأة، وأني قد كنت لابسة ملابسي العادية. وبعدين، فكري من الأُسرة، وعاده صغير؛ أيش فيها لو خَزَّنت معه، أو شاف أصماحي(7)؟!

اقتربت من سمير؛ تحسَّست جسده، وطلبت منه تأجيل أسئلته إلى وقت آخر:

– مش وقت هذي الأسئلة.. خَلِّينا نعيش ونستمتع بلحظاتنا الحلوة.

قضى الرَّجُل الهارب من ماضيه أيامًا سعيدة مع جليلة، لاسيما وقائد الجماعة أعفاه من الخروج مع عشرات المسلَّحين الذين اتَّجهوا إلى منطقة تبعد عن المُخيَّم نحو مائة وأربعين كيلومترًا، لمشاركة مسلَّحي القبائل في القتال ضد الحوثيين ومنع تقدمهم لإكمال سيطرتهم على تلك المنطقة.

كان "بن صالح" قد سحب مسلَّحيه من المعارك؛ لكن خوفه من وصول مسلَّحي الحوثي إلى مُخيَّمه أجبره على الدفع التدريجي بمقاتليه إلى جبهة المواجهات. أرسل أولًا 50 مسلَّحًا، ثم دفع بعدد آخر، حتى وصل إجمالي مسلَّحيه في الجبهة إلى 250 مقاتلًا. وفي ظهيرة مشمسة، عاد منهم ثمانون فقط، ومعهم اثنا عشر جريحًا، وسبع عشرة جثة، تم دفنها في مقبرة المُخيَّم. روى العائدون تفاصيل ما جرى. قالوا إنهم لم يستطيعوا سحب جثث بقية القَبَلِي؛ بسبب قوة اندفاع الحوثيين والجيش المتحالف معهم.

---

(7) لفظة شعبية دارجة، مفردها "صمح" وتعني: ساق.

تجرَّع "بن صالح" مرارة الهزيمة. وحين تجدَّدت المواجهات مع الحوثيين، دعم رِجَال القبائل بمائة وخمسين من مسلَّحيه، بينهم مجيب البَالِع. أبدى سمير رغبته فى المشاركة في القتال؛ إلاَّ أن قائد الجماعة أمره بالبقاء معه في المُخيَّم. تَنَفَّسَ سمير الصُّعداء، وصلَّى لله كي لا يعود مجيب. اليوم التالي، نذر أن يصوم عشرة أيام حمدًا وشكرًا لله، إذا قُتل ابن حَيِّه القديم في المواجهات.

20

لفترة طويلة، ظَلّ ناصر قاسم يتحدَّث عما أصابه من فزع حين شاهد مقطع الفيديو الذي وَثَّق جريمة إعدام الجنود السبعة عشر. قال إنه أصيب بالفزع لأن المتشدِّدين أظهروا ذلك القدر البالغ من التَّوحُّش بهدف اجتراح "مسيرة بطولية" للإرهاب الدِّيني، الذي استنهضوه عبر إعادة ابتكار الماضي بأكثر الطرق انحرافًا وتشويهًا. أعاد التفكير في ذلك التَّوحُّش، فانتهى إلى أن جانبًا منه يعود إلى تحرُّر طاقة العنف والانتقام الكامنة في المتطرِّفين. كذلك، توصَّل إلى أن تصعيد التعصب والتحشيد الطائفي في المنطقة العربية جعل القتل واقعًا يوميًا معاشًا، وخلق ذهنية ونفسية مجتمعية متماهية مع جرائم الإرهابيين، ومُتفهِّم لوحشِيَّتهم، أو مُشجِّعة لها، أو مُنخرِطة فيها. اعتمادًا على ذلك، أكد أن الطابع الدِّيني والشخصي للتحشيدات الطائفية فَجَّرَ حالة الوحشية الكامنة في أبطالها الرئيسيين، وفي امتداداتهم المجتمعية.

استوقفته الطمأنينة التي أظهرها الإرهابيون وهم يقتلون الجنود. بعد تفكير طويل، كتب في دفتر ملاحظاته أن "تلك الطمأنينة ما هي إلاَّ انعكاس لنوازع الخوف وعدم اليقين التي يعيشها الإرهابيون". تذكَّر المبالغة التي يُبدِيها المتطرِّفون عند حديثهم عن الدِّين، وادعاءهم العمل على حمايته وإعلاء

كلمته، فكتب أن ذلك "تعبير عن غياب الإيمان لديهم، لا غيابه عن المجتمع".

فَشِلَ في نسيان مشهد ذبح الجنود. وضمن تفكيره المستمر في الجريمة، أرجع قسوة الإرهابيين إلى تشظِّياتهم النفسية، جراء عيشهم بأرواح مُعذَّبة ومسحوقة. تذكَّر ما قاله نيتشه: "هناك حيوانات متوحشة حبيسة في كل منا". وإذ داوم على ترديد ذلك، كان يضيف إليه:

– الإرهابيون حرروا الحيوانات المتوحشة الحبيسة داخلهم، وسلَّطوها على مجتمعاتهم.

في مرحلة لاحقة، توصَّل إلى أن الإرهابيين يستمِدُّون وحشيتهم من العنف والقسوة الموجودة في الدِّين. قال إن الإرهاب بمثابة إعلان لفشل الدِّين في القيام بوظيفته التقليدية القديمة، وتأكيدًا على هشاشة الطمأنينة التي يخلقها في نفوس أتباعه. حاول فهم الأسباب التي جعلت حياة الورع والتَّقشُّف الدِّيني خالقة للتَّطَرُّفُ، ومُنتِجة للإرهاب؛ بعد أن كانت مانحة للرضا، والطمأنينة، والسلام الروحي.

21

مع نهاية الأسبوع الثالث لزواجهما، اعترفت جليلة لسمير، استجابة لإلحاحه، بعلاقاتها الجنسية مع فكري، وفهد. حكت له كيف أن أخاها، "أبو البيداء"، وَصَلَ إلى شقَّة أمها بعد دقائق من ممارستها الجنس مع فكري. قالت، وهي ترمق "سمير" بعين غامزة:

– جاء أبو البيداء واني بحالة الجِن!

اعترفت بأنها كانت في وضع غير لائق، وسردت تفاصيل ما جرى.

سَمِعَت قرعًا غريبًا على الباب، فنهضت من جوار فكري، وأصلحت من هيئتها على عجل. سارت نحو الباب وهي متعبة، شبه ناعسة، وآثار أحمر الشفايف في أجزاء متفرقة من عنقها، بطريقة تؤكد أنها تعرَّضت لموجة قُبَل محمومة. فتحت الباب، فتفاجأت بأخيها يندفع داخلًا. اختضت خوفًا وفزعًا.

ضحكت، وهي تروي لسمير كيف فرَّ فكري من الشُّقَّة، ثم اكتسى محياها ظلالًا من الحزن وهي تتذكَّر كيف ضربها أخوها بعنف حتى أدمى وجهها، واقتادها معه إلى المُخيَّم، بعد أن هدَّد بقتلها إن رفضت المضي معه بهدوء.

واساها سمير بكلمات عطوفة، وتمكن من جعلها تسترسل في الحديث عن نفسها وحياتها. بنبرة حزينة، أخبرته بأن زوج أمها تحرَّش بها كثيرًا، وأنه في إحدى المرات حاول ممارسة الجنس معها بالقوة، ما جعل أمها توافق على أن يأخذها "أبو البيداء" معه.

- أمي كانت تشتي تتخلَّص مني!

قالت بنبرة أشد حزنًا.

تعاملت مع زوج أمها باعتباره أبًا لها. كانت تَظهر عليه وهي بكامل زينتها، وترتدي ملابس ضيقة وقصيرة. في مساء صيفي، ضبطته يسترق النظر إليها بطريقة مُرِيبة. ابتسم لها ابتسامة ملتاعة؛ بطريقة شاب مراهق يُريد لفت انتباه بنت الجيران لاهتمامه الشهواني بها. رغم ذلك، فضلت أن تعتبر الأمر نوعًا من الحنان الأبوي. لكنها ظَلّت تضبطه وهو يُحدِّق نحو مناطق الفتنة والإثارة في جسدها. باغتته، مرارًا، مُتَلَبِّسًا بالتلصُّص على ثدييها النافرين، اللذين اعتادت استعراضهما بملابس نصف عارية؛ بهدف إظهار فتنتهما كامرأة مُطَلَّقة. كانت كلَّما تحرَّكت أمامه، أو قريبًا منه، تلمحه يَرمُق مؤخِّرتها.

مضى في مراهقته وتصابيه، حتى حاول التحرُّش بها، بشكل مباشر، عندما كانت معه بمفردها في الشُّقَّة. يومها، غادرت الأم لحضور جلسة "مِقيل" لدى إحدى صديقاتها، فتعامل الزَّوج مع ذلك باعتباره فرصة لممارسة الطيش، وإشباع وحش الرغبة الذي كان ينمو داخله ويدفعه نحو اللَّهو مع من هي في مقام ابنته. حدث الأمر قبل ستة أشهر. كان الوقت عصرًا، وكانت جليلة ترتدي قميصًا أبيض على بنطلون جينز أزرق؛ إذ بقيت على عادتها في التزيَّن عصر كل يوم، رغم انفصالها عن زوجها. جلست في الغرفة التي تنام فيها، لتفاجأ بزوج أمها يفتح عليها باب الغرفة، دون أن يقرعه، ويطلب منها أن تأتي لتُشارِكه "تَخْزِين القات"، في غرفة الجلوس. طلب ذلك، وهو يُحدِّق فيها بنظرات غير بريئة. اعتذرت، فألحَّ في طلبه. لم يذهب إلاَّ بعد أن انتزع وعدًا منها بأنها ستلحق به لمشاهدة التلفزيون معه، وليس لـ"تَخْزِين القات". كانت امرأة مُطَلَّقة تسير في بداية عامها الخامس والعشرين، فيما كان هو موظفًا حكوميًا متقاعدًا يُشارِف على دخول عامه السادس والخمسين.

دخلت غرفة الجلوس، وهي منقبضة ومتوتِّرة. ابتسم لها الكهل المتقاعد ابتسامة ضاعفت من ارتيابها. جلست قبالته، فطلب منها أن تقترب وتجلس إلى جواره، بذريعة مساعدته في تقطيف أغصان القات. انتقلت للجلوس حيث أراد، وبدأت تنفيذ المهمة التي طلب. وفيما هي منشغلة بذلك، فوجئت به يمُدّ يده إلى صدرها. انتفضت من مكانها فَزِعَة. حدَّقت فيه باندهاش وغضب، دون أن تنطق بكلمة. لاحت منه ابتسامة ماكرة، وسألها مندهشًا عن سبب انتفاضها وخوفها؛ وكأنه لم يكن يتوقَّع رِدَّة فعلها. ببرود، طلب منها أن تعود للجلوس بجواره، وكأن شيئًا لم يكن! لكنها غادرت مسرعة إلى الغرفة التي تنام فيها، حيث أغلقت الباب على نفسها، وراحت تبكي حتى عادت أمها.

اهتاجت الأم وهي تسمع ابنتها تروي تفاصيل ما جرى. قصدت غرفة الجلوس، وسُمِعَ صوتها وهي تشتم زوجها وتُوبِّخه بعبارات نابية. في البداية، أنكر ما حدث. وبعد أن طفح به الكيل من تلقِّي الإهانات، صرخ في وجهها:

– المفروض تِكَلِّمي بِنتكِ تكون تلبس ثيابًا محترمة ومُحتَشِمة، مش تخلِّيها تلبس ملابس خليعة، وبعدين ترجعي فوق رأسي!

مذاك، منعت الأم ابنتها من الظهور أمام الكهل المتقاعد بملابس غير مُحتَشِمة، أو البقاء معه في الشُّقَّة بمفردها.

شَعَرَ "سمير" بإثارة جنسية كبيرة وهو يسمع تلك التفاصيل. كان يفترض بالحكاية أن تثير غضبه، وتجعله يحيط زوجته بفيض من الحب والتضامن الإنساني؛ بيد أنها أيقظت ماضيه الملوَّث، واستنهضت كل ما هو دَنِيء فيه. اجتاحته رغبة جنسية عارمة. كان قد نسي هذا النوع من الرَّغبة الجارفة. تذكَّر المتعة، التي سبق أن تذوَّقها؛ عندما كان يجعل مريم، زوجته السابقة، تروي له تفاصيل ممارساتها الجنسية مع طالبي الجنس. جرفه حنين ملتهب نحو تلك المتعة، فطلب من جليلة أن تحكي له مغامراتها الجنسية، وساق لها ذات المُبرِّرات التي ساقها لمريم من قبل. أطلق على مغامراتها المحرَّمة اسم "حكايات أيام الطِّيش"، وأقنعها بأن حديثها عنها بصراحة دليل صدقها وحُسن تّوبتها من "طِيش الماضي". اكتسَى وجهها خجلًا؛ وخَفَّ بريق عينيها الملتمعتين. دون أن تعرِف شيئًا عن ماضيه، استجابت لإلحاحه، وراحت تروي له، بخجل مُتَصَنَّع، تفاصيل من مغامراتها المُحَرِّمة مع فكري وفهد، وأنكرت وجود أية علاقة جنسية لها مع مفيد ومنصور.

استيقظ سمير، اليوم التالي، سعيدًا، وقبل أن يغادر، عانق جليلة وطبع قُبلة عميقة على شفتيها. مساءً، عاد وهو يلهث حُبًّا وشوقًا إليها.

احتضنها وجسده يرتجف. أخذ يُقَبِّلها بلهفة، ويحدِّثها عن مدى حُبّه لها. تناولا العشاء، ثم هيئا نفسيهما للنوم، محاطين بسعادة لا توصف. أعاد سبب تحوُّله العاطفي المفاجئ إلى صراحتها في الحديث معه مساء الأمس. مرَّت عليه عشر دقائق وهو يتحدَّث مُحاولًا تطمينها. اعتبر صراحتها بمثابة اعترافات صادقة تؤكد تطهُّرها من "طيش الماضي". وإذ وَصَلَ إلى ذلك، طلب منها أن تواصل اعترافاتها، برواية تفاصيل أخرى عن علاقاتها الجنسية بفكري، وفهد. التفتت إليه بذهول وريبة، ثم تبدَّد ارتيابها بعد جُهد قليل بذله بهدف تطمينها. تلبية لإلحاحه، شَرَعَت في رواية تفاصيل عن إحدى مغامراتها مع فكري. وحين بدأت، مساء اليوم الرابع، تتحدث عن مغامرة ثالثة لها مع نفس الشخص، طلب منها سمير أن تروي له إحدى مغامراتها مع فهد. تأكدت أنه "شخص مش طبيعي". تحرَّرت من الخوف ومشاعر الخجل، وبدأت تسرد تفاصيل عما أراد. ومراعاة لرغبته في التنويع، كانت تحكي كل يوم مغامرة مع أحد بطلي حياتها الجنسية المُحرَّمة.

مع الوقت، صارت جليلة تحكي مغامراتها الجنسية بحماسة وتفاخر. تخلَّصت من أدنى مشاعر الخجل، عندما اكتشفت أن "سمير" يجعلها تَقُصّ عليه مغامراتها تلك كي يستطيع ممارسة العادة السِّرِّية قبل أن ينام. فبعد كل حكاية، كان يَدخُل الحَمّام لممارسة تلك العادة، التي أدمنها كوسيلة لاستراق المتعة أكثر منها أداة لتفريغ الشهوة.

كان يصيخ السمع لحكاياتها، باهتمام بالغ. وحين يَبلغ ذروة الإثارة يَدخُل الحَمّام ليفرغ شهوته بيده، ثم يعود إلى الفراش ويدير لها ظهره، وينام دون أن يَلمِسها. مساء اليوم الأول من اعترافاتها، اعتقدت أنه فعل ذلك غاضبًا منها ومن حكايات ماضيها. توقَّعَت أنه أجَّل غضبه إلى اليوم التالي؛ لكنه استيقظ في الصباح وهو منشرح الصدر، وطافح بمشاعر حُبّ صادقة

لها. أرادت معرفة حقيقة ما هو عليه. تمنَّعت عن الحكي مساء اليوم الثالث، فاستيقظ صباحًا بوجه عابس ومزاج مُعَكَّر. أيقنت أنه يستمتع بسماعها تروي مغامراتها الجنسية المُحرَّمة، فتعاملت معه بانفتاح أكبر. ولأنها لم تتمكَّن من فهم شخصيته، فقد اكتفت بالتعامل معه ك"شخص مش طبيعي".

داومت على حكي مغامراتها له قبل النوم. أثناء ذلك، كشفت له، دون قصد، عن وجود علاقة جنسية لها مع شخص آخر لم تكن قد ذكرته في اعترافاتها السابقة. في ذروة تدفُّقها، قالت، حين وصلت إلى الحديث عن فنون الممارسة الجنسية:

– فكري حلو، يِجَنّن، بس كان صغيرًا، ما فيش معه خِبرة. أني عَلَّمته كل شيء. كان ما يعرف يعمل حاجة؛ لكن يونس..

توقَّفت عن الكلام، وقد امتقع وجهها، بسبب زَلَّة اللسان التي أفلتت منها! أدركت أنها لم تتورَّط في فضح جانب آخر من مغامراتها المُحرَّمة فحسب، بل كشفت أنها كذبت على سمير حين أقسمت له على القرآن أن علاقاتها الجنسية السابقة اقتصرت فقط على فكري وفهد. بقيت واجمة، في انتظار ردة فعل سمير؛ بيد أنه فتح عينيه، وسألها بنبرة متلهِّفة:

– ما له يونس؟!

– امممممم.. المهم كانت أيام طيش.

– أنا فدا لكِ كَمّلي.

– والله مستَحِية.. لا تحرجني!

– مستَحِية ليش؟! احنا اتَّفقنا نكون صريحين مع بعضنا. كَمّلي، أنا فدا قلبكِ.

– يعني، ما باتزِعل مني؟!

– لا، والله ما أزعل منكِ أبدًا!

– الكلام ثقيل، يمكن يزَعِّلك.

– وعهد الله ما أزعل.

قالت، وهي تبتسم، وتغمز غمزة لعوبة:

– يونس كان فنااااان.. ابن الكلب كان يشتغل تمام. كان يُجَنِّن بي ويخلِّيني أصيح..

– أيش كان يعمل؟! كيف كان يفعلك؟ قولي لي بالتفصيل، أشتي أعرف من أجل أتعلَّم. أنتِ دارية إن إحنا أفنينا أعمارنا في الجِهاد في سبيل الله، ولم نأخذ نصيبنا من الدنيا، ولم نُفَقِّه أنفسنا في هذه المسائل، رغم أنها مهمة لإمتاع زوجاتنا. الله سبحانه وتعالى قال لرسوله: "ولا تنسَ نصيبك من الدنيا"، وعلينا أن نقتدي بتوجيهات الله لرسوله.

فاجأها قوله هذا. أيقنت أنها كانت دقيقة حين صَنَّفته كـ"شخص مش طبيعي". ظَلّت تُحدِّق فيه بريبة، وابتسامة تائهة تعلو محياها. بلكنة وديعة، أعاد طرح سؤاله، وبشوق ركَّز نظره عليها في انتظار رَدِّها. قرَّرت الذهاب معه إلى أبعد مدى في الصَّراحة. أجابت عن سؤاله باستفاضة. روت له الطرق والأساليب التي كان يُمتِّعها بها يونس. استمع لها بتركيز واهتمام كبيرين؛ لهذا واصلت الحكي، وحرصت على إضافة تفاصيل أخرى من مُخيِّلتها. حين انتهت، نهض من مكانه وهو يبتسم لها بامتنان. دَخَلَ الحَمّام، ثم عاد إلى الفراش وأدار لها ظهره، ونام دون أن يَلمِسها.

لم يهتم أبدًا بالظهور المُفاجئ لبطل جنسي جديد في حياتها. لم يهتم بانكشاف كذب اعترافاتها السابقة، أو جُرم القَسَم الكاذب الذي أدَّته على القرآن. كل ما أثار اهتمامه هو فُحُولة يونس، وقدرته على إشباع رغبتها الجنسية. وكل ما فعله معها هو أنه جعل يونس على رأس قائمة أبطالها

الجنسيين، وبدأ يُلِحّ في مطالبتها برواية تفاصيل أدق عن ممارساتها الجنسية معه. ركَّز اهتمامه على البطل الفَحل، وكَرَّس الجانب الأكبر من وقت ما قبل النوم لسماع بطولاته مع جليلة.

لم يحدث أن غَضِبَ سمير من جليلة، أو ذكَّرَها بالقَسَم الكاذب الذي أدته على القرآن. كان يعرف أنها كذبت عليه في اعترافاتها السابقة. تجاهل ذلك؛ لأن اهتمامه كان مُنصبًّا على إمتاع نفسه بعادة الاستماع لها وهي تروي مغامراتها الجنسية بانفتاح ودونما خوف أو قلق. كانت هذه هي متعته الوحيدة في الماضي الذي هرب منه؛ لهذا عاد إليها بلهفة وشوق مصحوبين باندفاع محموم.

22

بمجرَّد انتهائها من الحديث عن الأساليب والطرق الجنسية التي كان يونس يُمَتِّعَهَا بها، أَحسَّت جليلة بلذة بالغة تُشبه الوخز. صارت تستمتع برواية مغامراتها المُحرَّمة. وإذ أدركت ذلك بدأت في إشباع رغبتها عبر الاستمناء المُتخيِّل لوقع تلك الممارسات. جعلها الحكي تستعيد ملذاتها السابقة، وتُلامسها بالنَّشوة القديمة ذاتها. استمتاعها برواية تلك المغامرات بَلَغَ حَدَّ الإدمان المهووس، لاسيما بعد أن بدأت تستخدمها كقادح لتفريغ رغبتها، عبر ممارسة العادة السِرّية. أدركت أن الممارسات الحِسيَّة المُحرَّمة تولِّد أشدّ أنواع المتعة، رغم أنها تخلق إشباعًا وهميًا للرغبات.

في البداية، روت مغامراتها تلبية لإلحاح سمير، ثم لإمتاعه؛ وها قد أصبحت تستمتع بالأمر؛ إذ وجدت نفسها تصل، مع كل حكاية، إلى هياج جنسي شديد تعلَّمت كيف تُفرّغه بممارسة العادة السِرّية. كان سمير يخرج من الحَمّام وينام، فيأتي دورها لتفريغ شهوتها في الحَمّام أيضًا. كانت تخلع

ملابسها، وتجلس على دلو بلاستيكي متوسط مقلوب، ثم تبدأ في مُداعبة بِظرها وثدييها، وهي تحلم بأبطالها القُدامى، وتتذكَّر مغامراتها معهم. بعد أن تقذِف، تعود إلى فِراشها وقد هدأت وصار بإمكانها أن تنام.

بشكل شبه يومي، كان سمير يجعلها تروي له تفاصيل مغامراتها الجنسية، ولا يضاجعها إلا مرة واحدة في الأسبوع (كل خميس). ولأن رغبتها كانت أكبر من أن تكتفي بمرة واحدة في الأسبوع، قرَّرت استخدام الحكي لتفريغها. مع ذلك، ظَلّ يراودها أمل أن تحظى من زوجها الـ"مش طبيعي" بممارستين جنسيتين في الأسبوع، لكنها لم تحصل على ذلك أبدًا. في سبيل ذلك الأمل، حدَّثت سمير عن الأوضاع الجنسية المختلفة، واستخدمت المناطق المُحرَّمة في جسدها، بهدف إغرائه. باستغراب كاذب، قالت إن يونس كان يُفضِّل مُؤَّخِرتها. لم يُعاشرها يونس في مؤخِّرتها؛ لكنها تعمَّدت قول ذلك بشكل مُلْتَبِس، لاستثارة سمير، ومعرفة رَدّة فعله ورأيه في هذا الأمر. لكنها لم تجد منه رَدّة فعل واضحة. لم يغضب، ولم يطلب منها إيضاحًا. فقط، قال، ببرود وحياد تام:

- كثير يعجبهم الممارسة وَرَا؛ لكن هذا حرام شرعًا!

استفزَّها بروده القاتل. أرجعت حالة البرود لديه إلى عدم تعامله معها كزوجة حقيقية. تملَّكها إحساس بالغضب؛ لكنها تخلَّصت منه سريعًا، مفضلة إبقاء علاقتها مع سمير ضمن ما بلغته من صراحة ووضوح. أرادت مجاراته في البرود، والمضي معه في هذا الحديث إلى أبعد مدى. قالت، بثِقة كبيرة:

- من قال لك إنه حرام؟! أبو البيداء يقول إنه جائز.

فتح سمير عينيه وأغمضهما ثلاث مرات، بشكل متتابع وسريع؛ كتعبير عن تفاجئه بما سَمِعَ. أغمض عينيه وفتحهما للمرة الرابعة، وهو فاغر الفم، وسألها، بدهشة واستغراب المُنكِر وغير المُصَدِّق لما سَمِعْ:

– من قال لكِ إن أبو البيداء يقول إنه جائز؟!

– قالت لي زوجته ابتهال. لكن شوف، هذا سِرّ، انتبه تقوله لأي واحد! انتبه..! إذا طِلع هذا الخبر والله إن أخي بايقتلني، ويقتلك، ويقتل زوجته.

– لا تخافي، ما باكلِّم حَدّ. بس قولي لي، أيش قالت لك زوجته؟!

– بعدما شَلَّني معه إلى هنا، كنت أجلس مع زوجته طول الوقت. نجلس أني وهي نتكلَّم في أشياء كثير، كلام من حق النِّسوان. وبعدين أني قلت لها إن الزونج بونج (ضمَّت قبضتها اليمنى وأخذت تُحرِّكها جَيئة وذهابًا بمحاذاة خصرها، بشكل يفيد أنها تقصد الممارسة الجنسية) في اليونج فونج (رمشت بعينها اليمنى، وحركت رأسها، تشير إلى مُؤَّخِرتها) قد هو موضة. قلت لها إن كثيرًا من رِجَال ونساء المدينة يَحبُّون هذا الشيء. قالت: "حتى أبو البيداء يحِبّه". والله إنها دوَّخت بي. هي سكتت، ما كمَّلت كلامها؛ حسَّت أنها فضحت سِرًاّ خطيرًا. أني طمأَنتها، وقلت لها إن هذا سِرّ سيبقى بيني وبينها بس. بالعافية، اطَّمنت، وتكلَّمت.

صمتت جليلة وهي ترى اندهاش سمير وقد تحوَّل إلى ذهول، وفغرة فمه وقد ازدادت اتساعًا. بَلَعَ ريقه، وقال:

– أيش قالت بعد ما طمأَنتيها؟

– أكدت.. آاا.. والاَّ أقول لك، خلاص، ما فيش داعي لهذا الكلام.. انس الموضوع.. وانتبه تتكلَّم به مع أحد.

– أنا عادنا بعقلي، مش مجنون أتكلَّم بهذا الموضوع في مُخيَّم الإيمان والهجرة. كَمّلِي، لا تقلقي.

– خلاااااص، ما يحتاج. قد أنت عرفت الموضوع، وما يحتاج تفاصيل.

– أنا فدا لك كَمّلِي.

– المهم، ابتهال أكدت، بعدما طمَّنتها، أن أبو البيداء يعمل لها الزونج بونج في حَقَّها اليونج فونج. قالت إنه مُدمِن على حَقَّها اليونج فونج، ويَحِبّ يمارس فيها أكثر مما يمارس في حَقَّها البوب قونج (أشارت إلى ما بين فخذيها).

– أيوة..؟!

قال سمير، وهو ما يزال فاغر الفم.

– قالت إنها في البداية رفضت، بس أبو البيداء جلس يرَفِّس عليها لمَّا سمحت له بذلك. قالت إنه قال لها إن الزونج بونج في اليونج فونج جائز، ومش حرام، وجاب لها أدلة تؤكد ذلك؛ جاب لها أدلة من السُّنَّة، ودليل من القرآن. جاب لها الآية التي تقول: "نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم"..

أغلق سمير فمه، وقال:

– وأنا أقوووووول ليش بعض الإخوة المُجاهِدين يقولون إنه يجوز للرجل أن يُعاشِر زوجته بالطريقة التي يريدها، وفي المكان الذي يريده، فهي، بكل جسدها، ملك له.

– أنتم الرِّجَال تموتوا في اليونج فونج..

قالت وهي ترسم ابتسامة غامزة على وجهها.

– نحن نعمل ما أمرنا به الله، وإذا كان الشيخ أبو البيداء قد قال إن هذا الأمر جائز فهو جائز.

رَدَّ بتعابير جادة ونبرة حازمة.

– قولوا إنكم تستمتعون، لا عد تمَكِّنونا أن الله أمركم، والقرآن أجاز لكم!

افترت شفتاه عن ابتسامة بلهاء، ثم وجم صامتًا. بعد برهة، قال:

– حتى إشراق كان يعجبها من وَرَا!

– إشراق من؟!

سألت جليلة مدهوشة.

– صاحبة زوجتي السابقة؛ مريم. قلت لكِ إني كنت متزوِّج مريم وطَلَّقتها.

– وأنت أيش عرَّفك أن إشراق كان يعجبها؟!

– هي قالت لمريم، ومريم قالت لي.

23

يخوض ناصر قاسم النقاشات بذهنية مُتَّقِدة، ويتحدَّث بقابلية لا تعرِف الكَلَل. بِقُدرته على الاسترسال، استطاع فرض سيطرته على الجلسات التي يحضرها. لم يستطع التخلُّص من هذه العادة السيئة، رغم أنها جلبت عليه حالة من السخط وسط محيطه الاجتماعي.

كان جون لوك يتجنَّب النقاشات الجدلية ذات التنظير الشفوي المُنهِك والعقيم؛ ذلك أنه فَضَّلَ، بحكمة، استبقاء نفسه "ليفكِّر بشكل أفضل". بدل الانهماك في النقاشات المُضنِية، اختار جون لوك "التراجع قليلًا إلى الوراء" كي يستطيع "مراقبة حِيَل الناس".

سيرًا على خطى لوك، حاول ناصر تجريب ميزة البقاء بعيدًا عن النقاشات اليومية المرهقة؛ بيد أنه فشل في ذلك. روحه المشاكسة والمندفعة، التي استخدمها لتأكيد تَمَيُّزه، أفقدته ميزتي التأمُّل والسكينة الروحية. كذلك، أفقدته القدرة على تأمُّل الحياة، ومراقبة تصرُّفات البشر. من النادر أن تلَّتقيه وهو في حالة صمت ذاتية، أو مُنصِت لآخر. هو لا يَكُفّ عن الكلام، لهذا لا يتذكَّر لحظات صفاء روحية حاول فيها الاستماع إلى ذاته وأحاسيسه. لم يدرك أن لعبة دور المثقف، التي نذر نفسه لها، جرَّدته من صفاء الذهن؛ لكنه أدرك استحالة تقمَّص ما أحبه في لوك: روح وحكمة الفيلسوف.

جريمة إعدام الجنود جعلته يُكَرِّس كل جهده ووقته لدراسة ظاهرة الإرهاب وتحليل بنيتها. بعد أشهر من القراءة، توصَّل إلى أن الخطر الحقيقي كامن في البنية المجتمعية التي ضاعفت من عدد الضحايا والمسحوقين داخلها، وفشلت في خلق نظام سياسي حديث يُعبِّر عنها، ويسعى نحو تحقيق أحلام وتطلُّعات أفرادها. بالتوازي مع ذلك، أكد ناصر أن البنية السياسية والأمنية العربية تتحمَّل الجزء الأكبر من مسئولية ما جرى ويجري؛ ذلك أنها استفردت بالسلطة والثروة، وسمحت للضحايا والمسحوقين بأن يغادروا مواقعهم الاجتماعية، مواقع التهميش والإقصاء، ويتحوَّلون من مجرَّد ساخطين ومحتجِّين إلى جماعات للقتل والترويع. كان كلَّما قال ذلك، وَجَدَ نفسه مجبرًا على الشرح والتوضيح:

– "الدِّين هو تنهيدة الكائن المقهور". يعني، الإرهابيون تعبير عن مخاض اجتماعي للفقراء. يعني، الإرهابيون نتاج طبيعي للاستبداد والفساد الرسمي، ونتاج طبيعي لفشل المجتمع في تحديث ذاته، وعجزه عن مواجهة التطورات الإنسانية باستجابة واعية وفعَّالة.

بنوعٍ من التفاخر، قال المثقف العاطل عن العمل إنه توصَّل إلى هذا الأمر بعد أن قضى شهورًا وهو يدرس ظاهرة الإرهاب: بنيتها الاجتماعية، مسارات تطورها، أسباب وظروف نشأتها، والخلفيات الاجتماعية لأفرادها. ظَلّ يتحدَّث، برباطة جأش، عن دراسته المزعومة تلك. قضى ستة أشهر وهو يفاخر بتلك الدراسة، التي لم يقرأها أحد، ولم ترَ النور أبدًا. مضى في ذلك التَّبَاهِي رغم إدراكه أن ما توصَّل إليه لم يكن نتاج دراسة علمية منهجية خاصة به، بل مُجرَّد جُمَل توصيفية خلصَ إليها من قراءته لكُتب ودراسات ناقشت موضوع الإرهاب.

خلال فترة التَّبَاهِي تلك، قال إنه خلصَ، في دراسته، إلى أن الإرهابيين تعبير احتجاجي عن "الأجيال التائهة". كان يقول إن المتطرِّفين يتحرَّكون في فراغات المجتمع، مستغلين ضعف بنيته، وافتقاده الدائم لمنظومة تقاليد وقيم أخلاقية عامة ضابطة ورادعة. واستغرق وقتًا كي يوضح فكرته القائلة بأن الإرهابيين تعبير عن "تآكل المجتمعات والأديان القديمة"، و"انحلال النماذج القديمة للعلاقات الاجتماعية الإنسانية". وبالضرورة، كان يتحدَّث عن العوالم السُّفْلِيّة للمجتمع، التي تَشَكَّلَ فيها الإرهابيون كنتاج للفقر والانسحاق والنَّبذ والإقصاء.

تتبَّع الأصول الاجتماعية لعدد من أبرز المتهمين بالإرهاب، فتأكد أنهم مُجرَّد ضحايا حوَّلتهم القسوة المجتمعية إلى أرواح عنيفة ومأزومة، ودفعهم الفقر نحو الإرهاب، إذ وجدوا فيه وسيلة مُثلى للاحتجاج، وإعلانًا صارخًا للذات، وأداة فاعلة للانتقام من المجتمع الذي لم يمنحهم التقدير اللائق، أو فرص العيش الكريم. ولتوضيح الأمر، كان يضيف:

– الإرهابيون ضحايا، هم ضحايا لمجتمعاتهم ولأنظمة الفساد والاستبداد، هم ضحايا للفقر وغياب العدالة الاجتماعية.

24

مارست جليلة الجنس مع فكري، في الغرفة التي تنام فيها، ثم عادت لـ"تَخْزِين القات" معه في غرفة الجلوس، التي تقع على يسار الداخل من باب الشُّقَّة. كانت ملتصِقة بعشيقها عندما سمعت قرعًا خفيفًا على الباب. كان ذلك في الرابعة عصرًا الموعد اليومي:، الذي تأتي فيه جارة أمها للسؤال عن الحال، أو للمَقِيل وتبادل النَّميمة. نهضت جليلة من مكانها وهي تَصُبّ لعناتها على الجارة المزعجة، وتُمهم بكلمات قرَّرت نهرها بها. أصلحت من

هيئتها، على عَجَل، وهي تسير نحو الباب، الذي تصاعد القرع عليه. لم تهتم بإخفاء الآثار الظاهرة عليها؛ إذ كانت على ثقة أن الجارة ستعود إلى شُقَّتها بمجرَّد أن تخبرها أن أمها في الخارج. أدارت قفل الباب، وهي متأهِّبة لصدّ الجارة المُتَطَفِّلة؛ إلا أنها فوجئت بشقيقها يندفع داخلًا، بلِحيته الكَثَّة ووجهه المُكفهِرّ على الدوام. لم يسألها عن حالها؛ رغم غيابه الطويل عنها. فقط، ألقى التَّحِيَّة الإسلامية، واندفع داخلًا، محملًا بروحه المحتدَّة، وتحفُّزه الدائم للاعتداء على من هم أضعف منه. فغرت فاهها مذعورة. وبيدين مرتجفتين، أغلقت الباب، وتسمَّرت واقفة خلفه، تنظر بهلع إلى الزائر غير المتوقَّع، الذي لم يأت متخفِّيًا، كعادته.

كان فكري يجلس أسفل غرفة الجلوس، وتحديدًا خلف الجدار الذي يفصلها عن الصالة؛ بهدف التخفِّي عن الزوار الطارئين، الذين بإمكانهم، بمجرَّد فتح باب الشُّقَّة، مشاهدة الجزء الرئيسي والأهم في هذه الغرفة. بيد أن "أبو البيداء" كان أكثر من مجرَّد زائر طارئ. وعندما دخل الغرفة، تفاجأ بوجود فكري، فتسعَّر وجهه غضبًا؛ إذ فمن غير الجائز لديه أن يقوم شاب بزيارة منزلًا تعيش فيه امرأة مُطَلَّقة؛ مهما كانت درجة قرابة هذا الشاب من صاحب المنزل.

زمجر "أبو البيداء"، وهو يُلقِي التَّحِيَّة على فكري، الذي كان يتضاءل في مكانه، من شدة الخوف. كان الرَّجُل المُلتحِي يريد أن يجلس؛ لكنه غيَّر رأيه. اتَّجه إلى داخل الشُّقَّة، وهو ينادي أمه، بصوت مرتفع وغاضب. هاج وهو يسمع شقيقته تقول إن أمه غير موجودة. صفعها، بقوة، حتى أسقطها أرضًا. ركلها عدة ركلات، ثم سحبها من شعر رأسها، وانهال عليها لطمًا. كانت تصرخ، فيما شقيقها يضربها بعنف. في تلك اللحظة، فرَّ فكري؛ تاركًا

خلفه بعض مُتعلِّقاته: قارورة الماء، كيس القات، علبة السجائر، وجاكته الأسود.

سَمِعَ "أبو البيداء" باب الشُّقَّة ينفتح، وشاهد الشاب المرتعب يُغادِر هاربًا. رمى شقيقته أرضًا، واندفع محاولًا اللَّحاق به. توقَّف خارج الباب؛ إذ فَطِنَ إلى أن من الأفضل عدم تحويل ما جرى إلى فضيحة معلنة. أمسك بسُلَّم البناية، وتَسَمَّر هناك يُصيخ السمع لركض العاشق الهارب. انكفأ عائدًا إلى الداخل وهو في حالة من الهياج المسعور. سَحَبَ شقيقته من شعر رأسها، وانهالَ عليها ضربًا حتى أدمى وجهها.

– ضربني لمَّا نزَّل الدم من لقفي ونُخْرِتي. وبعدين انتظر لمَّا رجعت أمي، وحَلَفَ يمين إنه سيأخذني معه. قال إنه سيقتلني إذا ما مشيت معه. أمي ما اعترضت. وشَلَّني بالقوة، وجابني إلى هنا، للمُخيَّم!

25

مع جليلة، عَرَفَ فكري الجنس، وتعلَّمه على يدها. تَكبُره بخمس سنوات؛ إلاَّ أنها كانت في ريعان الشباب، وامرأة مناسبة لفتى يريد اختبار فحولته. بدأ علاقته بها قبل عامين. رآها أول مرة في اليوم التالي لزواج أمها من عَمّهُ، الذي ظَلّ أرملًا لسنوات، بعد وفاة زوجته السابقة. يومها، كان فكري في الخامسة عشرة من عمره، فيما كانت تسير جليلة في عامها العشرين. متزوِّجة؛ لكن الفتى بَهِيّ الطَّلعة وَقَعَ في نفسها. شدَّها بوسامته، فقرَّرت تذوُّق حلاوة جماله الصبياني المتفتّح. تابعته بنظراتها، وكانت تبتسم له كلَّما وقعت عيناه على عينيها. استهواها بطوله اليافع، ووجنتيه المتورِّدتين، والزَّغب الأخضر في مكان شاربه. تلك الليلة، حلمت أنه بين يديها. صار هاجسًا بالنسبة لها، لهذا تفرَّغت لملاحقته، ووجَّهت كل طاقتها من أجل

اصطياده. وقد استطاعت ذلك في فترة وجيزة. غلَّفت اهتمامها به بدافع الحرص على "التفوق الدراسي لطلاب الأُسرة". أدرك الفتى اليافع اهتمامها به، وتَعَمُّدها جعله يراها وهي بكامل زينتها، بهدف إغوائه بجسدها المُثير. وقد نجحت في ذلك؛ إذ بدأ يمارس العادة السِرّية وهو يُفَكِّر بها. مع الوقت، استولت عليه رغبة مُلِحّة بتحويل ذلك الاستمناء المُتَخيَّل إلى ممارسة جنسية حقيقية.

كرَّس ذاته لها باعتبارها تجربته الغَراميّة الأولى. بادلها نظرات الاهتمام والإعجاب، وتواطأ معها على الحضور المستمر في منزل عَمّه. في لقاء أُسري، سألته عن الدِّراسة، فشكا من ضعفه في مادة الرياضيات. أبدت استعدادها لإعطائه دروس تقوية في هذه المادة، متفاخرة بفهمها الكامل لها، لاسيما تلك المُقَرَّرة على طلاب الصف التاسع! كان ذلك بحضور عَمّهُ وأمها، التي تحمَّست للأمر، وكلَّفتها البدء في المهمة، من الغد. حدَّدت الأم الغرفة الثالثة في شُقَّتها مكانًا لإعطاء دروس التقوية لفكري. قبل أن تعود جليلة إلى منزلها، انتحت بأمها، وطلبت منها إبلاغ عبد الجبار بأمر دروس التقوية، وإخباره أنها ستعطيها لياسمين؛ شقيقة فكري. تفهَّمت الأم أن زوج ابنتها لن يسمح بتقديم تلك الدروس لو عَلِمَ أن المستفيد منها سيكون فكري؛ لهذا أبلغته بتلك الكذبة، وطلبت منه السماح لجليلة بزيارتها، عصر كل يوم، للقيام بتلك المهمة.

اليوم التالي، بدأت جليلة مهمتها كمدرِّسة. وَصَلَت، في الرابعة عصرًا، وأمها "مُخَزِّنة" مع زوجها، في غرفة الجلوس، وجوارهما يجلس فكري، بلهفة وقلب متسارِع النبض. وقفت جليلة أمام باب الغرفة، وببشاشة ألقت التَّحِيَّة على من فيها. رفعت اللِّثْمَة التي تُغطِّي وجهها، فيما أبقت البالطو الأسود؛ حِرصًا على إخفاء طبيعة الملابس التي كانت ترتديها، وهي ملابس لا تليق

بمدرّسِة. بعد تبادل الأسئلة المعتادة عن الحال، استأذنت أمها، واتَّجهت نحو الغرفة المُخصَّصة لإعطاء دروس التقوية. لَمْلَمَ فكري أشياءه، والتحق بها. دخلت الغرفة أولًا. كانت قد أزاحت الستارة عن نافذة الغرفة، ووقفت تتأمّل الحركة في الشارع. بتلك الطريقة الرَّصينة وغير العابئة، فَضَّلت انتظار الفتى الوسيم، كما لو أنها ذئبة تكمن لحَمَل تريد افتراسه. تسلَّل فكري داخلًا وهو يحمل كتاب الرياضيات، إضافة إلى دفتر وقلمين. جلس دون أن يغلق باب الغرفة خلفه. أغلقت النافذة، والتفتت إليه وعلى وجهها فرح ظاهر. سألته عن حاله، لكن بابتسامة لهفى وصوت مُختلج هذه المرة. رَدَّ، بخجل طفولي، وابتسامة مُرتبِكة:

– تمام، الحمد لله.

– أيش رأيك نَرُدَّ الباب، عشان نأخذ راحتنا، وعشان ما حَدّ يزعجنا واحنا نذَاكِر؟

أضافت، ببشاشة محمولة بإيحاء جنسي مقصود:

– ها.. نَرُدُّ الباب مش نغَلِّقه بالمفتاح.. يعني لا تفرح..

هَزَّ رأسه بالطريقة التي تفيد أنه موافق على ما قالت. تألق وجهها فرحًا؛ إذ اعتبرت ذلك بداية مُشَجِّعة لنجاح ما تُخطِّط له. رَدَّت الباب، وهي تبعد اللُّثْمَة، والمَقْرَمَةُ السوداء، التي كانت تُغطِّي رأسها وتَنسدِل على كَتِفيها. بدت جذَّابة، بزينتها الخفيفة، وشَعَرها المُرسَل على البالطو الأسود، الذي بقيت ترتديه. جلست جوار تلميذها المُرتبِك، وبدأت تشرح له الدرس الأول. أُثير الفتى المُتَّقِد رغبة وهو يحسّها قريبة منه. أعادت شرح الأمثلة الثلاثة الأولى الملحقة بالدرس. قامت بمهمتها كمدرِّسة، وهي غارقة في التفكير فى رغبة مُلِحَّة لديها. كانت تريد أن تخلع البالطو الأسود، كي تُغرِي تلميذها الوسيم بجسدها المُكتنِز شهوة. انشغلت بالبحث عن خطة تُمكِّنها

من ذلك. وفي غمرة البحث، رأت أن من الأفضل تأجيل الأمر إلى الغد. لكنها لم تستطع الانتظار.

بعد خمس دقائق، عَبَّرت عن ضيقها من استمرار ارتدائها للبالطو. كَرَّرت ذلك، أكثر من مرة، مع زفرات مُتأفِّفة تعكس عدم قدرتها على تَحَمُّل البقاء وهي مرتديه له. لم يفهم الفتى اليافع رغبتها في أن يأتي خلعها للبالطو كاستجابة لمقترح يتقدَّم به هو. ولأنه لم يبادر لتقديم هذا المقترح، تولَّت هي زمام المبادرة.

– الجو حار، والبالطو ضايقني.. أيش رأيك أَحُلّ البالطو؟

– تمام..

رَدّ بوجه متورِّد خجلًا.

– يعني ما باضايقك لو أَحُلَّه؟

– لا.. عادي حُلِّيه.

– المشكلة إني لابسة ملابس مُشَخلعة. كنت أقول إني باجلس معك، قصدي باجلس أذاكر لك، وأني لابسة البالطو.. عشان كذا لبست ملابس مُشَخلعة!

قالت ذلك وابتسامة جامحة تلوح في شفتيها.

تفاحتا خدي الفتى اليافع زادتا تورُّدًا. أخفض عينيه إلى الأسفل، هربًا من عينيها المصوَّبتين عليه. لم يقل شيئًا. فقط، أخذ يسترق نظرات متلصِّصة إليها، وعلى محياه الابتسامة الخجول والمُرتَبِكة ذاتها.

– والله أني متضايقة من البالطو.. أشتي أحُلُّه بس مُستَحِية من ملابسي المُشَخلعة!

– حُلِّيه.. عادي، لا تستحِي!

فاه بذلك، وهو يحسّ نبضات قلبه أكثر تسارعًا.

– شوف أني باحُلُّه، لأني مش قادرة أتحمَّل أكثر من كذا، وأنت خَلِّيك كبير.. وخَلِّي هذا الموضوع بيننا بس.. تمام، بيننا بس؟ ما تقول لحَدّ.. تمام؟

– مستحيل أكلِّم حَدّ بهذا الموضوع.. أنا كبير مش طفل.. عادي حُلِّي البالطو، لا تستحِي!

– أني ما أستحِي منك، بس مراعية لمشاعرك، لأني عارفة إنك أنت اللي باتستحِي!

ضحكت وهي تقول ذلك، بعد أن وقفت، وبدأت في فتح أزرار البالطو تمهيدًا لخلعه.

– لا، أنا ما باستحِي.. أنا مش طفل.

كانت ترتدي تنورة قصيرة تحتها بنطلون جينز، وبلوزة سوداء شفافة ومُنحسِرة تُظهِر نصف ثدييها، وجزءًا من ظهرها. بدت له أكثر فتنة مما عرفها. كان قد رآها، مرارًا، وهي بكامل زينتها؛ لكنه يراها الآن بشكل مختلف. تأمَّل قوامها الممشوق، خصرها الدقيق، مُؤَّخِرتها المكتنزة، وثدييها النافرين. عَلَّقت البالطو خلف باب الغرفة، وسحبت المقْرَمَةُ السوداء، ولفَّتها حول كَتِفيها، لتغطي ما ظهر من عُري جسدها. قالت، وهي تعود إلى المكان الذي كانت تجلس فيه جوار تلميذها اليافع:

– أني باشوف إنك باتستحي والاَّ لا. باشوف إنك كبير، والا عادك طفل!

سَمِعَ قلبه يَدُقّ كمطرقة بين أضلعه. تدفَّق الدم سريعًا في شرايينه، وصار جسمه مُتَّقِدًا برغبة شهوانية جامحة لم يسبق له معرفتها. استرق النظر إلى مُدَرِّسته، وعلى محياه ابتسامة أكثر خجلًا وارتباكًا. مضت في شرح حَلَّ تمارين الدرس، وهي تدرك ما صار من حالة تلميذها. بين وقت وآخر، كانت تتعمَّد جعل المَقْرَمَةُ تنزاح من على كَتِفيها، كي تُحرِّر صدرها العاري. كانت البلوزة التي ترتديها تطوِّق فقط النصف الأسفل من ثدييها، تاركةً نصفيهما

العلويين محلِّقين عاليًا، هاربين من أسر الملابس. زاد المشهد إثارة بظهور حمالة صدرها السوداء خلف بلوزتها الشفافة.

أصلحت من جلستها لتكون في مواجهة فتاها اليانع. أرادت منحه مجالًا أوسع لرؤية ما كشفته من ثدييها. تصنَّعت الانهماك في شرح تمارين الدرس، بينما انشغل جُلّ تركيزها في تَتَبُّع حملقات فكري المحمومة نحو ثدييها المشدودين بتأهب ظامئ. انحنت أكثر من اللازم، كي تُظهر الجزء الأكبر من عنقوديها الفاتنين. كانا مندفعين بجموح لافت جعل اكتنازهما يظهر متهدِّلًا على حافة حمالة الصدر والبلوزة. لمحت تلميذها مشغولًا بتأمّل كنزها الدفين. لمحته يبتلع ريقه، أكثر من مرة، وهو يحاول إخفاء الانتفاخ الصغير الذي غدا واضحًا بين فخذيه. وَضَعَ مَخَدَّة على فخذيه، لإخفاء ذلك الانتفاخ. أَسَرَهَا ذلك الانتفاخ الصبياني، وشَعَرَت بالرِّضا عن نفسها، وهي ترى مقدار اللَّهب الذي فجَّرته في الفتى اليافع.

انتهت من حَلّ جميع تمارين الدرس، فوقفت ترتدي البالطو الأسود، وهي تَثنِي على نباهة تلميذها النَّجِيب، الذي شكرها بصدر مختلج، وقال إنه سينتظرها غدًا على أحرَّ من الجمر. أيقنت أنه أصبح جاهزًا للدخول في المغامرة.

– حلو إنك تحمَّلتني بملابسي هذي. كنت خائفة أزعجك بها.

– لا، لا، ما فيش أيّ إزعاج. بالعكس، أنا فرحان جدًا. ملابسك حلوة وأنيقة جدًا. بصراحة، أنتِ حلوة كثير.

أضاف، وهو يغمز، بمزح طفولي خجول:

– وبعدين، أنتِ قلتِ إن ملابسك مُشَخلعة، لكن هي ملابس عادية لا مُشَخلعة ولا حاجة.

– والله؟! طيب أني باوريك بكرة، بس تتحمَّل، وتِخَلِّي هذا بيننا بس.. ها، بيننا بس.. انتبه تِكَلِّم أيّ شخص بما يجري بيننا. مُتَّفِقين؟

– والله ما أكلِّم حَدّ. اللي بيننا بايبقى بيننا بس.. مستحيل حَدّ يعرف. وبعدين، أنا مش طفل، أنا قدنا كبير.

تابع، وهو يرفع حاجبيه إلى الأعلى، في وضع من يريد تجاوز المزاح إلى السخرية:

– كيف قلتِ إن ملابسك مُشَخلعة، وأنتِ لابسة بنطلون تحت التنورة؟!

– ما شاء الله، انحَلَّت عُقدة لسانك يا كتكوت.. هاهاهاها.. شوف، أني لبست التنورة، لكن شفت إنها قصيرة كثير.. رجعت لبست البنطلون تِحتَها.. قلت حرام أصدمك، من أول يوم.

– يعني، أنتِ اللي استحيتي، مش أنا.. حتى البلوزة رجعتي تعملي المَقْرَمَةُ فوقها!

عَلَّق ضاحكًا، بنبرة غير طفولية.

– طيب أني بكرة باوَرِّيك كيف الملابس المُشَخلعة على أصولها. بس، على الله ما تستحي. يا حبيبي، أنت عادك كتكوت ما خرجت من البيضة.. واليوم أني كنت ما اشتي أصدمك، لكن أني باوَرِّيك بكرة.

– أنا خائف إنك أنتِ اللي تستحي، وبيننا بكرة.

رَدَّ بنبرة من يتلهَّف لدخول تحدٍّ يدرك أنه سيخرج منه منتصِرًا.

– هاااااااا.. طيب يا كتكوت.. أني باشوفك بكرة.

قالت ذلك، ثم أضافت، وهي ترمقه بشهوة متَّقِدة، وتَلُفّ المقْرَمَةُ السوداء على رأسها:

– يا كتكوت، أني أشتي أخرجك من البيضة. وأعلِّمك حاجات كثيرة حلوة ومهمة، بس أشتيك تكون كبير، وما تِكَلِّم حَدّ باللي بيننا.

26

وَصَلَت جليلة إلى منزل أمها قبل الموعد بربع ساعة. رغم ذلك، كان فكري قد سبقها إلى هناك. رفعت اللثمة عن وجهها، وهي تتجاوز عتبة باب المنزل. وجدت أمها في الصالة، فعانقتها بحرارة.

– شوفي، عَمّك راح يخَزّن عند سالم صاحبه، وأني باروح أَخَزّن عند صفية جارتنا، وبارجع بعد ساعتين، بالكثير.

قالت الأم لابنتها.

تسارعت نبضات قلب جليلة، وبلهفة ظَلّت تنتظر خروج أمها. طلبت من تلميذها اللحاق بها، ثم سارت نحو الغرفة المُخصَّصة لدروس التقوية، وهي تشكر الله على تهيئة الظروف أمامها على هذا النحو، كي تبقى على راحتها مع فتاها اليافع. دخلت الغرفة، وهي في سعادة بالغة، كأيّة فتاة تنتظر لحظات الاختلاء بفتاها. لم تُزح الستارة عن نافذة الغرفة. تشاغلت في إبعاد اللّثْمَة، وإصلاح المَقْرَمَة السوداء لتغطية رأسها. ظَلّت مرتدية البالطو في انتظار لحظة خروج أمها من البيت.

دخل فكري الغرفة باسمًا، وعيناه مشرقتان. استدار محاولًا إغلاق الباب خلفه، إلاَّ أن جليلة تَدَخَّلت سريعًا كي تحول دون ذلك. لوَّحت بيدها، وتعبيرات الهلع ظاهرة على وجهها. فَهِمَ الفتى اليانع ما تريده، فأبقى الباب مفتوحًا. بالإشارة، أعطته عددًا من التعليمات، لخلق جو مطمئن لأمها. جلس بعيدًا عنها، وبدأت تباشر دورها المفترض كمُدَرِّسة، وهي تترقب لحظة مغادرة أمها للشُّقَّة.

بعد عشر دقائق، جاءت الأم لتوديعهما، وأكدت أنها لن تتأخر كثيرًا عند جارتها. تَنَفَّسَت جليلة الصُّعداء وهي تسمع باب الشّقَّة ينغلق خلف أمها. نهضت من مكانها، وذهبت لإغلاقه من الداخل. عادت والسعادة بادية عليها. خلعت "المَقْرَمَةُ" والبالطو، وهي تطلب من فتاها الوسيم "الاستعداد للصدمة". بَلَعَ فكري ريقه، وانبهر وهو يشاهد جزءًا كبيرًا من ثدييها تكشف عنه بلوزتها مفتوحة الصدر. كانت فتحة الصدر واسعة بحيث لم تستطع البلوزة إخفاء أعلى ضفتي حمالة الصدر اللَّحمية. طلبت منه جليلة أن يستدير بوجهه عنها، كي تخلع البنطلون الذي كانت ترتديه أسفل تنورتها البيضاء القصيرة. فعل ذلك وهو يبتسم ابتسامة متشوّقة. وعندما أدار بوجهه، وَجَدَ مُعَلِّمته تقف وسط الغرفة، وهي تسأله عن رأيه.

– بصراحة، أنتِ أنيقة وحلوة جدًا.

أجاب.

شاهد حَلمتي ثدييها بارزتين خلف البلوزة، وخطوط وملامح سروالها الداخلي أسفل التنورة الشفافة. سألته وهي ترفع حاجبيها، وتُمسك خصرها بيدها اليمنى:

– عادك تتحدَّى يا كتكوت؟! ها؟!

– لا.. خلاص، أنا مستسلم.

رَدَّ وهو يبلع ريقه.

– شوف، اليوم إجازة من المذاكرة. اليوم، أني با أعلِّمك حاجات أهم من الرياضيات.

قالت وهي تجلس قُربه.

كان يتصبَّب عرقًا، ويتأمَّل مفاتنها برغبة جنسية عارمة. أمسكت يده، ووضعتها على صدرها. كان جسداهما مُتَّقِدين بشهوة متأجِّجة. أدركت مدى اضطرابه وارتباكه وتلعثمه. ألصقت جسدها بجسده، ثم قالت:

– يعني أنت موافق أعلمك حاجات ثانية أحلى من الرياضيات؟!

– أيوة..

هجمت عليه، وبدأت في افتراسه.

في اليوم الرابع، انتبهت الأم إلى أن باب الغرفة كان يُقفل أثناء تقديم دروس التقوية لابن شقيق زوجها. غَضَّت الطرف عن الأمر، رغم أنها لاحظت انعكاساته على ملامح جليلة وفكري. وكي لا تقطع سعادتهما، بدأت تعمل على تسهيل الأعذار، التي كانا يبتكرانها، بهدف الاختلاء ببعضهما. دعمت رغبتهما باستمرار دروس التقوية خلال الإجازة المدرسية. أقنعت زوجِ ابنتها بأن "ياسمين" بحاجة إلى دروس تقوية مسبقة لمادة رياضيات الصف العاشر. وقد حدَّدت لذلك يومين في الأسبوعِ. لم تكتفِ جليلة بذلك، فَشَرَعَت في اختلاق أعذار وحِيل توفِّر لها فرصًا أخرى للالتقاء بفتاها اليافع. بلغ بها الأمر حَدَّ المخاطرة بإدخاله شُقَّة سكنها؛ حتى عندما يكون زوجها متواجدًا فيها. كان فكري يَدْخُل يمارس الجنس معها في غرفة نومها، فيما زوجها "يُخَزِّن القات" في غرفة الجلوس؛ بمفرده، أو مع بعض أصدقائه. كانت تختلق خلافات مع زوجها، كي تُبقيه في غرفة الجلوس؛ في حالة عزلة كاملة عن بقية أجزاء الشُّقَّة، التي تقع في بناية حديثة. كانت تُغلِق عليه الباب الحاجز بين تلك الغرفة وبين بقية الشّقَّة، بذريعة أن معها صديقتها ياسمين، في الداخل. للشّقَّة بابان رئيسيان متجاوران، يؤدي الأول إلى الأقسام الداخلية، فيما يؤدي الثاني إلى غرفة الجلوس، الملحقة بحَمّام خاص بها. يَدْخُل فكري من الباب الأول، دونما حاجة لقرعه أو انتظار من يفتحه. كان يتَّصِل تلفونيًا

بجليلة عند صعوده البناية، فتفتح له الباب، وتنتظره خلفه؛ بعد أن تكون قد عَزَلت زوجها في غرفة الجلوس. في ذلك الجزء المعزول، يبقى الزُّوج ساعات طوالًا، فيما يمارس فكري الجنس مع زوجته في غرفة نومه. اكتشفت الأم الأمر، عندما نفَّذت، ذات يوم، زيارة مفاجئة إلى منزل ابنتها. انفعلت بشدَّة، ووَبَّخت جليلة وفكري بقسوة. حذَّرتهما من استمرار لقاءاتهما على ذلك النحو الخطر. ولتلافي ذلك، زادت أيام دروس التقوية إلى أربعة أيام في الأسبوع.

عندما طُلِّقَت جليلة من زوجها، عادت إلى شقَّة أمها، وأقامت في ذات الغرفة، التي كانت تعطي فيها دروس التقوية لفكري. وبدلًا من تلك الدروس، تواطأت الأم مع حِيَل وأعذار جديدة، كي تمنح ابنتها فرصًا تستطيع فيها الاِختلاء بفتاها الوسيم. ويوم جاء "أبو البيداء"، بشكل مفاجئ، إلى الشّقَّة لم تكن أمه موجودة. لا بد أنها خرجت كي تتيح لأخته واحدة من تلك الفرص.

27

حاول ناصر قاسم إعادة التفكير في مرحلة التَّطَرُّفُات التي تجتاح المنطقة العربية. أراد التَّعرُّف على طبيعة المرحلة من خلال فهم السياق التاريخي والمجتمعي لنشوء ظاهرة الإرهاب، ومسيرة تطورها.

استحضر أغلب الكُتب والمقالات والتحليلات التي قرأها؛ إلا أنه فشل في الوصول إلى رؤية نافذة تُرضِي غروره، وتظهره بمظهر المثقف ذي الرؤية العميقة. اتَّخَذَ قرارًا بالعودة إلى قراءة كُتب وصفها بـ"الكُتب المفتاحية الملهمة". انهمك في القراءة كما لو أنه طالب يستعد لامتحان مفصلي ومصيري. وَجَدَ "البيان الشيوعي" في متناول يده. وحين أعاد قراءته برز في

ذهنه الاستنتاج الأهم: الأصولية الإسلامية تحفر قبرها، بالإرهاب الضاري والمتوحش الذي تمارسه.

مازال يحفظ عن ظهر قلب العبارة الأثيرة في البيان: "البرجوازية تُنتج، قبل كل شيء، حفّاري قبرها. فانهيارها وانتصار البروليتاريا، أمران حتميان". حفظ هذه العبارة منذ زمن؛ لكنها هزَّته الآن كما لو أنه يقرؤها للمرة الأولى.

حَدَّث نفسه: "إذا كان صعود البرجوازية مُقدِّمة ضرورية للقضاء عليها إيذانًا بانتصار البروليتاريا، فتوحُّش الأصولية الإسلامية مُقدِّمة ضرورية للقضاء عليها وانتصار قيم الإنسانية والعلم والتحديث في المنطقة العربية".

مساء اليوم التالي، زار صديقه طه نعمان. وبحماسته المعهودة أعاد عليه هذا الكلام، وما توصَّل إليه. عَلَّق طه بفتور:

– ماركس وإنجلز قالا إن البورجوازية تُنتج حفاري قبرها، لأن ازدهارها يؤدي، بالضروري، إلى إنتاج الطبقة العمالية. الصراع مع الجماعات الأصولية لا يدور حول الإنتاج والمصالح المادية الملموسة، إنما يقوم على الخطابة واللاهوت، وهو محكوم بالمزايدة باسم الدِّين، وادعاء تمثيل الله. ولأن الصراع مع هذه الجماعات صراع غير مُنتج، فهو لا يسهم، ولا يمكن أن يسهم، في تطوير المجتمع، بل يعمل على تأبيد التخلف فيه.

كانت السابعة من مساء خميس بارد، عندما خرجا لممارسة عادتهما القديمة في المشي والحديث، وكان ناصر مُتحفِّزا لإثبات صحة ما توصَّل إليه، كما لو أنه توصَّل إلى نظرية ستشكل فتحًا علميًا. حَكّ عُنقه، وأغمض عينيه وفتحهما ثلاثًا، وحَرَّك رقبته إلى اليسار واليمين، بشكل سريع ومتتابع، ثم قال، وهو ينظر نحو طه:

– الصراع مع الأصولية الإسلامية يمضي نحو التحوُّل إلى صراع على مصالح مادية مباشرة. يعني، الجماعات الإرهابية أصبحت تُمثِّل تهديدًا حقيقيًا ومباشرًا

للدول العربية وحكامها. صحيح أن الصراع مع هذه الجماعات لا يدور حول العمل والإنتاج؛ لكنه يدور حول مصالح مادية مباشرة، تتمثَّل في السيطرة على الدول والمجتمعات، وبالتأكيد ثرواتها أيضًا.

كان الظلام مخيِّمًا على الشارع، وصخب أبواق السيارات مرتفعًا. إنارات الشوارع مطفأة، وضجيج المولدات الكهربائية حاضر بقوة. يعيش اليمنيون في الظلام منذ تمكَّنت أعمال تخريبية متكرِّرة من إخراج محطة الكهرباء الرئيسية الحكومية عن الخدمة. حدثت تلك الأعمال التخريبية بعد ثورة فبراير عام 2011، وربما كردّ عليها. مذاك، انتعشت سوق المولدات الكهربائية، والطاقة الشمسية في البلاد، بالتوازي مع تخلِّي الدولة عن أبسط وأهم مسئولياتها الخدمية، ثم انتهى الحضور الشكلي للدولة بحدوث الانقلاب إثر اجتياح المليشيات للعاصمة صنعاء.

شأن بقية المارة، كان ناصر وطه يسيران مستعينين بأضواء السيارات، والمحلات التجارية، لتبيُّن الطريق أمامهما. اقترب الأول من الثاني، وقال له:

– صحيح؛ إن الصراع مع جماعات الأصولية الإسلامية لا يُنتج فئات اجتماعية جديدة؛ لكنه يوسِّع حالة السَّخط العامة ضد الإرهابيين، ويعزلهم عن مجتمعاتهم. يعني، صعود موجة الإرهاب جاء، في جانب منه، كردّ على التطور الإنساني، والهيمنة الغربية. يعني، تَمَّ استدعاء الماضي وأشباحه لمواجهة تلك الهيمنة، وذلك التطور الذي ضاعف من اغتراب مجتمعاتنا عن ذاتها وواقعها.

هَرَشّ ناصر رأسه، وواصل حديثه دون أن يسمح لصديقه بمقاطعته:

– ذلك سيجعل مجتمعاتنا تدخل في صراع مع نفسها، ومع تراثها الدِّيني، بل مع ماضيها بكل موروثاته العتيقة وقيمه البالية. عندما يصعد القُبح إلى السطح فتلك مقدِّمة لرميه في المزبلة.

قَلَّب طه عينيه تعبيرًا عن عدم اقتناعه بما سَمِعَ. وقبل أن ينطق بكلمة، تابع ناصر كلامه:

– يعني، ما تفعله الجماعات الإرهابية اليوم هو تقويض متسارع لدعائم وجودها، والقيم والمبررات التي أقامت عليها حضورها، وتَدَّعِي تمثيلها. يعني، الصعود الحالي لهذه الجماعات يجعل إرثنا الدِّيني في موضع اختبار عام ومباشر، وهو اختبار سيفضي بلا ريب إلى سقوط هذه الجماعات وهذا الإرث من ذهنية الناس أولًا، ثم من حياتهم.

أضاف المثقف المُتحمِّس، بعد أن حَكّ عُنقه وأغمض عينيه وفتحهما ثلاثًا ثم حَرَّك رقبته إلى اليسار واليمين، بشكل سريع ومتتابع:

– هذه الجماعات تحمل في ذاتها أسباب فنائها: احتيالها، كذبها، زيفها، افتقادها لمشروع، وتغذيتها لكل ما هو عنيف ومتخلِّف ولا إنساني.

عَلَّق طه، وهو يبتسم بسخرية:

– هذا كلام غير واقعي.

توقَّف ناصر عن السير، وقال، وهو يمعن النظر في صديقه:

– الجماعات الإرهابية تحفر قبرها لأنها ستجعل العرب يقفون وجهًا لوجه أمام فشلهم وتخلُّفهم وتراثهم الدِّيني، وسيتأكدون أن تراثهم الدِّيني هو سبب ما هم فيه، وهذا سيدفعهم نحو مراجعة هذا التراث، وإبعاد الدِّين عن الصراع، وإبطال مفعول الاستخدام المهووس له.

مضى ناصر يقول، وهو يعود لمواصلة السير:

– في النهاية، لن يكون بإمكان الجماعات الإرهابية والطائفية استخدام الدِّين كأداة للسيطرة على مجتمعاتها، أو لإعلان الحرب عليها، بهدف إخضاعها بالقوة. طبعًا هذا لن يحدث في يوم وليلة، بل سيحتاج وقتًا.

أفرد طه أساريره بتململ وانقباض لتأكيد عدم اقتناعه بكلام صديقه المُتحمِّس. إلا أن "ناصر" واصل حديثه، دونما اهتمام بالانزعاج الذي أبداه صديقه:

– أُؤكد لك أن الاندفاع الحاصل نحو إحياء الأصولية الإسلامية هو مقدِّمة ستفضي إلى تراخي قبضة الدِّين على المجتمعات العربية.

أضاف، بنبرة حاسمة:

– الفوضى الحاصلة تؤكد أن المنطقة العربية تُفتِّش عن ضميرها وذاتها، وستدرك أن ماضيها عِبْءٌ عليها، ويقينياتها هشَّة وغير متماسكة.

28

حرارة الشمس لاسعة، رغم أن الوقت مازال السابعة صباحًا. سمير نائم في سكنه، منذ عاد من صلاة الفجر. لم يكن لديه عمل محدد، فاستسلم للنوم جوار جليلة، التي اعتادت الاستيقاظ مُبكِّرًا، مع أنها لم يكن لديها ما تعمله. خضعت، دونما خيار، لنظام "مُخيَّم الإيمان والهجرة": النوم والاستيقاظ مُبكِّرًا. كانت تقتل الملل وأوقات الفراغ الصباحية الطويلة بالنوم المتقطِّع، أو بالثرثرة مع زوجة شقيقها وزوجات بعض "المُجاهِدين".

كان سمير وجليلة نائمين على الفرشين المهترئين، وكلٌّ منهما يعطي ظهره للآخر. استيقظا على صوت شخص ينادي "أبو الليث"، ويقرع الباب بقوة. نهض سمير، وأطلَّ من نافذة الغرفة لمعرفة هوية الطارق، وما يريد. كان "أبو عِكرمة" يقف في الخارج، حاملًا كلاشنكوف على كتفه اليسرى، وتجهُّمٌ حاد يَطْفُر على وجهه؛ شأن حراس "بن صالح" الشخصيين. بصوت مبحوح، ألقى السلام على سمير، وأبلغه، أن "الأمير" يطلب مثوله بين يديه فورًا.

بقلق، وخطى مرتبِكة، وَصَلَ سمير إلى الساحة الترابية المنبسطة أمام سكن قائد الجماعة، المُطِلّ على المُخيَّم. حين ظهر عند الزاوية المنعزلة، نهاية الساحة، نهض "بن صالح" من مكان جلوسه، وصرخ فيه محتدًا:

– ما هذا الذي سمعته عنك يا سمير؟!

ارتعب "المُخبِر" وهو يرى قائده ينتفض من مكانه على ذلك النحو، ثم يوجِّه له ذلك السؤال الاتهامي، لاسيما وقد خاطبه باسمه دون كُنيته. أيقن أن غضب "الأمير" كبير، ولم يجرؤ الاستفسار عن السبب، أو الجريمة التي ارتكبها. استفاق الهلع في روحه، وارتعدت فرائصه. طأطأ رأسه، وتلعثم متوسّلًا الصفح. ولأنه يفتقد للثقة بالنَّفس، فقد أذعن لغضب قائد الجماعة، وأحنى جبهته، كما يفعل أيّ مُذنِب. زاد هياج "بن صالح"، وارتفع صراخه مطلقًا عبارات توبيخية مهينة وجارحة لـ"مُخبِره"، الذي ظَلّ مطأطئًا رأسه بإذعان وصمت المُذنِب. بعد برهة، استجمع سمير قوته، ورفع نظرة مُتسلِّلة نحو قائده، وسأله، بخضوع وانسحاق كاملين:

– ما الذي أغضبك أيها الأمير؟!

– أنت تعرِف ما الذي أغضبني، ومع هذا تتجرَّأ وتسألني عن ذلك! اخجلْ من نفسك.. المُجاهِد الحقيقي هو الذي يُلزم أهل بيته بالاحتشام والعِفَّة.

أحنى سمير رأسه مزيدًا من الانحناء، وتذكَّر كل مخازي أُسرته.

التفت "بن صالح" إلى حارسه "أبي عِكرمة"، وأمره باقتياد سمير إلى سجن المُخيَّم.

29

عاش "بن صالح" أيامًا عصيبة وهو يُتابع تقدُّم مسلَّحي الحوثي داخل المجال الحيوي والجغرافي لـ"مُخيَّم الإيمان والهجرة". بَذَلَ جهودًا كبيرة لمواجهة ذلك التقدُّم، وكرَّس وقته لبحث سُبل وإمكانات ذلك. قرَّر أن يرمي بثقله في المعركة. أرسل إلى الجبهة عشرات من مسلَّحيه لمساندة رِجَال القبائل في قتالهم ضد الحوثيين. بيد أن جهوده تلك ذهبت أدراج الرياح. لقد ارتفع عدد القتلى في صفوف مسلَّحيه؛ ففي المواجهات الأخيرة فقط، قُتِلَ عشرون منهم، بينهم "أبو البيداء"، ومجيب البَالِع.

زادت مخاوف "بن صالح"؛ لأن تقدُّم الحوثيين في هذه الجبهة لا يعني سيطرتهم على مناطقها فحسب، بل وصولهم إلى مُخيَّمه. صحيح أن المُخيَّم يقع في منطقة جبلية بعيدة ووعرة؛ إلا أن موقعه صار معروفًا للجميع، وقد تدفع المغامرة بمسلَّحي الحوثي نحو شَقّ طريقهم إليه بهدف اقتحامه. ما ضاعف مخاوفه هو أن عددًا آخر من مقاتليه عادوا إلى المُخيَّم مثقلين بخسائر جديدة. يومها، قرَّر مرة أخرى عدم الدَّفع بمسلَّحيه إلى الجبهة، مفضّلًا الحفاظ على قوَّته للدِّفاع عن نفسه، وحماية مُخيَّمه، في حال وَصَلَ إليه الحوثيون.

تحت ضغط الخسائر المتتالية، أعاد إحصاء المقاتلين المتمركزين في مُخيَّمه، فتأكد من ازدياد عددهم. انشرح صدره، إذ وجدهم يتجاوزون الخمسمائة؛ ذلك أن ثلاثمائة شخص انضمُّوا إلى مُخيَّمه، خلال الأسابيع الأخيرة، طلبًا لـ"الجِهاد ضد الرَّوَافِض". شَجَّعه الأمر على تغذية الجبهة بمائتين منهم، وعندما قُتِلَ ثلثهم، قرَّر، مرة ثالثة، التوقُّف عن المشاركة المباشرة في المعارك، والاكتفاء بتنفيذ هجمات خاطِفة ضد الحوثيين، وما يسميه "الجيش المُتَحَوِّث". قال في نفسه إن رِجَال القبائل أقدر على القيام بمهمة المواجهات

المباشرة، فيما مسلَّحوه أقدر على مباغتة الحوثيين بهجمات خاطفة، وعمليات انتحارية بسيارات مُفخَّخة.

تقاذفته الهواجس والأفكار، وغَرِقَ في التفكير محاولًا معرفة الخيارات المتاحة له في حال واصل مسلَّحو الحوثي تقدُّمهم نحو المُخيَّم. كان الحوثيون، والقوات المُسانِدة لهم، مازالوا بعيدين. مع ذلك، فكّر "بن صالح" في المغادرة، إلى المكلا، للالتحاق بالعدد الكبير من الجِهادِيين هناك، الذين كانوا مستمرين في السيطرة على مدن ساحل حضرموت. نصحه بعض مُقرَّبيه بالتَّوَجُّه إلى عدن لمساندة "المقاومة الشعبية" في قتالها ضد الحوثيين. وللتغلب على حيرته وتردُّده، صَلَّىَ استخارة، ليُلهِمه الله القرار الصائب. اليوم التالي، أَبَلَغَ مُقرَّبيه بأن الله أمره بالبقاء في المُخيَّم، وإرسال عدد من المُجاهِدين لقتال الرَّوَافِض في عدن".

بعد أيام، وَصَلَه خبر الانتصار الذي حقَّقته "المقاومة" على الحوثيين، والقوات المساندة لهم، في عدن. تلقَّى الخبر بسرور بالغ. وكي لا تفوته المشاركة في ذلك النصر، دفع، على الفور، بمائة من مسلَّحيه إلى عدن؛ بعد أن نَسَّق لهم مع شخصيات قبلية ودينية مشاركة في المعارك هناك. وَصَلَ رِجاله إلى عدن بعد يومين من ذلك الانتصار؛ لكنهم التحقوا بجبهة كانت لا تزال مشتعلة على أطراف المدينة. ولأن للانتصار أكثر من أب، فقد أعلن "بن صالح"، في بيان، مشاركة مقاتليه في "تحرير عدن من الرَّوَافِض"! مع ذلك، تعاظمت مخاوفه من وصول الحوثيين إلى مُخيَّمه، ولم تتبدَّد تلك المخاوف إلاَّ بعد ثلاثة أشهر، حين انسحب الحوثيون، والقوات المساندة لهم، من المحافظة التي ينتمي إليها؛ باستثناء مناطق في مديريتي عسيلان وبيحان الواقعتين على الحدود الشَّطرية السابقة مع محافظتي مأرب والبيضاء الشماليتين.

30

تلقى سمير، وهو في سجن المُخيَّم، خبر مقتل صِهره "أبي البيداء". كان يقضي يومه الرابع في السجن، عندما وَصَله الخبر، الذي أحزنه بشكل يفوق التوقُّع. صباح اليوم التالي، تلقى خبر مقتل ابن حَيِّه القديم؛ مجيب البَالِع. رفع رأسه إلى الأعلى، وفتح كَفِّيه، وبصمت أَنْشَأَ يبتهل، حمدًا وشكرًا لله. وفي ابتهاله الصامت ذاك، أكد التزامه الوفاء بالنَّذْر الذي قطعه على نفسه: صوم عشرة أيام.

لم يستطع إخفاء سعادته بخبر مقتل ابن حَيِّه القديم. اعتبر أن الله استجاب لدعائه، وخلَّصه من كابوسه الشخصي. اعتقد أن مقتل مجيب كان بفعل النَّذْر الذي قطعه لله على نفسه؛ لهذا أكد التزامه بصوم الأيام العشرة ما إن يخرج من السجن، رغم أنه كان يظنَ أن الله استجاب لدعائه بعد فوات الأوان؛ بعد أن تحدَّث مجيب بما يعرِفه عنه وعن أُسرته. وإذ تنبَّه للحال التي هو فيها، نَذَرَ أن يصوم لله عشرة أيام أخرى إن أخرجه من السجن، ومن المحنة التي هو فيها.

اليوم التالي، تذكَّر "بن صالح" مُخبِره السِرّيّ، فأمر بإخراجه من السجن وإحضاره إليه. كان الوقت بعد الظهر، وكان اللُّعَاب قد جَفَّ في فم سمير وحلقه. أخذ يتصاعد شعوره بالفزع كلَّما اقترب من سكن "بن صالح". وَصَلَ إلى هناك وهو مسكون بالرعب. كان يظُنّ أن سِرَّهُ الكبير قد انكشف، وصار فضيحة. في الساحة أمام السكن، أَحسَّ الرَّجُل الهارب من ماضيه بجسده يرتجف فزعًا. بقِيَ مُنَكِّسًا رأسه، غير قادر حتى على إجالة النظر في المكان وما حوله. أوصله المسلَّحون إلى قائدهم ثم انصرفوا. ما إن غادروا، التفت إليه "بن صالح"، وقال له بلهجة أنيسة:

– يا أبا الليث، لقد عَزَّ عليَّ أن أُبقيك في السجن مدة أكبر، لهذا أمرت بإخراجك، لتنهي ما أنت فيه من معصية لله ورسوله.

– سأُنفِّذ كل ما تأمر به أيها الأمير، ولكن ما حدث كان بدون إرادتي!

صَرَخَ قائد الجماعة مهتاجًا:

– كيف بدون إرادتك؟!

ارتجف سمير ولم يستطع الرَدّ، فيما تصاعد صراخ وغضب "بن صالح":

– كيف تسمح لزوجتك أن ترتدي ملابس إفرنجية كافرة وخليعة وماجنة، وأين؟! هنا في مُخيَّم الإيمان والهجرة، ثم تقول إن ذلك تَمَّ بدون إرادتك؟! ألا تستحِي من نفسك؟! ألا تخجل من الله ورسوله والمُجاهِدين؟!

تَنَفَّسَ سمير الصُّعداء، إذ أدرك أن اعتقاله لم يكن بسبب سِرّه الكبير: ماضيه. عادت إليه الحياة، فقال، وهو يرفع نظرة متذلِّلة إلى قائده:

– أيها الأمير، أنت زوَّجتنِي بها، والحمد لله أنه أكرمني بهذه الزِّيجة؛ لكني تزوجتها وتلك الملابس معها. أنا اعترضت عليها، وأردت إحراق تلك الملابس؛ لكنها قالت لي إن الشيخ "أبو البيداء"، رحمة الله عليه، جاء بها من منزل أمها وتلك الملابس معها، وأنه لم يعترض عليها، ولم ينهها عن ارتدائها!

– هل قالت لك إن "أبو البيداء" لم ينهها عن ارتداء تلك الملابس الكَافِرة والمَاجِنة؟!

– نعم أيها الأمير، وأنا اعتقدت أن إجازة الشيخ "أبو البيداء" لتلك الملابس وسكوته عنها يعني أن ليس فيها مخالفة لدين الله، فهو شيخ جليل له الأسبقية عليَّ في الجِهاد وفي العلم؛ لكن أنت أميرنا، وسنُنفِّذ ما تراه وما تأمرنا به.

– أنا رفضت أن أُفاتِحك فى هذا الأمر أمام إخواننا المُجاهِدين؛ لكني أريدك أن تتوب إلى الله من هذه المعصية، وتعمل على إنهائها. اذهب الآن، من فورك، وأخرج كل الملابس الإفرنجية الكَافِرة الخليعة الخاصة بزوجتك، واحرقها.

– سمعًا وطاعة أيها الأمير؛ لكن أستحلفك بالله أن تعفو عني وتغفر لي.

– قد عفونا عنك، يا أبا الليث، وغفرنا معصيتك، فاذهب وافعل ما أمرتُك به.

31

بَلَغَ الأمر بناصر قاسم أن قال لأصدقائه إنه يَدرُس تأثير الكبت الجنسي على تصرُّفات وسلوكيات الإرهابيين. وإذ اجتهد في تحليل مَيْل، بل ولع المتطرِّفين بالغلْمَة؛ أكد أن فهم اللاوعي، وطبيعة الغرائز والدوافع المحرِّكة لها، ضروري لفهم سلوكيات الإرهابيين وأفعالهم. وليثبت عمقه التحليلي كمثقف، رجع إلى ما قاله ماركيوز من أن "مظاهر اللِّذَّة تبدو عند المجتمع القمعي وكأنها أزهار الشر". بشكل حاسم، أضاف:

– شيطنة اللِّذَّة في المجتمعات العربية ولَّدت لدى البعض انحرافات مريعة. المجتمع الجِهادي يشيطن اللِّذَّة بشكل مضاعف، وقد انعكست آثار ذلك في الإرهابيين على شكل انحرافات تتجلى في استراق المُتَع، واستخدام الدِّين لتبرير طابعها وطرائقها الشاذة. يعني، الكَبْت يجعل الشهوات والغرائز تتفجَّر على شكل انحرافات قبيحة. فالطُهرانية أو التَّطَهُّرِيّة المبالغ فيها لدى المتزمِّتين دينيًا هي مُجرَّد ادعاءات تتخفى وراءها أشد النزعات انحرافًا.

بقدرته على التلاعب بالكلمات، تابع حديثه، وهو يَزُمّ عينيه وشفتيه:

– التَّزمُّت والمبالغة في تَمَثُّل الفضيلة يعكس اضطرابات ذاتية تشكَّلت كنِتاج لحياة الحرمان والكَبْت. يقول سيوران: "العقيدة تدفع إلى الوقاحة. ما إن تعتنقها حتى تنشط فيك غرائزك الشريرة".

على الدوام، كان ناصر ينجح في إثارة حالة من الجدل والخلاف حول ما يقول. وإلى تصنيفه للإرهابيين كضحايا، أَصرَّ على التعامل معهم ك"حالة صِحِيَّة". وقد فجَّر ذلك غضب من تبقى له من أصدقاء.

– أيش من حالة صِحِيِّة أيش من كلام فاضي؟! عمر العنف والإرهاب ما كان حالة صِحِيِّة!

قال طه، ذو البنية الجسدية الضخمة والرأس الذي يَشُقُّ الصَّلَعُ وسطه.

رَدَّ ناصر، بثقة المثقف العليم بجوهر القضايا ومكنونات الأشياء:

– الإرهاب حالة صِحِيِّة لأنه سينتهي بسحب المجتمعات العربية من ماضيها. يعني، سيجعل مجتمعاتنا تَتَحَرَّر من الماضي وأشباحه، ومن قسوة وعنف المعتقدات الدِّينية الكامنة في وعيها وأنماطها الحياتية..

– كلام مُخَيَّط بصميل!

قاطعه رامي مُكرِد، لامزا ومقللا من أهمية ما قاله.

بتأفُّف، قال المثقف المُتحمِّس:

– خَلِّينا من شغل المُنَاجَمة([8]) يا رامي، خَلِّينا نتكلَّم، لا تقاطعنا! لو معك شي تشتي تقوله خَلِّينا نكمِّل كلامنا وبعدا نسمعك.

أضاف، وهو يَمُجّ السيجارة:

([8]) لفظة شعبية تعني تحويل النقاش إلى ترصُّد محموم يتم فيه التراشق بكلمات وعبارات لا تستند لعقل أو منطق.

– اسمع يا طه، ما يجري اليوم هو بمثابة دراما سيكولوجية يحاول فيها اليمنيون والعرب التعرُّف على ذواتهم بهدف مغادرة حالة العجز والتخلف والضياع، التي هم فيها. مجتمعاتنا ما تزال قابلة للاشتعال بشدة. يعني، مجتمعاتنا ستقوم بثورات، وستغرق في حروب أهلية طويلة، كي تنضج وتتعلَّم ما يجب عليها أن تتعلَّمه.

صوَّب إليه صديقه طه نظرة ساخرة، تعبيرًا عن عدم اقتناعه بما قال. أطلق المثقف المُتحمِّس نفسًا عميقًا، واعتدل في جلسته، بالطريقة التي يفعلها حين يريد توضيح أمر ما. شَرِبَ من قنينة الماء الخاصة به، ثم قال، بعد أن حَكّ عُنقه، وأغمض عينيه، وحَرَّك رقبته:

– المنطقة العربية في مرحلة انتقالية مفتوحة؛ لهذا فالصوت الأعلى فيها هو صوت الإرهاب والعنف والخراب، فيما شعوبنا تعيش حالة من التِّيه. يعني، نحن في مرحلة انتقالية، وسيطرة وصعود الجماعات الأصولية فيها هو حالة لحظِية عابرة، وليس تثبيتًا لوقائع على الأرض.

استطرد، دون أن يسمح لصديقه ذي البنية الجسدية الضخمة بالكلام:

– المجتمعات العربية تريد التعبير عن نفسها، فينعكس هذا في شكل فوضى، أو ما يُطلق عليه "استبداد المحكومين". مجتمعاتنا، حتى الآن، لم تتعرَّف على ذاتها ومصالحها؛ لهذا فهي تدافع عن مصالح غيرها. وما يجري اليوم سيجعل المجتمعات العربية أكثر وعيًا بذاتها ومصالحها؛ لذلك قلت إن الأصولية الإسلامية تحفر قبرها.

أضاف، بنشوة من يمتلك الحقيقة، وفصل الخطاب:

– يقول ماركس إن الصيرورات التطورية في الطبيعة والمجتمع إنما تحدث من دون اعتبار لإرادة البشر ووعيهم.

32

اجتاحت جليلة سعادة غامرة حين سَمِعَت صوت سمير وهو يطرق باب سكنهما. لم تَعرِف سبب فرحتها؛ ذلك أنها لا تُحِبُّه، وتزوّجته بغير رضاها. وإلى هذا لم تجد ما يسُرّها في حياتها القصيرة معه. الأرجح أن فرحتها كانت بمثابة تعبير مُرتَجَل أملته عليها غريزة التصرُّف كزوجة. اجتاحتها السعادة دون شعور؛ إذ كان عليها أن تفرح بخروج زوجها من السجن، بغض النظر عن حُبِّها أو كُرهها له. وإلى هذا، فقد وصلت حَدَّ اليأس من مغادرة المُخيَّم، وصارت حياتها فيه مُرتَبِطة بحياة سمير. صحيح أنها لا تُحِبُّه؛ لكنها بحاجة إلى رَجُل يُشبع جانبًا من رغبتها الجنسية، ويُخفِّف من وطأة الخوف والوحدة التي تعيشها في المُخيَّم المُرعب والكئيب.

شَعَرَت بسعادة لخروجه من السجن، مع أنها كانت في حالة حِداد حزنًا على مقتل شقيقها، "أبو البيداء". لم تكن تُحِبّ شقيقها، وفرحت بعودة زوجها، لأن التقاليد المجتمعية تجعل المرأة بحاجة دائمة إلى رَجُل تحتمي به، وتعيش في ظِلّه.

ما إن عَبَرَ سمير عتبة الباب، احتضن جليلة، وغَرِقَ معها في موجة من القُبَلِ. كانت تريد ما هو أكثر من ذلك؛ لكنه امتنع ووعدها بما تريد في المساء. استغرب رغبتها تلك، رغم أنها في حالة حِداد على شقيقها القَتِيل. تأكد أنها لا تُحِبّ أخاها؛ غير أنه عَزَّاها بمقتله، التزامًا باللياقة. انتبهت إلى أن عليها أن تُبدي قدرًا من الحزن. سألها عن حال زوجة شقيقها، وما قرَّرت فعله، فقالت إن الأخيرة أخبرتها بأنها لا تستطيع العودة إلى أهلها، وأنها ستبقى في المُخيَّم، على أمل أن يزوِّجها "الأمير" بأحد "المُجاهِدين".

لم يُبدِ الزّوج الـ"مش الطبيعي" أيّ غضب تجاه زوجته؛ لأنها تسبَّبت فى سجنه. لم يكن غاضبًا؛ لأن سعادته كانت أكبر بنجاته من الفضيحة الكبرى: انكشاف ماضيه. حدَّثها عن سبب سجنه، وما أمر به "الأمير". بعد كلمات حزينة، اتَّجهت نحو المطبخ، وجاءت بشنطة الملابس الخاصة بها. وضعتها وسط الغرفة، ثم فتحتها، وبدأت، وهي تبكي، تُخرج منها ملابسها "الإفرنجية الكَافِرة". أبقت فقط طقمَي ملابس داخلية، وبلوزة مع تنورة. شاهد سمير ما أبقته، لكنه غَضَّ الطرف عن ذلك.

خرج يبحث عن كرتون يخفي فيه الملابس "الإفرنجية الكَافِرة"، عند إخراجها بهدف إحراقها. بعد دقائق، عاد بقطع كرتونية مُمزَّقة لا تنفع لإخفاء الملابس. طلب من جليلة أن تحضر له قداحة المطبخ، فيما أخذ يُكوُّم تلك الملابس بشكل حَرِصَ فيه على إخفاء بعضها في بعض. أمام السكن، خفق قلبه بشدة. تَلَفَّت حوله، فاطمأن إذ لم يجد أحدًا. كان الهدوء يلُّف "قسم العائلات". وكان سمير يحاول إخفاء الملابس التي يريد إحراقها. بسرعة، أخفاها تحت القطع الكرتونية، التي كان قد وضعها بين مجموعة أحجار رصها أمام سكنه. من الأسفل، أخرج طرف بلوزة، وأشعل فيه النار، ويديه ترتجفان. تصاعدت النار ملتهمة الملابس والقطع الكرتونية. وقف، وعاد خطوتين إلى الخلف وهو يُطلق زفرة عميقة. انشغل بالبحث عما يقلب به الملابس في النار، لضمان احتراقها بشكل كامل. وَجَدَ عصًا أدت المهمة على أكمل وجه. كان يبتسم بسعادة كُلَّما رأى قطعة من الملابس "الإفرنجية الكَافِرة" تحترق.

كانت جليلة تبكي، وهي تسترق النظر من نافذة الغرفة، فيما "بن صالح" يقف أمام سكنه، في الساحة المُطِلّ على المُخيَّم. تفاجأ سمير بمراقبة قائد الجماعة له. ركَّز نظره نحوه، وابتسم له ابتسامة متوجِّسة، أتبعها بانحناءة

بسيطة من رأسه، تعبيرًا عن الشكر والعرفان، وتأكيدًا لالتزام السمع والطاعة. ابتهج "المُخبِر" لأن "الأمير" رآه وهو ينفّذ أمره.

دخل سمير سكنه؛ بصدر منشرح، وأسارير منبسطة. لقد تخلَّص من الفزع الذي لازمه طوال أيام السجن؛ لكن خوفه من ماضيه أصبح أكبر من ذي قبل. جلس على فراش نومه القديم المهترئ، وغَرِقَ في تذكُّر الماضي الذي مازال يلاحقه منذ سبع سنوات.

33

صباح 17 مارس 1996، قرَّر سمير مواصلة النوم، وعدم الذهاب إلى المدرسة. عندما استيقظ، بعد ثلاث ساعات، أَحسَّ أنه يتنفَّس بشكل جيد. شَعَرَ براحة وتَحَسُّن في المِزاج. لم يذهب إلى المدرسة بعد ذلك أبدًا. حينها، كان اسمه ما يزال "سمير نادية".

ترك المدرسة وهو في الصف التاسع. كان في الخامسة عشرة من عمره، وكانت أُمه في السابعة والثلاثين. لم تسأله عن سبب توقُّفه عن الدِّراسة. وبدلًا من الضغط عليه كي يعود إلى المدرسة، دمجته في مهنتها؛ كعامل توصيل. بدأ يُوصِلَها إلى منازل أشخاص لا يعرِفهم، ثم يرجع إلى هناك ليلًا ليعيدها إلى شّقَّة سكنها. لم يكن الهدف من تكليفه بتلك المهمة توفير وسائل نقل آمنة لها، بل إزالة أيّ شكوك حول تنقلاتها وطبيعة عملها، في مجتمع يُوغِل في مراقبة أفراده، لاسيما الذين تحوم حولهم شكوك القيام بأعمال من هذا النوع. لقد استخدمته كـ"مَحرَم"، لتبديد أيّ ريبة حول تحرّكاتها. فيما بعد، استخدمته في المهمة ذاتها لتأمين إيصال العاهرات اللواتي عَمِلَت كقوادة عليهن.

أبلى الفتى بلاءً حسنًا في عمله. ظَلّ كائنًا غير مرئي، ذلك أنه التزم الصمت، وتَجَنَّبَ الفضول، وطرح الأسئلة. كان مُجرَّد ظِلّ خافت لأمه؛ إذ

تَخَلَّى عن مشاعر الغِيرة الذُّكورِية السائدة، ولم يحاول التَّحرُّش بمجتمع العاهرات الذي عاش في خدمته. لقد أبدى مرونة كبيرة في التعامل مع ذلك المجتمع، وقدرة ممتازة على التَكَيُّف معه، وحيوية نشِطة في تلبية طلباته. لكنه عاش نوبات صامتة من الغِيرة والغضب منذ بدأ في إيصال شقيقاته وزوجته مريم إلى طالبي الجنس.

بعد ثلاث سنوات، انتابته مشاعر أسف لتوقُّفه عن الدِّراسة، فحمَّل أمه مسئولية ذلك. فكَّر في الأمر مرارًا، وفي كل مرة كانت تنخفض مشاعر الأسف لديه، مقابل ارتفاع منسوب الإدانة الموجَّهة لأمه. لكن ذلك لم يستمر طويلًا. في إحدى نوبات التأنيب تلك، حاول أن يكون مُنْصِفًا، فأقرَّ بأنه لم يكن ذكيًا في دراسته، إضافة إلى أنه كان يفتقد للدافع الذاتي، والروح التفاعلية. انتهى به الأمر إلى تحميل نفسه كل المسئولية، رغم إدراكه، حَدّ اليقين، أنه توقَّف عن الدِّراسة بسبب امتهان أمه الدعارة.

حالة النَّبذ، التي تعرَّض لها في الحيّ، لاحقته إلى المدرسة؛ لهذا لم يكن أمامه غير الهروب إلى حياة الانطواء والعُزْلَة. حين وصلت سُّمْعَةُ أمه إلى المدرسة، أخذ بعض الطلاب ينادونه باسمها؛ لمزًا وتحقيرًا. وأبعد من ذلك، كان بعضهم يتعمَّدون جعله يسمعهم وهم يتحدَّثون عنه باعتباره ابنًا لعاهرة، أو لفت انتباهه لهم أثناء تَهامسهم بذلك. كثيرون تجنَّبوا صداقته، فيما حاول بعض الطلاب الأكبر سنًا التَّقَرُّب منه، على أمل إقامة علاقات جنسية مع شقيقاته. هكذا، وَجَدَ نفسه يتنقَّل كمنبوذ ما بين المدرسة والحيّ الذي يسكنه. كان طفلًا في مجتمع شديد القسوة، لهذا انغمس أكثر فى حياة الانطواء والعُزْلَة.

تعرَّض لتدمير ذاتي مريع. مع ذلك، لم يُحَمِّل أمه جانبًا من مسئولية توقُّفه عن الدِّراسة، وبعض أسباب فشله كطالب. لم يكن يدرك الآثار الفادحة

التي يتجرّعها الطفل جراء افتقاده للمحيط الأُسري المُناسِب، أو للأسرة المُحَفِّزة والمُلهِمة، رغم أنه عاش التجربة بكل قسوتها حتى صار ذاتًا مقهورة ومحطَّمة.

كَفّ الفتى المنَّبوذ عن الذهاب إلى المدرسة، لأنه تعب من شعوره الدائم باحتقار الجميع له. والتَحَسُّن في المزاج، الذي أَحسَّه جراء مواصلة النوم صباح 17 مارس، لفت انتباهه إلى أن بإمكانه الحصول على الطمأنينة والسلام الداخلي، إذا توارى عن الناس. أراد السكينة، فوجدها في حياة الانطواء والعُزْلَة، داخل منزل أُسرته. كان ذلك هروبه الأول من المجتمع. وخلال ذاك الهروب، كرَّس وقته لخدمة أمه وشقيقاته. وَجَدَ نفسه وجهًا لوجه مع مهنة أمه، وحياتها الجنسية المُحرَّمة. فتَعَلَّمَ السهر، و"تَخْزِين القات"، كي ينسى واقعه المهين والقاسي.

أيقن، مُبكِّرًا، أنه يقف في طابور البُلداء، وتحديدًا في مؤخرة هذا الطابور، الذي كان يراه قصيرًا بأكثر مما ينبغي. خطر له، أكثر من مرة، أن الله لا يتفقد طابور البُلداء والمسحوقِين. وفي أشد لحظات غضبه، توصَّل إلى أن القسوة التي تجرَّعها من أهالي الحيّ، وطلاب المدرسة، مستمدة من القسوة السرمدية لله، والأديان. وبعد التحاقه بالإرهابيين، استخدم الله، بوحشية مُفجِعة، للانتقام من المجتمع الذي نبذه وقسا عليه دونما رحمة.

في الصف السادس، صَنَّفَ نفسه باعتباره شخصًا بليدًا، وعاش مسكونًا بهاجس البَلادَة. ولقد صار موقنًا بأن الله لم يكن عادلا حين وزّع البَلادَة والذكاء بين الناس. غير أنه اكتشف، بعد سنوات طويلة، أنه لم يكن بليدًا إلى تلك الدرجة التي كان قد وضع نفسه فيها؛ إذ أظهر، بعد أن التَحَقَ بالجماعة الإرهابية، ذكاءً عاطفيًا لم يكن يتوقَّع أنه فيه. وكان من الغريب بالنسبة له أن يتعامل معه أغلب مسلَّحي جماعته الجِهادِية باعتباره شخصًا

بالغ الذكاء. لا بد أن فيرناندو بيسوا كان مُصيبًا حين قال إن ما يُدهشه "أكثر من غيره ليس البَلادَة التي يحيا بها أغلب الناس حياتهم، إنما الذكاء الموجود في تلك البَلادَة".

واصلت شقيقاته الثلاث دراستهن. بعد عامين من تركه الدِّراسة، أنهت سلوى دراستها الثانوية، ثم التحقت بكلية التربية؛ إلاَّ أنها فشلت في سنتها الجامعية الأولى. سقطت في أربع مواد دراسية، فقرَّرت عدم الذهاب، مرة أخرى، إلى الجامعة. لم تسألها أمها عن سبب توقُّفَها عن الدِّراسة، ولم تضغط عليها كي تعود لمواصلتها، بل كرَّست جُهدها لتزويجها، ثم إِدماجها في حياة الدعارة.

تزوَّجت سلوى من نجل إحدى صديقات أمها. بعد أَقَلّ من عام، عادت إلى أُسرتها كامرأة مُطلَّقة. وقبل مضي عام ونصف العام على تلك العودة الكَسِيرة، بدأت العمل في الدعارة. حينها، كانت تسير في عامها الثاني والعشرين.

أكملت شقيقتاه إيمان وسُهى دراسة الثانوية العامة. لم تلتحقا بالجامعة، بل بمهنة أمهما. ويوم هرب هو من المنزل، لم تكن أيٌّ منهما قد تزوَّجت، أو خُطبت، فيما كانت سلوى تمضي بخطى حثيثة في مهنة أمها.

34

حين بلغ سمير الثامنة عشر من عمره، أدخلته أمه مدرسة تعليم قيادة السيارات، ثم اشترت سيارة صغيرة رخيصة الثمن، أوكلت له مهمة قيادتها. على تلك السيارة، قضى عشر سنوات من عمره باعتباره "سواق الماما وعاهراتها". كان يؤدي وظيفته تلك دونما حقوق، إلا حقوق الابن العاطل عن العمل. لم يكن لديه راتب شهري مُحدَّد، إنما مصروف يومي كانت أمه تَمُنّ به

عليه. لم يكن لديه أيّ مستحقات مالية أخرى، إلا ما تجود به أيدي أمه وعاهراتها.

حدثت صدمته القاتلة وهو في عامه العشرين. طلبت منه أمه أن يأخذها إلى إحدى صديقاتها، ويعود ليأخذها من هناك في المساء، كالعادة. انتظرها في السيارة، ففوجئ بشقيقته سلوى تأتي معها. تدافعت نبضات قلبه سريعًا، لاسيما وقد كانت تفوح منهما رائحة العطر، وكانتا متزيّنتين زينة صارخة، بدت واضحة رغم لثاميهما؛ وذلك ما لم تكن تحتاج إليه أمه في زيارتها لصديقاتها. تَمَنَّى أن يكون ذلك المشوار مجرد زيارة لإحدى صديقات أمه، لا إلى أحد زبائنها.

عندما شَغَّل محرِّك السيارة، طلبت منه أمه أن يَمُرّ على "تهاني"، صديقتها. ما ضاعف مخاوفه أنها لم تطلب منه التَّوَجُّه إلى منزل تهاني، بل أن يَمُرّ لها. توقَّعَ أن تأخذها معها، لكنه لم يتوقَّعَ أن تأتي تهاني مع ابنتها تغريد ذات الواحد والعشرين ربيعًا. صَعَدَت تهاني وابنتها إلى السيارة، فاختلطت عطورهما بعطور نادية وابنتها؛ وهي عطور رخيصة على كل حال.

التزم "سواق الماما وعاهراتها" الصمت، محتضنًا خوفه وقلقه. تعاظمت صدمته حين أخبرته أمه بالمكان الذي تريد منه إيصالهن إليه: فِيللا أحد زبائنها! تحوَّلت نبضات قلبه المتسارعة إلى نوبة غضب داخلي. سبق له أن أوصل أمه إلى هذه الفِيلَّا؛ لكن الأمر مختلف الآن. أَحسَّ بمرارة من يأخذ شقيقته إلى شخص غريب كي يمارس معها الجنس. لم يفهم لماذا لم يجتاحه هذا الغضب عندما كان يوصل أمه وحدها، إلى هذه الفِيلَّا، أو إلى منازل يدرك أن أشخاصًا غرباء كانوا ينتظرونها فيها كي يُمارِسوا معها الجنس.

ركَّز نظره على الطريق، محاولًا تجنُّب أيّ حادث قد يقع فيه جراء فورة الغضب المتصاعدة داخله. انشغل يُفكِّر فى شقيقته سلوى؛ جمالها الفاتن،

وجسدها الرشيق. زادت مشاعر الغضب والغِيرة لديه. قال في نفسه إنها مازالت في بداية الحياة، ومن الظلم تَحوِيلها إلى عاهرة وهي في هذا العمر. أيقن أن الغِيرة على الأخت أشد منها على الأم. كان قد تعايش مع امتهان أمه للدعارة، ولعل تقدُّمها في السِّنّ جعله أَقَلَّ غضبًا حيال ما تقوم به؛ حتى عندما يشاهد، وكثيرًا ما كان ذلك يحدث، زبائنها وهم يُلاطِفونها قبل، أو بعد، مضاجعتها. لم يكن قد تعايش مع امتهان شقيقته للدعارة.

فتح الحارس الباب الخارجي للفِيلَّا، فعبره سمير ثم أوقف السيارة داخل الحوش المزروعة جوانبه بالأشجار. كالعادة، لم يكن هناك أحدٌ في الحوش. وكالعادة، توارى الحارس في غرفته الملاصقة للباب الخارجي.

ترجَّلن من السيارة. تباطأ سمير في المغادرة، فرأى أمه تتقدَّمهن صعودًا نحو الباب الرئيسي للفِيلَّا. تسعَّرت موجة الغضب في نفسه؛ إذ تأكد أن شخصًا ما في الداخل ينتظر شقيقته سلوى كي يُمارِس معها الجنس. عاد إلى منزل أُسرته وهو محتقن غيظًا. انزوى في غرفة الجلوس، حيث "خَزَّن القات"، وفي داخله بركان محتدم؛ دون أن يستطيع الحديث مع شقيقتيه إيمان وسهى عما جرى.

في التاسعة مساءً، قصد الفِيلَّا ذاتها، وهو منهك جراء تجرُّعه قدرًا فائضًا من مرارة الإِهانة والعار. فتح الحارس الباب الخارجي للفِيلَّا، فعبره سمير ثم أوقف السيارة داخل الحوش المزروعة جوانبه بالأشجار. بعد أقل من عشر دقائق، انفتح الباب الرئيسي للفِيلَّا، فخرجت سلوى وتغريد، ثم تهاني ونادية. لم يظهر في الباب أيّ شخص، وكان الهدوء والظلام يُخيِّمان على المكان. بدت الفِيلا، ذات النوافذ المُسدلة ستائرها، كما لو أنها وكر للتخفي، الهدف منه إشباع الغرائز.

غادرت السيارة في جو من الصمت. استجمع "سواق الماما وعاهراتها" كل قدراته السمعية، وكَمُنَ في انتظار ما ستقوله النِّسوة العائدات من أحضان رِجَال غرباء. أمه سألت صديقتها عما إذا كانت أخذت كيس القات والهدية الخاصة بها، فأجابتها بنعم، وأشادت "بصديقتها صاحبة الفِيلَّا". أدرك سمير أن "تهاني" تحاول التَّمْوِيه، وكان قد اعتاد هذا النوع المُتذاكِي من التضليل المكشوف: التحدث عن زبائنهن بصيغة المؤنث. يلجأن إلى هذا التذاكي عندما يكون سمير معهن؛ ضمن توَاطُؤٍ كن يقمن به بهدف مراعاة مشاعره. كان ذلك نوعًا من تلطِّيف الخطأ وتهذيبه، وكان سمير يُقدِّر لأمه وعاهراتها حِرصهن على تجنيبه فجاجة ما يقمن به. ولذا شارك في هذا التَّوَاطُؤ، وقَبِلَ أن يلعب دور الغبي فيه.

ظَلّ صامتًا، وأذناه مفتوحتان على اتساعهما. تحدَّثت أمه مع تهاني عن التسوق، وارتفاع الأسعار، والمشاكل العائلية التي تعاني منها صديقتهما فاطمة. سلوى وتغريد مكثتا صامتتين. كانتا صامتتين صمت العائد من تجربة أولى في طريق محفوف بالشعور بالمهانة والرُّخص، أما الانحطاط فلم تكونا غريبتين عنه.

توقَّفت السيارة جوار منزل تهاني، فترجَّلت وابنتها، بعد أن تبادلن كلمات الوداع مع نادية وسلوى. تحرَّك سمير نحو شُقَّة أمه، التي تقع في الطابق الثاني ضمن بناية صغيرة مُطِلَّة على شارعٍ عام.

من مقعدها الأمامي في السيارة، أدارت الأم وجهها إلى ابنتها الجالسة على المقعد الخلفي، وقالت لها بسرور بالغ:

– اليوم رفعتِ رأسي. والله أني فرحانة وفخورة بكِ.

لم تتفوَّه سلوى بكلمة. فقط، حرَّكت رمشي عينيها، بطريقة من يريد شكر شخص أطرى عليه. لم يستطع سمير ملاحظة ذلك، أو معرفة تأثير ذاك

المديح على شقيقته. أَحسَّ بحالة أمه من نبرة صوتها؛ بيد أنه لم يستطع معرفة الحالة التي عادت بها شقيقته. كان من الصعب عليه مشاهدة وجه سلوى، لأنها كانت ترتدي النقاب والجلباب الإسلامي؛ الذي كانت كثيرات من العاهرات قد اعتدن ارتداءه، على سبيل التَّمْوِيه.

قالت نادية لابنتها إنها ستعطيها هديتها في البيت. كسرت سلوى الصمت بكلمة واحدة: "تمام". و"تمام" هذه مرت في أذني سمير بشكل خاطف وسريع، دون أن يستطع الإمساك بنبرة الصوت، الذي نطق بها، أو تَلَمُّس الحالة النفسية التي قِيلت فيها.

تمنَّى لو تستمر أمه في الحديث مع شقيقته؛ لكنها لم تفعل. لم يكن لديه موضوع للحديث يُمكِّنه من سماع صوت سلوى، ولم يكن من عادته الحديث أثناء مشاوير من هذا النوع. حتى في المنزل، كان حديثه مع أمه وشقيقته سُهى رسميًا وجافًا ومحدودًا؛ خلافًا لحالة الود التي تجمعه بسلوى وإيمان.

أوقف السيارة أمام البناية التي تقع فيها شُقَّة سكنهم. ترجَّلت أمه وسلوى، وسبقتاه في دخول البناية وصعود سلالمها. عندما دَخَلَ المنزل، كانت سلوى في الغرفة التي تعيش فيها مع شقيقتيها. استراح برهة في غرفة الجلوس، ثم اِتَّجَهَ نحو غرفة أمه. وَجَدَ بابها مفتوحًا، فقرعه بشكل حَرِصَ فيه ألا يكون مزعجًا. التفتت أمه إليه، وسألته، بنبرة غير مُكترِثة:

– تشتي قات؟!

هزَّ رأسه بما يُفِيد كلمة "نعم"، وانتظر ما ستجود به يد أمه.

كانت نادية قد خلعت الجلباب، ففوجئ ابنها بأنها ترتدي ملابس شبابية ضيقة لا تتناسب مع امرأة تجاوزت الأربعين. كان متفاجئًا أكثر منه غاضبًا. بذهن شارد، حدَّق فيها، وهي تُفَتِّش في الكيس الذي رجعت به من

فِيلَّا زبونها الثري، وتُخرِج منه كمية من القات. تناول القات بيدين كسيرتين، وانكفأ عائدًا إلى غرفة الجلوس. أراد أن يتحدَّث مع سلوى، لمعرفة الحالة التي عادت بها من تجربتها الأولى في الدعارة؛ لكن لم يكن لديه موضوع للحديث، أو مبرِّر لدخول غرفة شقيقاته.

بعد نحو نصف ساعة، قدَّمت شقيقتاه إيمان وسُهى وجبة العشاء. جلس إلى المائدة منشغلا باستراق النظر إلى وجه شقيقته الكبرى. وَجَدَ ملامحها محايدة لم تُمكِّنه من تكوين انطباع واضح بشأن ما يبحث عنه. انتبه إلى أنها كانت تتحاشاه. كانت تواري خجلها منه، إذ تدرك أنه يعرف أنها عادت لتوها من ممارسة الجنس مع رَجُل غريب.

انتهى من العشاء دون أن يعرف الحالة النفسية التي عادت بها شقيقته الكبرى. بقلب خائر، عاد إلى غرفة الجلوس، لمواصلة "تَخْزِين القات". فجأة تذكَّر أن سلوى تناولت العشاء والمنشفة ملتفّة على رأسها، وقطرات من الماء تَسِيل على عُنقها. بدا له اغتسالها، في ذلك الوقت، كتأكيد على أنها مارست الجنس مع رَجُل غريب في تلك الفِيللا. لم يكن يبحث عن دليل يُثبِت الأمر، بقدر ما كان يريد معرفة الحالة النفسية لشقيقته. وإلى هذا، كان يحاول التعلُّق بأمل كاذب يُخفِّف من مشاعر الإهانة والإذلال التي هو فيها. كان يأمل أن يكون حضور سلوى في تلك الفِيلَّا قد اقتصر فقط على "جلسة قات"؛ بيد أن اغتسالها بدَّد هذا الأمل!

بعد قليل، تنبه إلى أنه لم يلمس أيّ مشاعر غضب، أو عدم رضا، في وجه سلوى. شَعَرَ بالانقباض، وارتفع منسوب الغضب في نفسه. فكَّر بما عليه فعله للتعامل مع حقيقة بدء شقيقته العمل في الدعارة. لم يكن أمامه غير التَكَيُّف مع الأمر.

الأسبوع التالي، طلبت منه أمه إيصال شقيقته إلى الفِيلَّا ذاتها. كانت سلوى قد ارتدت ملابس أنيقة، وكان هو في وضع لا يُحسد عليه. شاهدها وهي بتلك الملابس المثيرة، فأحسَّ بوجع في القلب، وحَصَر في المثانة. في الثالثة عصرًا، اتَّجَهَ بها إلى فِيلَّا الرَّجُل الثري. وفي التاسعة مساءً، عاد ليأخذها من هناك.

طوال مشواري الذهاب والعودة، لم تنطق سلوى بكلمة. عندما أوقف السيارة أمام بناية شُقَّتهم، ترجَّلت، وسارت ببطء، مُتعمِّدة جعله يلحق بها. لحِقَها بالفعل، وتقدَّمها صاعدًا سلالم البناية. سمعها تُفَتِّش شنطة يدها، وفوجئ بها تدسّ شيئًا في جيبه. سمعها تُفَتِّش في الكيس الذي عادت به من الفِيلَّا، ثم فوجئ بها تناوله كمية من القات. في غرفته، عَرَفَ أنها دسَّت خمسة آلاف ريال في جيبه، وأن القات، الذي أعطته إياه، من النوع الممتاز، فاجتاحته عاطفة أخوية جارفة نحوها.

بحرارة، رحبت نادية بابنتها العائدة من حضن رَجُل غريب، ثم سحبتها إلى غرفتها، وطلبت منها أن تحكي لها ما جرى، وأخذت منها ثلثي المبلغ المالي الذي عادت به. أما القات فقد أخذته كُلَّه؛ إذ لم تكن سلوى قد تَوَلَّعت بـ"تَخْزِينه".

بعد ربع ساعة، قدَّمت إيمان وسُهى وجبة العشاء. على المائدة، شاهد سمير شقيقته سلوى وهي تلفّ المنشفة حول رأسها. شاهد قطرات الماء تنزلق ببطء على جانبي عنقها، فأَحسَّ بوخز في القلب. هذه المرة، لم تكن بملامح حيادية، بل كانت سعيدة ومُنتعِشة. كذلك، لم تعد تتحاشاه، أو تحاول إخفاء خجلها منه، بل كانت تبتسم له بمحبة كلَّما وقعت عينها في عينيه. شَعَرَ بالحزن يعصر كبده؛ إذ تأكد أنها تَكَيَّفت سريعًا مع مهنتها كعاهرة.

انتقل إلى غرفة الجلوس، حيث استأنف "تَخْزِينته"، وهو يشاهد التلفزيون. التحقت به أمه، ثم شقيقاته الثلاث. كانت سلوى مبتهجة على غير العادة، حتى إنها فكَّرت أن "تُخَزِّن"، ثم تراجعت عن ذلك. قالت إنها تشعر بالإرهاق والتعب، فأَحسَّ سمير كما لو أن شاحنة مرَّت على جسده؛ فما قالته لم يكن يعني إلاَّ أن الرَّجُل الغريب مارس معها الجنس بقوة.

مع الوقت، اعتاد "سواق الماما" التعايش مع الوضع الجديد لشقيقته. كان يضطرم كلَّما قادها إلى شخص غريب وهي بكامل زينتها. لكنه نجح في ترويض غضبه الداخلي، وتفهُّم ما تفعله شقيقته.

بشكل شبه يومي، واصل عمله في إيصال أمه، أو صديقاتها، أو شقيقته، إلى منازل يعرف بعضها، وأخرى لا يعرفها. قَلَّ الحديث بينه وبين سلوى، التي عزَّزت علاقتها معه عبر تزويده بالقات، ودَسَّ مبالغ مالية في جيبه. أصبح حديثهما المشترك محدودا للغاية؛ إلاَّ أن علاقتهما توطَّدت أكثر، ونشأت بينهما مشاعر ود غير مسبوقة، حتى إنها صارت تحرِص على أن "تَخزِّن" معه كل مساء.

35

يتحدَّث ناصر قاسم بنبرة خِطَابِية، ولكنة أُستاذية يبدو بها كما لو أنه يلقي محاضرات على طلابه ومُرِيدِيه. ذلك هو ما أثار تحسُّسًا لدى بعض معارفه وأصدقائه، الذين لم يعودوا يخفون تململهم منه، وأخذ بعضهم يتجنَّب حضور الجلسات التي يكون متواجدًا فيها. ناقش الأمر مع صديقه طه نعمان، الذي جَبُن عن تأكيد وجاهة الانتقادات الموجَّهة له. وبدلًا من أن يقوم بمراجعة ذاتية، أرجع موقف هؤلاء إلى "غِيرتهم" منه. قال إنه يواجه حملة مسعورة بسبب ثقافته وقدرته، كمُتحدِّث، على لفت أنظار الآخرين إليه،

وإثارة إعجابهم به. أجفل طه صامتًا حيال تصاعد "الأنا" على هذا النحو لدى صديقه المثقف.

لم تكن ثقافة ناصر، وقدرته على الحديث، موضوع نقاش المُتَمَلمِلين منه؛ بيد أنه فَضَّلَ تفسير موقفهم على هذا النحو. يتعامل هؤلاء معه على أنه شخص "مُزعِج وكثير كلام". وحين يُفرِطُون في الكلام عن صفاته السيئة، كان طه يُدافِع عنه، بذهنية من لديه التزام أخلاقي للذود عن الصداقة والأصدقاء.

لم يقل أحد لناصر إن نبرته الخِطَابِية الفخمة مصحوبة بيقينيات ومواقف مسبقة. لم ينتبه أحد لهذا الأمر، باستثناء طه، الذي أشرقت ابتسامة على مُحَيَّاه حين خطرت له هذه الفكرة، وراح يتحدث عنها باعتبارها "اكتشافًا" خاصًا به. قال إنه توصَّل إلى أن النَّبْرَة الخِطَابِية تقترن بالرَّطانة واليقينيات، وتتأسس على تغييب العقل، وتضخيم الغوغائية والعواطف الخرقاء. اعتمادًا على ذلك، أعلن اعتزامه التعامل مع الإسلاميين –رِجَال دين وأتباع– كضحايا لهوس النَّبْرَة الخِطَابِية. استطرد، وهو ينظر إلى ناصر:

– طبعًا، رطانة اليَساريّين عادها أسوأ. هناك يساريون ضحايا لهوس النَّبْرَة الخِطابية.

كان طه في إحدى تجلياته النادرة. صوَّب إلى ناصر نظرة أخرى، وقال، وحالة من الزَّهو تكسو ملامحه كما لو أنه اكتشف قانون الجاذبية:

– الخطابية هي نسق للتفكير والحياة، أكثر من كونها أسلوبًا للحديث. إنها مجرَّد صراخ مُمَسْرَح؛ لهذا فهي تتأسس كنقيض للتفكير العقلاني، كما هي نقيض للسكينة الذاتية. عندما يستسلم الناس للرَّطانة الخِطَابِية، كمُتَلَقِّين أو ممارسين لها، فهم يضعون أنفسهم، بوعي أو بدون وعي، ضمن نسق حياتي

وعقلي يعمل على خفض مستوى التفكير المنطقي لديهم لصالح الصراخ القائم على الدَّجل والتزييف واليقينيات الغيبية والغبِية.

بين جملة وأخرى، كان ذو البُنية الجسدية الضخمة يبتسم ابتسامة لئيمة، ما جعل المثقف المُتحمِّس يتأكد أن الحديث موجَّه له.

– هذا اكتشاف عبقري!

بنوعٍ من السخرية، قال ناصر وهو ينظر إلى طه شزرًا.

وَسَّع طه من ابتسامته اللئيمة، وقال:

– كلامي هذا عام، مش أنت المقصود به، يا ناصر.

أيقن المثقف المُتحمِّس بصحة ما قاله طه. حاول لجم غضبه، وقرَّر إغلاق النقاش في الموضوع. أراد فتح موضوع آخر للنقاش، وكان ذلك مسألة سهلة بالنسبة له.

36

كانت إيمان ما تزال عذراء عندما قادتها أمها إلى منزل رجل ثري، وجعلتها تقضي ليلة معه مُقابل ثلاثمائة ألف ريال.

مازال سمير يتذكَّر أنه ظَلّ ذلك اليوم على نافذة غرفته ينتظر عودة إيمان؛ رغم أنه كان يعرف أنها لن تعود إلاَّ في الصباح. اعتصره الألم، حتى إنه لم يتمكَّن من النوم إلاَّ في الخامسة فجرًا. أفاق بعد أربع ساعات، فتناول فطوره، ثم ارتدَّ إلى نافذته. في العاشرة صباحًا، وقفت أمام المنزل سيارة فارهة، فسَمَّر نظره عليها، بكبرياء جريح وروح نازفة.

تسارعت دقات قلبه، وزادت مشاعر الإذلال لديه، حين شاهد شقيقته تنزل من السيارة. مكث في غرفته، ولم يستطع التوجُّه نحو باب الشقَّة كي يفتحه لها. فتحت نادية الباب، وعندما شاهدت ابنتها تهلَّل وجهها

بابتسامة مشرقة، وفردت ذراعيها لعناقها. تحاشت إيمان ذراعي أمها المفتوحتين عن آخرهما، واِتَّجهت إلى الغرفة التي تتشارك النوم فيها مع شقيقتيها. أغلقت باب الغرفة على نفسها، واستلقت مستسلمة للبكاء. شَرَعَت في تغيير ملابسها، والدموع تنهمر على وجنتيها، متجاهلة الجلبة التي أحدثتها أمها وهي تطرق باب الغرفة. مرَّت عشر دقائق قبل أن تفتح إيمان الباب، وتسمح لأمها بالدخول. احتضنتها نادية، وراحت تمسح دموعها، وتمطرها بالقُبَلِ. بعد لحظات، استعادت الفتاة ابتسامتها، ومسحت ما تبقى من دموعها. رمقتها أمها بنظرات حنونة، وقالت لها بتأثر مهيب كالذي يظهر على الراهبات:

– شوفي يا بنتي، إحنا مش ناقصين بكاء ودموع. خَلِّيكِ كبيرة وذكية، وافهمي ظروفنا الصعبة. ما فيش معانا إلاَّ هذا الشغل عشان نقدر نعيش. أبوكِ مات وما عمل لنا شي، وإذا ما اشتغلنا هذا الشغل بانموت جوع.

تبدَّد الشعور بالهوان والقهر من روح إيمان؛ لكنها لم تستطع التخلُّص من مشاعر الحزن والانكسار المسيطرة عليها. استجمعت قوتها، ثم احتضنت أمها، وقَبَّلَت رأسها ويدها. ابتسمت الأم بفرح، وأبلغت ابنتها أنها أعدَّت لها فطورًا شهيًا؛ إذ حرِصت على أن تُقيم لها طقوس "الصَّبَاحِيَّة" المعروفة، كما لو أنها قضت ليلتها الأولى مع عريسها، وليس مع طالب متعة!

على مائدة الفطور، أخبرت الأم ابنتها، بغبطة وزهو، أنها أغلى عذراء في اليمن. تناولت إيمان فطورها بنفس حزينة ومنكسرة؛ لكنها واصلت مسيرتها في مهنة الدعارة بمعنوية العذراء الأغلى في البلاد.

37

عام **2004**، تزوَّج سمير من مريم. كان في الثالثة والعشرين من عمره. كانت هي تصغره بعامين. أمه اختارتها لتكون عَرُوسًا له، ودفعت كل تكاليف العرس. مرَّ العرس بهدوء، كعرس أيّ شخص يعيش عُزْلَة وحالة من النَّبذ الاجتماعي. جرى الزُّواج دون ضجيج، حتى إن غالبية أبناء الحَيّ لم ينتبهوا له. لم يُدعَ إليه الرِّجَال. أما النساء فقد أُقيم لهن حفل متواضع في صالة أفراح صغيرة قريبة من الحَيّ الذي تسكنه أُسرة مريم. حضر سمير جانبًا من الحفل في الصالة، ومن هناك أخذ عَرُوسه إلى شقَّة أمه، حيث تم تجهيز غرفته لتكون "عُشّ الزَّوجِيّة" الخاص به.

رأت أمه ألا حاجة لإقامة حفل لاستقبال الرِّجَال، فلم يعترض. كان قرار نادية واقعيًا؛ إذ لم يكن لابنها أصدقاء، أو معارف، يمكن أن يحضروا ليشاركوه فرحته. حتى صِلَتَه بأُسرة والده كانت مقطوعة منذ سنوات طويلة. تفهَّم واقعية أمه، وخضع لقرارها. لم تكن لديه خيارات أخرى؛ فهو لا يملك النقود، ولا الجرأة، ولا حتى المحيط الاجتماعي اللازم لإقامة الاحتفال.

بسبب حالة العُزْلَةُ والنَّبذ التي يعيشها، وَجَدَ نفسه وحيدًا في عُرسه، حتى إنه لم يحتجب في المنزل، كما هو معتاد بالنسبة لجميع العِرسان، بل تولَّى خِدمة نفسه بنفسه، إلى جانب القيام بمهامه اليومية المعتادة لخدمة أمه وشقيقاته. وفوق هذا، فهو الذي اشترى مستلزمات الحفلة النسائية، وأوصلها إلى صالة الزِّفاف.

في العادة، يحتجب العَرِيس، ويقوم أفراد أُسرته، وأصدقاؤه المقربون، بجميع الخدمات والطقوس التي تجعله يبدو كملك. يقوم هؤلاء بخدمات كثيرة: تقديم مساعدات مالية، أخذ العَرِيس إلى حَمّام بُخارِي، ترتيب حفل الرِّجَال

والإشراف عليه وخدمة الضيوف فيه، تزيين السيارة التي ستتولَّى نقل العَرِيس وعَرُوسه من صالة الحفل النسائي إلى المنزل، وتوفير سيارات "الزَّفَّة". تبدأ "الزَّفَّة" مع خروجِ العروسين من الصالة، تَقِلُّهما سيارة خاصة مُزَيَّنة زينة خاصة معروفة، ويرافقها طابور من السيارات في جولة بعدد من الشوارع، وسط ضجيج الأبواق والتصفيق على إيقاع الأغاني الاحتفائية، وتنتهي بحفلة غنائية راقصة أمام "عُشّ الزَّوجِيّة".

– لم يُحرَم سمير من كل تلك الطقوس الاحتفالية فحسب، بل حُرِمَ حتى من حق الراحة في اليوم الأهم في حياته. يومها، ظَلّ يعمل حتى السادسة مساءً، ثم ارتدى بدلته الجديدة رخيصة الثمن، وتَوَجَّهَ إلى صالة الزِّفاف، على متن سيارة حديثة يقودها سائق أحد "زبائن" أمه. استقبلته أمه وشقيقاته في الصالة، واقتدنه إلى المنصة، ليجلسنه بجانب مريم. كُنَّ يزَغرِدن سعيدات، فيما كان هو مرتبكًا مذعورًا، كما لو أنه يقف للمرة الأولى في مواجهة المجتمع الذي نبذه وفرض عليه عُزلة بالغة القسوة.

جوار عروسه، على المنصة، جلس مُطْرِقًا، أغلب الوقت. كثير من النساء اعتبرنه حسن الخُلُق، شديد الخجل. قِلَّة منهن كن يدركن أن وراء ذلك حالة من الانسحاق والإذعان، وشعور دائم بالهوان.

كان يتصبَّب عَرَقًا، مع ذلك لم يجرؤ على الهمس في أذن عروسه ليطلب منديلًا من العلبة التي على طاولة صغيرة بالقرب منها. لم يجرؤ أن ينادي إحدى شقيقاته لتأتي له بمنديل، ولا أن ينهض ليفعل ذلك بنفسه. ولو لم تتنبه شقيقته إيمان للأمر، لكان واصل الجلوس مُستَسلِّمًا لتصبُّب العَرَقُ، الذي كان قد بَلَّ أجزاء من قميصه. مدَّت له إيمان بحزمة مناديل، فتناولها وهو مطرق العينين. جفَّفَ وجهه وعنقه، بخجل بالغ.

بَقِيَ في مكانه خائر القوى، يسترق نظرات وَجِلة إلى محيطه القريب، وإلى عروسه، التي كانت ثقتها بنفسها فائضة على الحَدّ. أحسَّت مريم بحاله، فبادرت بالتحدّث معه، محاولة التخفيف من جزعه. بهدوء، وضعت يدها اليسرى على يمناه، فتضاعفت حالة الخوف والإرباك لديه، وزاد تصبُّب العَرَقُ من جبينه. أحسَّت بالمضاعفات التي سبَّبَتها له، فهمست في أذنه:

ليش هذا الخجل كُلُّه؟! خَلِّيك عادي. الأمر أصلا عادي. أشتي أبعد يدي من على يدك؛ لكن ما يصلح نجلس في عُرسنا واحنا مش متماسكين بأيدينا. بايضحكوا علينا. المفروض أنت اللي تمسك يدي!

أبقت يدها على يده، وجالت بنظرها في الصالة، وهي تبتسم، بينما واصل هو استراق النظر إليها، وإلى مدخل الصالة، كما لو أنه سجين ينتظر الإفراج عنه، أو يتحيَّن فرصة للهرب. مرة أخرى، مالت برأسها نحو أذنه، وهمست:

– مش حلو أجلس أني ماسكة بيدك طول الوقت. بايضحكوا علينا. بعد قليل أني با أبعد يدي عن يدك، لكن ضروري ترجع أنت تمسك بيدي.

سحبت يدها، متظاهرة بأنها تريد إصلاح الطّرحة التي على رأسها. جالت بنظرها في الصالة وهي تبتسم، فيما انشغل تفكيرها بخجل عريسها، ويدها كامنة في انتظار يده. مرَّت دقيقة ولم يفعل ما طلبت منه. رَمَقته بعينين غاضبتين. افترت شفتاه عن ابتسامة خائرة، ثم تسلَّلت يده، مرتجفة، حتى لامست يدها. قام بالأمر كنوعٍ من إسقاط واجب، حتى إنه وضع يده بشكل مُتَخَشِّب على يدها، ولم يتحسَّسها بتلك الطريقة التي تتضمَّن لمسات ذات إيحاءات غرامية حنون. أحسَّت باختناق يدها تحت وطأة يده المُتخشِّبة. كانت تمسكها يَدٌ ميتة، لهذا تخلَّصت منها بافتعال إصلاح طرحتها. عاد إلى تجفيف العَرَق المُتَصَبِّب من جبينه، واستراق النظر إلى مدخل الصالة.

لم تكن ربطة عنقه مُثبَّتة بشكل جيد؛ إذ بقيت على الحالة التي ربطها له البائع، عند شرائها قبل أسبوعين. طَلَبَ من البائع أن يربطها له، لأنه لا يستطيع فعل ذلك، ولم يسبق له أن ارتدى ربطة عنق. ربطها البائع كيفما اتفق، ولم يكن أمام سمير غير الحفاظ عليها، ولبسها يوم عُرسه وهي على تلك الحالة، لاسيما أنه لم يجد من يعيد ربطها له. بيد أن الشيء المُحرِج لشقيقاته كان عدم تناسق ربطة العنق مع القميص والبدلة التي ارتداها. أَحسَّت إيمان بالأسف لأنها لم تتولَّ مهمة شراء ملابس عُرسِه على ذوقها، الأمر الذي كان سيُظهره بمظهر أفضل. ركَّزت أكثر على بدلته وربطة عنقه، فشَعَرَت بالحرج.

38

لدى ناصر قاسم اعتزاز مُفرِط بالذات، وإِخلاص بالغ لكل ما يؤمن به. لأسابيع، غرق في جِدَال مُرهِق، محاولًا إثبات أن النَّزِيف الحاصل في المنطقة العربية كان نتاج ركام طويل من التخلف والاستبداد، كما هو نتاج أزمات داخلية ظَلّت مكبوتة ثم تفجَّرت قيحًا وصديدًا في وجوه العرب. راح يؤكد أن موجة التَّطَرُّف والعنف هي مُجرَّد "تَشَنُّجات اجتماعية" ستؤدي إلى انبعاث مجتمعات عربية جديدة. وعلى الدوام، كان يضيف:

– يعني، هذه التَّشَنُّجات ستؤدي إلى ثورات اجتماعية ستُحطِّم بُنَى الهيمنة التقليدية، بما فيها الأصولية الإسلامية. يعني، دورات العنف المصاحبة لتصاعد قوة الجماعات الإرهابية والطائفية هي تجلِّيات لتلك التَّشَنُّجات، التي ستتخلَّق من رحمها مجتمعات جديدة.

في إحدى جلساته مع أصدقائه، قال بنوع من اليقين:

– إذا كانت دورات الأزمات والازدهار خَلَقت الرأسمالية وطوَّرتها، عبر الكشف عن تناقضاتها الداخلية المُستعصِية؛ فدورات العنف والإرهاب

ستخلق المجتمعات العربية، وستدفعها نحو تطوير ذاتها، بكشف تناقضات يقينياتها وإرثها الدِّيني. يعني، دورات العنف والإرهاب سَتَهُزّ معتقدات العرب ومُسلَّماتهم الرَّاسِخة، ثم ستدفعهم إلى تجاوزها.

أصلح طه نعمان من جلسته، وقال، بعد أن أضفى على وجهه قدرًا من ملامح الجدِّية:

– كان لينين يقول إن "الأمور يجب أن تزداد سوءًا قبل أن تتحسَّن". يبدو أنك يا ناصر تعتمد على هذه المقولة، وهي مقولة غير دقيقة، ويصعب أخذها كما هي وإسقاطها على جميع الأحداث والقضايا دون النظر إلى سياقاتها الموضوعية والاجتماعية والتاريخية.

– لا، لا. أنا لا أعتمد على هذه المقولة. وأعرف أن التاريخ يُقدِّم لنا نماذج كثيرة ازدادت فيها الأمور سوءًا دون أن يفضي ذلك إلى التَحسُّن. أنا مُتفائل لأني أرى أن المجتمعات العربية تقف اليوم وجهًا لوجه مع إرثها الدِّيني، بكل يقينياته وخزعبلاته. وهذا الأمر سيفضي –كما قلت– إلى كشف التناقضات الداخلية في هذا الإرث.

– العلمانية هي الحل.

قال رامي مُكرِد، دون أن يشعر بحجم البلاهة التي ارتسمت على ملامحه وهو يقول ذلك.

التفت إليه ناصر، وقال بازدراء:

– يا أخ رامي، هذا شعار سخيف ومُخادِع؛ بالضبط كشعار "الإسلام هو الحل". يعني، العلمانية هي انعكاس طبيعي للتطور التاريخي والإنساني للشعوب، كما هي تعبير عن إرادة مجتمعية عامة.

رَدَّ رامي، بتبرُّم:

– العلمانية هي الحل. هذا معروف عند كل الناس، إلاَّ انت يا ناصر!

– قُلت لك، لا يمكن أن تقوم العلمانية إلاَّ ضمن سياق تراكم وتطور تاريخي وإنساني. يعني، لا يمكن اليوم تطبيقها في المجتمعات العربية، عبر إصدار قرارًا رسمي يقضي بذلك، أو عبر دعوات حسنة النوايا. يعني، لا يمكننا استيراد العلمانية كما نستورد السلع. العلمانية موقف قيمي وأخلاقي يعكس مدى تطور وتقدُّم المجتمعات. يعني، لا يمكننا أن نقفز إلى العلمانية قفزًا. وبعدين، العلمانية وليدة سياق وإرث غربي مختلف تمامًا عن سياقنا وإرثنا.

حَكّ المثقف المُتحمِّس عُنقه، وأغمض عينيه وفتحهما ثلاثًا، وحَرَّك رقبته إلى اليسار واليمين، بشكل سريع ومتتابع، ثم أضاف، بنبرة حازمة مشحونة بالغطرسة:

– "العلمانية هي الحل" شعار سخيف وغبي، ولا يُرَدِّده إلاَّ الأغبياء!

انفجر رامي مهتاجًا:

– والله ما غبي إلاَّ أنت يا ناصر! بَطِّل حَقَّك الاستعراض الفارغ، والاستعلاء الأهبل!

ضَجَّ المكان بالضحك، فيما مضى رامي يقول، بانفعال:

– أنت عامل نفسك فاهم في كل شيء! يا أخي، مش صعب إن إحنا نروح نقرأ كِتاب أو كِتابين، ونحفظ منها صفحات، ونجي نستعرض بها!

أدرك ناصر مقدار الغضب الذي فجَّره في رامي، فالتزم الصمت، مكتفيًا بنظرة الاشمئزاز التي اعتاد توجيهها له.

لرامي مُكْرِد وجه جميل، وجسد ممتلئ يتناسب مع طول قامته. يبتسم على الدوام؛ لكنه يقف على أرضية ذاتية هشَّة وغير متماسكة، لهذا تبدو ابتساماته بلا روح وبلا معنى. وافتقاده للحد الأدنى من الثقافة جعله يرى في الاستعراض المعرفي لناصر قاسم تعريضا به، ونيلًا من شخصه.

ينتمي رامي إلى أُسرة تعيش في مدينة تعز، حيث أنهى دراسة الثانوية العامة. ثم سافر إلى صنعاء، ودرس هندسة الاتصالات في جامعتها. وبفضل ازدهار النشاط الطلابي والسياسي داخل الجامعة، تعرَّف على طه نعمان، وعبره اختلط بناشطين سياسيين ومثقفين. بيد أنه نأى بنفسه عن النشاط السياسي والحزبي؛ إذ اعتبر إقحام نفسه في ذلك بمثابة تورُّط غير محمود العواقب. وبدافع الخوف المغروس عادة في كثير من الأُسر متوسطة الدخل، كَرَّس جهده على تأدية فروضه الدراسية، وتجنُّب كل ما يمكن أن يغضب السلطة. وبسبب مثابرته، تخرَّج في الجامعة بتقدير جيد جدًا، ثم حصل على وظيفة براتب ممتاز، وواصل حياته مُتجنِّبًا التورُّط في النشاط السياسي.

مع الوقت، تبدَّدت مخاوفه من السياسة، فجدَّد تواصله مع طه، الذي أعاد ربطه بناصر وبقية "الشِّلَّة"، التي صار يحرص على "تَخْزِين القات" معها، بشكل شبه مستمر. غير أن نفوره القديم من السياسة ارتفع أكثر عما كان، وولَّد فيه نفورًا أشدّ من السياسيين والمثقفين. عزَّز ذلك حالة النفور القائمة لديه من ناصر. كان يشعر بضيق في التنفس كلَّما تحدَّث ناصر، لاسيما حين يورد أسماء كُتُب ومفكِّرين. وبسبب ذلك، عاد إلى الانشغال بلمز المثقف المُتحمِّس والتعريض به، أو التقليل من أهمية ما يقول. لم تتمكَّن معرفتهما الطويلة من صهر جليد البُغض بينهما. وفشل صديقهما طه في جعلهما يُظهِران شيئًا من الود لبعضهما.

39

"ليلة الدُّخْلَةُ"، اكتشف سمير أن "مريم" لم تكن عذراء. طلب منها أن تَحلِف يمينًا بأنها لم تُسلِّم نفسها لأحد من قبل. لم يجد في غرفته مُصْحَفًا للقرآن كي تَحلِف عليه، فمَدَّ لها يده. صافحته بغضب مصطنع، وراحت تُردِّد بعده:

"أُقسِم بالله العظيم، الحاطِم الناقم، الجبار المُنتقم، إن ما حَدّ لمسني قَبلك، والله ينتقم مني في صحتي وفي نفسي، ويعدمني شبابي، إن كنت أكذب عليك".

أدت القَسَم بثقة بالغة، دون أن تتلكأ أو يهتَزَّ لها رِمش. انفرجت أسارير سمير فرحًا، وزالت شكوكه. ما كان له أن يدرك آنذاك أنها من ذلك النوع الذي يمكنه أن يَحلِف أيمانًا مغلَّظة على أيّ شيء، ولأجل أيّ شيء. وَجَدَ نفسه مضطرًا لمصالحتها. بيد أنها تحوَّلت من الدفاع إلى الهجوم: كَست وجهها بملامح الغضب والحزن، وأدارت ظهرها له. ترجَّاها أن تنسى الموضوع؛ غير أنها أجبرته على قضاء الأيام الثلاثة التالية في الاعتذار لها، وتَسَوُّل الصَّفح منها. في اليوم الرابع، قالت له، بعينين ممتلئتين بالدموع:

– الله يسامحك! تهينني وتطعن في عرضي وشرفي، وبعدين تقول لي أنسى الموضوع؟! الله يسامحك بس!

بعد خمسة أشهر، عَرَف أنها فقدت عُذرِيّتها في ليلة قضتها مع شيخ قَبَلِيّ، مُقابل مائتي ألف ريال. دهمته نوبة غضب تبدَّدت سريعًا؛ إذ وَجَدَ نفسه يُقارِن الثمن الذي دُفِعَ مقابل عُذرِيّة زوجته مريم، بالذي دُفِعَ مقابل عُذريّة شقيقته إيمان. انشغل بتأمل وجه وجسد شقيقته بحثًا عما جعل عُذرِيّتها أغلى.

لم يعاتب مريم على تسليم نفسها لشخص غريب. لم يعاتبها على اليمين الكاذبة، التي زعمت فيها أن أحدًا لم يلمسها قبله. فقط، طلب منها أن تحكي له تفاصيل ممارستها الجنسية الأولى، وتخبره بهوية الشيخ الذي فَضَّ بكَارتها. قالت إن أمه وأمها هن اللتان أجبرتاها على ذلك، ورفضت، رغم إلحاحه، الحديث عن التفاصيل التي يريد.

تتمتَّع مريم بشخصية قوية، ولديها جاذبية زادتها جمالًا وفتنة. أبهرت "سمير" بغنجها، وبجسدها الرشيق والمُغوِي. عنقها طويل، وعيناها واسعتان تناسبان وجهها المُدَوَّر. لديها نهداها بارزان، ومُؤَّخِّرة مشدودة، وساقان أُفعوانيتان يثيران الشَّبق بمجرَّد النظر إليهما. أما على السرير فتعمل بقوة أربعة أحصنة. وقد فوجئ سمير حين اعتلته، بعد أسبوع من زواجهما، ومارست معه الجنس بعنف، إلى درجة أن السرير كان يَئِنّ تحتهما.

اطمأنت له بشكل سريع. بمضي أسبوعين على زواجهما، بدأت تفخِّخ أحاديثها معه بكلمات ذات إيحاءات شبقية. أربَكَته إيحاءاتها المغوية، وفَشِلَ في التجاوب معها، رغم اعتياده عليها. أخفق في استخدام إيحاءاتها كقادح لضَخّ الحيوية والجموح في علاقتهما. بعدها، أخذت تفخِّخ أحاديثها معه بمواضيع جنسية خالصة. وليسهُل عليها الأمر، اتخذت من إحدى صديقاتها موضوعًا للسرد. لكنه فَشِلَ في التجاوب معها.

انعكس خوفه من المجتمع على شكل خجل مُبالغ فيه، حتى في تعامله مع زوجته، على السرير أو في حياتهما اليومية العادية. لهذا، عملت جاهدة لكسر خجله، عبر الحديث الجنسي الفاحش. انخفض منسوب خجله قليلًا، وبدأ يتغزّل فيها خارج حدود كلمة "أُحِبُكِ"، التي لم يكن يجد غيرها للتعبير عن مشاعره، ونادرًا ما كان يفعل ذلك. أخبرته أن "أُحِبُّكِ" كلمة قديمة وأصبحت فارغة من المعنى، ولم يعد لها أيّ تأثير حِسّي. سألها عما تقصد؛ فأوضحت أن الكلام الفاحش والمُحرَّم يدفع علاقات الحُب إلى ذُروتها، كما أنه طريقة فعَّالة لإثارة العواطف وتفجير الرغبة الجنسية.

– ما فهمت! أيش تقصدي؟!

– ما عد حَدّ يستخدم هذه الكلمة عشان يتغزَّل فى حبيبته أو فى زوجته. كلمات الغزل تجاوزت "أحِبّك"، و"يا حبيبي"، "يا روحي"، "يا قلبي".. هذا

الكلام قديم. الآن في كلمات أحسن، ومفيدة أكثر. كلمات تِخَلِّي الواحد نار وشرار. الكلام اللي كان الناس يقولون إنه قلة أدب، أصبح هو كلام العشاق والأزواج!

– كيف؟!

– إذا ما فهمت بعد هذا كُلّه، فأنا مش عارفة أيش أقول لك.. بس صاحبتي إشراق قالت لي إن زوجها يجلس يكَلِّمها بكلمات قليلة أدب وسفيهة جدًا.. قالت إنه يُكَلِّمها عن تفاصيل جسدها، وعن حَقَّها الخَلْفِيَّة (تقصد مؤخِّرتها)، ويجلس يلاعبها ويخَبِّطها بيده، ويقول لها إنها جميلة ومثيرة، ودائمًا يلمّح لها إنها تعجبه وأنه يشتي يعمل حاجة فيها.. يعني أنت عارف، "كل ممنوع مرغوب".

انفرجت أساريره؛ لكنه فشل في التجاوب معها. الأسبوع التالي، قال لها إن مؤخِّرتها جميلة، وإنه قرَّر تسميتها "مريم الصغيرة"، لأنه يشعر بأنها تَتَمَتَّع بشخصية مستقلة عن شخصيتها، وجاذبية موازية لجاذبيتها. اجتاحت مريم مشاعر غامرة من الفرح، وهي تسمعه يقول ذلك الكلام. نظرت إليه باندهاش، لأن ما قاله لا ينسجم مع شخصيته، ولا يتناسب مع قدرته الجنسية في السرير. لاحت على وجهها ابتسامة متشكِّكة. أرادت أن تقول له إنها سعيدة بما قاله؛ لكنها فضَّلت مكافأته على ذلك عمليًا. انشغلت في الاعتناء بمؤخِّرتها، وتعمَّدت إغراءه بها؛ بيد أنه لم يُظهِر أيّ اهتمام بها. بعد أربعة أيام، اعترف لها بأن "صباح"، إحدى صديقات أمه، أخبرته، وهي تستعرض جسدها أمامه، بأن أحد طالبي المتعة أطلق على مؤخِّرتها اسم "صباح الصغيرة"، لأنه يشعر أنها تتمتع بشخصية مستقلة عن شخصيتها، وجاذبية موازية لجاذبيتها.

– صباح قامت تستعرض جسدها لك، وهي مثل أمك؟!

– هي أصغر من أمي بخمس سنوات، وبعدين عادها ما تزوَّجت..

– المهم أنها كبيرة عليك.. طيب، وأنت أيش قلت لها؟!

– ما قلت لها شي، ضحكت بس.

– والله إنها ما تستحي!

صمتت قليلًا، ثم قالت والغبطة ظاهرة عليها:

– مش مهم من فين سمعت هذا الكلام، المهم إنك قلته لي. أني خلاص باكون أسمِّي حَقِّي "مريم الصغيرة"، والله انه اسم حلو، هاهاهاها!

ركَّزت جهدها على الاهتمام بمؤخِّرتها. وبين وقت وآخر كانت تُذَكِّرَهُ بما قاله عنها، وتؤكد أنها مازالت سعيدة به. رغم ذلك، لم تسمعه منه بعدها أبدًا. لم تسمع منه ما يثير رغبتها. لم تسمعه يتغزَّل فى جسدها، أو يبدي أيّ اهتمام به. تأكدت أنه بارد وعديم الإحساس. قالت في نفسها إنه لا يستحقها.

لم يكن حِسّ الإثارة لديه يتناسب مع جموح جسدها، ولم تكن قدرته الجنسية تتناسب والإيحاءات الإيروتيكية التي جهدت لإغرائه بها. كان يفتقد للحيوية الذكورية، وفَشِلَ تمامًا في تلبية النداءات الجنسية المستمرة لجسدها. استجابته منخفضة، وتكاد تكون مُنعَدِمة. يعيش بروح منهكة، وببقايا أحاسيس مُفتَّتة. لقد تعزَّز حضوره كتجسيد حي وكامل لشخصية الضحية؛ ضحية قُتِلت فيها الرغبات. كان قلبه ضامرًا، وعاطفته كانت قد ذوت واستُنزِفت منذ زمن. إنه نموذج حي يؤكد أن هناك حياة تسلِب البعض حتى الفاعلية والقدرة على الاستجابة لحاجاتهم الغرائِزية.

واصلت مريم الانشغال بتدليل جسدها، ولم تفقد الأمل في قدرتها على إغراء زوجها. وعندما بلغت مرحلة اليأس، ابتكرت طرقًا شتى لمداعبة جسدها. كرَّست جهدها لذلك، تلبية لرغبتها الخاصة بالاستمتاع بجسدها،

وإسكات جوعه ونهمه المتصاعد. وعندما فشلت في إشباع رغباتها، قرَّرت بذل جهد أكبر في محاولة تعليم سمير أساليب وفنون الممارسات الجنسية، وكَيفِيَّة التَّفوُّه بكلام فاحش. عندما تحدَّثت مع شقيقته إيمان، بعد عامين من هروبه، قالت إنها أخفقت في تعليمه تلك المهارات لأنه يفتقد إلى الدافع وروح الرغبة. حاولت تفسير الأمر، فأوضحت أنه كان، في الشهر الأول من زواجهما، يمارس معها الجنس مرتين فقط في الأسبوع. صاحت إيمان، وعلى وجهها ملامح الاستغراب والدهشة:

- مرتين بس في الأسبوع.. مش معقول؟!

أقسمت مريم يمينًا لتأكيد صحة ما قالت.

40

النَّبذ الاجتماعي دَمَّر "سمير"، وسَحَقَ روح الإنسان فيه. العُزْلَةُ أصابته بضلال ذهني دائم، وجعلته يعيش دون غرائز أو تطلعات. خارت قواه، وضمرت روحه، في العالم السِّري لأمه. وبالنتيجة، عاش بأعصاب تالفة، وذهن مشتَّت. وفوق هذا، أصيب بفقر مزمن في المُخَيِّلة، وعانى من فقدان دائم للثقة والاعتزاز بالنَّفس. وحين أصرَّت مريم على كسر حالة الخجل التي تستحوذ عليه، وجدت أنه لم يتبقَّ منه سوى بقايا قشور منسية من الأحلام والرغبات. فيما بعد، تفجَّرت رغباته المسحوقة على شكل عنف، وجموح للانتقام والقتل. غرائزه المَيتة عبَّرت عن نفسها على شكل طاقة عدوانية تُحَرِّكَها الضغائن والأحقاد. قال كارل ماركس إن فهم "غريزة العدوان الحبيسة" في شخصية العُصابي، يصبح ممكنًا بفهم الأسباب الحقيقية للقمع الذي تعرَّض له.

مشاعره طافحة بالكراهية ضد الجميع، وخصوصًا ضد كل ما عانى منه، وفَشِلَ في التَكَيُّف معه. لهذا صار فيض الوحشية لديه انعكاسًا لهروبه من الحياة، وخوفه الدائم من الناس.

لم يكن سمير وسيمًا، ولم يعتد الاهتمام بمظهره الخارجي. لم يهتم قط بجسده أو ملبسه. لقد تم تجريده حتى من ميزة الذوق والإحساس السليم. جسده ضعيف بأكثر من اللازم، وملامحه محايدة بأكثر مما ينبغي. كان نسخة من والده؛ فى طباعه لا فى شكله. كانت أمه امرأة جميلة، وكذلك شقيقاته، فيما افتقد هو لأيّ جمال أو جاذبية. كان ذلك من بين ما نَغَّصَ عليه حياته؛ إذ اعتبر افتقاده للجمال بمثابة تأكيد على أنه وشقيقاته ليسوا من صُلْبُ رجل واحد. كثيرًا ما أرَّقه هذا الأمر. وتحت واقع الضغوط النفسية الشديدة، وحالة النَّبذ الاجتماعي القاسية، تعامل مع نفسه باعتباره "زَنوة"، لا مُجرَّد ابنًا لعاهرة. كان يقول لنفسه بين وقت وآخر إن بإمكانه التعايش مع واقعه كابن لعاهرة، لكنه لا يستطيع تَقَبُّل "حقيقة" أنه "زَنوة". وعندما سَمِعَ الوصف العصري لكلمة "زَنوة" فَرِحَ فرحًا شديدًا؛ إذ وَجَدَ أن "ابن غير شرعي" وصف مُلَطَّف، يمكن التعايش معه. بيد أنه كان بحاجة إلى مجتمع عصري أكثر من حاجته إلى توصيف حديث لأزمته.

أيقنت مريم أن حياة النَّبذ والإذلال أصابت "سمير" بذُهان ووهن مزمنين، وسببت له فقدانًا حادًا للطموح، وانعدامًا متعاظمًا للحيوية الذاتية. فكَّرت أن ذلك حرمه من حِسّ المرح، وأفقده الروح النَهِمة للحياة بكل مُتَعِها ومسرَّاتها. لم تتمكَّن من الإفصاح عن استنتاجها هذا لشقيقته إيمان؛ رغم أنها الصديقة الأقرب إلى نفسها.

كانت إيمان ومريم طفلتين لصديقتين تعملان في الدعارة، ثم تحوَّلت صداقتهما إلى نسب وقربى؛ عندما تزوَّجت مريم بسمير. وفي منزل واحد،

تطورت صداقتهن إلى رفقة حميمة في مهنة الدعارة، ثم إلى وَلَهُ متبادل وعلاقة سحاقية.

التحقت مريم بكلية التربية لدراسة علم النفس، وهناك وقعت في قصة حُبّ مع زميل لها يدعى "نبيل". درست علم النفس على غير رغبة منها، ثم توقَّفت عن ذلك برغبتها. توقَّفت عن الذهاب إلى الجامعة وهي في السنة الدراسية الثانية، ولم تعد، بعد ذلك أبدًا، لمواصلة مشوارها التعليمي. لم تُحِبّ الدِّراسة؛ لكنها عادت للاطلاع على بعض مفاهيم علم النفس، بهدف محاولة فهم شخصية سمير. بحثت في الإنترنت. قرأت مقالًا يربط الحزن بالشهوانية. فكَّرت، مليًا، في حالة زوجها، فتوصَّلت إلى أن تلك المقالة غير دقيقة. تحدَّثت عن الأمر مع نبيل، الذي استمرت علاقتها به، وكانت يوميًا تقضي بعض الوقت في الحديث معه، عبر أحد مواقع التواصل الاجتماعي. أرسلت له رابط المقالة، وطلبت رأيه في الموضوع؛ إذ إنه أكمل دراسة علم النفس، فضلًا على أنه كان على قدر جيد من الثقافة. رَجَّح نبيل ارتباط الشهوانية بحيوية ذهن الإنسان وروحه. قال إن الحيوية تدفع الإنسان لتَحسُّس غرائزه ورغباته، وتجعله يهتم بجسده ويسعى نحو تلبية شهواته وحاجاته. مذاك، بدأت مريم تتعامل مع من لا يهتم بجسده ومظهره الخارجي كشخص غير شهواني، أو شخص ميت الغرائز. وضعت زوجها "سمير" في خانة ذوي الغرائز الميتة. أسفت لأنها لم تعرف ذلك قبل زواجها به. ولأن نبيل أخبرها أن المتعة تطيل العمر، وتمنح الإنسان السعادة، ركَّزت كل جهدها على محاولة إشباع رغباتها.

بعد أربعة أعوام، اندهشت عندما قال لها شاب نحيل الجسد قضت معه ليلة، في منزل صديق له، إن "الرجل يتَّجه إلى شهوانية المرأة لأنها تعمل على إحياء وتجديد ذهنيته". نَسِيت اسم ذلك الشاب، واسم المُفَكِّر الأجنبي الذي نَسَبَ إليه تلك العبارة. تتذكَّر فقط أنها قضت ليلة تعيسة مع ذلك

الشاب الذي ظَلّ يحدِّثها، بحماسة وإسهاب، عن الثقافة والسياسة، وأراد، بإصرار، أن يعرف الظروف الأُسرية التي دفعتها إلى اِمتهان الدعارة. رفضت الحديث معه عن حياتها الشخصية، ثم غادرت وهي تلعنه؛ لأنه لم يُعزِّز حالة الإنسانية التي تقمَّصها، بدفع مبلغ إضافي لها، فوق ما تلقَّته من صديقه صاحب المنزل.

قضت إيمان تلك الليلة مع صاحب المنزل، فيما كان الشاب النَّحِيل ذو الوجه الحاد والعينين الجاحظتين من نصيب مريم. تكفَّل صاحب المنزل بدفع أجرة الاثنتين؛ لكن إيمان حصلت منه على مبلغ إضافي؛ يعادل مائة دولار. وقد ضاعف ذلك من غضب مريم ونقمتها على نحيل الجسد ذاك، بل على السياسة والثقافة أيضًا.

أخبرها ذلك الشاب بأنه أعزَب، فتفهمت ذلك بالنظر إلى مظهره الرَّثّ، وملابسه شبه الكالحة، وهيئته الجافة غير النَّظِرة. خمَّنَت أنه يسير في منتصف الثلاثينات، لهذا استغربت أنه ضاجعها مرة واحدة فقط، وأهدر بقية الليلة في كلام فارغ وطويل عن أشياء لا تفهمها ومواضيع لا تُهمّها. وأغاظها كثيرًا وهو يورد عددًا من الأسماء الأجنبية والكُتب لتدعيم صحة ما يقول. وفي ممارسته الوحيدة للجنس معها، فَشِلَ في إمتاعها؛ إذ قذف سريعًا، ثم انهمك في شُرب الكحول، والحديث المتداعي عن السياسة والثقافة.

أظهر تعاطفًا إنسانيًا حيالها، وتفهمًا واعيًا لعملها في الدعارة. لكنها نفرت منه لأنها شعرت بأنه يتعامل معها بشفقة مفرِطة ومتكلِّفة. حاول، بإلحاح، أن يدفعها للتحدُّث عن حياتها الأُسرية الخاصة، ومهنتها كعاهرة، ومجتمع الدعارة الذي تعمل فيه. قال إن العاهرات هن أشرف مَن في اليمن، مع ذلك فَشِلَ في جعلها تطمئن له، وتنفتح عليه. توتَّرت لأنها أدركت أنه يتعامل معها باعتبارها نموذجًا لدراسة مجتمع العاهرات. أراد إقامة صداقة

معها، ولم يكن يفهم أن علاقات الصداقة مع العاهرات تنشأ من ذاتها، دونما حاجة للاستعراض الثقافي، أو إقحام فيض المشاعر الإنسانية المُبتَذَلة. قبل أن ينام، طلب رقم موبايلها. بانقباض وتململ، أملت عليه الرقم، وراقبته وهو يُسجِّله في موبايله باهتمام بالغ. توقَّع، وهو ينهي تسجيل رقمها، أن تطلب رقم تلفونه؛ لكنها لم تفعل.

- سَجِّلي تلفوني عندكِ.

طلب منها ذلك، بلهجة آمرة.

- تلفوني طافي.

اعتذرت متحجِّجةً.

بحث عن قصاصة ورقية دَوَّن فيها، بخط رديء، اسمه ورقم موبايله. ناولها الورقة بزهو، غير مدرك أنه لم يجعلها تكرهه فحسب، بل تكره كل المثقفين والسياسيين.

على مضض، تناولت قصاصة الورقة، ووضعتها في شنطتها اليدوية. بعد عشر دقائق، سَمِعَ صوت موبايلها، معلنًا تلقِّيها رسالة. توقَّف عن الكلام، وبدهشة متفاجئة، ركَّز نظره على شنطتها. سألها معاتبًا:

- كيف قلتِ إن تلفونك طافٍ؟!

ببرود، قالت إنها كانت تَظُنُّه انطفأ، وتبرَّمت من سوء بطاريته. أشاحت بنظرها عن الشاب النَّحِيل، وتناولت الشنطة، وأخرجت الموبايل منها. قرأت الرسالة، ثم تشاغلت بتقليب الموبايل، هروبًا من هذيان الشاب الذي يفتقد للفطنة والنباهة.

بمجرَّد مغادرتها، صباحًا، فتحت حقيبة يدها، وأخرجت القصاصة الورقية، التي دَوَّن فيها الشاب اسمه ورقم موبايله، ورمتها في الشارع. فعلت

ذلك وهي تَصُبّ جام غضبها على إيمان، التي باتت مع صاحب المنزل، وأحضرتها معها لتنام مع صديقه الثرثار.

41

شارك ناصر قاسم في ثورة 11 فبراير 2011 بحماسة مندفعة؛ لكنه أُجْبِرَ على مُغادرتها منكسرًا. انخرط فيها مدفوعًا بروح يسارية حالمة، ثم غادرها حاملًا تهمة "مُنْدَسّ"، وغُصَّة في الحلق. لهذا فَضَّلَ الانزواء، ومراقبتها عن بُعد.

تَفَجَّرت الثورة في اليمن بعد نجاح الثوار في طرد زين العابدين بن علي من تونس، وتنحية مبارك في مصر وإيداعه السجن مع عدد من رموز نظامه. بدأ طلبة وناشطون يساريون في صنعاء بتظاهرات يومية رفعت شعار ثورات الربيع العربي: "ارحل..!". انطلقت التظاهرات من أمام جامعة صنعاء. وتعرَّض المشاركون فيها لاعتداءات من قِبَل جنود النظام ومسلَّحيه، الذين صاروا يُعرَفون بـ"البَلاطِجة"؛ بسبب اعتداءاتهم على شباب الثورة اعتمادًا على "الفُتُوَّة" المُفْتَقِدة للضمير الأخلاقي.

في البداية، خرج عدد محدود من الطلبة والناشطين للتظاهر، وبصلابة تحمَّلوا الاعتداءات، وصمدوا في وجه الملاحقات. التحق بهم العشرات، فاتَّجهوا إلى وسط العاصمة، حيث أرادوا نصب خيام اعتصامهم في قلب ميدان التحرير. إلاَّ أن "البَلاطِجة" سبقوهم إلى هناك، ونصبوا خيام تأييدهم للنظام ورئيسه. عاد الطلبة لينصبوا خيامهم أمام الجامعة الجديدة، فلحقهم "البَلاطِجة" إلى هناك ومنعوهم، بالقوة والعنف طبعًا. وبعد اعتداءات وملاحقات في عدد من الشوارِع، تَمَكَّنَ المُتظاهِرون من نَصْب أول خيمة اعتصام لهم هناك. حصلت الثورة على مكان لها، وصارت حقيقة ملموسة، ما

دفع فئات شعبية كبيرة إلى الالتحاق بها. في مدينة تعز، كان الثوار قد تمكنوا من نصب خيام اعتصامهم، بعد أن واجهوا اعتداءات جنود ومسلَّحي النظام. تاليًا، صار للثورة أماكن في أكثر من مدينة.

كان ناصر متوثِّبًا وسعيدًا؛ لأنه قطع روتين حياته السابقة، وكان بين "الثوار الأوائل"، كما صار يحلو له أن يقول. لكنه توجَّس وهو يرى أعضاء وقيادة الحزب الدِّيني المتحالف مع الجنرال يلتحقون بساحات الثورة، رغم أنهم كانوا يُهاجِمون الطلبة الذين فَجَّرُوها. ارتفعت مشاعر القلق لديه، لأن هذا الحزب كان طوال عقود حليفا استراتيجيا للنظام الحاكم، والتحق بساحات الثورة مصحوبًا بحلفائه التقليديين والقَبَلِيّين والعسكريين، الذين كانوا جزءًا رئيسيًا من النظام، الذي قامت عليه الثورة.

الحياة الرتيبة والمُمِلَّة ضاعفت أزمة ناصر الشخصية، وهي أزمة غَرِقَ فيها جراء سنوات البطالة العجاف. كان قد تصالح مع بطالته وفقره؛ بيد أنه لم يستطع احتمال الرتابة السياسية الجاثمة على اليمن. وكثيرًا ما أبدى خشيته من أن يداهمه الموت قبل أن يشهد ثورة حقيقية على النظام الذي يحكم البلاد منذ عقود. لهذا، فعندما تَفَجَّرت الثورة اندَفع يشارك فيها بحماسة صادقة، وعاطفة مُتَوَقِّدة. ومذاك، عاش أيامه باعتباره الثائر المُتحمِّس، وتصرَّف وفقًا لذلك.

بقلب واجف، تابع التظاهرات في أسبوعها الأول. قبل نهاية الأسبوع الثاني، التحق برفاقه في الميدان. في يومه الأول، أَفْلَتَ بصعوبة من "بَلاطِجة" لاحقوه ورفاقه في شارع قريب من الجامعة. بيد أنه وقع اليوم التالي في قبضتهم فاعتدوا عليه حتى أدموا وجهه وشَجُّوا رأسه. عاد إلى غرفته والدماء على ثيابه، ويداه ترتجفان. كان غاضبًا، وكان قلبه مثخنًا بكراهية النظام الحاكم. كان غاضبًا لأن المسلَّحين اعتدوا عليه بعنف، وتعمَّدوا إهانته بشتائم

طائفية تحقيرية وصفها بـ"الوضيعة". دخل غرفته وهو مُحتَدٌّ كأيّ شخص عجز عن مواجهة ما تعرَّض له من اعتداء وإهانة. ظَلّ جسده يرتجف أكثر من ساعة. ولم يكن أمامه غير شتم النظام و"بَلاطِجته"، بصوت مرتفع، وهو وحيد في غرفته.

نام، تلك الليلة، بجسد منهك، وقلب مُثخن بِتَلّ من الكراهية والحقد. استيقظ صباحا بروح غاضبة، وجسد نشط. سار صوب الجامعة بعزيمة متوثِّبة، وذهن مُتحفِّز. استقبله رفاقه باحتفاء. بمعنوية عالية، شارك في التظاهرة التي انطلقت من هناك. أدرك أن مشاعر الغضب والكراهية مَدَّته بحافز قوي، فيما عَمِلَ الحقد المشتعل في ذاته كقادح حوَّل ذلك الحافز إلى إصرار وعزيمة لمواجهة النظام ومسلَّحيه. من يومها، تقمَّص روح الفيلسوف؛ إذ أخذ يقول لرفاقه بنبرة خطابية ثورية:

– لا تترفَّعوا عن مشاعر الكراهية والحقد التي في نفوسكم، ولا تجبروها على التواري، ولا تستبدلوها بأخلاق وسلوكيات كاذبة ومُتصنَّعة، لأن ذلك سيشوِّه ذواتكم وضمائركم! اسمحوا لمشاعر الكراهية والحقد أن تُضرِم نارها في نفوسكم! دعوها تُعَبِّر عن نفسها بصدق وعفوية، لتمنحكم القوة في مواجهة هذا النظام القذر وبَلاطِجته المُنحَطِّين.

سار في مظاهرة ذلك اليوم بعزيمة فاعلة، واندفاع متأجِّج. رَدَّد هتافات مطالبة برحيل الرئيس ونظامه. هَتَفَ حتى بُحَّ صوته. اعترض جنود ومسلَّحو النظام التظاهرة، وفَرَّقُوها بالقوة، بعد أن اعتدوا على بعض المشاركين فيها. قال ناصر إنه نجا بنفسه لأنه كان قد تَعَلَّمَ كيف يواجه الجنود و"البَلاطِجة"، لكن الحقيقة أنه كان قد تَعَلَّمَ كيف يهرب منهم! وأيًا كان سبب نجاته، فالواقع أنه داوم على استخدامه بذكاء، إذ لم يَتعرَّض، مذاك، لأيّ اعتداء، رغم مشاركته في أغلب التظاهرات اللاحقة.

جريًا خلف عادته في التنظير، قال لرفاقه إن المهم في البداية هو تَعَلُّم كَيفِيَّة التَّعَرُّف على "البَلاطِجة"، والانتباه للجنود، قبل أن يُهاجِموهم وينقضُّوا عليهم. وخلال كل المظاهرات التي شارك فيها، ركَّز الجزء الأكبر من تفكيره على مراقبة المجال العام لحركة المُتظاهِرين؛ الشوارع الرئيسية والفرعية والتقاطعات.. كان يقول إن ذلك يجعل كل متظاهر قادرًا على لعب دور المسئول الأمني عن نفسه، ويتيح له اتخاذ القرار المناسب: مواجهة جنود و"بَلاطِجة" النظام، أو تجنُّبهم. والواقع أنه كان يفعل ذلك لا لمواجهة هؤلاء، بل ليستطيع الفرار سريعًا من أمامهم.

في إحدى المرات، بوغت المتظاهرون، وكانوا بالعشرات، بهجوم كبير شَنَّهُ عليهم "البَلاطِجة". انسحب ناصر سريعًا؛ رغم أنه أحد منظمي تلك التظاهرة وكان يسير وسطها. برباطة جأش، تراجع نحو الرصيف القريب، ثم دخل شارعًا فرعيًا، وسار مبتعدًا فيه، دون أن يلتفت إلى الخلف. سار بثقة لا يمكن وضع صاحبها في خانة من يريد الفِرار. سار بخطوات متمهلة، وباسترخاء، فظهر كشخص عادي لا علاقة له بالتظاهرة. انسحب باحتراف، كما لو أنه تلقَّى تدريبًا مُكثَّفًا للقيام بالأمر. كالعادة، انكفأ سريعًا إلى غرفته، لا إلى المكان المُحدَّد لتجمع مُنظِّمي التظاهرة، الذين التقوا وهم يلهثون، وعلى بعضهم جراح وإصابات.

من غرفته، أجرى اتصالات عدة بحثًا عمن يعطيه قيمة الغداء والقات. تَكَفَّلَ بالأمر أحد معارفه؛ موظف حكومي صغير لم يكن قد التحق بتظاهرات الثوار. كان بعض التجار والموظفين الحكوميين يُقدِّمون مساعدات مالية لعدد من أبرز المُتظاهِرين. لعل ذلك كان نوعًا من إسقاط الواجب، أو التعويض الأخلاقي لتخاذلهم عن الانخراط في الثورة، وجبنهم عن إعلان مواقف مساندة للثوار، الذين تجلُّوا في الذهنية العامة كأبطال يواجهون النظام

ويتعرَّضون، نيابة عن كل اليمنيين، لاعتداءات جنوده و"بَلاطِجته". كانت تلك أفضل أيام ناصر؛ إذ تدفَّقت عليه التَّبَرُّعات من أكثر من جهة، فتخلَّص من وطأة افتقاره الدائم للنقود، ولهاثه اليومي خلفها. أصبحت النقود تتدفَّق عليه دونما حاجة للبحث اليومي المُهِين الذي اعتاد القيام به في سبيل الحصول عليها. تلاشى شعوره الدائم بذُلّ الحاجة، وصار بإمكانه النوم إلى ما بعد الظهر، باطمئنان ودونما قلق من عدم عثوره على من يُغَدِّيه، ويشتري له قاتًا.

لم يَتَسَوَّل باسم الثورة؛ لكن لم يكن بإمكانه رفض تلك التَّبَرُّعات التي تُقَدَّم له باسمها. وقد تألَّمَ كثيرًا وهو يسمع حكايات بعض المنضمين لاحقًا إلى الثورة، الذين تسوَّلوا بها وبدماء أبطالها بطرق وأساليب مخجلة ومخزية.

وقد امتلأت بطنه، وصار لديه قات، قصد ناصر المِقيل الذي اعتاد أن يلتقي فيه رفاقه مُنَظِّمي التظاهرات. سألوه عما جرى معه، وأين اختفى. قال إنه تمكَّن من الفِرار بصعوبة، بعد أن لاحقه اثنان من "البَلاطِجة" الذين فرَّقوا المظاهرة. لم يُشكِّك رفاقه في الرواية التي قَدَّمها. كان الحظ ما يزال يقف إلى جانبه؛ إذ واصل المشاركة في المظاهرات والانسحاب منها دون أن ينفضح أمره؛ بأنه كان يهرب ويترك رفاقه يواجهون أخطار الاعتداءات التي وصلت حَدّ القتل.

42

بعد فترة قصيرة من زواجه، اكتشف سمير أن رجلًا غريبًا ضاجع زوجته مريم، في غرفة نومه، وعلى سريره. لم يطلب منها أن تُقسِم يمينًا؛ فقد تأكد أن ذلك حدث بالفعل، وبترتيب من أمه. شَعَرَ بصدمة، كما لو أنه لم يكن يتوقَّع

خيانة مريم له. لقد عاش حياة مُذِلَّة سلبته كل شيء، بما في ذلك القدرة على الغضب، أو إبداء قدر من الغِيرة على كرامته وعِرْضه.

عَرَفَ بالأمر بعد أسبوعٍ من حدوثه. في أحد المساءات، دخل غرفة الجلوس، وأضاء نورها، فوجد سُهى، شقيقته الصُغرى، غارقة في مكالمة هاتفية فاحشة. كانت تجلس في الركن الأيمن، وهي ترتدي ملابس قصيرة، وتبدو في حالة من النَّشوة المنفلتة. اتجه، وقاته بيده، نحو مكانه المعتاد، فصوَّبت إليه نظرة غاضبة! واصلت التَّحْدِيقُ فيه بانقباض وتقزُّز، وأضفت على وجهها ملامح تُفيد أنها في مكالمة تلفونية بالغة الخصوصية؛ على أمل أن يغادر الغرفة ويغلق بابها خلفه. لم يغادر. بل تجاهلها وشَرَعَ "يخزِّن"، إذ كانت الساعة ما تزال السابعة والربع. هي لم تُنه مُكالمتها، بل اكتفت بتهذيب جلستها؛ وضعت وسادة على فخذيها، محاولة ستر الأجزاء المكشوفة منها. تجنَّب النظر إليها. توقَّعَ أن تُنهِي مكالمتها الهاتفية، أو تُغادر الغرفة. لكنها قامت بحركة غير مُهذَّبة: وضعت موبايلها على الوسادة، وسألته، بتبرُّم:

- سمير.. ليش ما تروح تخَزِّن في غرفتك؟!

فوجئ بالسؤال، وبمقدار البجاحة التي لدى شقيقته. بهدوء، حرك رأسه يمنة ويسرة، دلالة على الرفض. ببجاحة أكبر، أظهرت على وجهها ملامح أكثر تبرُّمًا ونفورًا، ثم رفعت الموبايل، وواصلت مكالمتها الهاتفية. لم يكن بإمكانها الذهاب إلى الغرفة التي تنام فيها، لأن شقيقتيها سلوى وإيمان كانتا يُضايقانها، ولا تسمحان لها بإجراء مكالمات من هذا النوع. لهذا اعتادت دخول غرفة الجلوس، حين لا يكون فيها أحد، كي تختلي بنفسها، وتُجري مُكالماتها الهاتفية الحميمة؛ لكنها لم تكن تفعل ذلك باطمئنان وراحة بال؛ فباب الغرفة بدون مفتاح.

حين دخل سمير الغرفة، ذلك المساء، كانت سُهى فيها منذ أكثر من نصف ساعة. كانت غارقة في مكالمتها الغرامية، والإضاءة مطفأة، وباب الغرفة مردود. كان ذلك روتينًا شبه يومي بالنسبة لها، وبسببه كانت تؤجِّل تناول وجبة العشاء الجماعية مع الأُسرة؛ حِرصًا على الفوز بوقت فراغ تقضيه وحيدة في غرفة الجلوس، استباقًا لأمها التي واظبت على "التِخْزِين" هناك، بعد السابعة مساءً. وعندما "تخزِّن" الأم عصرًا، في هذه الغرفة، كانت سُهى تُجري مكالماتها من الغرفة التي تتشاركها مع شقيقتيها، لأن سلوى وإيمان تقضيان ذلك الوقت خارج المنزل أغلب الأيام.

بعد أن تنتهي نادية من تناول وجبة العشاء، تطلب من إحدى بناتها تجهيز مكانها في غرفة الجلوس، ثم تنتقل إلى هناك، وتبدأ في "تَخْزِين القات"، مع سمير، وحضور غير منتظم لبقية أفراد العائلة. عندما كانت تَدخُل إيمان أو سلوى إلى الغرفة للقيام بتلك المهمة، وتجدان سُهى مُتلبِّسة بمكالماتها العاطفية، كانتا يوبخانها، ويجبرانها على إنهائها.

ذلك المساء، تناول سمير وجبة العشاء سريعًا، وقصد الغرفة أولًا، ليفاجأ بسُهى وهي في ذروة مكالمتها الغرامية، ولم تصل بعد إلى حالة التشبُّع منها. جَلَسَ في مكانه المعتاد، بعد أن قَرَّبَ مِنفَضة السجائر. استرخى بشكل حَرِصَ فيه على أن يلفت انتباهها إلى حضوره، كي تنهي مكالمتها. افتعل كُحَّةً تعمَّد إخراجها بصوت مرتفع، بهدف لفت الانتباه لوجوده. شاهدته سُهى وهو يفعل ذلك، وشاهدته وهو يُخرِج سيجارة ويشعِلها؛ إلاَّ أنها واصلت الحديث في الموبايل. دفع ثلاث كُحَّات أخرى من حنجرته، احتجاجًا على تجاهل شقيقته لحضوره. أصلح من جلسته، ومَدَّ رجله اليمنى على الفراش، كتأكيد على عزمه البقاء في الغرفة. عندما رأته يفعل ذلك، وضعت الموبايل على الوسادة، التي كانت قد وضعتها على فخذيها، وسألته بتبرُّم:

- سمير.. ليش ما تروح تُخَزِّن في غرفتك؟!

سيطر على غضبه، وتجاهل بجاحتها، مُعتقدًا أنها ستتوقَّف عند هذا الحَدّ. انتبهت إلى التجاهل الذي أبداه، لكنها مضت في مكالمتها الهاتفية، بهمس أكبر.

فتح أذنيه محاولًا التقاط كلماتها. كانت لحظات الصمت لديها أكبر من لحظات الكلام. كانت تتفوَّه بكلمات مقتضبة، تصوَّرت أنها مُلغِزة، أو غير مفهومة. بدا واضحًا أن الشَّخص الذي على الطرف الآخر من الهاتف هو الذي يدير الحديث معها. حرصت، بشكل مكشوف، على الإيحاء بأنها تتحدَّث مع إحدى صديقاتها؛ بيد أنها كانت تلفظ كلمات وجُمَلًا ذات إيحاءات جنسية؛ رغم إدراكها أن شقيقها يسمعها.

- لابسة بلوزة شفافة، وتنورة قصيرة إلى فوق الركبة.

- ...

- البلوزة بيضاء والتنورة سوداء.

- ...

- اللي تحت البلوزة أبيض، واللي تحت التنورة أسود.

- ...

- أنتِ الآن ماسكة له؟!

- ...

- كم طوله؟!

- ...

- في حاجة تخرج منه؟!

- ...

– أني ما جربت أطعمه، بس البنات يقولين إنه حلو!

– ...

اضطرم سمير اضطرامًا شديدًا، وهو يسمعها تقول هذا الكلام الفاحش، دون احترام له، أو مراعاة لمشاعره. شَعَرَ بالإهانة، لكنه لم يُفاجأ بالأمر؛ فقد كان يعرف جانبًا من مغامرات سُهى العاطفية، إضافة إلى أن جنوحها الجنسي الصارخ كان واضحًا، في سلوكها وحركاتها وملابسها.

غمره شعور بالحزن والاكتئاب، وأَحسّ بخنجر الإهانة الشخصية ينغرس في صدره؛ لأن شقيقته الصُغرى لم تحترمه، وتَجَرَّأَت على التعامل معه بهذا الاستخفاف وعدم الاكتراث المُهين. وإلى هذا، كان يرى أنها مازالت صغيرة على كلام كالذي تفوَّهت به. كان يدرك أن شقيقاته لا يحترمنه، ولا يُظهِرن أيّ تقدير له، أو خوف منه؛ بسبب ما هو عليه، وبسبب أمه التي منعته من التعرُّض لهن، أو التدخُّل فيما يفعلن. لكنه لم يكن يتصوَّر أن عدم الاحترام ذاك سيصل حَدّ إهانته بتلك الطريقة التي لقيها من سُهى.

مرَّت أربع دقائق، وسُهى ما تزال منهمكة في مكالمتها الفاحشة. تأكد أنها لا تنوي إنهاء المكالمة، أو مغادرة الغرفة. احتدَّ وانفعل بشدّة. انتفض واقفًا، واندفع نحوها مهتاجًا. انتزع منها الموبايل بالقوة، وأغلقه دون أن يحاول معرفة هوية المُتحدِّث على الطرف الآخر. وضع الموبايل في جيبه، وصرخ في وجهها:

– أنتِ قليلة أدب، ما تَستَحِي على نفسكِ، وتشتي لأبوك دعس.

فاجأها تصرُّفه، فانفجرت تصرخ في وجهه، مطالبة إياه بإعادة موبايلها. رفض ذلك، فزاد صراخها. صرخت تقول إنه ليس وَلِيُّ أمرها، وأنها لم تعد صغيرة. بغضب كرَّر، وهو يُحدِّق في وجهها، ما سبق أن قاله لها:

– أنتِ قليلة أدب، ما تَستَحِي على نفسكِ، وتشتي لأبوك دعس.

– أنتَ اللي ما تَستَحِي على نفسَك؛ عامل لي نفسك شريف ورَجَّال فوقي أنا بس!

دار به المكان وهو يسمعها تقول ذلك. لم يستطع السيطرة على غضبه، فصفعها. انفجرت تبكي، وتصيح بصوت أعلى. قبل أن تغادر الغرفة، صرخت في وجهه:

– لو أنت رَجَّال كنت ما با ترضى بالوضع اللي أنت فيه. لو أنت رَجَّال روح شوف زوجتك اللي دخل واحد ينيكها داخل غرفتك.. عامل نفسك رَجَّال عليَّ أني بس!

فقد توازنه، وتسعَّر غضبه واضطرامه. أرادت سُهى مغادرة الغرفة، إلاَّ أنه أمسك بيدها، وسألها، وهو يسحبها نحوه:

– أيش قُلتِ؟!

بثقة مُفرِطة، أعادت عليه ما قالت، وأوضحت أن ذلك حدث الأسبوع الماضي، عندما كان مسافرًا في الحديدة. أَحسَّ بصعقة كهربائية هزَّت جسده. رأت شقيقته أثر الصعقة واضحا على وجهه، فأضافت بنبرة مشحونة بغضب أشد:

– اللي يشوفك يقول إنك محترم وشريف من صدق، ومش عارف بالي عملتهُ زوجتك!

أفلت يدها مشدوهًا، مستسلمًا لهول المفاجأة الصاعقة. تضاعف اضطرابه، بعد أن تذكَّر أنه سافر بالفعل، الأسبوع الماضي، إلى الحديدة؛ استجابة لإِلحاح أمه، التي كلَّفته بنقل صديقتيها فاطمة وجميلة إلى فِيللا أحد التجار هناك؛ مقابل مكافأة قدرها عشرة آلاف. تأكد أن أمه تُمعِن في إِهانته، ولا تريد أن تترك له أيّة مساحة للشعور بالحَدّ الأدنى من الكرامة.

43

غادرت سُهى غرفة الجلوس وهي تبكي بشكل ضاج، بعد أن صفعها شقيقها. سَمِعَها سمير تُخبر أمه أنه ضربها. دخلت الأم على ابنها وهي ساخطة، وسألته بانفعال:

– ليش ضربتها؟!

– بنتكِ هذي ما تَستَحِي.. أنا جنبها وهي تكَلِّم واحد بالتلفون كلام قليل أدب، كلام وسخ.. قُدَّامي، عيني عينك.. وفوق هذا تشتمني أنا وزوجتي، وتقول إني مش رَجَّال، وان زوجتي مدري أيش عملت..!

– هي صغيرة، والمفروض ما كنت تَضرِبها. إذا عملت غلط، كلِّمني وأني با أتفاهم معها، وأربِّيها!

– أقول لك جالسة جنبي تتكلَّم في التلفون كلام وسخ أستحي أقوله أنا، وأنتِ تقولي لي أجي أكلِّمك، وأنت تربِّيها!

– كان المفروض تجي تكلِّمني؛ أني أمها، أني وَلِيّة أمرها والمسئولة عليها؛ أني اللي أصرِّف عليها.

– أقول لكِ كانت تتكلم في التلفون كلام نِيك وما نِيك..

– أيوه، أيوه... كنت تجي تكلِّمني.. شوف، هذي آخر مرة تَمُدّ يدَّك عليها. احترم نفسك، ولا تخَلِّيني أقلب لك الوجه الثاني. هات تلفون أختك!

طأطأ رأسه، وحرَّكه إلى الأعلى والأسفل، بتلك الطريقة التي يفعلها من يُذعن لجبروت فادح. تعاظمت فيه مشاعر الإهانة والإذلال، ووَجَدَ نفسه مُجْبَرًا على تسليم موبايل شقيقته. سحبت أمه الموبايل منه، وسارت به إلى ابنتها الصُغرى، التي كانت لاتزال تبكي في الغرفة التي تنام فيها.

دخلت نادية الغرفة وهي تبتسم، وسلَّمت سُهى موبايلها، قبل أن تجلس على يسارها. صالحتها بحنان، وقالت لها، بلطافة وتطييب خاطر:

– وانتِ بَطِّلي بَطِّلي الهبالة حَقِّكِ! كيف تتكلمي بهذي الأشياء قُدَّام أخوكِ؟!

– لا تصَدِّقيه.. أني كنت أتكلَّم مع صاحبتي نوال، حتى اِتَّصَلَي بها وتأكدي بنفسك!

ابتسمت لها الأم ابتسامة متشكِّكة، أرفقتها بغمزة متواطِئة، وسألتها:

– مع نواااااااااااال؟!

– والله مع نوال..

أكدت سُهى، بنبرة سعيدة بالتَّوَاطُؤ الذي أظهرته أمها.

وسَّعت الأم من حجم ابتسامتها المُتواطِئة، وقالت وهي تغمز غمزة أطول:

– قلتُ لكِ بَطِّلي الهبالة حَقِّكِ! لا تكوني تتكلَّمي بهذي الأمور قُدَّام أخوكِ!

– طيب فين أروِح أتكلَّم؟! سلوى وإيمان ما يخَلِّيني أتكلَّم هنا (تقصد غرفتهن) براحتي مع صاحباتي؟!

ضغطت الأم على الفخذ الأيسر لابنتها؛ وقالت، ذاهبة أكثر في التَّوَاطُؤ:

– كوني ادخلي غرفتي، وتكلَّمي براحتكِ؛ بس بشرط: تتكلَّمي مع صاحباتكِ، مش مع أصحابكِ!

احتضنت سُهى أمها وانهالت تُقَبِّلَها، وهي في سعادة غامرة.

تدخَّلت إيمان:

– يا امَّاه، البنت صغيرة، وتدليعِكِ لها بايجيب لنا الفضائح. لا تدَلِّعِيها زيادة عن اللُّزوم؛ باتفضحنا في الحارة.. هي تَهاوِز (تُغَازِل) شباب من الحارة. هذي بنتكِ باتخلِّي عيون الناس كلَّها علينا.

بهدوء غير المكترث، أدارت نادية نظرها نحو سُهى، التي تدافعت الكلمات من فمها:

– كذَّابة.. لا تصَدِّقيها يا امَّاه.. والله ما أعرف أحدًا من شباب الحارة!

أكدت سلوى ما قالته إيمان. قابلت نادية الأمر بعدم اكتراث أكبر، وطلبت من ابنتها الكبرى أن تذهب إلى غرفة الجلوس وتُجَهِّز مكان "تخزينها". غادرت سلوى الغرفة، فالتفتت الأم إلى سُهى وقالت لها، بعاطفة جياشة:

– شوفي يا بنتي.. أني ما أشتيش أحرمكِ من شي، أشتيك تعيشي حياتك وتكوني سعيدة، لكن لا تجيبي لنا الفضائح.. انتبهي تفضحينا. أني اشتغلت وتعبت وربِّيتكم.. أبوكم ما ترك لنا شي. والحمد لله، احنا مستورين بستر الله، ولما نشتي نشتغل، أو نعمل أي شي، نعمله بعيد عن الحارة والناس. ما حَدّ يخرأ ويبول في المكان اللي يرقد فيه!

– يا اماه، أني مش هبلا، وما يمكن أسلِّم نفسي لأيّ شخص. لا تصدِّقي إيمان وسلوى، أني والله ما أعرف حَدّ.

ابتسمت الأم ابتسامة متشكِّكة، فأضافت سُهى:

– الصِّدق أني أعرف واحد بس (نكَّست رأسها وهي تقول ذلك)، وهو محترم، وأشتيك تَطمَئِنِّي، أني مستحيل أُسَلِّم نفسي له أو لغيره.

– يا بنتي عادك صغيرة، السنة الثانية باتدخُلي الجامعة.. حافظي على سمعتك، ولا تدخلي سوق الحُبّ والمهاوَزة بهذي الطريقة الطائشة. مرة ثانية، ما أشتيش اسمع عنكِ أيّ كلام مش حلو.

وقفت سُهى وقَبَّلت رأس أمها، وهي تؤكد أنها لن تفعل ما يُغضبها. وحين غادرت الأم لحقتها الفتاة إلى الصَّالة، وطلبت منها، وهي تطأطئ رأسها خجلًا وتودُّدًا، أن تسمح لها بدخول غرفتها، لأنها تريد الاتصال بصديقتها نوال، كي تعتذر لها لأن "سمير" أغلق الخط في وجهها. بتلك الابتسامة المُتَوَاطِئة، هزَّت نادية رأسها موافقة؛ قبل أن تستدرك:

– لكن بشرط؛ تكلِّميها سريع.

فَرِحت سهى، وقَبَّلت رأس أمها. مذاك كانت تنتظر بلهفة ساعة تبدأ أمها "تَخْزِين القات" في المساء؛ كي تدخُل غرفتها، وتُجرِي مكالماتها الغرامية باطمئنان وراحة بال.

44

انسحب ناصر قاسم سريعًا من مظاهرة تالية، ثم اختلق رواية كاذبة لنجاته من قبضة أحد "البَلاطِجة". انسحب من تلك المظاهرة قبل أن يبدأ المسلَّحون مهاجمة المشاركين فيها. وحين التقى رفاقه، عصرًا، راح يحكي لهم، متسرعًا، كيف نجا بنفسه، "بصعوبة"، من قبضة أحد "البَلاطِجة"، الذين قال إنهم هاجموا التظاهرة وفرقوها بالهراوات والرصاص. لم يكن يعرف أن الحظ لم يعد يقف إلى جانبه؛ فحكى روايته تلك بالثقة ذاتها التي اعتاد أن يحكي بها اختلاقاته. انفجر صديقه طه نعمان بضحكة مُجَلْجِلَة، ثم سأله بنبرة ساخرة عن المكان الذي وَقَعَ فيه الهجوم، واستطاع فيه النجاة بنفسه "بصعوبة"! ضغط طه على أحرف كلمة "بصعوبة" وهو ينطقها.

– في جولة كنتاكي.

أجاب ناصر، بعد أن حَكّ عُنقه وأغمض عينيه وفتحهما ثلاثًا وحَرَّك رقبته إلى اليسار واليمين، بشكل سريع ومتتابع.

دوَّت في المكان قهقهة طه، فيما أخذ ناصر يُقَلِّب راحتي يديه دلالة عن الاستغراب، ثم قال، بصوت مرتفع:

– ما لعارك تضحك وتشوف لي هكذا؟!

أطلق صديقه ذو البنية الجسدية الضخمة ضحكة أعلى، ثم قال، وقد بدأ الآخرون في الضحك:

– البَلاطِجة ظهروا لنا في جولة كنتاكي، بس ما هاجمونا هناك. ما هاجمونا ولا قدروا يُفَرِّقونا بالقوة هناك، لأننا تماسكنا وصمدنا، وما هربنا من أمامهم. واصلنا المظاهرة في شارع الزبيري، ورجعنا إلى الساحة أمام الجامعة بدون ما نتعرَّض لأي اعتداء!

تعالت قهقهات طه، وأخذ يُحني رأسه الضخم، ويمسك بطنه، من شِدَّة الضحك. ضجَّ المكان بالضحك. اِكفَهَرَّ وجه ناصر، وأحَسَّ بدوار. أدرك أن الحظ تخلَّى عنه. قال، بعد أن ابتلع ريقه:

– أنا شفتهم طوَّقونا في جولة كنتاكي، فانسحبت.. لاحقني واحد منهم، لكني هربت منه.

ببراءة تامة، قال الشاب معاذ ثابت، وهو أحد مُنَظِّمي المظاهرات:

– يا أستاذ ناصر، البَلاطِجة ما طوَّقونا ولا هاجمونا في جولة كنتاكي.

أوضح ناصر، بلكنة من ضُبِطَ للمرة الثانية مُتلبِّسًا بجريمة.

– أنا شفتهم طوَّقونا فانسحبت.. ما لعاركم تضحكوا؟! يعني، عيب عليكم، قعوا رِجَال!

واصل طه إطلاق قهقهاته، وأردف يقول، وهو يرى صديقه عالقًا على هذا النحو:

– وأنا أقول كيف إنك يا ناصر ما تعرَّضت إلاَّ لاعتداء واحد بس، رغم إنك شاركت في أكثر من عشرين مظاهرة..

حَكّ المثقف المُتحمِّس عُنقه، وأغمض عينيه وفتحهما ثلاثًا، وحَرَّك رقبته إلى اليسار واليمين، بشكل سريع ومتتابع، ثم قال بصوت خفيض ونبرة تائهة:

– أنا تعرَّضت لاعتداء واحد بس، لأني تعلَّمت منه كيف أواجه البَلاطِجة وأتجنَّبهم.

– أيوة، تعلَّمت تواجههم بالهروب وترك رفاقك خلفك!

قال طه ذلك، ثم أضاف بنبرة جادة وساخرة، دون أن يسمح لصديقه بالحديث:

– وجلست تقول لنا، وبلغة عربية فصحى، إن المهم هو مراقبة الشوارع وتَعَلُّم كَيفِيَّة التَّعَرُّف على البَلاطِجة، لمعرفة ما يجب اتخاذه لمواجهتهم؛ لكن ما تفعله هو الهروب منهم.

تصاعدت القهقهات من كل جانب، فيما ازداد وجه ناصر اكفهرارًا. حَكّ عُنقه، وأغمض عينيه وفتَّحهما ثلاثًا، وحَرَّك رقبته إلى اليسار واليمين، بشكل سريع ومتتابع، ثم انفجر غاضبًا في وجوه الجميع:

– أنيك عاركم، أنتم مخانيث، خَلُّونا نُخَزِّن، وبَطِّلُوا هذي المخناثة حَقَّكم! يعني، ضروري أكون أرجع كل يوم وأنا مضروب عشان ترتاحوا؟!

قال طه، بصوت ضاحك ومتقطِّع:

– المهم، والله إنك فنان يا ناصر، حتى بكذبك وهروبك من المظاهرات.

رَدَّ ناصر، بسخط:

– يا عيالي كُلَّكم تهربوا، لا تعملوا لي أنفسكم الآن طرزانات وأبطال فوق رأسي.

مرَّت ساعات تلك الجلسة كئيبة ومتثاقلة على ناصر. غادر مُبكِّرًا وفي حلقه غُصَّة. قَفلَ عائدًا إلى غرفته، على أمل أن ينسى رفاقه ما جرى؛ لكن ما حدث هو العكس: انتشرت القصة انتشار النار في الهشيم. لم يكتف البعض بإعادة روايتها بهدف التَّنَدُّر، بل راحوا يُذَكِّرونه بها بسخرية، عبر رمز مفتاحي: "أيوة؟! كيف قلت لي يا ناصر؟! المهم تَعَلُّم كَيفِيَّة التَّعرُّف على البَلاطِجة لمواجهتهم"!

بعد عام، حضر ندوة شارك فيها سياسيون وناشطون وعدد من الوجوه الطلابية الجديدة. أحد هؤلاء الطلاب يدعى نجيب مسعد، وكان قد مضى عليه شهران منذ جاء من محافظة إب للدراسة في كلية الإعلام بجامعة صنعاء. في نهاية الندوة، شَرَعَ معاذ ثابت في تعريف نجيب بناصر:

– هذا ناصر قاسم، مثقف معروف..

قاطعه نجيب، وقال وهو يضحك وينظر بودّ إلى ناصر:

– ناصر، صاحب "المهم تَعَلُّم كَيفِيَّة التَّعرُّف على البَلاطِجة لمواجهتهم"؟!

انفجر معاذ ونجيب ضاحكين، فيما احتضن الأخير "ناصر"، وأخذ يُقَبِّلَهُ ويطلب منه ألا يغضب. بوجه عابس، دمدم ناصر:

– الغلط مش منك أنت يا نجيب، الغلط من هؤلاء المخانيث (أشار إلى معاذ الذي كان لا يزال غارقًا في الضحك وهو مُنحَنِي بجسده نحو الأرض)، وعاد هذا أكبر المخانيث (أشار نحو طه الذي كان يسير نحوهم بوجه باسم).

45

شاخ سمير بشكل مفاجئ. خلال ساعات من التفكير بما قالته شقيقته سُهى، تقدَّم به العمر سنوات. عادت أمه، ذلك المساء، إلى غرفة الجلوس، فوجدته متوحِّدًا بصمته المتجهِّم، وقد غَيَّمَت عليه ظلال من الحزن والكآبة. بذهن شارد وذات مسحوقة، تظاهر بمتابعة برنامج "المصارعة الحُرّة" على التلفاز. شاهدت نادية مقدار الذُّل والانكسار المُخَيِّمين على ابنها، لكنها لم تكترث لذلك. لم تحاول التخفيف عنه، أو تطييب خاطره ولو بكلمة. لم تفعل ذلك لأنها اعتادت عدم الاهتمام بأحزانه وآلامه.

جلست في صدر الغرفة، وشَرَعَت "تخزِّن". تناول سمير "الريموت" من أمامه، وغَيَّرَ القناة، رغم إدمانه على متابعة المصارعة. كان يحفظ عناوين المُسَلسَلات الدرامية التي تُتَابِعها أمه، والقنوات التي تبثها، ومواعيد بَثَّها. كان قد اقترب موعد إحداها، انتقل سمير إلى القناة التي تبثّه. وَضَعَ "الريموت" أمامه، وأطلق زفرة كتومة. عاد ليغرق في حزنه البغيض، الذي كان يواصل اِلتِهَامُه بعنف وبلا هوادة.

تذكَّر كيف أَلحَّت أمه على أن يأخذ صديقتيها، فاطمة وجميلة، إلى الحديدة. كانتا أصغر منها سنًّا، ومازالتا تُمارسان جانبًا من عملهما في الدعارة بواسطتها. أدرك أن أمه أبعدته إلى الحديدة، لتجعل زوجته تخطو الخطوة الأولى في طريق العمل كعاهرة لديها. تذكَّر العشرة آلاف التي أعطتها له أمه، على غير عادتها، بعد عودته من تلك المهمة، وكيف فرح بذلك المبلغ فرحًا شديدًا دون أن يعرف أنه جزء يسير من ثمن اِستباحة آخر ما بقي من كرامته: جسد زوجته. اشتعلت فيه مشاعر الكراهية تجاه أمه، واضطرم بنوازع شتى من الضغينة والبغض لها. كَرِهَها كما لم يكرها من قبل. اِنتابه حقد غير مسبوق

عليها، وتَمَنَّى لو يستطيع قتلها. ألقى عليها نظرة متلصِّصة، فوجدها منهمكة في "تَخْزِين القات"، وتدخين السيجارة، ومتابعة المُسَلسَل التلفزيوني المُدَبْلَج الذي ثَبَّت جهاز البث عليه. همهم في نفسه:

– هذي القحبة تشتي تقتلني مثلما قتلت أبي! بنت الكلب ما تشتي تخلى لي أيّ كرامة!

التحقت زوجته به، وشَرَعت في "تَخْزِين القات" معه. جلست جواره وهي بَهِيَّة ومُتأنِّقة. بمجرَّد ما شاهدها وهي على تلك الزِّينة تصاعدت نوبة الغضب فيه؛ إذ تذكَّر أن رجلًا غريبًا مارس الجنس معها؛ في غرفته وعلى سرير نومه. احمرّ وجهه احمرارا أمْيَل إلى السواد، وبدأت يداه في الارتجاف. تناول قنينة الماء واجترع منها جرعة، محاولًا السيطرة على نفسه.

دخلت سلوى وإيمان لمتابعة المُسَلسَل. أما سُهى فكانت في غرفة أمها، مُنشغِلة بمُسَلسَلها الخاص. أخذت سلوى كمية من قات أمها، وبدأت تمضغ أغصانه على مَهْلٍ. إيمان لم تفعل ذلك؛ لأن الشابات لم يكن قد اتجهن نحو "تَخْزِين القات" وتدخين "الشيشة".

بقي سمير صامتًا، بعينين مُجفَلتين، وروح خائرة. دخَّن بشراهة. أشعل سيجارة من أخرى، وهو يسترق نظرات غضب مكتوم إلى أمه وزوجته. انتهى المُسَلسَل التلفزيوني في التاسعة. كانت سُهى لا تزال مغلقة على نفسها باب غرفة أمها، وغارقة في مكالمتها الهاتفية الغرامية. أبلغت إيمان أمها بالأمر، ثم غادرت غاضبة، وسُمِعت وهي تدُّق الباب على أختها الصُغرى، وتصرخ طالبة منها أن تفتحه لها. تجاهلتها سُهى، ولم تفتح الباب إلاَّ بعد أربع دقائق. وبهدوء غير مكترث، دخلت غرفة الجلوس، وانهمكت في متابعة مُسَلسَل تلفزيوني آخر؛ وكأن شيئًا لم يكن. انهمك الجميع في المتابعة، فيما انشغل "الزّوج المغدور" بلعق جروح كرامته المنتهكة، وعِرْضه المُستَباح.

انتهى المُسَلسَل الدرامي الثالث، عندما اقتربت الساعة من منتصف الليل. ذهبت الشقيقات الثلاث إلى غرفتهن، بينما واصلت مريم "تَخْزِين القات" جوار زوجها. همس في أذنها أن تسبِقه إلى غرفتهما، وتتركه ليتحدَّث إلى أمه في "موضوعٍ مهم". بقي بمفرده مع أمه. ظَلّ صامتًا يفكر كيف يُفَاتِحَها في الموضوعِ الذي فجَّرته سُهى. أخيرًا، اتَّخذ القرار! وحين هَمَّ بالكلام، عجز عن ذلك. غلبه الخوف والوجل ما إن نظر إلى أمه. فَضَّل مواصلة الصمت. انشغل بالتفكير في طريقة مناسبة لمفاتحتها في الأمر. انشغل أكثر بتشجيع نفسه على ذلك. استجمع قواه، وقال، بصوت مختلج ورأس منكَّس ويدين مرتجفتين:

– بنتكِ سُهى قالت..

صمت، وأحنى رأسه مزيدًا من الانحناء.

– أيش قالت؟!

ابتلع ريقه، وأجاب، بصوت متقطِّع:

– قالت.. قالت.. أ..أ..أ... قالت.. أ..أ..أ..أ... قالت إن واحد غريب دخل إلى غرفتي، وعمل مش عارف أيش بمريم؛ لَمَّا أنا كنت في الحديدة!

– هذي سُهى قليلة أدب، ما لك منها.. إني بارِبِّيها هذي بنت الكلب.. والله لأضرب أبوها لَمَّا تدري كيف تضبط لسانها.

– مش مهم، تضربيها أو ما تضربيها.. أشتي بس أعرف هل إللي قالته صحيح؟!

– قلت لك ما لك من أبوها هذي سُهى. كَبِّر مُخَّك، وخَلِّيك عاقل ورجّال، ولا تسمع كلام بنت صغيرة!

– بس أشتي أعرف، هل إللي قالته صحيح؟

- ما لك من هذا الكلام! هذا كلام ما له داعي، ومش وقته!

- يعني، كلامها صحيح؟!

- قلت لك بَطِّل الرِّفَاس، وخَلِّيك عاقل ورجّال! كَبِّر مُخَّك، وما لك من أبوها، سُهى هذي طفلة وقليلة أدب، واني بارِبِّي أبوها!

- بس أشتي أعرف.. هل كلامها صحيح؟

- أيوة؛ صحيح. ارْتَحْت؟!

قالت ذلك بانفعال، ثم أضافت:

- أنت بدون عمل، واني قدني كبيرة، وضروري يكون معانا شغل، ومش معقول نَجْلِس راكنين بس على شغل سلوى وإيمان! ضروري مريم تشتغل معهن، وإلاَّ أنت شوف لك شغل تَصرِف منه على نفسك وعلى زوجتك!

شَحُبَ وجهه، وأظلمت الدنيا في عينيه. طأطأ رأسه أكثر، وتمتم بكلمات احتجاجية غير مفهومة. زجرته أمه، بحزم:

- اسمع، أنت ما تشتغل؛ إما تشتغل وتشقي على نفسك أنت وزوجتك، وإلاَّ خَلِّي زوجتك تشتغل وتِشقي على نفسها وعليك. أو قد أنت راكن علينا أني وخواتك نشقي عليكم؟! ما تستحي على نفسك جالس عالة فوق رأسي، بلا شغل ولا مشغلة؟! وعادك تفتح لقفك علينا، بدل ما تحمد الله وتشكره! طفلة مثل سُهى تزيد عليك، وتِخَلِّيك تزعل من هذه الأمور اللي طول عمرك وأنت مُتفَهِّم لها؟! طول عمرك وأنت عاقل ورِجَّال، والآن باتجنن!

كالعادة، التزم الصَمْت.

كالعادة، واصلت أمه تذكيره بعيوبه وبكل ما قدَّمته وتقدِّمه له:

- أنت بَطَّلت الدِّراسة زمااااان، بَطَّلتها من نفسك، ومن هذاك الوقت وأنت جالس في البيت بدون عمل. أني زوَّجتك بخمسمائة ألف، واشتريت

لك غرفة نوم بسبعين ألف، وبتأكل أنت وزوجتك وتشربوا بلاش، عايشين أمراء؛ وفوق هذا تستلم كل يوم ألف وخمسمائة ريال حق قات وسيجارة ومصروف. والآن تفتح لقفك علينا، وما تشتي زوجتك تساعدنا في الشغل! شوف، إما تَشُلّ زوجتك وتخرجوا تشوفوا لكم بيت ثاني، والاَّ خليتها تشتغل معنا وتساعدنا بتحمل المصاريف.

وَجَمَ صامتًا وهو مُطأطِئ الرأس، فيما استطردت أمه، وهي تُصوِّب نظرات حادة إليه:

– إذا طِلِعت لك، ذلحين، مشاعر الغِيرة، شوف لك عمل تقدر تعيش منه أنت وزوجتك، ولو تقدر تَصَرِّف علينا أني وخواتك با نَبَطِّل نشتغل، وبا نجلس في البيت، وبا نرفع جزمتك فوق رؤوسنا!

نهضت من مكانها وغادرت الغرفة، وهي تدمدم بكلمات غاضبة، دون أن تلتفت إليه. قبل أن تدَّخل الحَمّام، طلبت من إيمان تَنظِيف غرفة الجلوس؛ لأنها انتهت من "تخْزِينتها".

وجدت إيمان شقيقها رازحًا تحت وطأة الانكسار والإِذلال. رأت امتقاع وجهه، وأحسَّت بالغمّ الجاثم عليه. واسته بكلمات ودودة، محاولة تخفيف حزنه. طلبت منه ألا يُتعِب نفسه بسبب المكالمة الهاتفية التي أجرتها سُهى جواره. قالت له إن "سُهى مازالت طفلة"، لكنها "سَتَكبر وستَعقُل". لم تكن تعرِف أن حزنه عائد إلى شيء آخر. وقد فغرت فاهها مندهشة، عندما أخبرها بما قالته له شقيقتهما الصُغرى. سألها، بصوت مخنوق ومثخن بالقهر:

– هل اللي قالته سُهى صحيح؟

– ما لك منها هذي كلبة، وبدون تربية!

– إيمان، لو سمحتِ، رجااااااء، قولي لي الصِّدق.

ركَّزت نظرها عليه، وقالت، وقد اعترتها عاطفة ممزوجة بالشَّفقة نحوه:

– أمك هي السبب؛ هي جابت الرجَّال إلى البيت، ودخلته غرفتك؛ لأن مريم رفضت تروح لبيته! طبعًا الرجَّال دفع خمسين ألف، وأمي أنت تعرفها؛ ممكن تعمل أيّ شي من أجل الفلوس. هو دفع هذا المبلغ لأن أمي قالت له إن مريم عادها تزوَّجت قبل شهرين بس.

– ومريم ما رفضت، ولا قالت شي؟!

– أنت عارف أنها ما تقدر تقول لأمك لا. شوف، الصِّدق، أمي هي السبب؛ جلست تضغط على مريم، تضغط، تضغط.. ويوم ما سافرت أنت، جلست معها هنا (تقصد في غرفة الجلوس) وقت طويل، تضغط عليها وتقنعها. واليوم الثاني جاء الرجَّال، وأمي دخلته غرفتك وغلقت الباب عليه وعلى مريم. وجلسوا ساعتين بس.

تَضَرَّجَ وجهه بالحزن والذُّل، كأيّ زوج استُبيح عِرْضه. اضطرم اضطرامًا شديدًا، وزاد ارتجاف يديه. أطفأ سيجارة، وأشعل أخرى. ظَلّ يُحدِّق في منفضة السجائر، ويداه ترتجفان. واسته إيمان بكلمات مَيِّتة، وعادت لمواصلة تنظيف الغرفة. سألها، دون أن يرفع نظره إليها، عن نصيب مريم من الخمسين الألف التي دفعها الرَّجُل. باغتها بسؤاله. توقَّفت عن التنظيف، والتفتت إليه باندهاش، وبعينين مفتوحتين وعميقتي السواد. قالت بأسف:

– جابت لها عشرين ألف بس.. كان المفروض تجيب لها أربعين.

أضافت، وهي تبتسم، محاولة مداعبة شقيقها للتخفيف من حزنه:

– أيش؟! قدك تحسب كم بايكون نصيبك من شغل مريم؟!

بارتباك خجول، أجاب:

– لا. بس أشتي أعرف حذاقة أمي.

أخبر الأخت الأقرب إلى قلبه أن أمه جرَّدته من كل شيء. قال ذلك بانكسار ممزوج بالمرارة والوجع، حتى إن إيمان كادت تسمع أنينه. حاولت

التخفيف من وطأة الأمر عليه، ورَجَتْهُ أن يتحلَّى بالقوة والعقل في التعامل مع ما جرى، وألا يظلم مريم أو يقسو عليها.

أكملت تنظيف وترتيب الغرفة وغادرت، فيما بقي هو في مكانه يلوك القات، ويدخن. اتَّجهت إيمان إلى مريم وأبلغتها بالأمر. وجدتها جالسة في غرفتها بانتظاره، وقد لبست وتجمَّلَت. وَجَمت مريم صامتة حين سمعت الخبر. كانت تعتزم الذهاب إلى غرفة الجلوس لتطلب منه الاكتفاء من القات، واللَّحاق بها إلى غرفتهما. تراجعت عن ذلك، وراحت تُفَكِّر بما ستقوله له، وكيف ستبرئ نفسها أمامه. نصحتها إيمان بأن "تبقى على طبيعتها وكأن شيئًا لم يحدث". نصحتها أن تذهب إليه وتتصرف بشكل طبيعي وكأنها لا تعلم شيئًا. رأت مريم أن هذا هو التَّصرُّف السَّلِيم؛ لكنها تردَّدت كثيرًا قبل أن تشرع في تنفيذه. بعد دقائق من التردُّد، توجهت إليه. وَجَدَته يُحَدِّق، بذهن شارد، في منفضة السجائر، ويداه ترتجفان.

– خلاص، يكفي قات! تعال.. أنا منتظرة لك في الغرفة.

– ارقدي، لا تنتظريني. أنا مُتعب، واشتي أجلس وحدي شوية.

عادت إلى الغرفة، ونامت بعد ساعة من الانتظار والتفكير بردود فعله المتوقعة.

لم يكن سمير قادرًا على اتخاذ أيّ موقف أو قرار. كذلك، لم يكن جاهزًا للحديث مع زوجته في الموضوع، لهذا فَضَّل الصمت، والبقاء أطول فترة ممكنة منفردًا بنفسه في غرفة الجلوس.

في الثالثة فجرًا رمى القات من فمه، ثم توجَّه إلى غرفته. دخل بهدوء متصاغر وذليل. فضل ألا يشعل الضوء. أغلق الباب خلفه، واستعان بولاعته حين راح يتلمّس طريقه نحو الطرف الأيسر من السرير، حيث مَدَّ جسده بشكل حَرِصَ فيه على ترك مسافة كافية تفصله عن ذلك الجسد المنتهك،

المُمدَّد جواره. أيقن أن أمه جرَّدته فعلا من كل شيء. لم يستطع إيجاد الوصف المناسب الذي يُلَخِّص حاله وما يشعر به. هزَّ رأسه، إذ تذكَّر بطل إحدى المُسَلسَلات الأجنبية المُدَبْلَجة وهو يقول إنه ينزف من الداخل.

جافاه النوم طويلا. وحين حصل عليه، نام حتى الظهيرة.

46

أفاق سمير من نومه، ومشاعر الإذلال مازالت جاثمة عليه. فتح عينيه، فشاهد زوجته تخبره، وهي تبتسم، أنه تأخر في نومه، وأن فطوره جاهز. أغمض عينيه، هربًا من عينيها، وجمالها المُشرِق، الذي ذكَّره بذُلّه وكل مهاناته. تحامل على نفسه، ونهض وهو يدير لها ظهره. جرجر خطاه إلى الحَمّام بروحٍ خائرة، ونفسية مُنكسرة.

غسل وجهه، ثم انكفأ إلى غرفته. كان ينزف من الداخل بالفعل.

في صالة المنزل، تناول فطوره بصمت، وبعينين خفيضتين. عَلِمَ أن أمه كانت قد خرجت إلى المحال القريبة، وتولَّت بنفسها مهمته اليومية المعتادة: شراء متطلبات إعداد وجبة الغداء. أدرك أنها أرادت له أن ينام أكبر قدر ممكن، للتخفيف من القهر والغضب الذي نام وهما في صدره.

تناول فطوره سريعًا، وهو يتحاشى النظر في وجوه أفراد أُسرته. وعندما استطاع الانفراد بشقيقته إيمان، قال لها، بجِدِّيَّة مشوبة بالحزن، إنه متعب وينزِف من الداخل. ابتسمت له بإشفاق وتَحَنُّن، وقالت، وهي تغمز برمشها:

– تماسك، خَلِّيك قوي، ولا تتأثر بالمُسَلسَلات المُدَبْلَجة!

عاد إلى غرفته، فلحقت به أمه وصالحته: أعطته عشرة آلاف ريال. طلبت منه ألا يغضب منها، ثم أعادت عليه أسطوانتها القديمة:

– يا ابني، أني مجبرة أشتغل هذا الشغل. ما فيش معانا عمل ثاني، وبدون هذا الشغل بانموت من الجوع، أو با نخرج نشحت في الشوارع. كان المفروض أنت تشتغل وتصرف علينا؛ لكن أنت بلا عمل. هذي خيرة الله، وهذا قدره. أبوك، الله يرحمه ويسامحه، ما عمل لنا شي؛ جلس طول عمره بدون عمل، وبعدين انتَحَر، وتركنا وما معانا ريال.

ظَلّ وَاجِمًا مُطرِق الرأس، كأيّ زوج مُستَبَاح العِرْض، فيما ظَلّت أمه تتحدَّث إليه بثقة وأنفة:

– أنت طول عمرك وأنت عاقل ورجّال، والآن تشتي تِجَنن؟! طول عمرك ذكي ومُتَفهم وعارف بحالنا، والآن عامل لي مشكلة من لا شي! خَلِّيك عاقل وكبير، وبَطِّل حركات الأطفال هذي. خَلِّيك عاقِل، وانسى ما قالته أختك سُهى. كَبِّر مُخَّك! هاه، روِح اشتري قات لي ولك، وارجع اتغَدِّى وخَزِّن مع زوجتك.

غادر المنزل، وهو ينزف من الداخل. فَضَّلَ الذهاب إلى سوق القات سيرًا على قدميه. كان يجد راحته في المشي، وظَنَّ أن ذلك قد يُخَفِّف نار الغضب في صدره. سار على مهل، وهو يعيد التفكير فيما حدث. في غمرة ذلك، انتبه إلى أنه يحاول تفهُّم وتبرير ما جرى؛ باعتباره "عاقل وكبير"، كما اعتادت أمه وصفه كلَّما أرادت أن تُهَدِّئ من نوبات الغضب والحنق، التي كانت تنتابه بين فترة وأخرى بسبب عملها في الدعارة. حاول أن يعود إلى سياقه المعتاد في التعايش مع واقعه؛ إلاَّ أنه تذكَّر أن رجلًا غريبًا مارس الجنس مع زوجته؛ في غرفته وعلى سريره. كان يمكن أن ينسى ما جرى لو أنه كان مجرَّد نزوة لزوجته. بيد أنه على يقين أن ما جرى يعني أن أمه قرَّرت تَحْوِيل

زوجته إلى عاهرة. تصاعدت حالة النزيف الذاتي لديه، حتى إنه كان يسمع أنينه وهو يسير في طريقه إلى سوق القات.

فَكَّر كيف أن مهنة والدته حالت دون نشأته كرجل سوي، وحرمته حتى من مواصلة دراسته. تأكد أن خياراته في الحياة محدودة، وليس أمامه إلاَّ أن يظَلّ "بن نادية" المنبوذ، والمُستَبَاح العِرْض.

أثناء سيره المُتَباطِئ، راجع مسيرة حياته، بشكل سريع ومقتضب. صَنَّفَ نفسه كضحية لأمه وأبيه، الذي قضى الجزء الأكبر من حياته وهو بلا عمل، ثم انتَحَر وهو ينتظر مصروفه اليومي من زوجته. وَرِثَ عن والده التوحُّد بالصمت، والقدرة على تحمُّل الألم والتعايش مع الإِهانة. كلاهما عاش بلا كرامة، وبعِرض مُستَبَاح. تأكد أنه نسخة مشوهة من أبيه. هتف صوت في داخله يحثه على ألا يُذعِن، وألا يُكرّر مأساة والده، الذي شنق نفسه في حمّام المنزل؛ احتجاجًا على ما تعرَّض له من انتهاك قاسٍ بسبب حياته كزوج لعاهرة. اجتاحته نوبة من مشاعر الشَّفقة تجاه والده؛ لكن شفقته على نفسه كانت أكبر؛ لأنه مازال ضحية لإهانات أشد فتكًا. فكَّر أنه يتعرَّض لإذلال أقسى من الذي تعرَّض له أبوه؛ ذلك أنه يعيش كابن لعاهرة، وزوج لعاهرة، وشقيق لثلاث عاهرات (كان قد تعامل مع سُهى كعاهرة قبل أن تبدأ مسيرتها الفعلية في مهنة الدعارة). توصَّل إلى أن عليه مواجهة الواقع الذي يعيشه. كانت تلك هي المرة الأولى التي فكَّر فيها بمقاومة مجتمع الدعارة، ورفض مواصلة الحياة فيه.

مضى في مراجعة مسيرة حياته، فيما الغضب يواصل التهامه من الداخل. تأمَّل الغضب الذي هو فيه فوجده أقوى من ذاك الذي انتابه عندما بدأت شقيقتاه سلوى وإيمان مسيرتيهما في مهنة الدعارة. استنتج أن غِيرة المرء على الزُّوجة أقوى منها على الأم أو الشقيقات. قال لنفسه إن أمه هي

التي عليها التَّوصُّل إلى هذا الاستنتاج، كي تَرحَمَهُ وتُخرِجَهُ من هذا الاختبار القاسِي والمُهِين الذي وضعته فيه. لم يصل إلى تفسير منطقي لهذا التفاوت في مستويات الشعور بالغِيرة، ولم يستطع مناقشة الأمر مع شخص آخر. قرَّر نسيان الموضوع نهائيًا، وعدم العودة إلى التفكير فيه. لكنه أعاد التفكير فيه بعد سنوات من فراره من منزل أُسرته، فوجد أن تَبَدُّلًا حدث في تفاوت مستويات الغِيرة لديه؛ إذ أصبحت غِيرته أقوى على شقيقاته، ثم على أمه، وزوجته أخيرًا. استنتج أن هذا التَّبدُّل يحدث بعد الانفصال عن الزوجة؛ عبر الطَّلاق أو الهجر.

في طريق العودة من سوق القات أعاد التفكير في تصنيفه لنفسه كضحية. توصَّل إلى أن جميع أفراد أُسرته ضحايا للمجتمع: هو، وأمه، وأبوه، وشقيقاته. تنبَّه إلى أنه نَسِيَ إيراد اسم زوجته، ضمن قائمة الضحايا، فاستدرك يؤكد أنها أيضًا ضحية للمجتمع. فَطِنَ إلى أنه يحاول بذلك تبرير ما جرى ويجري من قِبَل أمه وزوجته وشقيقاته، غمغم:

– كُلَّنا ضحايا، هذي هي الحقيقة. أمي ما كنش في معها إلاَّ تشتغل هذا الشغل، عشان تقدر تعيش. وأنا والبنات عرفنا أنفسنا وإحنا عيال نادية القحبة. مريم مثلنا، عرفت نفسها وهي بنت صفية القحبة. هذا قدرنا، فين با نروح منه؟!

كمن ضبط نفسه مُتلبِّسًا بجرم ما، انتبه فجأة أنه غارق في حوار ذاتي من أجل تبرير الخطأ، وتوفير منفذ إنساني يجعله يَتَقَبَّل وضعه الجديد كزوج لعاهرة. همهم يقول لنفسه:

– من لمَّا عرفت نفسي وأنا متعايش مع وضعي كابن لنادية القحبة، وبعدين تعايشت مع وضعي كأخ لثلاث قحاب، والآن ما فيش معي إلاَّ أتعايش مع وضعي كزوج لقحبة. هذا قدري، أيش باقدر أعمل؟!

تردَّد في ذهنه صوت أمه وهي تقول له: "خَلِّيك عاقل وكبير". أعاد تقمُّص هذه الشخصية التي دجَّنته أمه فيها. تَنَفَّسَ بشكل جيد؛ إذ أدرك أن ما من خيار آخر لديه غير التعايش مع وضعه الجديد، والتوقُّف عن جلد ذاته وعقابها على الوضع الخاطئ الذي وَجَدَ نفسه فيه دونما إرادة أو قرار منه. انفرجت أساريره، وهَزَّ رأسه، بتلك الطريقة التي يفعلها من يتوصَّل إلى فهم لحقائق الأمور. لكنه اضطرم، فجأة، وزاد انقباض صدره؛ إذ تذكَّر أن رجلًا غريبًا مارس الجنس مع زوجته؛ في غرفته وعلى سريره. بِغضب، حدَّث نفسه:

– بنت الكلب، أمي هذي، كيف تخلِّي واحد غريب يدخل غرفتي، ويرقد مع زوجتي على سرير نومي؟! ومريم بنت القحبة كيف وافقت؟! على الأقلَّ كانت تكلِّمني..

احتدَّ بشكل أكبر. زَمَّ شفتيه، وقطَّب حاجبيه، بتلك الطريقة التي يفعلها من يتوصَّل إلى إدراك مقدار ما تعرَّض له من إهانة وانتهاك. استدرك:

– أمي هي القحبة.. وما تستحي على نفسها. كان المفروض تحترمني وتُراعِي مشاعري. بنت الكلب، على الأقلَّ كانت تضغط على مريم، وتخَلِّيها تروح إلى منزل ابن الكلب، وتخَلِّيه ينِيكها هناك في بيته مش في غرفتي.

أطلق زفرة طويلة، ثم أضاف، بألم:

– كان المفروض مريم تحترمني وتُراعِي مشاعري. بنت الكلب، على الأقلَّ كانت با تروح مع ابن الكلب إلى بيته، وتخَلِّيه ينِيكها هناك مش في غرفتي.

غَرِقَ في أفكار متداعية بحث فيها الخيارات التي كان على أمه اتخاذها لتجنِّبيه الإهانة. غمغم:

– كلَّهن قِحاب وشراميط، وإلاَّ كانت أمي تقدر تخَلِّي مريم تشتغل معها الي تشتي بدون ما أعرف أنا، وتخَلِّي زبائنها يَنِكوها خارج البيت مش في غرفتي وعلى سرير نومي.

أطلقَ زفرة أطول، وقال لنفسه إن عليه نسيان ما حدث، ولو مؤقتًا. لكنه لم يستطع ذلك. أَحسَّ فجأة أنه يبالغ في ردَّة فعله؛ بالنظر إلى الخيارات الممكنة لديه. حاول تلمُّس الغضب المتصاعد فيه، فوجده صادقًا وحقيقيًا؛ إلاَّ أن ما حدث كان متوقَّعًا، حتى وإن لم يسبق له التفكير فيه. مرة أخرى حاول تلمُّس الغضب الكامن فيه، فوجده صادقًا وحقيقيًا؛ لكنه غير منطقي؛ فما حدث يتَّسق مع مسيرة أمه وحياتها، وإذعانه المستدام لها. همهم:

– ضروري أكون رجّال.. ضروري أكون عاقل وكبير، وأتعايش مع واقعي وقدري!

أضاف يُحدِّث نفسه:

– مريم بنت كلب ما تستحق حُبِّي لها وغِيرتي عليها. طُزّ بعارها هذي القحبة. كان ضروري أكون رجّال وما أتزوَّجها. كيف تزوَّجتها وأنا عارف إن أمها قحبة؟! والله إني كنت أهبل وحمار، بس المفروض ما أزعل الآن! أمها قحبة، أيش كنت أتوقعها تكون؟! داعية إسلامية؟! طبيعي تكون قحبة مثل أمها..

أغمض عينيه وفتحهما سريعًا، ومضى يُكمِل همهمته:

– حتى لو كانت مريم محترمة كانت أمي باتخلِّيها قحبة. والله لو تزوَّجت حتى الشريفة تَقِيّة؛ كانت أمي باترجِّعها قحبة. هذا قدري، وهذي قسمتي في الحياة، وما فيش معي إلاَّ أكبِّر مُخِّي وأكون عاقل وكبير.

وهو يسير في طرف الشارع، سَمِعَ خلفه صوت زامور سيارة يطلب منه صاحبها الإسراع في خطواته، كي يستطيع إيقافها بمحاذاة الرصيف. أفاق على ضجيج الحركة العامة في الشارع. أسرع بخطواته قليلًا، ثم عاد ليغرق فيما كان فيه.

واصل الإذعان للتفكير المتقلِّب، والمشاعر المتضاربة. فجأة، تملَّكه غضب عارم تجاه شقيقته سُهى. غمغم:

– المشكلة هي في سُهى بنت الكلب؛ لأنها قالت لي بالي حصل عشان تهيني بس. هذي عادها با تكون قحبة كذااااك. سُهى سبب اللي أنا فيه، أما مريم فأنا عارف أنها قحبة، وأمي هي أصلًا قحبة وفَتَّالة وبنت كلب. كان المفروض سُهى ما تقول لي حاجة. كان أحسن لي أبقى أطرش في الزَّفَّة، مش عارف حاجة.

شَعَرَ بالإنهاك مما هو فيه. أغمض عينيه وفتحهما كمن يريد أن يُعِيد التفكير بما كان قد توصَّل إليه. أعاد التفكير في الأمر، فاختلفت النتائج؛ لكن سُهى ظَلّت خصمه الحقيقي. بَلَغَ حالة غير مسبوقة من الألم. تأكد أن القول بأنه ينزف من الداخل أمر جِدِّيّ، وليس مجرَّد تعبير بلاغي. خَطَرَت في باله إيمان وهي تقول له: "لا تتأثر بالمسلسلات المُدَبْلَجة". علَّق، بنبرة حزينة:

– حتى أنتِ يا إيمان؟!

47

في الثانية من بعد ظهر 18 مارس، أيقظ طه نعمان صديقه ناصر قاسم من النوم، وأبلغه بحدوث الجريمة، التي صارت تُعرف باسم "مجزرة جمعة الكرامة".

ظَلّت المعلومات متضاربة وغير دقيقة بشأن عدد الضحايا. مع الوقت، تراجعت الأرقام حتى وصلت إلى سبعة وخمسين قتيلًا، وأكثر من مائة جريح.

الجريمة هزَّت المجتمع، فتحوَّل مكان الاعتصام إلى مزار شعبي. جاء الآلاف لمساندة الثوار، أو لمعرفة ما حدث، ومشاهدة آثار الجريمة. امتد

الغضب إلى عدة محافظات، حيث خرجت تظاهرات غاضبة للتنديد بما جرى. اندهش ناصر وهو يشاهد تسجيل فيديو لتظاهرة خرجت في عدن، وفيها هتف الآلاف: "بالروح بالدم.. نفديك يا صنعاء". اليوم التالي، قال لأصدقائه:

– عظمة هذه الثورة أنها استنهضت الهوية اليمنية، التي دَمَّرها نظام الهيمنة طوال عقود. تصوَّروا، جنوبيون خرجوا في عدن يهتفون من أجل صنعاء، بعد أن كانوا يطالبون بالانفصال عنها! يعني، الثورة ستعمل على إعادة صياغة الهوية الوطنية، وستدفع اليمنيين نحو الالتفاف حول الوحدة بعد أن كانوا يتنكَّرون لها.

اليوم الرابع بعد "جمعة الكرامة"، تلقَّى ناصر اتصالًا نَقَلَ إليه خبرًا عكَّر مزاجه: انشقاق الجنرال عن النظام، وإنضمامه للثورة. تضاعفت مشاعر القلق والخوف لدى الثائر المُتحمِّس من سيطرة القوى الدينية، وحلفائها القَبَلِيّين والعسكريين، على الثورة بشكل كامل.

في خيمة مكتظَّة بنحو ثلاثين شخصًا، كان ناصر هو الوحيد المعارض لانضمام الجنرال إلى الثورة. الخيمة تتبع "التيار التقدمي"، الذي أعلن تشكيله شباب يساريون في ساحة الثورة. داوم ناصر، وصديقه طه، على "تَخْزِين القات"، في هذه الخيمة، التي صارت مَحَطّ اهتمام الجميع؛ بسبب مستوى النقاشات الفكرية التي تدور فيها. وقد كان لناصر دور رئيسي في إضفاء التشويق والإثارة على تلك النقاشات.

يَتَمَتَّع المثقف المُتحمِّس بقدرة عجيبة على قضاء ساعات طويلة في نقاشات مُجدِية، وأخرى غير مُجدِية، تدور حول مُسلَّمات ومسائل مفروغ منها. وكالعادة، كان يخوض كل تلك النقاشات باندفاع وحماسة صادقين، وبجدية وانهماك كاملين؛ بهدف إقناع الآخرين بما يقول.

انخرط في الثورة بحماسة أكبر من تلك التي يُظهرها في الكلام والحديث عن الكُتب التي يقرأها. ولم يسؤه شيء مثل تحمُّس اليساريين لانضمام الجنرال إلى الثورة. يومها واجه كل الذين كانوا في "خيمة التيار التقدمي"، وخاض نقاشًا منهكًا لإقناعهم بأن أضرارًا فادحة ستلحق بالثورة جراء ذلك الانضمام. اندفع يُهاجم الجنرال. استفاض في الحديث عن فساده وجرائمه، وفي شرح التاريخ الملوَّث للقوى الدينية والقَبَلِيّة المرتبطة به.

كان في الخيمة ثلاثة أشخاص أدرك ناصر، من مظهرهم، أنهم ينتمون إلى التيار الدِّيني المرتبط بالجنرال. الأول نحيل الجسم يرتدي بنطلونًا قصيرًا، والثاني يرتدي ثوبًا قصيرًا ويربط رأسه بمَشَدَّة، فيما الثالث لديه جسم ممتلئ ولحية صغيرة غير مُرتَّبة. عندما وَصَلَ النقاش إلى أوجّه، انفجر هؤلاء يُهدِّدون "ناصر"، ويتوعَّدونه بالعقاب. ارتعش الثائر المُتحمِّس خوفًا. تناول قنينة الماء من أمامه، وعبَّ منها رشفتين، وهو يغمض عينيه؛ محاولًا إخفاء قلقه، والسيطرة على جسده المرتعش. أراد مواصلة الحديث؛ لكنه لم يستطع؛ ذلك أن الارتعاش كان قد انتقل من جسده إلى صوته ويديه. غَرِقَ في صمته العاجز، محاولًا استعادة السيطرة على نفسه، والتحكُّم في ارتعاش الخوف الذي أصابه. ران الصمت على الخيمة، وبقيت أنظار الجميع مصوَّبة إليه. عبَّر البعض عن خوفهم من تعرُّضه للاعتقال من قِبَل اللجنة الأمنية التابعة للساحة، التي يسيطر عليها الحزب الدِّيني المتحالف مع الجنرال. نصحوه بمغادرة الساحة فورًا، والابتعاد عنها بعض الوقت؛ بيد أنه رفض ذلك. ابتسم للجميع ابتسامة شاردة؛ إذ ظَنّ أن بإمكان الابتسامات إخفاء خوفه وهلعه. بالتدريج، خَفَّ ارتعاش جسده، لكن القلق كان يتعاظم في نفسه. غادر بعد المغرب، برفقة طه، الذي حَرِصَ على إيصاله إلى غرفته لضمان عدم تعرُّضه لأيّ اعتداء أو اعتقال.

قضى ناصر ليلته في تبكيت نفسه وجلدها؛ على الجُبن والخوف اللذين ظهرا عليه. لم ينم إلا بعد أن قرَّر العودة إلى الساحة، غدًا، للانتصار لكبريائه، وتأكيد عدم اكتراثه بالتهديد الذي تلقاه. ما إن دخل الساحة اعتقله أفراد من أعضاء اللجنة الأمنية. تغلب على خوفه، بمجرَّد اعتقاله. صحيح أن جسده ارتعش في البداية؛ لكن ذلك الارتعاش سرعان ما تبدَّد. لقد انتصر على ضعفه، لاسيما بعد أن تم نقله إلى أحد سجون المقر العسكري التابع للجنرال. هناك لم يكن أمامه غير التَّحلِّي بالقوة ورباطة الجأش.

اتَّهموه بأنه "مُندَسّ"، ويعمل لصالح جهاز الأمن قومي؛ بهدف إثارة الشائعات والبلبلة في صفوف الثورة. واجهوه بكلمات وعبارات قالها في جلسة اليوم الفائت، وجلسات أخرى داخل "خيمة التيار التقدمي". بقي متماسكًا خلال جلسات التحقيق، وتحمَّل بجسارة كل عمليات التعذيب التي تعرَّض لها. تألم فقط لأن سجانيه اتَّهموه بالعمل لصالح نظام كانوا من أدواته طوال عقود. قال ذلك للذين حَقَّقوا معه، فانهالوا عليه ضربًا أنساه الضرب الذي لقيه من "بَلاطِجة" النظام في ثاني مظاهرة له بداية الثورة.

ظَلّ معتقلًا سبعة وأربعين يومًا، ثم أُطلق سراحه وهو أكثر قوة، وأَشَدُّ حقدًا على الجنرال والحزب الدِّيني المتحالف معه. روى لأصدقائه ما تعرَّض له، مبرهنًا لهم بذلك على صحة ما كان يحدِّثهم عنه من خطر هذه القوى على الثورة، واليمن بشكل عام. لم يسمعه أحد. اختفى صوته في موجة التملُّق التي سادت تجاه الجنرال وحلفائه.

كان في عامه الثلاثين، يوم غادر السجن عائدًا إلى غرفته، حيث فَضَّلَ الانزواء، وهو يقول: ليست هذه الثورة التي أردنا.

48

فَضَّلَ سمير، وهو يقترب من المنزل، أن يتوقّف عن إنهاك نفسه، والتوصُّل إلى قرار بشأن ما جرى مع زوجته مريم. كان محطَّمًا؛ لكنه أحسَّ بغتة بأن نزيفه الداخلي قد خَفَّ. همهم صوت داخلي يقول له:

– كَبِّر مُخَّك، وخَلِّيك عاقل وكبير! خَلِّيك رَجَّال، وبَطِّل حركات الأطفال هذي!

انتعشت روحه، وتغيَّر مزاجه. رفع رأسه، وحَثَّ خطاه. بيد أنه وَصَلَ المنزل وعلى رأسه تُحلِّق سحابة من المهانة والإذلال. أعطى أمه قاتها وهو يتحاشى النظر إليها. لمست الحالة التي هو فيها، فقالت له بحنان:

– اليوم خذ راحتك؛ أني وسلوى وإيمان ما با نخرج من البيت.. ما فيش معانا عمل. أنت اتغدّى، وارجع خَزِّن مع زوجتك في غرفتك، وخَلِّيك عاقل وكبير، وبَطِّل تتعب نفسك وتأكلها بالزعل ووجع القلب اللي ما له داعِ.

تناول الغداء؛ بصمت وروحٍ كسيرة. انتهى سريعًا، ثم دخل غرفته، التي كانت مريم قد هيأتها كي يقضيا فيها جلسة خاصة. اتكأ في زاوية الغرفة، وشَرَعَ في "تَخْزِين القات". حَدَّقَ في السرير، فبدا له الرَّجُل الغريب وهو يمارس الجنس مع مريم. اضطرم الغضب فيه، فراح في سره يشتم أمه وزوجته. تذكَّر سُهى فَصَبَّ عليها قدرًا أكبر من الشتائم.

دخلت مريم الغرفة، واصطنعت البحث عن شيء ما. حَرِصَت على أن تتصرَّف كما لو أن شيئًا لم يحدث؛ رغم معرفتها بالحالة التي وَصَلَ إليها سمير. التزمت عدم فتح الموضوع، وانتظار ما سيقوله هو. أرادت اختباره، لمعرفة كيف سيتعامل مع ما جرى. فَهِمَ الأمر، فسأل نفسه عن السبب الذي يجعل الجميع يضعونه تحت اختبارات مُذِلّة وقاسية. بعد أربعة أشهر سيعرف

أنها كانت تريد اختباره لا لتعرف رِدَّة فعله عما جرى، بل لتعرف الطريقة التي عليها اتباعها للتعامل معه في المرحلة القادمة.

واصلت اصطِناع البحث عن شيء ما في الغرفة. ألقت عليه نظرة خاطفة، فوجدته مُنكسرًا. شَعَرَت حياله بقدر بالغ من الشَّفقة؛ بيد أنها كانت قد اعتزمت مواجهة افتقاده الدائم للفاعلية الجنسية والنقود، عبر المضي في مهنة أمها وأمه. التزمت الصمت، وهي تحُسّ نحوه بقدر أكبر من الازدراء. تجاهلته وتحرَّكت بعدم اكتراث، كما لو أن شيئًا لم يحدث، أو كما لو أن مسئولية ما حدث تقع على أمه فحسب! واصلت استراق النظر إليه، وهي تنتظر ما سيقول. رأته يتناوب التَّحْدِيقُ في السرير وكيس القات المفتوح أمامه. قالت لنفسها، بنفاد صبر:

– هذا الجِنِّي، ما له ساكت؟! ليش ما يتكلَّم في الموضوع؟! من صِدقه عامل لي فيها دراما وحزن، وكأنه شريف عفيف، مش ابن نادية؟!

مضت في تشاغلها المصطنع، وبعد أن تجاوزت الفترة المعقولة لذلك، أخرجت من دولاب الملابس فستانًا قصيرًا، وارتدته. وقفت أمام مرآتها، وراحت تضع الماكياج على وجهها. ألقى عليها نظرة متلصِّصة، فوَجَدَها ممتلئة بقدر كبير من الثقة. قال لنفسه:

– بنت الكلب، تتصرَّف وكأنها ما عملت شي! القحبة ساكتة، وتتصرَّف وكأنها شريفة ومحترمة، مش بنت القحبة صفية! تتصرَّف بثقة وكأنها شريفة عفيفة، مش قحبة بنت قحبة. بنت الكلب عاملة نفسها مش عارفة إن سُهى كلَّمتني!

بقلب جريح، واصل استراق النظر إليها. حرَّك رأسه ببطء إلى الأمام وإلى الخلف، وهمهم في ذاته:

– يا قحبة، ما فيش حاجة تبقى سِرّ في بيتنا. وأنا عارف ان إيمان قد قالت لك إني عرفت بكل شي!

ما كان استراقًا للنظر، أصبح تأمُّلًا مباشرًا لها. ركَّز نظره عليها. أخذ يتأمل ملامحها، ويتابع تصرُّفاتها، أملًا في العثور على ما يوحي بأنها نادمة على ما فعلت، أو ما يشير إلى أنها أُجْبِرَت على ممارسة الجنس مع الشخص الغريب دون رغبة منها. كان يريد تبرئتها من الجريمة؛ لكنه لم يجد في ملامحها شيئًا يساعده على ذلك. رآها تَتَزَيَّن بهدوء وثقة، دون أيّ شعور بأدنى تبكيت للضمير. تأكد أنها امرأة قاسية. قال، في سرِّه، أنها قاسية. فكَّر أنها تستمد تلك القسوة من جسدها المُغوِي وتوقُّدها الجنسي الجامح. لم يَرِد في ذهنه أن تلك القسوة قد تكون لها علاقة بحياة الحرمان والتعاسة التي عاشتها مع أمها.

استمرَّ يُحدِّق فيها بألم، ويُفَكِّر كيف أنها سمحت لشخص غريب أن يمارس معها الجنس؛ في غرفة نومه، على سريره! بعد دقائق، خَفَّت حِدَّة صدمته بها؛ إذ تأكد أنها يمكن أن تخونه أكثر من مرة، بعلم وترتيب من أمه أو بدون ذلك.

انتهت من تجميل نفسها، فرشَّت جانبي عنقها بأربع بخات من قارورة العطر الوحيدة رخيصة الثمن التي لديها. جلست على يمينه، وبدأت في "تَخْزِين القات". كانت قد جَهَّزَت شيشتها، مع الجمر والمُعَسِّل المفضَّل لديها: فراولة وردي.

فجأة تضاعفت لديه مشاعر الإذلال؛ إذ بدا له جمالها الفاتن كما لم يره من قبل. تَمَنَّى، الآن أكثر من أيّ وقت مضى، أن تكون له وحده. حاولت تجاهل تحديقه المُتركِّز عليها. وعندما كانت تلتقي عينيها بعينيه، كانت تبتسم له، ثم تشيح بنظرها؛ هروبًا من نظراته العِتابية الحادة.

باضطراب وصوت مُنهَك، باغتها بالسؤال:

– ليش عملتي كذا؟!

فَهِمَت المقصود بسؤاله، فأجابت سريعًا، بحزن متصنَّع:

– أمك السبب.

– كان المفروض تَرفُضِي.

– ما قدرت. أمك أَصرَّت، ودخَّلت زبونها بالقوة إلى الغرفة. من قبل شهر وأمك تَزِنّ فوق رأسي، وتعيِّرني أنك بلا عمل، وأنها تصرّف عليّ وعليك!

– كان المفروض تَرفُضِي وتكلِّميني!

– ما قدرت. وبعدين، أني ما بقدر أرفض أيّ شيء لأمك طول ما أني أعيش في بيتها. ضروري نخرج نستأجر لنا بيت لوحدنا، وبعدها ما حَدّ با يقدر يِجبرني على شيء، وبا أكون لك وحدك.

– صعب نخرج! أنتِ عارفة أنني ما أقدر أدفع إيجار شقَّة عشان نعيش فيها أنا وأنتِ وحدنا.

– خَلِّينا نخرج من هذا البيت، وبعدها ربنا بايعينك ويرزقك، وباتشتغل. الرزق على الله.

– الآن، صعب نخرج. أيش باشتغل؟! أصحاب الشهادات ما حصَّلوا يشتغلوا، وباجي أنا أحصِّل شُغل، وأنا ما معي حتى شهادة ثانوية؟! صعب، صعب..

– طول ما احنا هنا، با تجبرني أمك على الشغل معها، وأني ما بقدر أقول لها: لا. أنت تعرف أمك، وهي مُصِرَّة إني أشتغل معها. قالت لي ليش سلوى وإيمان يشتغلين معها، وأني لا. قالت ضروري أشتغل معها واشقِي على نفسي وعليك.

صَمَتَ، فأدركت أن لديه قابلية للتعايش مع وضعه الجديد. ذهبت إلى الحَمّام، وفي طريق العودة التقت شقيقته الوسطى في الصالة. سألتها إيمان، بهمس:

– كيف سمير الآن؟! عاده زعلان؟!

رفعت مريم حاجبيها، وهَزَّت رأسها إلى الأعلى والأسفل، بتلك الطريقة التي تعني كلمة "نعم". قَطَّبَت إيمان حاجبيها وزَمَّت شفتيها، بتلك الطريقة المُعبِّرة عن الشعور بخيبة الأمل. مالت نحو مريم، وعاودت الهمس لها، بنبرة:

– ضروري تِخَلِّيه ينسى اللي هو فيه. يعني، ضروري الليلة ترَيِّحيه.. اشتغليه نِيك لما تدوِّخي بعاره. النِيك بايخلِّيه ينسى ويسامح. شوفي، يا بنتي، إذا شُفتُه بكرة وقد رجع لطبيعته، فهذا يعني إنك شاطرة، وبا جيب لك مكافأة، أما إذا شُفتُه زعلان، فهذا يعني إنك فاشلة، وإنك أنتِ اللي تشتي لك نِيك.

تبادلتا ابتسامة مُتواطِئة مليئة بإيحاءات جنسية، وضغطت كلٌّ منهما يد الأخرى بحنان.

– ولا يهمك، ما لك إلاَّ أخَلِّيه ينسى نفسه.

قالت مريم ذلك، وحين همَّت بالعودة إلى الغرفة، قالت لها إيمان، بعد أن خبطت مؤخِّرتها:

– أني باشوف بكرة. إذ خَلّيتيه ينسى أطلبي مني اللي تشتي، وإلّا أني باشتغل عارك نِيك بدل أخي.

حدجتها مريم بنظرة مليئة بالثقة والغُنج، ثم مالت نحو أذنها، وهمست:

– يا بنتي والله إني بانِيكك أنتِ وأخوكِ.

– طيب، با نشوف بكرة.

رَدَّت إيمان بتحدٍّ وشرر الرغبة يتطاير من عينيها.

ببشاشة، دلفت مريم الغرفة، فوَجَدَت سمير ما يزال واجمًا تلفه هالة من الحزن والكآبة. ألقت عليه ابتسامة حنونة، وجلست جواره، متعمّدةً الاقتراب منه بشكل أكبر. أمسكت بيده، وراحت تحدِّثه عن مقدار حُبّها له. طلبت منه أن يبتسم، وينسى ما جرى. قال إنه لا يستطيع. اقتربت منه أكثر. ضمَّت يده إلى صدرها، وانهمكت تُقَبِّلها. انحنت عليه، وقَبَّلَت شفتيه، وأجزاء من وجهه وعنقه. مرَّرت شفتيها على شفتيه، وهي تترجاه أن ينسى ما جرى. قالت وقد ثبَّتت عينيها في عينيه:

– شوف يا روحي.. ما فيش أمامنا إلاَّ واحد من حَلّين؛ يا نخرج من هذا البيت، ونستأجر لنا بيت، وإلاَّ نتعامل بعقل مع الوضع اللي احنا فيه، لمَّا نقدر نخرج منه. غير كذا، با نقتل أنفسنا على الفاضِي. الآن احنا مش قادرين نغيِّر بالوضع شي، فلا تجلس تأكل نفسك على الفاضِي. أني ما أشتيك تتعب نفسك. خَلِّينا ننسى..

– تمام.

غمغم بصوت واهن.

قالت، وهي ترمقه بنظرة سيطرة:

– قول تمام من قلبك، وبوسني عشان أتأكد أنك نِسيت.

تطلَّع نحوها بنظرة خاضعة ونصف غاضبة، دون أن يقول شيئًا. أضافت، وعلى ملامحها قدر أكبر من الثقة وجبروت السيطرة:

– شوف، لو معك حَلّ قل لي، وأني با أعمل اللي تقوله. أني باعمل الي تشتيه أنت، ومُستعدِّة أعيش معك بأيّ مكان؛ لكن لا تِحَمِّلني مسئولية اللي حصل. قل لأمك تتركني في حالي، وأني با أبقى لك وحدك، وما حد با يلمس شعرة منِّي.

أيقن أن ما من خيار أمامه غير التَكَيُّف مع وضعه الجديد كزوج لعاهرة. لاحت ابتسامة منكسرة عليه. بلع ريقه، وهَزَّ رأسه، بتلك الطريقة التي يفعلها من يضطرّ الموافقة على أمر ما، خلافًا لرغبته وما يريد.

– قول تمام، وبوسني.

قالت، وقرَّبت شفتيها من شفتيه وهي مغمضة العينين.

– تمام.

قال ذلك بأسارير مُنفرِجة، ثم قَبَّلَ شفتيها. بادلته القبلة بأخرى خفيفة، حرصًا على القات في فميهما. تحسَّست، بيدها اليمنى، أجزاء من جسده، وحين وصلت إلى قضيبه، ووجدته مُنتصبًا، قادته إلى السرير. بعد دقائق، عادا إلى مكانيهما لمواصلة "التَخْزِينة"، وهي تقول غامزة:

– والله الشغل حلو مع القات، خاصة لمَّا يكون مُصالحة بعد زعل. وبعدين أنت اشتغلت تمام.. والله الزَّعل جاب نتيجة هاهاها!

تَبَسَّم بزهو، وهو يسمعها تشيد بفحولته. تنفَّس بشكل جيد، وغرق في حالة من الاسترخاء أنسته ما كان فيه من حزن. عاد إلى طبيعته، وبين وقت وآخر، كان يُمسِك يد مريم ويُقَبِّلها، وهو يؤكد مقدار ما يُكِنّهُ لها من حُبّ. قال، بنبرة صادقة ومرتجفة:

– لو سمحتِ يا مريم، ما تزعِّليني منك مرة ثانية. على الأقلَّ كوني.. على الأقلَّ كوني كلِّميني بأيّ شي تطلبه منك أمي.

– ولا يهمك يا روحي.. باكون أكلِّمك بكل شي.

نَسِيَ الزوج مُستَبَاح العِرض ما جرى، وتبادل العهود مع الزّوجة التي جعلته سهل الانتهاك. أقسم أنه لن يخونها أبدًا، وأنه لن يُخفِي عنها شيئًا. هي فعلت الأمر ذاته، لكنه فعله بصدق بالغ، كما لو أن الخيانة جاءت منه، لا

منها. واصلا جلستهما كزوجين مخلصين لبعضهما؛ وكأنهما لم يفرغا لتوِّهما من تسوية خلاف بسبب خيانة أحدهما للآخر.

قضيا وقتًا سعيدًا، نَسِيَا فيه ما حدث. تحدَّثا عن أشياء كثيرة. اِستَحوذت سُهى على الجزء الأكبر من حديثهما. باحتدام، قال سمير، وهو ينظر إلى مريم:

– ما قهرتني إلاَّ سُهى، لأنها كلَّمتني باللى جرى عشان تهينني بس! لو هي محترمة سهل؛ لكن قد هي قحبة من الآن، وبا تعمل اللى ما عملته أمها. لكن سهل، أنا باورّي لها، والأيام بيننا.

– لو تشوف اللي تعمله، رغم إن عادها صغيرة! هي مُصاحِبة لشباب، ولرِجَال متزوِّجين تروح معهم إلى شقق. وبعدين هي ما عادهيش بنت! ما عَادَهَاش بِكر! الله يعلم من اللي قَرَّحها. بس الصِّدق، أمك هي السبب؛ دَلَّعتها زيادة.

– يا مريم، مش معقول نحمِّل أمي مسئولية كل شي! سُهى تتحمَّل مسئولية نفسها، لأنها شرموطة زيادة عن اللُّزوم.

49

استيقظت مريم من نومها، في العاشرة صباحًا، وهي سعيدة، ومنشرحة الصدر. التقت إيمان في المطبخ، فهمست في أذنها، بنبرة لعوبة:

– أمس اشتغلت أخوكِ شُغل لمَّا دَوَّخت بعاره. لمَّا يقوم من النوم باتشوفي انه نسي كلام سُهى، وكل اللي حصل. وإذا ما نسي باشتغل عاره الليلة لمَّا أخَلِّيه ينسى نفسه. باخَلِّي عاره يفقد الذاكرة، مش بس ينسى كلام سُهى.

– أني باشوف بعدين، لمَّا يقوم من النوم. إذا خَلِّيتيه ينسى ما لكِ إلاَّ اللي تشتي.

تناولتا فطورهما على عجل، ثم انتقلتا إلى غرفة الجلوس، بحثًا عن خصوصية لثرثرتهما. تبادلتا الحديث الهامس والضحكات، كصديقتين حميمتين. بعد نصف ساعة، كانت إيمان قد عرفت كل ما حدث اليوم السابق بين شقيقها وزوجته، بما في ذلك تفاصيل الممارسة الجنسية التي قاما بهما والقات في فميهما، والثانية التي قاما بها قبل النوم. وحين انتهت مريم من رواية أدق التفاصيل، كانت إيمان في حالة إثارة جنسية بالغة. أدركتا مقدار الإثارة والمتعة التي يخلقها حديث الصديقات عن الجنس. مذاك، تعزَّزت صداقتهما بشكل أكبر، ثم بدأتا تحكيان لبعضهما تفاصيل ممارساتهما الجنسية مع طالبي المتعة. كان ذلك هو مدخل العِشق الذي عاشتاه، وتطور إلى وَلَه متبادل، وممارسات سحاقية ملتاعة، إثر انتقال إيمان للعيش في غرفة مريم، بعد هروب سمير.

في الحادية عشرة ظهرًا، استيقظ سمير، بمزاج رائق وروح جذلة. تمنَّى لو أن مريم كانت موجودة جواره كي يُقَبِّلها. سحب المنشفة، وقصد الحَمّام للاغتسال. عند انتهائه من ذلك، وَجَدَ فطورًا خفيفًا ينتظره في الصالة. تناول فطوره، وهو يتحدَّث، بعينين غير خفيضتين، مع زوجته وشقيقته الوسطى. لاحظت الأخيرة أن مزاجه قد تَغَيَّر فعلًا، وغضبه خَفَّ وتلاشى. أدركت مريم ما لاحظته إيمان، فحدجتها بنظرة مترعة بزهو المُنتصِر. جعلت رأسها يترنَّح بكبرياء، ورمت شقيقة زوجها بغمزة لعوبة، ثم نهضت وسارت نحو المطبخ. لحقتها إيمان، وهمست لها:

– يا بنتي والله إنك شاطرة! أيش عملتي له لمَّا خَلِّيتيه يِنسى كل شي بهذي السرعة؟!

أجابت مريم، بِغُنج:

– قلت لكِ اشتغلت عاره نِيك لمَّا دوَّخت به. المهم، خلاص بايقع لكِ ما وقع لأخوكِ.

قالت إيمان، وهي تنظر باشتِهاء نحو جسد مريم:

– والله إنك تِستحقي مكافأة؛ يقع لكِ فيها نِيك وشُغل أحسن من اللي وقع لسمير.

– يا بنتي، أنتِ مثل أخوكِ، ما تنفعي!

– لا تِقلقي؛ ما لك إلاَّ أشتغل عارك شُغل نظيف، أحسن من الشغل اللي اشتغلتي به سمير.

توقَّفتا عن الهمس المتبادل إذ سَمِعَتا صوت الأم تدخل باب الشقَّة، عائدة من المحال القريبة ومعها مُتطلَّبات إعداد وجبة الغداء. وضعت نادية ما كان في يدها، ثم صَوَّبت نظرة حنونة إلى ابنها، وجلست أمامه، على الفراش التقليدي المتواضع في الصالة. قالت له، بعاطفة أمومية نادرًا ما كانت تبديها:

– كيفك حبيبي سمير؟! شوف، أني خرجت أشتري حاجات الغداء، عشان أخَلِّيك تنام براحتك.

– كنتِ صحِّينا وأنا باروح. ما في داعي تتعبي وأنا موجود.

– يا ابني، أنت تعمل كل شي، وضروري نخفِّف عليك، ونخَلِّيك تِرتاح شوية.

أراد أن يشكرها؛ لكنها استطردت، وهي توزِّع ابتسامة غامزة عليه وعلى مريم:

– وبعدين أني شفتك سهرت أمس مع مريم، وعرفت أنك باتقوم الصباح تعبان، فقلت أخَلِّيك تِرتاح.. وما شاء الله، اليوم أنت تمام..

احمرَّ وجهه خجلًا، فيما ابتسمت مريم، ورَدَّت على حماتها بجرأة:

– المفروض يا عمة تجيبي لي مكافأة.

قالت إيمان بابتهاج، وهي تصوِّب نظرة ناعسة نحو مريم:

– قد اتَّفقت أني وأنتِ أن المكافأة حَقِّك عليّ أني.

تدخَّلت سلوى مخاطبة مريم ببراءة:

– بصراحة، أنتِ تستحقين مكافأة.

رَدَّت مريم، وهي تحدج إيمان بنظرة غامزة:

– خلاص، مكافأتي على إيمان.

قالت سلوى، بالجدِّية والبراءة ذاتيهما:

– أني أحكم يا مريم، مكافأتك خمسة آلاف ريال، تجيبها لك إيمان.

قالت إيمان، وهي تَرُدّ النظرة الغامزة لزوجة شقيقها.

– باجيب لها مكافأة أحسن من الخمسة آلاف.

أحسَّ سمير بسعادة بالغة وهو يتابع الحوار العائلي الوِدِّي. كانت سعادته أكبر لغياب سُهى، التي بقيت في الغرفة التي تنام فيها، كي تتجنَّب الالتقاء به.

قرَّر الذهاب إلى سوق القات، بعد أن أعطته أمه مصروفه اليومي، إضافة إلى المبلغ المُخصَّص لشراء قاتها. قبل أن يغادر، دخل غرفته، كي يرتدي قميصه النيلي القديم. لحقته مريم وهي تتمايل بسرور بالغ. ما إن أغلقت باب الغرفة حتى احتضنته بقوة، وقَبَّلت شفتيه. وكي تجعله يذوق ثمار عائدات عملها الجديد؛ دسَّت في جيبه خمسة آلاف ريال، وطلبت منه أن يشتري قاتًا جيدًا؛ لأنها تريد أن تقضي اليوم معه. غادر المنزل بمزاج رائق. تأكدت أمه من تبدُّل حاله، فنظرت إلى مريم وسلوى وإيمان، وقالت لهن بزهو:

– مش قلت لكن انه باينسى بسرعة؟! هو ابني وأني أعرفه أحسن منكن.

في الثانية بعد الظهر، تناولت الأُسرة غداءها، في صالة المنزل. انتهى سمير من تناول الغداء سريعًا. شرب كوب شاي، ثم دخل غرفته، وبدأ "يخزِّن". لحقته مريم، بعد أن انتهت من المساعدة في تنظيف المطبخ. كانت الساعة الثالثة عصرًا، عندما دخلت الغرفة ووجدته قد قطع شوطًا في "تَخْزِين القات". تناولت منشفتها، وتوجَّهت إلى الحَمّام لتغتسل. بعد عشر دقائق، كانت ترتدي ملابسها الداخلية، في الغرفة، وقطرات الماء تتساقط من شعرها. لَفَّت المنشفة، بشكل جيد، حول رأسها، ثم ارتدت بنطلونًا أبيض مع بلوزة بيضاء شفافة. جملَّت وجهها بالمكياج، قبل أن تبدأ في تجهيز الشِّيشة الخاصة بها. في الثالثة وأربعين دقيقة، جلست جوار زوجها، وشَرَعَت "تخزِّن" من كيس القات الذي وضعه بينه وبينها.

عاشا لحظات رومنسية جميلة، تمكَّنا فيها من قدح الشرر في رغبتهما الجنسية الخَدِرة، وتحويلها إلى التياع متأجِّج؛ عبر القُبَل والمداعبة المسترخية لمناطق الإثارة في جسديهما. لكن سرعان ما تبدَّدت تلك اللحظات النادرة في حياتهما.

كانا غارقين في هِيام كامل، وشهوة متَّقِدة، حين اقتحمت عليهما نادية الغرفة، في الرابعة والنصف، وأنهت الرومانسية التي كانا غارقين فيها. تطلَّعت إلى مريم بغبطة، ثم حوَّلت نظرها إلى سمير، وأبلغته، بنبرة حاسمة:

– مريم باتروح مشوار، وباترجع لك بعد ساعتين.

قالت ذلك، وغادرت الغرفة فورًا، دون أن تسمع ما سيقول ابنها، أو زوجته. تركت الباب مُشْرَعًا بعدها، تعبيرًا عن عَجَلَهَا في تنفيذ ما تريده.

التفتت مريم إلى سمير مدهوشة، وبتأفُّف مصطنع نهضت من مكانها، وشَرَعَت تُرتِّب هندامها استعدادًا للمغادرة، دون أن تنتظر موافقته على ذلك. أدرك أنها ستذهب لممارسة الجنس مع أحد طالبي المتعة. تسعَّر الغضب

في ذاته. أشاح بنظره عنها، وظَلّ يُحَدِّق في طرف السرير بصمت، فيما كانت هي ترتدي البالطو الأسود، الذي ترتديه اليمنيات عند مغادرة المنازل.

واصل الزوج المُستَبَاح عِرْضه التَّحْدِيق في طرف السرير. مرَّرَ يده اليمنى أمامه، بحثًا عن قارورة الماء، دون أن يُحدِّد مكانها بنظره. التقطها، وعَبّ كمية من الماء الموجود فيها. أعادها إلى مكانها، ثم التقطها وعَبّ كمية أكبر. لمح زوجته تقترب منه، فتحاشى النظر إليها. انحنت عليه وقَبَّلَته، وهي تقول:

– ما عليش يا قلبي! بارجع لك بسرعة. أمك هذي ما باتخَلِّي لنا حالنا!

لم يقل شيئًا. لم يلتفت إليها. فقط، واصل التَّحْدِيق في طرف السرير. وحين أَحسَّ بأنها أصبحت عند باب الغرفة، أدار نظره نحوها، بتثاقل جريح، فوجدها تودِّعه، ببشاشة زوجة في طريقها إلى التسوُّق، لا إلى سرير رجل آخر.

– باي يا روحي.

لوَّحت بيدها وهي تبتسم، ثم أغلقت الباب خَلفَها!

50

تفاجأ ناصر قاسم، بعد خمسة أيام من الإفراج عنه، باثنين من القيادات الشابة للحزب الدِّيني المتحالف مع الجنرال، يزورانه في غرفته، رفقة صديقه الاشتراكي طه نعمان.

قال طه، بنبرة حَرِصَ على أن يظهر فيها ناضجًا أكثر مما ينبغي:

– يا ناصر، نشتي نُسَوِّي المشكلة بينك وبين إخواننا. الأخ مُحَمَّد والأخ مصطفى أَصرَّا على زيارتك من أجل هذا الأمر، وفتح صفحة جديدة. أنت تعرف أننا حريصون على تحالفنا معهم، وأننا تجاهلنا، بدافع الحرص على

الثورة كثيرًا من التجاوزات والانتهاكات التي قام بها أصحابهم. تجاهلناها لأن أي خلافات فيما بيننا ستضرّ بالثورة وستصبّ في مصلحة النظام.

قبل أن يرُدّ ناصر، قال مصطفى، بنبرة القوي الحَلِيم الذي يُبدي نوعًا من التواضع للتعامل مع من يدرك أنهم أَضعف منه:

– الأخ ناصر يعرف أننا نُقدِّره تقدِيرًا كبيرًا، ويعرف ألا علاقة لنا فيما ما حدث له.

حَكّ المثقف المُتحمِّس عُنقه، وأغمض عينيه وفتحهما ثلاثًا وحَرَّك رقبته إلى اليسار واليمين، بشكل سريع ومتتابع، فيما تابع مصطفى حديثه:

– تم اعتقالك، أخي ناصر، وهذا الكلام بيننا، بسبب نقدك الحاد للفندم (يقصد الجنرال). وعندما أُبلِغنا باعتقالك، بذلنا جهودًا كبيرة لإطلاق سراحك، وتابعنا ذلك كثيرًا؛ لكن الإخوة في مكتب الفندم[9] كانوا يُنكِرون أنك مُعتقل لديهم. وبعدها اعترفوا لنا بأنك عندهم، وقالوا، وهذا الكلام بيننا، إنهم اعتقلوك لأنك شتمت الفندم.

– أنا ما شتمت أحدًا. وحتى لو شتمت، يعني..

– شتمت أو ما شتمت؛ المهم، أن شخصًا من مكتب الفندم قال لنا هذا الكلام، وقال لنا..

تدخَّل مُحَمّد، ذو الوجه العريض واللِّحْيَة غير مُكتمِلة النمو:

– أخي مصطفى، أعتقد أن هذه التفاصيل مش مهمة. إحنا جئنا نغلق صفحة الماضي، ونفتح صفحة جديدة. نشتي نعزز علاقة الشراكة والتعاون بيننا وبين جميع القوى الوطنية. وما يُهمنا تأكيده هنا هو أن حزبنا لا علاقة له

---

(9) فندم: لقب يُطلِقه الجنود في اليمن على قادتهم وضباطهم. كذلك، هو لقب يُطْلِقه كثير من اليمنيين على كل من يحمل رتبة عسكرية. وهو لفظة تركية الأصل.

باعتقال الأستاذ ناصر. أنتم تعرفون أن اللجنة الأمنية الخاصة بالساحة فيها أشخاص يعملون مع عدة أطراف. يعني، مش كل ما تقوم به هذه اللجنة مسئوليتنا، أو أننا نقف خلفه!

– أنا اعتُقلتُ من الساحة، والساحة أنتم مسئولون عن إدارتها، ومسئولون عن لجنتها الأمنية. ومش هذا بس؛ اللي اعتقلوني معروفين أنهم من ناشطي حزبكم، ويعملون لصالحكم.

ظهرت على مصطفى ومُحمّد ملامح من لم يكن يتوقّع أن يتم التعامل مع التواضع الذي أبدياه بهذا القدر من الصَّلَف. حاول مصطفى تمالك نفسه، والحفاظ على الحِلْم الذي أظهره. مَسَحَ خديه المُمتلئين بمنديل، ثم صوَّب نظرة حادة إلى ناصر، وقال له:

– الأخ مُحمَّد قال لك ألا علاقة لنا بمن اعتقلوك. يا أخي نشتي نغلق هذه القضية، ونفتح صفحة جديدة، وما لك إلاَّ ما يُرضِيك، وأيّ أخطاء سنعمل، إن شاء الله، على إصلاحها ونضمن عدم تكرارها، وهذا التزام قدَّمته قيادتنا لحلفائنا في أحزاب اللقاء المشترك وأنا أقدِّمه هنا لك وللأخ طه.

– أنا ما أشتي شي؛ كل اللي أشتيه هو إحالة الذين اعتقلوني وعذَّبوني إلى النيابة. وطبعا أسماؤهم معروفة. أنا سلَّمتها لطه، وهو سلَّمها لكم، وأعتقد أنكم تعرفون هؤلاء الأشخاص جيدًا!

رَدَّ مُحمَّد، بلكنة قاطعة:

– أخي ناصر، ما تطلبه صعب جدًا. إحنا الآن في ثورة، وأنت تعرف أيش معنى ثورة، يعني تجاوزات وانتهاكات أسوأ بكثير من التي تعرَّضت لها أنت.

– ليش صعب؟!

سأل ناصر بتعجب، ثم أضاف، بعد أن حَكّ عُنقه، وأغمض عينيه وفتحهما ثلاثًا وحَرَّك رقبته إلى اليسار واليمين، بشكل سريع ومتتابع:

– الثورات تقوم ضد التجاوزات والانتهاكات. وأنتم تعرفون أن ثورتنا قامت أساسا من أجل تطبيق واحترام القانون..

قال مُحَمّد، بتبرُّم:

– صحيح؛ لكن عاد إحنا في البداية، وفي ظروف استثنائية! وأنت داري، أخي ناصر.. أنت مثقف وسياسي..

سأل ناصر، بتعجُّب:

– طيب أيش المطلوب مني؟!

أجاب مصطفى، بتململ:

– ولا شي! بس ننسى الماضي ونفتح صفحة جديدة. أنت قل لنا أيش المطلوب منا من أجل تنتهي هذه المشكلة، ونحن سنُنَفِّذ كل ما تطلبه.

– أنا قلت لكم بطلبي البسيط، وقلتم إنه صعب ومش ممكن، والآن تقولوا إنكم ستُنَفِّذون ما أطلبه! يعني، تشتوا تنفذوا مطالبي اللي تشتوها أنتم، مش اللي أشتيها أنا! بصراحة، أنا مش فاهم أيش تشتوا بالضبط!

زَمَّ مصطفى شفتيه، ورَدَّ بنبرة مليئة بالثقة والرِّضا الكامل عن النَّفس:

– شوف يا أستاذ ناصر، وبصراحة.. قبل اعتقالك أنا كلَّمت طه؛ قلت له إن احنا مستعدُّين نوظِّفك في القناة الفضائية التابعة لأحد إخواننا. لكنك رفضت، صح يا طه ولا لا؟!

هزَّ طه رأسه مؤكدًا ذلك، فيما تابع مصطفى حديثه:

– احنا تكلَّمنا مع طه في هذا الأمر لأننا نقدِّرك، أخي ناصر، ونرى أنه من الظلم أن يبقى شخص مثلك بلا وظيفة. عمومًا، الفرصة باقية؛ سيتم، في الفترة المقبلة، وهذا الكلام بيننا، تسوية الأوضاع الوظيفية لكثير من المناضلين والسياسيين، وتوظيف عدد من المثقفين والناشطين. أنا، وبشكل شخصي

سأطرح اسمك ضمن الأسماء التي سنطالب بتوظيفها في الجهاز الإداري للدولة.

- أشكرك أخي مصطفى.. لكن يفترض بنا أن نعمل لتحقيق أهداف الثورة أولًا، يعني العمل على ترسيخ النظام والقانون، وأول ما يفترض بنا ترسيخه هو إخضاع الوظيفة الحكومية لمعايير الكفاءة والجدارة، لا استخدامها لشراء الولاءات؛ كما كان يفعل الرئيس السابق. عمومًا، أنا مستعد أبقى طول حياتي بدون وظيفة ولا أتوظف بهذه الطريقة. أُقَدِّر زيارتكم لي، وكل ما أطلبه هو إحالة من اعتقلوني وعذَّبوني إلى القضاء.

لم يستطع مصطفى الاستمرار في لعب دور الشخص الحَلِيم، فقال لناصر، بنفاد صبر:

- يا ناصر، قال لك الأخ مُحَمَّد إن ما تطلبه أمر صعب وغير ممكن. يعني لا تتعب نفسك، وأحسن لك تنسى.

- لن أتعب نفسي؛ لكني لن أنسى؛ سأنتظر لمَّا يصبح الأمر ممكنًا.

افترَّت عن مصطفى ابتسامة ساخرة، وقال للمثقف المُتصلِّب، وهو ينهض من مكانه استعدادًا للمغادرة:

- ستنتظر كثيرًا.

بغضب، رَدَّ ناصر:

- بَطِّلوا هذا الغرور حَقَّكم! أنتم طِلعتوا فاسدين أكثر من النظام السابق! خلاص، كَرْتَكُم حرق، وأصبحتم مكشوفين للجميع، وقريبًا ستنتهي هيمنتكم.

قبل أن يغادر مُحَمَّد الغرفة، التفت إلى ناصر، وقال له:

- انتظر كمَّا تشتي. المهم، إذا وَقَعَ فيك شي لا تقل إن لنا دخل به. نحن نقول لك من الآن إن احنا ما لنا علاقة بأيّ شيء يحصل لك.

حاول طه التدخُّل لامتصاص التوتُّر؛ لكن التوتُّر كان قد بلغ مرحلة يصعب فيها امتصاصه. وإلى هذا فلم يستطع الحديث بسبب ناصر الذي صرخ يسأل مُحَّد، بوجه محتقن ومُتَغَضِّن:

- يعني هذا تهديد؟!

- لا، مش تهديد!

- نبرة كلامك تهديدية واضحة يا مُحَّد!

تدخَّل مصطفى مزمجرًا:

- الأخ مُحَّد قال لك إنه مش تهديد، وأنت أخبر، اعتبره تهديد أو كيفما تشتي!

بمجرَّد ما انتهى مصطفى من قول ذلك، غادر ورفيقه الغرفة، دون أن يسمعا ما سيقوله ناصر، الذي خرج بعدهما، وصرخ في غضب:

- طُزَّ فيكم وفي تهديدكم! اعملوا اللي تشتوا!

بوغت طه بتسارع الخلاف بين ضيفيه وصديقه، وانتهائه بذلك التهديد. غادر خلف مُحَّد ومصطفى، وعندما التحق بهما احتجَّ، بنبرة عتابية، على التهديد الذي صدر منهما. بعد دقائق، عاد إلى غرفة ناصر والارتباك والخجل باديين عليه. حاول تهدئة صديقه المُتصلِّب، واعتذر له مرارًا عما جرى؛ إذ اعتبر نفسه مسئولًا عن التهديد، لأن مصطفى ومُحَّد حضرا معه.

التزم ناصر غرفته، وكَفّ عن الذهاب إلى ساحة الثورة. صحيح أنه أكد لطه عدم اكتراثه بالتهديد؛ إلاَّ أنه تعامل معه بجدية كاملة. شاع الخبر، فحظي المثقف المُتصلِّب بتضامن معقول. بدأ يستقبل عددًا من أصدقائه ومعارفه، وغيرهم من المتضامنين. تحوَّلت غُرفته إلى مقيل يومي.

منتصف الأسبوع التالي، فوجئ ناصر بصديقه القديم "أبو بكر مُصلِح" يدخل غُرفته، رفقة ثلاثة من القيادات الشابة لجماعة الحوثي. دَخَلَ

مُصلِح الغرفة بوجه مُشَبَّع بالزهو والخيلاء. وقف ناصر للترحيب بضيوفه. مَدَّ يده للمصافحة؛ بيد أن صديقه القديم فتح ذراعيه وعانقه بحرارة من يريد التأكيد على عمق الصداقة التي تجمعه به. عَرَّفه باغتباط بالغ بالحوثيين الثلاثة الذين كانوا يقفون وسط الغرفة في انتظار انتهاء العناق الحار بين الصديقين اللذين التقيا بعد طول انقطاع.

أعرب الحوثيون الثلاثة عن تضامنهم، وجماعتهم، مع ناصر، وإدانتهم لجريمتي اعتقاله وتعذيبه. كان على المثقف الخارج من المعتقل أن يلعب دور الضحية. وكان على زواره أن يتحدَّثوا معه عن سيطرة الجنرال، وحلفائه، على الثورة، والتجاوزات البوليسية التي مارسوها ضد الثوار.

تقمَّص الحوثيون الثلاثة دور الضحية، فتناوبوا في شرح "مظلومية" جماعتهم، وما نالها وناشطيها من اعتداءات تلقوها من جنود الجنرال، وناشطو الحزب الدِّيني المتحالف معه. استفاضوا في الشرح، ثم شدَّدوا على ضرورة توحيد جهود القوى الثورية من أجل "إصلاح مسار الثورة". تَحَمَّسَ ناصر للأمر، واعتزم تركيز جهده للعمل من أجل ذلك، لاسيما وجماعة الحوثي كانت ما تزال تتخفَّى خلف شعارات "المظلومية". مذاك، تَوَطَّدت علاقة الحوثيين بالمثقف المُتحمِّس. ودون تخطيط أو قصد، صارت غرفته أحد مقرات العمل المناهض لهيمنة الجنرال والحزب الدِّيني المتحالف معه.

51

في التاسعة مساءً، عادت مريم وهي متعبة، ولديها قات من النوعية الممتازة. كان سمير قد تناول العشاء، وعاد "يخزِّن" مرة أخرى، كأيّ عاطل عن العمل. كالعادة، تَوَحَّد فى صمته، وتماهي مع حالة "الإذلال المُتَعَمَّد"، التي كان قد توصَّل إلى أنها أنسب توصيف لوضعه.

كانت مريم قد تناولت العشاء برفقة الرَّجُل الذي أمتعته بجسدها. ولأن رغبتها الجنسية كانت قد أُشبِعت، فقد قرَّرت قضاء مساء هادئ، بعيدًا عن اصطناع الرومانسية لإرضاء زوج غاضب. لم تدخل الحَمّام كي تغتسل لإِزالة آثار الرَّجُل الغريب عن جسدها. أعادت تجهيز شِيشَتها، ثم هيأت مكانًا لها قبالة زوجها، بدلًا عن مكانها السابق جواره. تابعها وهي تفعل ذلك، فتضاعف شعوره بالألم. كان يرمُقها بنظرة الحزن التي نام بها قبل يومين.

بوهن العاجز، غَرِقَ الزّوج المُستَبَاح العِرْض في تأمُّل جسد زوجته، لاسيما ما بين فخذيها؛ محاولًا تتبع آثار الرَّجُل الغريب. شاهد بقايا بقعة رطبة على بنطلونها، ما بين فخذيها بالضبط. أَحسَّ بطعنة تخترق قلبه، وتصاعد إحساسه بالإهانة والقهر. دون أن ينظر أمامه، تناول قنينة الماء، ورشف منها أكثر من رشفة. أراد العودة للتَّحْدِيق في طرف السرير؛ غير أنه فَضَّلَ مواصلة تأمُّل جسد زوجته وملابسها؛ بحثًا عن آثار أخرى للرَّجُل الذي انتهك عِرْضَه. كانت روحه المنهكة تدفعه نحو ملاحقة ما يُصَعِّد ألمها، فيما هو يحاول تتبُّع ندوب شرفه المهدور، وحساب مقدار الانتهاك الذي تعرَّض له.

حاولت أن تبدو حزينة ومُنكَسِرة. قالت، وهي تنظر إليه:

– ما عليش يا روحي، تأخرت عليك لأني ما قدرت أرجع بدري. أمك هذي ما باتخلِّي لنا حالنا! قلت لك نخرج من هذا البيت، وأنت قلت لا!

أدرك أنها تريد تحميله وأمه مسئولية ما جرى، رغم أنها لم تُبدِ أي رفض أو ممانعة لأمر ذهابها إلى الرَّجُل الغريب. حدجها بنظرة احتقار، ثم قال في نفسه:

– أنيك عارِكِ يا قحبة! تشتي تُرجِّمِي بكل شي فوق أمي، وأنتِ حتى ما قُلْتِ لا!

رَكّزت نظرها عليه، فأدركت حالة الاحتدام التي هو فيها. مَجَّت نفسًا عميقًا من شِيشَتها، ثم نفثت الدُّخان وهي تنظر إليه شزرًا، وتقول في نفسها:

– يلعن عارك! من صدقك عامل لي فيها شرف، ودراما حزينة، وتشتيني أجلس أصالحك كل يوم؟! خلاص بَطِّل حَقَّك هذي الزَرَّة[10] الفاضية، وضروري تتعوّد على شغلي. أني ما يمكن أقبل إهانات أمك، أو أجلس أنتظر المصروف منها.

تابعت تقطيف أغصان القات، وهي تنتظر ما سيقول. انتبهت إلى أن عليها أن تُعطِيه نصف كمية القات التي لديها، وجزءًا من المبلغ المالي الذي عادت به. بهدوء، وضعت جزءًا من القات في الكيس الذي أمامه، وسبعة آلاف ريال على التَّسرِيحة، حيث كانت تُدرِك أنه يراها. ألقى نظرة على القات، وعندما وَجَدَهُ من النوعية الممتازة شَرَعَ في تناوله، بعد أن نحَّى جانبًا القات الذي كان لديه. أشرقت ابتسامة في داخلها؛ إذ أدركت ألا خيار أمامه غير التَّكَيُّف مع وضعه الجديد. سحبت نفسًا عميقًا من شِيشَتها، ثم نَفَثَت الدُّخان إلى أعلى، وهي تنظر إلى سقف الغرفة.

انهمك في تناول القات، وراح يُفكِّر في الرَّجُل الغريب الذي مارس الجنس مع مريم. تعاظم شعوره بالإهانة والإذلال؛ إذ تَنَبَّه إلى أن من غير اللائق أن يتناول قاتًا جلبته زوجته من رَجُل عادت لتوها من مضاجعته. لكنه صوت داخلي، يُذَكِّره بأنه "شخص عاقل وكبير". لم يكن لديه غير التعايش مع واقعه الجديد، كزوج لعاهرة. الحياة على هامش الدعارة، تجعل المرء يُذعن لكل ما هو مُهِين وغير سَوِيّ، وتُجَرِّده حتى من القدرة على اتخاذ أبسط رَدَّة فعل.

([10]) تعبير شعبي دارج يُعَبِّر عن التجهُّم الزائد، أو الجدية المبالغ فيها.

أراد أن يسألها عن هوية الرَّجُل الغريب، الذي عادت من عنده، وكيف قضت ساعاتها معه، وما الذي فعله بها. ترَدَّد. فضَّل مواصلة الصمت، والتَّحْدِيق في طرف السرير. بعد ربع ساعة، انتبه إلى أنه مازال عالقًا في ترَدُّده الوَجِل، ونزيفه الداخلِيّ المتعاظم. داهمه فضول جارف لمعرفة تفاصيل التجربة الطَّرِيّة لزوجته في طريق الدعارة.

كان قد بدأ بالفعل التَّكَيُّف مع الوضع. كانت تعرف أن عليه التَّكَيُّف مع الوضع.

52

بينما مريم منهمكة في تدخين الشِّيشة، وتقلِيب موبايلها، فوجئت بسمير يسألها:

– أيش عملتي؟!

أربكها السؤال؛ لأنه طرحه بطريقة لم تعرف كُنْهَهَا؛ بطريقة من يسأل زوجته العائدة لتوها من التسوُّق، لا من حضن رَجُل غريب. بملامح محايدة، رَدَّت، وهي تتجنَّب النظر إليه:

– ولا شي!

ابتسم ابتسامة منشرحة، كما لو أنه يؤكد عزمه التَّكَيُّف مع الوضع. وسَّع من حجم ابتسامته، وقال وهو يحيط زوجته بنظرة حنونة:

– بجدّ، أيش عملتي؟ عادي، قولي لي أيش جرى.

– ولا شي... خَزَّنا بس.

– مش معقول! ما عمل معك حاجة؟!

– مسك يدي، وطلب مني أقطِّف له القات.

– بس؟!

– ومسك فخذي.

– بس؟! (سأل بابتسامة ودودة وبنبرة مُلَطَّفة، محاولًا تطمينها كي تحكيِ له التفاصيل).

أجابت، بتبرُّم متصنَّع:

– أوووه.. قدك عارف أيش اللي حصل.. ليش عادك تسأل؟! أنا ما كنت موافقة؛ لكن أمك أصرَّت، وأنا ما قدرت أقول لها لا. أمك حتى ما استحت على نفسها.. أجت خرَّجتني من جمبك (تقصد من جوارك)، وخلَّتني أروح لزبونها! قد قلت لك إنها من شهر تَزِنّ فوق رأسي، وتَعَيِّرني بأنك ما تشتغل. وقلت لك نخرج من هذا البيت، وأنت قلت ما تقدر!

صَمَتَ. لكنه أَحسَّ بإثارة بالغة، ولِذَّة حقيقية، وهو يستدرج زوجته كي تحكي له تفاصيل ممارستها الجنسية مع رَجُل آخر. كان قد وَصَلَ إلى الحَدَّ الأقصى للمَذَلَّة؛ الحَدَّ الذي إذا "تجاوزه الإنسان غَرِقَ في لذَّة خارقة"، كما قال هيبوليت في "أبله" دوستويفسكي. عندما يعيش المرء أقسى صنوف الإذلال، ويتجرَّع مرارة الشعور الدائم بالعار والخزي، يُصاب بنكوص أخلاقي يُوَلِّد لديه مقاومة سلبية تجعله يوجِّه طاقته نحو الاستمتاع بعمليات سحقه وإذلاله. إن المرء يجد لِذَّة مغوية في مَذَلَّاته. تلك هي "القوة الضخمة للمَذَلَّة"، التي تجعل الإنسان المُذَلَّ يتلذَّذ بمهاناته. وهو خاضع لتلك القوة، اعتزم سمير المضي في استدراج مريم، بحثًا عن لِذَّة أكبر. نظر إليها، وقال بلهجة مُحِبّة وأليفة:

– أنا عارف ان أمي هي السبب، وأنا سألتك لأني أشتي نتعامل مع بعضنا بصراحة وصدق. أنا وأنتِ مش قابلين بوضعنا هذا، وضروري نخرج منه، عشان كذا ضروري نكون نتكلَّم مع بعضنا بكل صراحة. بصراحتنا مع بعض

نحمي حُبَّنا وزواجنا. ما فيش أمامنا إلاَّ هذه الطريقة. إذا أنا ما تفهَّمت الوضع باخسرك، وإذا أنتِ ما تكلَّمتي معي بصراحة وصدق باجلس أَشُكّ وأوسوس، وباتخسريني! هيا، قولي لي أيش حصل، وبالتفصيل!

تأمَّلته بذهول واندهاش، كما لو أنها تسأل إن كان جادًا فيما قال.

وإذ رأى الذهول مرتسمًا على ملامحها، أكد:

– والله إني أتكلّم جَدّ.. أشتي نكون أنا وأنتِ صريحين مع بعض، صريحين وصادقين. قولي لي بصراحة، أيش جرى، وأنا أقسم بالله ما بازعل منك أبدًا، لأني عارف ان أمي هي السبب. الحياة علَّمتني كيف أكون عاقلًا وكبيرًا. هيا، قولي لي أيش حصل، وبالتفصيل!

واصلت النظر إليه بتعجُّب واندهاش أكبر، مرفقة ذلك بابتسامة مُتشكِّكة ومحتارة. رَدَّ بابتسامة منشرحة وفسيحة، أطلقها في وجهه كرسالة حُسن نية.

شَعَرَ أنه قادر على تطمِينها. أيقنت أنه يُريد بالفعل التَّكَيُّف مع الوضع.

ألحَّ عليها، وهو يُبدِي قدرًا من الجدِّية والاسترخاء:

– يالله.. لا تستحي وقولي لي، وبالتفصيل، أيش اللى جرى.

سألت، بتشكُّك وارتياب:

– من صدق تشتي أقول لك أيش جرى؟!

أجاب، بجدِّية كاملة:

– أيوة! قلت لكِ والله ما أزعل.. أنا من العصر وأنا أفكِّر فيكِ، وأفَكِّر كيف أحمي حُبَّنا وزواجنا، وتوصَّلت إلى أن الخطوة الأولى تكون في تعاملنا مع بعض بصراحة وصدق. كلامك معي بايخَلِّيني أتأكد أنك تحبيني بالفعل.

قالت، بنبرة خجول:

- مش عارفة أيش أقول لك.. لكن قدك عارف أيش حصل. أنت عارف لمَّا يَخْتَلِي رَجُل بمرة (امرأة) أيش يعمل معها..

- أيوة، أنا عارف، بس أشتيك تقولي لي أنتِ. ضروري نتعامل مع بعضنا بصراحة. أشتي نكون، أنا وأنتِ أصدقاء، نفضفض لبعضنا بكل صراحة وصدق. اتَكَلَّمي عادي.. اعتبريني صديقكِ، مش زوجكِ.

- مش عارفة أيش أقول لك.. والله خجلانة!

- لا تَستَحِي! الأمر عادي!

- ما أشتيك تِزعل. أكيد باترجع تِزعل!

- والله ما أزعل! أنتِ عارفة أننا عاقل، ومُخِّي كبير. اعتبريني صديقكِ، واتكلّمي معي بصدق وصراحة. أشتي علاقتي بكِ تكون علاقة صراحة وحُبّ وثقة.

- أنت عارف كم أحِبَّك، وتعرف أني أُجبِرت على هذا العمل.

- أنا متأكد من حُبِّكِ لي، وعارف إن أمي هي السبب.. اتَكَلَّمي ولا تستحي، ما بازعل منك أبدًا.

تنهَّدت بألم، وأضفت على ملامحها مشاعر حزن كاذبة، ثم قالت، وهي تُحني رأسها:

- خَزَّنا، وكان يمسك يدي، وفخذي.. وبعدين.. آاااا.. قدك داري.. بالقوة تحمَّلت الأمر (رفعت نظرها نحوه مُصطنِعةً نوعًا من الخجل والتقزُّز مما جرى).

- أيوة؟! كَمّلِي.

- حاول يبوسني في فمي، بس كنت أهرب بفمي، وما رضيت أخلّيه يبوسني.. بعدين باس فمي بالقوة؛ لكن أني ما رضيت أبوسه. بعدين.. والله مُستَحِية..!

– عادي اتَكَلَّمي.

– وبعدين.. آااا.. خلع ثيابي، وعمل معي قُدَّام، ولمَّا كمَّل رجع يُخَزِّن، وبالقوة خلَّاني أَخَزِّن جَنْبُه.. بعد ساعة، كان يشتي يعمل معي من وَرَا، وأني ما رضيت. أَصرَّ وقال بايدفع لي مئتين دولار زيادة؛ وما رضيت.

لاحت عليه ابتسامة عريضة، وتصاعدت فيه إثارة جنسية لم يعرف مثلها من قبل. شَعَرَ بلِذَّة حقيقية، ومتعة كبيرة. أحَسَّ قضيبه صلبًا بين فخذيه. طلب منها، بإلحاح، أن تواصل حدِيثها.

– آااا.. قام يعمل معي، مرة ثانية، قُدَّام. أتعبني ابن الكلب، لأن الموضوع حَقُّه كبير، ويتأخر في القذف.

قالت ذلك وهي تبتسم غامزة لزوجها، وتُخرِج له طرف لسانها، كما لو أنها تغيظه.

– يعني تشتي تقولي إن حَقُّه أكبر من حَقِّي؟! (سأل وهو يَشُدّ حاجبيه إلى الأعلى، ويضفي على وجهه ملامح تحدٍّ باسمة).

– بصراحة، أيوة (أخرجت جزءًا أكبر من لسانها، وغمزت غمزة أطول).

– المهم هو الفَنّ في الشغل، مش كُبر الموضوع.

حَرَّكَت رأسها إلى الأعلى والأسفل، كإعلان موافقة على ما قال؛ رغم معرفتها بأن مشكلته ليست في صُغر قضيبه فقط، بل أيضًا في سرعة القذف، وعدم إجادته للحَدّ الأدنى من فَنّ الممارسة الجنسية. حاولت تمحيص الأمر، فلم تتذكَّر أنه أمتعها على السرير، منذ تزوَّجها.

ارتفع منسوب الإِثارة لديه. أخبرها أنه يُحبّها، وأنه سعيد بصراحتها معه، لأنه بذلك تأكد من حُبّها له.

استقبلت كلامه ببشاشة طَلِقة؛ إذ أدركت أنه يمضي أبعد من التَكَيُّف مع الوضع. مذاك، فهمت الجانب المهم في شخصيته، وتعلمت كَيفِيَّة التلاعب به.

– من اللي رُحتِ عنده اليوم؟

سألها بنبرة ودود ومسترخية.

– ما أعرفه.. عادي عرفته الأسبوع الماضي، لمَّا أمك أَصرَّت انه يجي يعمل معي هنا.. في غرفتنا.

– ها، يعني هو اللي جاء إلى هنا؟!

– أيوه.

أجابت بخجل متصنَّع.

– هذا يعني أنه أُعجِب بك. لو كنتِ ما أعجبتيه ما كان بايطلبك مرة ثانية.

قال بنبرة العارف.

– أمك قالت إنه أُعجِب بي، وكمان هو قال لي هذا الكلام. قال إنه جلس يتذكَّرني ويُفَكِّر بي (احمر خدِّاها خجلًا وهي تقول ذلك). وقال إنه وافق على الشرط اللي اشترطته عليه أمك. قال إنه وافق يدفع ستين ألف ريال حق ذهابي إليه اليوم، وجاب لي هذا المبلغ، ولمَّا رجعت جبته لأمك وهي جابت لي ثلاثين ألفًا بس!

"صَمْت"

تبادلا أحاديث مُتقطِّعة، وحين اقتربت الساعة من الواحدة بعد منتصف الليل تخلَّصا من القات، وجهزا نفسيهما للنوم. رمت القات من فمها، واستخدمت فرشاة ومعجون أسنان؛ ولم تغتسل من آثار الرَّجُل الغريب. أما سمير فكالعادة، لم يستخدم الفرشاة والمعجون لتنظيف فمه.

استلقت على السرير، بعد أن ارتدت "تِرينج" رياضيًا وفانيلة طويلة الكم. مال سمير إليها، وقبل أن يحتضنها انتفضت تقول له، بتعابير صارمة وجادة:

– مش اتَّفقنا نكون صريحين مع بعض؟!

– أيوه!

رَدَّ باندهاش.

– طيب، والله اني تعبانة ومُعَضِّلَة! ابن الكلب أتعبني، اشتغلني شُغل.. بكرة، يا روحي، باتجهَّز لك، وباكون معك اليوم بطوله، وأنت اعمل اللى تشتي. الآن ارقد وبكرة كُلِّي لك، اليوم كله.

أفلتت منه ابتسامة بلهاء، وتلعثم مرتبكًا لا يدري ما يقول. وسّع من حجم ابتسامته البلهاء، وطبع على جبهة مريم قُبْلَة طويلة. تأكدت أنه ذهب أبعد من التَّكَيُّف مع الوضع. اِغْتَبَطَت، وقَبَّلَت شفتيه. أدارت وجهها إلى الناحية الأخرى، وبعد دقائق غطَّت في نوم عميق، بينما بَقِيَ هو مثارًا، وقضيبه منتصبًا. جافاه النوم. انهمك في ممارسة العادة السِرّية، وهو يتذكَّر التفاصيل التي حكتها له عن ممارستها الجنسية مع الرَّجُل الغريب. قرَّب منه مناديل ورقية، وواصل مُداعبة قضيبه، وهو غارق في لِذَّة خارقة. قذف. أَحسَّ براحة، ثم نام.

53

ينحصر حضور جماعة الحوثي في مناطق ذات لون طائفي واحد؛ لهذا حرصت على إيجاد أتباع لها في المناطق ذات الهوية الطائفية النقيضة. لكنها لم تجد سبيلًا للحضور في هذه المناطق إلاَّ عبر شخصيات هزيلة ذات توجُّهات انتهازية واضحة ومعروفة. ضاعف من مأزق الجماعة أنها عملت، بوتيرة عالية، على إيقاظ الطائفية في البلاد. ضمن ذلك، استنهضت ما تُمَثِّله من هوية

طائفية ومناطقية لدى أشخاص كانوا قد أصبحوا جزءًا من نسيج مجتمعاتهم المحلِّية ذات الهوية النقيضة. يُجسِّد أبوبكر مُصلِح أبرز مثال على ذلك.

قبل أكثر من سبعين عامًا، رَحَلَ جَدّ أبو بكر مُصلِح من مجتمعه القبلي المقاتل في شمال الشمال، إلى المجتمع الزراعي المسالم في جنوب البلاد. ترك قبيلته، وغادر إلى مدينة تعز، التي وصلها باعتباره أحد جنود الإمام يحيى حميد الدين. كان برفقة عدد من مسلِّحي القبائل المجندين مع "الإمام" المستَبِد والظالم. طاب لمُصلِح الجَدّ العيش في تعز، فأنزل زوجته، وعاشا معا هناك، مقطوعي الصِّلة عن قريتهما وقبيلتهما. أنجبا خمسة أبناء تشرَّبوا هوية المدينة التي عاشوا فيها، وتطبَّعوا بطبائع أهلها. قبل ثلاثين عامًا، جاء مُصلِح الحفيد من صُلب أحد هؤلاء الأبناء.

وَلِدَ أبوبكر مُصلِح في تعز، وعاش حياته فيها، باعتباره أحد أبنائها. وفي أشد لحظات التَّبخِيس المناطقي بتعز وأهلها، كان يُعرِّف نفسه بها. فيها أنهى دراسة الثانوية العامة، ثم اتَّجه إلى صنعاء، حيث التحق بكلية التجارة لدراسة المحاسبة. خلال دراسته الجامعية، نَشِطَ في صفوف الحزب الاشتراكي، وتعرَّف على ناصر قاسم، وارتبط معه بصداقة عادية.

عام 2004، بدأ تمرُّد جماعة الحوثي على السلطة المركزية في صنعاء. تفجَّرت، بذلك، ست حروب صارت تُعرف باسم "حروب صعدة"؛ آخرها انتهت عام 2010. خلال تلك الحروب، شَعَرَ مُصلِح الحفيد، بنوع من التضامن مع جماعة الحوثي. ارتكز موقفه ذاك على توجُّهه اليساري، وهويته كأحد أبناء تعز. بيد أن اجتياح مسلَّحي الجماعة للعاصمة صنعاء، عام 2014، أعاد فرز المجتمع مناطقيًا وطائفيًا. ولئن أدى ذلك إلى انتهاء علاقة ناصر قاسم بالجماعة، فقد دَشَّنَ انتماء أبو بكر مُصلِح إليها.

بسقوط العاصمة، انتهت السياسة، وبدأ زمن الحرب والمليشيات.

التحق كثيرون بجماعة الحوثي؛ لأنها الطرف "المُنتَصِر" الذي سيطر على مركز السلطة. تسابق نحوها كثير من الانتهازيين، بعد أن كان أتباعها المخلصون يتبرءون منها، تجنُّبًا للاعتقالات والملاحقات. مال كثيرون إلى "المُنتَصِر" الجديد، بحثًا عن غنيمة ومصلحة، أو طلبًا لدور ومكانة، أو دفعًا لمكروه وشر. تسابق هؤلاء مدفوعين بثقافة عامة كرَّست التماهي مع السلطة، ونمَّت الإذعان لقوة الغلبة. قِلَّة فقط التحقوا بجماعة الحوثي وتحوَّلوا إلى عقائديين متشدِّدين فيها. كان أبوبكر مُصلِح من هؤلاء القِلَّة.

بدأ مسيرته مع الجماعة عبر نافذة صغيرة سرعان ما تحوَّلت إلى غواية. في البداية، أُعجِبَ بصمود الجماعة خلال الحروب الست، ثم بتمكنها من هزيمة مراكز القوى العسكرية والدِّينية والقبليّة التقليدية على رأسها الجنرال. لم يعد أحد يدري كيف انتقل مُصلِح الحفيد من حالة الإعجاب إلى غواية الإيمان بالجماعة ومشروعها. كل ما هو معروف أن ذلك بدأ بعد ثورة 2011، ثم ترسَّخ بعد اجتياح العاصمة. تفجَّرت الثورة وهو يساريًا منفتحًا، ثم انتهت وهو حوثيًا مُتعصبًا. ليست المُشكلة هنا، بل في مكان آخر.

كان الشاب القصير ذو الجسد الممتلئ معروفًا للجميع باسم أبو بكر مُصلِح. كان الجميع يعرف أنه من تعز. هو كان يعلن ذلك باعتزاز. لكنه اختفى فجأة، وبعد شهرين ظهر وهو بهوية جديدة: أبو بكر الخولاني. لقد عاد إلى الجذور بحثًا عن هويته الغابرة، فاكتشف أنه لا ينتمي إلى تعز، إنما إلى منطقة وقبيلة خولان، الواقعة في شمال الشمال. لا يُعرف على وجه الدقة ما إذا كان انتماؤه لجماعة الحوثي جعله يُفتِّش عن هويته تلك، أم العكس. لكن المؤكد أنه فعل ذلك بعد ارتباطه بالجماعة. على أن المهم هو أن هويته الجديدة تتطابق مع الهوية المناطقية والطائفية للحوثيين.

54

مَدَّت مريم جسدها على جسد سمير، وأمطرته بموجة من القُبَلِ، مُجبِرّة إياه على الاستيقاظ، في العاشرة صباحًا. شاهدته يفتح عينيه فأخبرته أنها تُحِبُّه. أبلَغته أن فطوره جاهزًا، وأن عليه أن يغتسل كي يذهب لشراء مستلزمات إعداد وجبة الغداء، وقاتًا جيدًا؛ لأنها تريد أن تقضي اليوم معه. كانت تشعر بتأنيب ضمير تجاهه، فقرَّرت الوفاء بما وعدته البارحة: أن تكون له طول هذا اليوم.

بعد الغداء، ارتدت ملابس أنيقة، وجلست معه في غرفة نومهما، حيث شَرَعَا في "تَخْزِين القات". هَيْمَن الصمت على اللحظات الأولى للجلسة. اقتربت منه، وبدأت تُقطِّف له أغصان القات، وتضعها في فمه. لم يكن لديها ما تقوله، فسألته، وقد شاهدت فتوره في التعامل معها، عما إذا كان مازال غاضبًا منها.

– أكيد أنا زعلان.. طبيعي إني أزعل وأغار عليكِ، لأني أحِبّكِ؛ لكن أنا مرتاح لتعاملنا مع بعض بصراحة.

– بس إحنا اتَّفقنا ننسى الموضوع، واني قلت لك إن أمك هي السبب. وبعدين، هذا مجرَّد شُغل، أما قلبي ما فيش فيه إلاَّ أنت، يا عمري. إذا أنت حصَّلت عمل، وقدرنا نخرج نعيش لوحدنا في بيت مستقل، أني أكيد بابَطِّل الشغل مع أمك، وباكون لك وحدك. أني ما أشتيك تزعل أو تأخذ بخاطرك مني.

– أنا مش زعلان منك، أنا زعلان عليك. أنا داري أن أمي أجبرتكِ على الشغل معها. وكل اللي أشتيه حاجة واحدة بس: نكون صريحين مع بعضنا.

ظهرت على ملامحه ابتسامة واهنة، وتعابير تؤكد أنه تَكَيَّفَ بشكل نهائي مع الوضع، وصار جاهزًا للعب دوره كزوجٍ لعاهرة.

"صَمْت"

واصلت تقطِيف أغصان القات له، وكان عليها أن تتولَّى المبادرة لكسر حالة الصمت. رأت أن عليها فتح موضوعٍ للحديث؛ إذ لم تكن تريده أن يغرق في صمته المتوحِّد. تدرك أن حياته جافة وبائسة، وأنها لم تستطع، منذ زواجها به، بناء علاقة تواصل فاعلة معه؛ إلاَّ عند حديثها في أمور الجنس. تَذَكَّرت أنها كانت قد استخدمت أسرار الحياة الخاصة بصديقتها إشراق؛ لإِثارته ومحاولة تثقيفه جنسيًا. تهلَّل وجهها، ولم تحتج وقتًا لتفكِّرٍ كيف تتحدَّث معه في ذلك.

تضاحكت، بشكل تعمَّدت فيه لفت انتباهه، وجعله يسألها عن السبب. تمنَّعت عن ذكر السبب، وأضفت على تمنُّعها لمسة تشويقية، بالقول إنها ذكرت أمرًا خاصًا بصديقتها إشراق. ألحَّ عليها طالبًا إخباره بالأمر. فعل ذلك وهو يبتسم ابتسامة متوسِّلة. تمسَّكت بحالة التمنُّع التي أبدتها، فذكَّرها باتفاقهما الخاص باعتماد مبدأ الصَّراحة الكاملة فيما بينهما، وعدم إخفاء أيٍّ منهما شيئًا عن الآخر. راقها إِلحَاحُه، وسريعًا ما أظهرت نفسها في موقع من خضعت له.

- أمممم.. بصراحة، خجلانة أتكلَّم!
- عادي تكلَّمي. اتَّفقنا نكون صريحين مع بعض!
- والله خجلانة ومُستحية! أصلًا الموضوع.. عيب! والله عيب!
- عادي تكلَّمي، مهما كان الموضوع. ما فيش بيننا أسرار.
- إشراق قالت إن زوجها يَلِحّ عليها كثيرًا يشتيها تَخَلّيه من وَرَا!

قالت مريم ذلك بنبرة استنكارية مصطنعة، بهدف معرفة موقف سمير من هذا النوعِ من الممارسة الجنسية. أمسك يدها، وقال، وابتسامة باردة تلوح في شفتيه:

– في ناس يعجبهم الممارسة من وَرَا، ويقولوا إنها ممتعة أكثر.. أيش قالت لكِ إشراق؟! استمتعت ولا لا؟!

أحجمت مريم عن الإجابة، واشترطت عليه أن يُقسِم على إبقاء ما ستقوله سِرًّا بينهما. بادر سريعًا لأداء القَسَم. نجمت عن شفتيها ابتسامة مُلتاعة، وقالت، وهي تُسبل عينيها:

– شوف.. إشراق كانت، في البداية، هذا حسب ما قالت لي، ما تسمح لزوجها يعمل معها وَرَا؛ لكن بسبب إصراره، سمحت له على الخفيف. بعدين استمتعت.. الكلبة قالت انه أعجبها، وصارت هي اللي تطالب زوجها يعمل معها وَرَا!

– وما توجَّعت؟!

– قالت إنها توجَّعت في البداية بس، وبعدين صارت تستمتع.

أوردت له تفاصيل عن تلك الممارسات الجنسية الشاذة بين صديقتها وزوجها. تسارعت دقات قلبه، وزاد قضيبه انتصابًا. حدَّقت فيه، فحاول تحاشي نظراتها، وهو يبتسم ابتسامة طفولية مرتبكة وخجول. سألته، وهي تتضاحك غامزة:

– تقول من صدق، الممارسة وَرَا حلوة وممتعة؟!

ارتفعت حالة الإثارة لديه، وأجاب، وهو يبلع ريقه:

– يقولوا إنها حلوة.. الله اعلم!

تبادلا ابتسامات ذات إِيحاءات جنسية متواطِئة؛ رغم أنه لم يفهم ما ترمي إليه من سؤالها الأخير. تبيَّنت مقدار ارتباكه وخجله، فتأكدت أنها أثارته

بحديثها. قرَّرت المضي في إثارته. نهضت من مكانها، ووقفت أمامه متصنِّعة البحث عن شيء ما. كانت ترتدي بلوزة سماوية عارية الظهر، على تنورة سوداء قصيرة. واصلت البحث، مستعرضة مؤخِّرتها المُثِيرة والمُغوِية. كانت تدرك قوة الهيمنة التي تملِكها مؤخِّرتها المكتَنِزة باستدارة مشدودة وواثقة.

بَلَعَ كمية أكبر من رِيقه، وأَحسَّ بحرارة كبيرة تتصاعد من جسده. عند عودتها للجلوس جانبه، أخبرها، بصوت مرتجف ونبرة مهتاجة، أن جسدها فاتن، ومؤخِّرتها قاتلة. حاول تحسُّس أجزاء من رِدفيها. أدارت وجهها إليه، وقالت، وهي تبتسم غامزة:

- تفاعلت سريعًا؟!

انفجرت ضاحكة، فيما اكتفى هو بتوسيع مجال ابتسامته المرتبكة والخجول. اعترف بأنه "تفاعل سريعًا" مع جسدها المُثِير، وحديثها الأكثر إثارة عن صديقتها. أخبرته أنها، وجسدها، مِلكه؛ ثم رسمت على رمش عينها اليمنى غمزة أخرى تعمَّدت إرفاقها بإيحاءات تعكس رغبتها الجنسية في تذوُّق المتعة التي حدَّثتها عنها صديقتها إشراق.

انتظرت أن يطلب منها السماح له، تلك الليلة، بممارسة الجنس في مؤخِّرتها؛ لكنه لم يطلب ذلك، كما لو أنه لم يفهم دواعي حديثها عن صديقتها إشراق، والإيحاءات الجنسية التي رسمتها في ملامح وجهها، وعلى غمزاتها المُتكرِّرة، إضافة إلى الإغراء الذي قامت به لاستعراض مؤخِّرتها أمامه. كالعادة، كان غير قادر على مجاراة رغبتها وجُموحها الجنسي. كالعادة، كانت استجابته منعدمة.

55

اضطرم سمير فجأة، وأحسَّ بانقباض في صدره. سأل مريم، وهو يُغمض عينيه نصف إغماضة:

– ممكن أتكلّم بصراحة، وبما في نفسي وما تزعلي؟!

تهلَّل وجهها، إذ ظنَّت أنه سيطلب ما تُفَكِّر فيه لإشباع رغبتها الجامِحة. أجابت، بطلاقة واهتياج:

– أيوة يا روحي.. اتكلّم باللي تشتي، واطلب اللي في نفسك، وما بازعل أبدًا.

– نتكلّم بصراحة كما اتَّفقنا، وبدون زعل؟!

– أيوة يا قلبي.. اتكلّم بصراحة، قل اللي تشتي، واطلب اللي في نفسك، أني كُلِّي لك. جسدي كُلّه لك. عادي باتحمَّل أيّ وجع.

سألها، بعينين جاحظتين، وأنفاس ملتهبة:

– ليش خَلِّيتي الشخص اللي جابته أمي يدخل يمارس معك هنا، في غرفتنا وعلى سرير نومنا؟!

صدمها سؤاله. فوجئت كيف أنه خرج، بسهولة، من حديثهما الجنسي المتأجِّج، وحالة الإثارة التي كان فيها، إلى هذا السؤال الذي كَدّرَ مِزاجها. الإثارة، التي كانت في وجهها تحوَّلت إلى غيمة من الإحباط وخيبة الأمل. أظهرت قدرًا كبيرًا من الحزن على ملامحها، ثم أجابت:

– أمك هي اللي جابته، وأَصرَّت انه يَدخُل لي إلى هنا. أني رفضت، لكن أمك أَصرَّت. قلت لها إني أستحي، وما أقدر أخلِّي شخص غريب يشوفني وأني عريانة.. لكن هي أَصرَّت، وقالت إنها اشترطت عليه يعمل معي سريع، وأني مُلثَّمة.

– مارس معكِ وأنتِ مُلَثَّمَة، وهو ما يشوف وجهكِ؟!

– أيوة، لأني قلت لأمك أني ما باقدر أخلِّيه يعمل معي وهو يشوف وجهي، لأني أستحي، فهي اشترطت عليه يعمل معي وأني مُلَثَّمَة.. عشان ما يكون معي عُذر للرفض.

– أيوة؟!

– بعدين هو مارس معي سريع، حتى ما جلس خمس دقائق؛ قذف سريع وخرج على طول، بدون حتى ما يشوف وجهي.

– كيف ما شاف وجهك وهو أُعجِب بكِ، وطلبكِ، أمس، تروحي إلى عنده؟!

باغتها سؤاله، فأجابت بارتباك:

– هو قال إنه أُعجِب بجسمي. والله إني كنت قرفانة، وجلست أبكي، وأمك شلَّت منه خمسين ألف وبعدين دخلت تصالحني، وجابت لي عشرين ألف بس قالت نصيبي.

– بس إيمان قالت لي إنه جلس معك ساعتين في الغرفة!

فَغَرَت مريم فاها متبلِّدة. أغلقت فمها، وابتلعت ريقها، وقالت، بارتباك أكبر:

– لا، لا، مش ساعتين.. يمكن جلس ربع ساعة، أو نص ساعة بالكثير.

– معقول! جلس نص ساعة بس، ومارس معك مرة واحدة بس، وأنتِ مُلثَّمَة؟!

– والله أكلِّمك صدق.. جلس ربع ساعة بالكثير.

ثبَّت عليها نظره، وجعل يفحصها بارتياب. وإذ شَعَرَت أنه لم يُصَدِّق ما قالته، استدركت:

– صح، ذكرت! هو مارس معي مرتين، مش مرة واحدة، بس خرج سريع. جلس نص ساعة، أو ساعة إلاَّ ربع بالكثير.

– معقول؟! مارس معكِ مرتين وأنتِ مُلثَّمَة، وجلس معكِ ساعة إلاَّ ربع بس؟!

– تشتي الصِّدق؟!

– اتَّفقنا نتكلَّم مع بعض بصدق وصراحة. قولي كل ما حصل وأنا أقسم بالله ما أزعل أبدًا.

– الصِّدق، أني كنت مُلثَّمَة في البداية، لمَّا هو دخل الغرفة، لكن بعدين هو أبعد لي اللثْمَة بالقوة، وأني ما قدرت أمنعه، أو أصيح. يا روحي انس هذا الموضوع أني فدا لك!

– ما أقدر أنسى.. خائف تضيعي مني، خائف تمشي في هذا الطريق، وتصبحي مثل أمي. خائف تعمليني مثلما أمي عملت بأبي؛ أذلَّته، وخَلّته يعيش وحيد مثل كلب أجرب، لمَّا ضِبح من الحياة وانتحر. ما أشتي يحصل لي اللي حصل لأبي. ما أشتي أكون وحيد مثل أبي. وما اشتيكِ تكوني مثل أمي. أشتي تكوني صريحة معي، وما تكوني تخبِّئي عني شي. أنا واثق بك، وداري أن أمي هي اللي أجبرتك على الشغل معها. بس، أشتيك تكوني تِكَلِّميني بكل شي.. كل شي.

– أمك هي السبب، وكل المشكلة.. إذا أنت اشتغلت وقدرت تفتح لنا بيت مستقل، فستنتهي هذه المشكلة، وتأكد أني باكون لك وحدك. أنت داري أني أحِبَّك وأموت فيك، ولا يمكن أتركك، أو أتخلَّى عنك.

– أهم حاجة عندي أنك تكوني صريحة معي، وما تخبِّئي عني شي.

– الصَّراحة، أني اللي بعدت اللثْمَة، لأنه جلس يترجَّاني أبعدها. بعدتها، لأني استحيت منه وهو يترجَّاني. قلت حرام أخَلِّيه يترجَّاني كذا على لثْمَة. شوف، أني وعدتك أكون صريحة معك. أني ما أقدر أكذب، وقلت لك بكل شي. بس لا تزعل مني.

صَوَّب نظره نحوها، بعينين ساهمتين، وقال، بجدية كاملة:

– ابن الكلب، المفروض ما كان يذِلّ نفسه، ويجلس يترجَّاكِ. لو هو رِجَّال ما كان يُهين نفسه كذا!

– الرِّجَال هم كذا، يكونوا زَنَّاطِين وشايفين أنفسهم، وفي السرير يتذلَّلوا مثل الكلاب. يا ابني، النِّيك يذِلّ كم من كبير! (ضحكت وهي تقول ذلك).

هَزَّ رأسه، بتلك الطريقة التي تتم لتأكيد صحة أمر ما. أيقنت أنه ذهب أبعد من التَّكَيُّف مع الوضع. قالت، بصوت خفيض:

– المهم عندي إنك ما تزعل مني، يا حياتي.

– يا روحي، أنا مش زعلان منكِ، وما يمكن أزعل منكِ. بالعكس، أنا ارتحت لأنك تكلّمت معي بصراحة.

– أوعدك ما أكون أخبِّي عنك شي، وأكون أكلِّمك بكل شي..

قاطعها:

– وبالتفصيل..

– ولا يهمك يا قلبي. أوعدك أكون أكلِّمك بكل شيء، وبالتفصيل المُمِلّ. وكمان أوعدك إني با أبَطِّل هذا الشغل، لمَّا تشتغل أنت، وتقدر تفتح لنا بيت مستقل.

أدرك أنها وضعته وجهًا لوجه مع مأزقه الوجودي، فحاول الهروب:

– طيب، قولي الصِّدق؛ كم جلس معك الرِّجَّال هنا في الغرفة؟!

أجابت، وهي تبتسم ابتسامة من يوشك على الاعتراف بذنب:

– الصِّدق، جلس ساعتين. أنا ما رضيت أقول لك الحقيقة، أول، لأني كنت خائفة لا تزعل.

لم يبتسم؛ لكنه بدا ممتنًّا لصراحتها. ولتأكيد أنه لم يغضب، انتقل إلى سؤال آخر:

– أيش قالت لك أمي لمَّا طلبت منك تدخليه (لم يَقُلّ إلى غرفة نومه)، وتخليه ينام معك هنا (لم يَقُلّ على سريري)؟

– أنت داري ان أمي وأمك بينهن صداقة قوية وقديمة، وتعرف انهن يشتغلين هذا الشغل من زمااااااان. قلت لك، أمك جلست تَزِنّ فوق رأسي أنك بلا شُغل، وأنها تَصَرِّف عليّ وعليك، وبعدين بدأت تُلَمِّح لي، وتقول: ضروري تِساعديني في الشغل. بعدين، تكلَّمت معي بصراحة، لأنها تعرف أني دارية أنها تشتغل هذا الشغل، هي وأمي. قالت لي إن هذا الرِّجَّال، اللي دخل لي إلى هنا، شابع (غَنِي)، وأنها تشتيني أجلس معه ساعة بس. قالت إنه زبون دَسِم، وطلبت مني أَرَيِّحُه واخَلِّيه يتعلَّق بي. (لم تخبره أن أمه كانت تعرف بمغامرتها الجنسية الأولى، التي لم يكن قد عَرَفَ عنها شيئًا).

– وابن الكلب ما طلبك تروحي أمس لعنده إلاَّ وهو تَعَلَّق بكِ.

– قال إني أعجبته. لو تشوف كيف جلس يتغزَّل بي، وبجمالي وبجسمي. يا روحي، أنت معك زوجة حلوة وتِجَنِّن.

ابتسم بزهو، ثم خفض رأسه. سألته:

– أقول لك حاجة؟!

– قولي يا قلبي!

– هو جلس كثير يتغزَّل بـ"مريم الصغيرة"، وقلت لك إنه كان يشتي يعمل معي حاجة فيها، لكن أني ما رضيت. كان بايموت عليها، وقال انه بايدفع لي مئتين دولار زيادة واخَلِّيه يعمل معي حاجة فيها، بس أني ما رضيت. ليش الرِّجَال يموتوا في اللي وَرَا؟!

– لأنها مُثِيرة.

– طيب، أني حَقِّي مُثِيرة إلى هذه الدرجة؟! الرِّجَّال كانت نفسه باتخرج عليها! لو تشوف كم جلس يبوسها ويخَبِّطها، ويترجَّاني أخَلِّيه يدخله فيها.

– طبعًا، حَقِّكِ تِجَنِّن ومُثِيرة جدًا. حلو أنكِ ما خَلِّيتيه..

– يا قلبي، لا تقلق هي حَقَّك أنت بس، ولا يمكن أَخَلِّي حَدّ غيرك يَذُوقَها..

تدفَّقت الرغبة الجنسية في مفاصل جسده. كان مُثارًا أكثر مما هو غاضب. وضع يده اليمنى على يدها اليسرى، وضغط عليها بعاطفة جياشة. كانت مُثارة حَدّ الاهتياج؛ لكنه عجز، كالعادة، عن مجاراة جُموحها الجنسي، وتحوِيل الحديث المُثِير إلى ممارسة فعلية. تأكدت أن درجة الاستجابة مُنعدِمة تمامًا لديه، لهذا توقَّفت عن الكلام، وانهمكت في التدخين من شِيشَتها.

عندما تجاوزت الساعة الواحدة بعد منتصف الليل، أبعدا القات من فميهما، ثم تناولا عشاءً خفيفًا، وجهزا نفسيهما للنوم. ارتدت ثوب نوم حرصت أن يظهر فِتنة مؤخِّرتها. لكن درجة الاستجابة لدى سمير ظَلّت مُنعدِمة. تعمَّدت إدارة ظهرها له، ودفع مؤخِّرتها إلى منطقة ما بين فخذيه. دونما فهم لما تريد، واصل هو تحسُّس فخذيها، والمنطقة الواقعة بينهما. سألها، بتذلُّل:

– أطلب منك طلبًا؟!

دارت نحوه، وأجابت، بسرور متهلِّل:

– يا روحي، اطلب اللي تشتي، أني كُلِّي ملكك.

– أشتيكِ تقومي تلبسي لثْمَة. البسيها على ملابسك هذي.

أرجعت رأسها إلى الخلف، وسَمَّرت نظراتها عليه، وحاجبيها مُقَطَّبين تعبيرًا عن الاندهاش. أعاد طلبه مشفوعًا بنظرات رجاء أكثر تذلُّلًا.

بعد شهرين على فراره من المنزل، كانت ما تزال مندهشة وهي تروي ذلك لشقيقته الوسطى. أغمضت إيمان عينيها ثم فتحتهما. كَرَّرت ذلك، وهي تُحرّك رأسها إلى اليمين واليسار؛ بتلك الطريقة التي يفعلها من لا يُصَدِّق ما يسمع. باستغراب، واصلت التحديق في مريم، ثم أبدت قدرًا أكبر من الدهشة وهي تسمعها تقول إن "سمير" أَصرَّ، حينها، على ممارسة الجنس معها وهي مُلَثَّمَة.

56

عادت لناصر قاسم روح الثائر المُتحمِّس، فذهب إلى "ساحة الثورة" ضيفًا على الحوثيين، حيث "خَزَّن القات" في إحدى خيامهم هناك. قام بتلك الزيارة تلَّبية لدعوة تلقَّاها من الأشخاص الثلاثة الذين زاروه في غرفته برفقة صديقه القديم، أبو بكر مُصلِح. تكرَّرت زياراته لتلك الخيمة، ثم تجاوزها إلى عدد من المقار الحوثية غير المعلنة في العاصمة؛ إذ كانت الجماعة ما تزال في طور التَّخَفِّي.

مدفوعًا بسلامة النِّيَّة، وقناعته الخاصة، صَعَّدَ ناصر من هجومه ضد ما كان يُطلق عليها اسم "قوى التخلف". وطول تلك الفترة، ما انْفَكَّ يؤكد أن هذه القوى هي الخطر الأكبر الذي يُهَدِّد اليمن واليمنيين. وعندما كان يورد اسم "قوى التخلف" في كلامه، كان معارفه وأصدقاؤه يُدرِكون أنه يقصد مراكز الهيمنة العسكرية والدِّينية والقَبَلِيّة على رأسها الجنرال، والحزب الدِّيني المتحالف معه. وإذا كان هذا الحزب يُمَثِّل النقيض المذهبي لجماعة الحوثي،

فالجنرال يُمَثِّل الخصم العسكري لها. أما خصمها القَبَلِيّ فيتجلَّى في مشايخ الهيمنة، الذين ورثوا مواقع نفوذها في شمال الشمال، منذ ثورة سبتمبر 1962. ويمكن القول بأن "ناصر" وطَّد علاقته بجماعة الحوثي اعتمادًا على العداء المشترك الذي يجمعه وإياها لهذه القائمة الطويلة من الخصوم متجذِّري القوة.

كان لدى الثائر المُتحمِّس موقف سياسي واجتماعي وثقافي من "قوى التخلف"؛ بيد أن أحقاده وضغائنه الشخصية تجاه تلك القوى هي التي دفعته للالتحاق بخصمها المتجسِّد في جماعة منظَّمة وفتيّة. وبوعي ودون وعي، كان يُبالِغ في التحريض على "قوى التخلف"؛ إذ تأكد أن ذلك أسهل طريق للتَّقرُّب من الحوثيين. أدى هذا الأمر إلى توتير علاقته بمحيطه القديم ذي التَّوجُّهات اليَساريّة، بمن في ذلك صديقه طه نعمان. غير أن الأخير داوم على زيارته، وكثيرًا ما قسا عليه بسبب علاقته بجماعة الحوثي. وفي أحد الأيام، انفرد الناشط اليساري ذو البنية الجسدية الضخمة بصديقه المثقف، ودخل معه في نقاش حاد حاول فيه إقناعه بفَكّ الارتباط القائم بينه وبين الجماعة. نظر إليه بعينين هازئتين، وسأله باستهجان:

– يا ناصر، رجعت تشتغل مع جماعة الحوثي وأنت تعرف أنها جماعة مليشياوية سُلالِّية عُنصريّة تعمل من أجل الانقلاب على ثورة 26 سبتمبر والنظام الجمهوري، وإعادة الإِمامة([11]) لحكم اليمن؟!

([11]) مصطلح يشير إلى حكم سلالة الأئمة الزيدية الرَّسِّيين لأجزاء من اليمن طوال قرون. يمتد نسب هذه السلالة إلى الحسن بن علي بن أبي طالب، وجاءت إلى اليمن قادمة من جبل الرَّس في الحجاز. أسس حكمها الهادي بن الحسين، الذي خرج إلى اليمن سنة 893م، تلبية لدعوة من وجهاء إحدى قبائل صعدة اليمنية. أصلح بين بعض القبائل، ثم عاد إلى مسقط رأسه في جبل الرَّس؛ فى انتظار فرصة

حَكّ المثقف المُتحمِّس عُنقه، وأغمض عينيه وفتحهما ثلاثًا، وحَرَّك رقبته إلى اليسار واليمين، بشكل سريع ومتتابع، ثم رَدَّ:

– أنا ما أشتغل مع الحوثيين، أنا بس متحالف معهم، مثلما أنتم متحالفون مع قوى التخلف الأخرى. يعني، جماعة الحوثي متخلفة. هذا صحيح. لكن القوى إللي أنتم متحالفون معها سرقت الثورة، وما حَدّ يقدر يواجهها إلا الحوثيين.

– أنت تعمل لخدمة توجُّهات جماعة الحوثي، وبما يخدم أهدافها ويحقق مصالحها، والفرق كبير بين هذا الأمر، وبين التحالف النِّدِّي معها.

– لا، لا.. على الأقل، أنا حتى الآن ما شفت أيّ تجاوزات للحوثيين، وإذا ارتكبوا تجاوزات فلن أسكت عنها، كما سكتم أنتم عن انتهاكات قوى التخلف. يعني..

قاطعه طه:

– جماعة الحوثي هي الخطر الحقيقي الذي يواجه اليمن، ولو سيطرت سترتكب تجاوزات تفوق، في سوئها وبشاعتها، جرائم النظام السابق، وجرائم الجنرال وحلفائه.

– الخطر الأكبر الذي يُهدِّد اليمن واليمنيين يتجسَّد الآن في قوى التخلف. يعني، خَلِّينا نشوف الحوثيين، وإذا عملوا أيّ تجاوزات، أو طلعوا أنهم هم الخطر الحقيقي على البلاد، فسنواجههم.

أخرى للعودة إلى اليمن وتحقيق طموحه فيها. وقد كان له ذلك سنة 897م، حيث وَصَلَ مدينة صعدة، وأعلن نفسه "إِماماً"، واتَّخذها عاصمة له؛ مدشِّناً بذلك ما عُرِفَ بِحُكم الأئمة الزيدية، الذين قامت ثورة 26 سبتمبر 1962م ضد آخر أئمَّتهم، وأعلنت الجمهورية على أنقاض مملكتهم: المملكة المتوكلية اليمنية.

– منذ سنوات، وجماعة الحوثي تستثمر الكره الشديد الذي يَكِنُّه رفاقنا لنظام الحكم.. وقد نجحت في استمالة أدعياء اليسار، وأنصاف المثقفين. وبسبب غباء هؤلاء، تبدو هذه الجماعة اليوم كما لو أنها استغلَّت النضال الوطني الطويل لليساريين ووظَّفته لصالحها، وبما يخدم أهدافها.

ابتسم المثقف المُتحمِّس بسخرية، وهَزَّ رأسه بتبرُّم، فيما واصل طه كلامه، دونما اهتمام بافتعال صديقه لذلك التشويش الساخر:

– حَرِصَت الجماعة من البداية على الاقتراب من أحزاب الحركة الوطنية. تواصلتْ مع كثير من السياسيين والمثقفين والناشطين، ونجحتْ في استمالة بعضهم، واستخدمتهم لتجميل صورتها، وخلق رأي عام رافض لحروب صعدة. حينها، كان كثير من رفاقنا وأصدقائنا يهاجمون نظام الحكم، ويقولون إنه شَنَّ تلك الحروب ظلمًا؛ رغم أن الحوثيين متمرِّدون رفعوا السلاح على الدولة، وعملوا على تقويضها! مع الوقت، يتأكد الجميع أن النظام كان مُحقًّا في شَنّ تلك الحروب؛ لكن فقدانه للمصداقية حال دون إقتناع الناس بما كان يقوله عن خطر الحوثي كجماعة ومليشيا. هذه جماعة عُنصريّة يجب أن يقف الجميع في وجهها؛ وأنتم تشتغلون معها يا ناصر!

وسَّع ناصر من الانفراج الساخر لأساريره، وزاد من الاهتزاز المتبرِّم لرأسه، فيما تابع طه حديثه:

– اليوم، تواصل جماعة الحوثي التَّقرُّب من بعض أدعياء اليسار وأنصاف المثقفين، وتمضي في استخدامهم كأدوات ضد خصومها. يا ناصر، في أهون الأحوال، يعمل ارتباطكم بهذه الجماعة على تضليل الرأي العام، ويُحدِث تشويشًا على حالة الانكشاف الحاصلة لها. المهم، لا تجعلوا الجماعة تواصل استخدامكم لتنفيذ مشروعها الإِمامي العَفِن. نعرف جميعًا أن هذا المشروع إذا لم ينجح في تدمير اليمن، فسيستنزفها بحروب أهلية دامية.

توقَّف ناصر عن هَزِّ رأسه، واستحالت ابتسامات السخرية غيظًا واحمرارًا شديدًا في وجهه. احتد يقول، بعد أن حَكَّ عُنقه وأغمض عينيه وفتحهما ثلاثًا وحَرَّك رقبته إلى اليسار واليمين، بشكل سريع ومتتابع:

– لا تقلق علينا! وسبق وقلت لك إننا نتعامل مع جماعة الحوثي باعتبارها مُعادلًا موضوعيًا لقوى التخلف والهيمنة التاريخية التي سرقت الثورة. يعني، فشل أحزابكم اليَساريّة جعلنا، واليمن بشكل عام، رهينة للجماعات الأصولية المُتخلِّفة.

– لا يوجد أيّ مُبرّر يدفعكم للتحالف مع جماعة خطرة تُهدِّد دولتنا الوطنية ونظامنا الجمهوري. عليك أن تعرف أن جماعة الحوثي ستكون أكثر استبدادًا وفسادًا ونهبًا للمال العام. هذه جماعة مليشياوية عُنصريّة، وإذا سيطرت على البلاد ستحكمها بالحديد والنار.

– مشكلتنا اليوم هي مع قوى الفساد والهيمنة التاريخية، وحينما تُسيطر جماعة الحوثي على البلاد، ويظهر فسادها، سنقف كُلّنا في وجهها.

– خطر هذه الجماعة واضح، ولا يوجد أيّ مُبَرّر لتحالفكم معها.

– هناك أكثر من مُبَرِّر، أهمها أنكم، أنتم اليَساريّين، اشتراكيين وناصريين، أصبحتم متحالفين مع قوى التخلف والهيمنة التاريخية، التي ناضلت الحركة الوطنية، طوال عقود، من أجل إسقاطها، فيما جماعة الحوثي التقليدية والمُتخلِّفة تقف اليوم ضد تلك القوى! يعني، الأحزاب اليَساريّة صارت تعمل ضد نفسها وضد تاريخها.

– موقف الحوثي من مراكز القوى هو موقف انتهازي. الحوثي لا يواجه مراكز القوى من أجل الوطن والمصلحة الوطنية، بل من أجل نفسه ومصالحه. هو يواجهها لأنه يريد أن يَرِث نفوذها القَبَلِيّ والعسكري والسياسي، باعتبار

ذلك شرطًا ضروريًا لإعادة مشروع "الإِمامة" وتمكِينه من حكم اليمن. جماعة الحوثي أَشَدُّ ماضوية وتخلُّفًا من مراكز القوى التي تقف الآن ضدها.

– يعني، غياب الحركة الوطنية جعل الصراع في البلاد قائمًا بين القوى التقليدية المُتخلِّفة. يعني، أنا مع تحطيم كل التراتبيات القديمة، سواء بالصراع المباشر معها، أو بضرب بعضها ببعض. وتحالفنا مع الحوثيين هو مجرَّد تكتيك للوصول إلى هذه الغاية.

انتهى النقاش بين الصديقين دون نتيجة، أو اتفاق. استمرت صداقتهما، وواصلا الالتقاء بشكل شبه يومي لمراقبة تطورات الأحداث.

اتَّسَعَ حضور الحوثيين في الثورة الوليدة، ما صَعَّد حِدَّة الصراع مع خصومهم الفاعلين. عشرات من جنود الجنرال وحلفائهم الدِّينيين، شَنُّوا هجومًا مباغتًا على خيمة الاعتصام الرئيسية الخاصة بالحوثيين في "ساحة الثورة" بالعاصمة. لم يكن الحوثيون قد أصبحوا الطرف الأقوى في البلاد، لهذا اكتفوا باستخدام ذلك الاعتداء للتحريض ضد خصومهم. وعندما تحالفوا مع الرئيس السابق، شَنَّ مقاتلو الحوثي حروبًا للانتقام من الجميع.

احتفى المثقف المُتحمِّس بالحرب التي شَنَّها الحوثيون، بعد ثورة فبراير 2011، على السَّلفِيِّين في منطقة دماج، القريبة من مدينة صعدة. بعدها، ابتهج بسيطرة مسلَّحي الحوثي على مناطق نفوذ الجنرال، ومراكز القوى التقليدية المرتبطة به في محافظة عمران، ثم سيطرتهم على مركز تلك المحافظة؛ المعقل العسكري لما يُسمِّيها "قوى التخلف". بشكل أكبر، احتفى باقتحام الحوثيين لمقر الجنرال في العاصمة صنعاء، رغم أنه بكى بحرقة على التبعات التي ترتبت على ذلك. بكى، لأن ثمن طَيّ صفحة الجنرال، وبقية قوى الهيمنة التاريخية، كان فادحًا: سقوط عاصمة البلاد في أيدي مليشيا طائفية.

بقوة السلاح، أزاحت جماعة الحوثي خصومها من المشهد، وحَلَّت محلَّهم. أعاد ناشطو الحزب الدِّيني المتحالف مع الجنرال تواصلهم مع ناصر، والناشطين اليَساريّين، فيما بدأت بين الأخيرين وناشطي الحوثي حالة من القطيعة والعداء.

57

تَحَسَّنَ الوضع المالي لسمير، بسبب عمل زوجته في الدعارة. نسي حزنه وكل مهاناته، ومضى يقوم بجميع مهامه، بحيوية ونشاط. امتلاء جيوبه بالنقود أنعشه على ذلك النحو غير المعتاد، وأنساه مذلاته كزوج مُستَبَاح العِرْضَ. استمرَّ في إيصال شقيقتيه سلوى وإيمان إلى طالبي الجنس، الذين كانت أمه تُطلق عليهم اسم "الزبائن"، كما لو أنها تبيعهم بسكويتات وعصائر معلَّبة!

تعايش مع عمل زوجته، وباسترخاء تابع ازدياد الطلب عليها من قِبَل "الزبائن". بدلًا من الغضب، والتحديق المنهك في طرف السرير، صار يُقَبِّلها قبل ذهابها إلى أحضان طالبي المتعة الجنسية. لم تكن تُخبِره بأنها ستذهب لمعاشرة رِجَال غرباء، لكنه كان يعلم ذلك علم اليقين، لاسيما أنها كانت تعود بقات، ومبالغ مالية تعطيه جزءًا منها. نشأت لديه حالة من التواطؤ بشأن عملها. كانت تقول له إنها ستذهب لزيارة إحدى صديقاتها، وكان يلعب دور المُغَفَّل. كان يقوم بدوره بشكل جيد؛ يودِّعها بحرارة زوجِ لا يَشُكّ فى طُهر وإخلاص زوجته! لقد أصبح منقادًا لخنوعه ومذَلَّته.

استسلم لانتهاك كرامته، وشَعَرَ بامتنان عميق لأمه؛ إذ اعتَقَدَ أنها أعفته من مهمة إيصال زوجته إلى "الزبائن". لم يكن يعرف أنه حصل على ذلك الإعفاء استجابة لإلحاح وتوسُّل مريم، التي لم تكن تريد له تجرُّع مزيد من

الإهانة والإذلال. في سبيل الحرص على مشاعره؛ ضَحَّت مريم براحة جسدها وبالها. اعتمدت على سائقي سيارات الأجرة لإيصالها إلى بيوت طالبي المتعة، وإعادتها منها. وخلال ذلك، تكبَّدت مشاق كبيرة، وتعرَّضت لمضايقات عدة. بيد أن حماتها لم تُبدِ أيّ تقدير لتلك التضحية، رغم أنها تمت بدافع الحرص على مشاعر ابنها. تبرَّمت نادية من خصم نصف تكاليف سيارات الأجرة من حِصَّتها. ولم تكد تُمضي أسبوعين حتى أعلنت رفضها للأمر، وجادلت حول ضرورة أن تَتَحَمَّل مريم دفع تلك التكاليف بمفردها. مريم اعتبرت الأمر غير عادل، ومُجحفًا في حَقِّها. ساقت نادية حُججًا تُدَعِّم حيثيات موقفها. قالت إن لديها سيارة مخصصة للقيام بالمهمة بتكاليف لا تُذكر، وأن مريم هي التي استبدلتها بسيارات الأجرة. كانت الأم لا تريد خسارة أيّ مبلغ مالي، مهما صغر، ومهما كان المبرِّر. وتَشَدَّدت في موقفها لأنها كانت تُراهن على نخوة مريم، وما أبدته من حِرص على مشاعر سمير. وعندما ووجِهت بتصلُّب موقف الأخيرة؛ جعلت ابنها يَحِلّ مَحَلّ سائقي سيارات الأجرة.

بين التضحية بمشاعر سمير، أو بنحو اثنين في المائة من دخلها، اختارت مريم التضحية بسمير. وهكذا، بدأ يأخذها إلى منازل طالبي الجنس، ثم يذهب لإعادتها ليلًا من هناك. لم تعد تتعرَّض لمضايقات سائقي سيارات الأجرة، وتَجَنَّبت تعب ومخاطر السير ليلًا في شوارع مظلمة، بحثًا عن "تاكسي" يُعيدها إلى شقَّة حماتها. توقَّفت متاعبها؛ لكن أبواب الجحيم فُتِحت في وجه زوجها.

كان سمير قد تَكَيَّف مع وضعه كزوج لعاهرة؛ إلاَّ أن أمه أمعنت في إذلاله. لقد أجبرته على إيصال زوجته إلى أحضان طالبي المتعة. ولئن كان البخل هو ما دفعها إلى ذلك، فالمؤكد أنها ما كانت لتقدم على أمر كهذا لولا عدم اكتراثها بكرامته ومشاعره. كانت تعتقد أنه اعتاد الحياة كشخص بلا

كرامة، لكنه تعامل مع الأمر بحساسية مفرطة. بدأ ينتابه، بين وقت وآخر، شعور مباغت بالغِيرة. وتطورت نوبات الغضب الصامت لديه إلى انهيار نفسي متداعٍ. لم يعد لديه أدنى شَكّ في أن الرَّجل أكثر غِيرة على زوجته منه على أمه وشقيقاته.

58

كانت أم سمير على مشارف عامها السادس والأربعين، عندما ابتسمت لها الحياة مرة أخرى.

حَالَ التقدُّم في السِّنّ دون مواصلة عملها كعاهرة بالزَّخم ذاته. يبحث طالبو المتعة عن شابات، أو نساء دون سِنّ الأربعين؛ لهذا لم يعد أمام نادية غير عمل واحد: القِوادة. كوَّنت شبكة دعارة صغيرة فاعلة؛ إلاَّ أن دخلها المالي تدنّ من جديد؛ ما ألحق بها أضرارًا مادية ونفسية فادحة. وإلى هذا، صار عملها مرتبطًا بمزاجية وأولويات العاملات معها.

مضت في هذا العمل، محاولة سَدّ التراجع الذي أصاب دخلها. بيد أنها عاشت فى قلق، ودونما شعور بالأمان. تَعِبت في ملاحقة الفتيات والنساء العاملات معها، حينما كان يطلبهن "الزبائن"، وكثيرًا ما عرَّضنها لمواقف مُحرِجة معهم، بسبب عدم التزامهن بمواعيدهن.

كان عليها أن تعالج كل مشاكلها التي سببتها مومساتها. تمثَّلت مشكلتها الرئيسية في افتقادها للسلطة المطلوبة لإجبارهن على الالتزام بمواعيدهن. لذلك، قرَّرت إدخال بنتيها سلوى وإيمان، وزوجة ابنها سمير، للعمل في سوق الدعارة. ومنذ مضت في تنفيذ هذا القرار، ابتسمت لها الحياة مرة أخرى. بدأت أحوالها تعود إلى التَّحَسُّن، حتى تخلَّصت من كل المشاكل، بما في ذلك تراجع مستوى دخلها. بدلًا من عاهراتها غير المُلتَزِمات

بمواعيدهن، أصبح لديها ثلاث فتيات جميلات؛ سلطتها عليهن مُطلَقة وفعلية ومباشرة.

في البداية، أدخلت ابنتها سلوى للعمل لديها في الشبكة، ثم ضَمَّت إليها ابنتها الثانية، إيمان، وتاليًا ألحقت بهن زوجة ابنها، مريم. بهذا الثلاثي، رُباعي الدَّفع، تمكنت من تعزيز عملها كَقَوَّادة مُلتزِمة بمواعيدها، ولديها اكتفاء ذاتي من الفتيات الجميلات. وإلى هذا تمكَّنت من افتتاح أسواق جديدة لها وسط نخبة الأثرياء. ولأنها امرأة مُنَظَّمة، فقد كانت تقول إن أهمية هذا التغيير الكبير تكمن في أن عملها لم يعد مرهونًا بمزاجية وارتباطات صديقاتها، والعاملات لديها.

ازدهر عملها أكثر مع دخول مريم سوق الدعارة. انعكست حالة الانتعاش تلك على جميع أفراد الأُسرة، بمن فيهم سمير، الذي بدأ يَحصُل على مبالغ مالية من شقيقتيه وزوجته. كُنّ يعطينه المال سِرًّا، دون معرفة أمه؛ فلو عرفت لقطعت عنه الألف والخمسمائة ريال التي كانت تعطيها له كمصروف يومي. بيد أن سلوى وإيمان وجدتا نفسيهما، بعد شهرين، يراجعنها لأجله، بعد أن قرَّرت قطع هذا المبلغ عنه بحجة أن زوجته أصبحت تشتغل. بعد مفاوضات شاقة، توصَّلتا إلى اتفاق معها يقضي بخفض مصروفه إلى ألف ريال.

أثناء تلك المفاوضات، التي تعاقبت خلال ثلاثة أيام، تحاشى سمير الجلوس مع أمه، وقضى أغلب وقته في غرفته غارقًا في صمته المتوحِّد. في تلك المحنة العصيبة، شدَّت زوجته من أزره:

– ما لك من أمك البَخِيلة هذه! طُزَّ بها وبفلوسها! لا تقلق أبدًا من مسألة الفلوس.. ربك بايفتح علينا..

كانت مريم تريد تحرير زوجها من أمه، لترَبِطه بها. هو أدرك ذلك؛ لكنه كان بلا خيارات، وعاجزًا تمامًا عن فَكِّ ارتباطه بأمه، أو تغيير حياته وقدره!

التزمت أمه بإعطائه ألف ريال يوميًا؛ لكنها، بعد أسبوعين، اتَّخذت قَرَارًا ألزمت فيه سلوى وإيمان ومريم بدفع إيجار الشقَّة، وتقديم مبلغ شهري آخر كمساهمة منهن في النفقات الأخرى للأُسرة. يومئذ، دعتهن إلى ما يشبه اجتماعًا رسميًا في غرفة الجلوس. بنبرة سلطوية حازمة، أبلغتهن قرارها، وطلبت منهن تحمُّل مسئولياتهن "حفاظًا على الأُسرة". لم يكن أمامهن غير الانصياع لقرارها. ومع التحسُّن المطَّرد في حياتها ودخلها، تعزَّزت قناعتها بصواب إشراك ابنتيها، وزوجة ابنها، في العمل.

في ذلك الاجتماع العائلي الاستثنائي، التزم سمير الصمت. وبعد أن عاد إلى غرفته، انشغل بحساب تكاليف النفقات التي تُصرف، شهريًا، لشراء مستلزمات الأُسرة من المواد الغذائية. انهمك في ذلك مدفوعًا برغبة معرفة مقدار ما وَفَّرته أمه بتخلُّصها من دفع إيجار الشقَّة، وإجبار سلوى وإيمان ومريم على دفع ستين ألف ريال شهريًا كمساهمة منهن في النفقات الغذائية. خلصَ إلى ما كان قد توقَّعَه: تخلَّصت أمه من 90 في المائة من الالتزامات المالية الخاصة بالنفقات المنزلية.

ازدهر عمل نادية أكثر بعد أن عزَّزته بإدخال ابنتها الصُغرى في الخدمة. لم تكن سُهى قد تخطَّت عامها العشرين، حين التَحَقت بالعمل في سوق الدعارة. هي أجمل شقيقاتها، وأكثرهن فتنة وإغراءً؛ بعنقها الطويل، وأنفها المعقوف، ووجهها المستدير، وملامحها الحادة ذات الجاذبية اللافتة. طولها متناسق مع جسدها الممتلئ، والمسنود بثديين مشدودين، ومُؤَّخِّرة سافرة

الجموح. شعرها كثيف، حالك السواد، ينسدل مقتربًا من خصرها الدقيق، مضيفًا لقوامها فتنة وجاذبية آسرة.

طوال العام الماضي، انشغلت نادية بمراقبة نضوج ابنتها الصُغرى، وتفتُّح جسدها المُتَأَجِّج. فعلت ذلك ببهجة واستبشار، موقنة من أن مستقبل فتاتها سيكون واعدًا.

تمادت سُهى في مكالماتها الغَراميّة الطويلة، في غرفة أمها أو في أماكن أخرى في الشقَّة، بما في ذلك غرفة الجلوس. ومع اتساع وتعدُّد علاقاتها الغَراميّة، أمكن إحصاء ارتباطها بثلاثة شُبّان.

مضت في إنكار علاقاتها الغَراميّة؛ بيد أنها بدأت، بعد عامين، وبنوعٍ من التفاخر، تَروي تفاصيل تلك العلاقات. وحين استغربت صديقتها نوال قدرتها على حُبّ أكثر من رَجُل، رَدَّت عليها بأن قلبها يتسع لعدد أكثر؛ لأن الحُبّ هو حالة لعب مزاجية أكثر منه عشقًا ووَلَهًا!

59

يسير ناصر قاسم في عامه الرابع والثلاثين، ومازال بلا زوجة، ولا حبيبة. عاش، في الجامعة، قصة حُبّ من طرف واحد، إذ أحَبّ زميلة له لم يتمكَّن، طوال سنوات الدِّراسة، من رؤية وجهها، أو مكاشفتها بمشاعره نحوها. كانت تُدعى رندا، وكانت ترتدي بالطو، وتخفي وجهها بلُثْمَة؛ شأن أغلب الطالبات والنساء في اليمن.

شَبَّ الفتى المُتحمِّس ولديه ميول يسارية، وعند التحاقه بالجامعة تحوَّلت هذه الميول إلى نشاط سياسي غير مُنَظَّم حزبيًا. كان الطالب الوحيد الذي يورد، في أسئلته ومداخلاته خلال المحاضرات، أسماء كُتب وكُتَّاب ومُفَكِّرين من خارجِ المقرَّر الدِّراسي. ذلك هو أسلوب اليَساريّين لإظهار

تميُّزهم الثقافي. وقد حَظِيَ ناصر بما أراد؛ إذ لفت انتباه زملائه إليه، وأجبرهم على أن يتعاملوا معه باعتباره مثقفًا. بيد أن ذلك التميُّز لم يُحرِّك مشاعر رندا تجاهه.

أغلب الطلبة من ذوي التَّوجُّهات اليَساريّة في جامعة صنعاء ينحدرون من أُسر فقيرة، وقرى بعيدة؛ لهذا يقضون سنوات الدِّراسة وهم في حالة من الحاجة والبؤس. والواقع أن طالبات الجامعة يُفضِّلن الطلاب غير الناشطين سياسيًا، المنتمين إلى المدن، الذين تتركَّز اهتماماتهم على سماع الأغاني، وارتداء ملابس الموضة، وقضاء أغلب ساعاتهم الجامعية في ملاحقتهن ومُعَاكستهن.

أضاع ناصر سنواته الأربع في التحليق حول رندا، من بعيد. المرة الوحيدة التي تحدَّث معها كانت تلك التي سألها فيها، نهاية الفصل الأول لعامهما الدِّراسي الثاني، عن المقرَّر الخاص بمادة "مدخل إلى اللغويات". فيما بعد، خضَع لمشاعر أسف بالغ الثقل لأنه لم يتجرأ على الحديث معها، ومُصارحتها بحُبِّه. مازال قلبه يخفق لها؛ رغم أنه يعرف أنها لم توله أيّ اهتمام، ولم تُفَكِّر به أبدًا كحبيب. تمكَّن من لفت انتباهها إليه كمثقف؛ لكنه فشل في لفت انتباهها إليه حتى كحبيب محتمل.

رغم أنه يتحدَّث مع الرِّجَال بقابلية لا تعرف الكَلَل؛ فإنه مسكون برُهاب حقيقي من الحديث مع النساء. كان جسده يرتعش، ويجتاحه خوف وخجل كبيران، كلَّما اقترب من زميلاته، أو اقتربت منه إحداهن؛ لاسيما رندا. لم يعرف سبب ذلك الرُّهاب، الذي استوطن أغواره السحيقة، وبسط ظلاله على كيانه ومسار حياته. ولئن حال ذلك بينه وبين الحياة الطبيعية، فقد حرمه من الدخول في تجارب عاطفية، وتذوُّق حلاوة الاختلاط اليومي بطالبات الجامعة. وبدلًا من أن يعمل على كسر ذلك الرُّهاب، هرب إلى أحلام اليقظة. يتذكَّر خوفه من رندا، وخجله المبالغ فيه معها، فيداهمه غَمٌّ

مُجَنّح. يشعُر بالأسف على نفسه؛ إذ تيقَّن أنه أضاع أجمل سنوات عمره في النشاط السياسي، ووهم التَّميُّز الثقافي؛ رغم معرفته أنه لو قُدِّرَ له عيش حياته مرة أخرى، لما استطاع تغيير خياراته، أو التخلُّص من رُهاب خوفه وارتعاش جسده أمام النساء.

فَتَنَتْهُ رندا منذ يومهما الجامعي الثالث؛ بهيئة الأحذية التي كانت ترتديها، وطريقتها في المشي. لم يعرف اسمها إلاَّ بعد مضي أحد عشر يومًا؛ رغم دراسته وإياها في قاعات محاضرات واحدة مع أقل من أربعين طالبًا وطالبة. خلال تلك الفترة، اعتاد التَّعرُّف على هويتها من أحذيتها المُثِيرة، ونمط سيرها. تاليًا، ركَّز على أناقة مظهرها الخارجي، وطريقة اِرتدائها للّثْمَة والبالطو. مع الوقت، صار يتعرَّف عليها من عينيها الواسعتين المُزيَّنتين بسواد أخاذ ورمشين محلّقِين؛ عينيها المكلَّلتين بعمق أسطوري ونظرة هيمنة متعالية.

كانت تبدو في ذروة فِتْنَتها حينما يظهر، بين ساقيها أسفل البالطو، جزء من البنطلون الذي ترتديه. أما إثارتها فتركَّزت في ثدييها المتكوِّرين خلف القماش الأسود الذي يغطي جسدها. كان ثدياها يبرزان كحبتي أناناس، بشكل يتَّسِق مع رشاقتها.

بعد تخرُّجه في الجامعة، واصل ناصر العيش في أحلام اليقظة، التي كان يغرق فيها، كل مساء، بهدف ممارسة العادة السِّرّية؛ مستحضرًا رندا وهي بين يديه. رغبة في التغيير، خلق لنفسه بطلات أخريات، بينهن مُمَثِّلات عالميات، استخدمهن لتفريغ رغباته الجنسية. كانت رندا تحتلّ المساحة الأكبر في أحلامه المسائية؛ لكن مجال نفوذها أخذ يتقلَّص ويضيق. ومع ازدياد عدد بطلاته، ولهاثه اليومي خلف لقمة العيش، فوجئ بأنه نَسِيَها. حدث ذلك في إحدى الليالي الباردة لشتاء السنة الثالثة بعد الجامعة. كان جائعًا على فراش نومه، حين خطر اسمها بباله، بعد شهر ونصف الشهر من هجرانه لها. ولأن الجوع

يُذكِي نار الشهوة الجنسية، فقد احتضن وسادته؛ كتمهيد تلقائي للبدء في أحلام اليقظة، التي يمارس العادة السِّرِّية وهو غارق فيها. أراد استحضار رندا، فخذلته ذاكرته. أعاد المحاولة مرات عدة؛ إلاَّ أنه فشل في تذكُّر شكلها وهيئتها. فتح عينيه بارتباك، محاولًا فهم ما أصابه. حاول البحث عن حبيبته القديمة في أغوار ذاكرته وقلبه، دون فائدة. أدرك أنه نَسِيَها. اليوم التالي تأكد أنه لم يعد قادرًا على تذكُّر أيّ ملمح من ملامح هيئتها الخارجية؛ بما في ذلك الأحذية التي كانت ترتديها. صارت كيانًا شبحيًا في ذاكرته.

بنتيجة متواضعة، أنهى ناصر دراسة الثانوية العامة، في قريته. وشأن مئات الطلبة، جاء إلى صنعاء ليلتحق بجامعتها. كان يريد دراسة العلوم السياسية؛ إلاَّ أنه صرف النظر عن ذلك استجابة لبعض معارفه الذين مارسوا حالة من التبخيس بذلك التخصص؛ بسبب انعدام فرص العمل لخرِّيجيه. قَلَّبَ الأمر في رأسه، فأدرك حقيقة صعوبة الالتحاق بوزارة الخارجية، مثلًا، التي لا تفتح أبوابها إلا لذوي النفوذ وأصحاب الوساطات!

لم يكن يدرك ذاته، أو ما الذي يريد أن يكون، لهذا وَجَدَ نفسه يُفاضِل بين التخصصات الدِّراسية الممكنة التي اقترحها عليه معارفه. كان من غير الممكن التحاقه بكلية الهندسة أو الطب؛ بسبب تخرُّجه بنتيجة متواضعة في القسم الأدبي من الثانوية. اقتنع بأن دراسة اللغة الإنجليزية ستُمكِّنه من الحصول على وظيفة. التحق بقسم اللغة الإنجليزية في كلية الآداب، دون أن يعرف أنه سيظل عاطلًا عن العمل طول حياته؛ فقد تخرَّج بمعدل "مقبول"، ودونما إتقان للغة. صحيح أنه يتمتَّع بالنباهة؛ لكنها نباهة شاردة تفتقد للمثابرة والحس السليم. صحيح أنه يتمتَّع بذكاء مُتَّقِد؛ لكنه ذكاء متمرِّد على القيود التعليمية والالتزام الأكاديمي. وإلى هذا، كان ذكاؤه مشوَّشًا،

يفتقد للحافز والغاية. لهذا فَشِلَ كطالب، ونجح في تأكيد حضوره كمثقف ومتحدِّث جيد.

المثقف المُتحمِّس لم يكن طالبًا مُتحمِّسًا؛ لهذا أنهى الجامعة بمحصول بسيط. وما انقضى عامه الثاني في البطالة، إلا وقد خسر أغلب إنجليزيته؛ لهذا فَشِلَ في اجتياز كل اختبارات القبول التي خاضها للحصول على وظيفة لدى شركات خاصة.

سكن في شقَّة مع طلاب ذوي توجُّهات يسارية وليبرالية، أغلبهم يدرسون الإعلام، وينتمون إلى الحزب الاشتراكي والتنظيم الناصري. اعتاد هؤلاء الذهاب إلى كلياتهم صباحًا، ثم الالتقاء ظهرًا في كلية الآداب، للتمتُّع برؤية الفتيات الجميلات، والبحث عمَّن يُغَدِّيهم، ويشتري لهم القات. كانوا يقضون ساعات وهم يُمشِّطون الكلية سيرًا، أو يجلسون تحت الأشجار يتحدَّثون في السياسة والثقافة. كانوا يفعلون ذلك وجيوبهم فارغة من النقود. ينتمون إلى أُسر فقيرة، ومتوسطة الحال. عمل اثنان منهم في وظائف مكَّنتهما من مواصلة تعليمهما الجامعي. الغالبية كانوا يعتمدون على مصاريف شهرية يتلقُّونها من أُسرهم. بعضهم عاش بلا وظائف، ودون انتظار دعم شهري أُسري؛ لكنهم أنهوا دراساتهم الجامعية رغم ذلك؛ اعتمادًا على عزيمة المثابرة، وروح التَّكَافُل القائمة فيما بينهم وبين أصدقائهم ومعارفهم. حتى إنه عندما كان أحدهم يحصل على مبلغ مالي، كان يُنفق جزءًا منه على بقية المجموعة.

ظروف الحاجة والعوز خلقت بينهم حالة من التَّكَافُل؛ رغم أن التنافس الحزبي أصاب علاقاتهم بشيء من التَّوَتُّر. كانت أيامهم بمثابة بحث دائم عن ثمن الغداء والقات. كثيرًا ما ذهبوا إلى كلياتهم ببطون وجيوب فارغة، وأقدام متعبة من السير. ناصر هو أكثر من ذاق مرارة ذلك، وتعايش معه

بشكل دائم. أحيانًا كان يجد من يُقَدِّم له وجبة فطور، أو ثمنها، وأحايين أخرى كان يبقى بدون فطور حتى الظهر.

غالبًا ما كانوا يوفِّرون ثمن وجبة العشاء من المبالغ التي يحصلون عليها ظهرًا؛ أو يجدون من يقدِّم لهم ذلك في المساء. مع ذلك، فجميعهم خَبِروا معنى النوم ببطون جائعة. لكنهم عبروا سنوات الفاقة تلك، وتوزعوا في الحياة؛ موظفين، صحفيين، قادة رأي، وسياسيين. مشكلة ناصر أنه لم يستطع مغادرة جحيم الفاقة والبؤس.

كان لكلٍّ منهم مَلَكَة وميزة خاصة؛ إلى جانب ممارسة أغلبهم للصحافة والكتابة. كان ناصر الأكثر قراءة للكتب، وكان يقضي وقتًا طويلًا في الحَمّام. كانت تلك إحدى مُتعه الأثيرة، ويمارسها غير عابئ بغضب شركائه في السكن. كثيرًا ما كان هؤلاء يتبرَّمون من عادته تلك، وكثيرًا ما كان يرَدّ عليهم بمقولات من كُتب تؤكد أهمية الحَمّام في توسيع الخيال وتدفُّق الأفكار. غالبًا ما كان يقول:

بطل رواية "الحب في زمن الكوليرا" قال إن "العالم مقسوم إلى من يتغوطون جيدًا ومن يتغوطون بشكل سيئ". يعني، أنتم، يا أصدقائي، متوتِّرون لأنكم لا تتغوطون بشكل جيد!

بسبب ذلك أُطلِقَ عليه اسم "المُتَغَوِّط جيدًا".

60

أحمد هو حُبّ سُهى الأول. على يديه أزهر جسدها، وبدغدغات شفتيه ولسانه تفتَّح برعما ثدييها. يَكبُرَها بعامين.

يقع منزل أُسرته على بعد نحو 500 متر من منزل أُسرتها. ذلك القُرب المكاني سرَّع من عملية تعارفهما، وتحويلهما إلى حبيبين. بدأت

علاقتهما وهي في الصف العاشر، حيث كان لا يتَّجه إلى مدرسته إلاَّ بعد أن ينتظر، عند مدخل الحارة، طالبات الثانوية العامة، اللواتي يفتتح صباحه بهن. لفتت انتباهه سُهى بوجهها الجميل، وجسدها المغوي، وثدييها المُكتنزين. ترصَّدها. لاحقها بنظراته وابتساماته. كانت تتجاهله وتُشيح بنظرها عنه؛ لكنها بدأت تُبادله الابتسامات ونظرات الإعجاب بعد أن غيَّر مكان انتظاره الصباحي من مدخل الحارة، إلى قرب منزلها. غمرتها السعادة، إذ رأت الفتى الوسيم يتخلَّى عن كل فتيات الحَيّ، ويُخَصَّص وقت انتظاره لها وحدها.

في صباح شتوي، غادرت منزل أُسرتها، ففوجئت به ينتظرها بالقرب منه. شاهدته يبتسم لها، فردَّت عليه بابتسامة خجولة. ومع تكرُّر الابتسامات الصباحية، بدأ قلبها يخفق كلَّما رأته. تصاعدت تلك الخفقات بشكل محموم، عندما لحق بها، في إحدى صباحاتها المَدرسِيّة. حَثَّ الخُطى خلفها حتى لحِقَهَا. ألقى عليها تَحِيَّة الصباح، بصوت خفيض، ثم مَدّ لها ورقة تناولتها منه وخدّاها متوردان خجلًا، وقلبها يكاد يخرج من بين ضلوعها! لم يَقُلّ كلمة أخرى؛ فقط حَثَّ الخُطى حتى اختفى في الشارع، بين عدد غير قليل من طلبة المدارس والموظفين والعمال.

دَسَّت الرسالة في جيب زَيِّها المَدرسِي، دون أن تتمكَّن من فتحها لقراءتها. ازدادت خجلًا وخوفًا، إذ اعتقدت أن كل المارة شاهدوها تأخذ الرسالة منه. وصلت المدرسة وقلبها مازال يَدُقّ بقوة، ويجتاحها شوق جارف لقراءة الرسالة. تجاذبها مزيج من مشاعر البهجة والارتياع. كانت سعيدة باقتراب أحمد منها، وتسلِيمه الرسالة لها؛ غير أنها بقيت مثخنة بالجزع، إذ كانت تَظُنّ أن جميع من في المدرسة يعرفون الأمر. بعد انتهاء الحصة الدِّراسية الثالثة، تَنَفَّسَت الصُّعداء، وشكرت الله؛ إذ تأكدت أن أحدًا لا يعلم شيئا.

بتَلَهُّف، عادت إلى المنزل، في الواحدة ظهرًا. دخلت الحَمّام مباشرة، وأخرجت الرسالة من جيبها وقرأتها. كانت الرسالة عبارة عن ورقة مُعَطَّرة فيها سبعة أسطر كُتِبت بخط جميل جعلها تنتبه، لأول مرة، إلى جمال اسمها. قال أحمد، في رسالته المقتضبة، إنه يُحِبّها. تغزَّل في جمالها، ووصفه بـ"الفاتن". وَقَّعَ الرسالة باسمه، وقال إنه ينتظر منها رَدًّا. اضطرب قلبها، وزاد تورُّد خدّيها. أخفت الرسالة في جيبها، ووقفت تتأمَّل وجهها في مرآة الحَمّام، مُتَفَقِّدة جمالها.

استيقظت من قيلولة العصر، وبدأت في إنجاز واجباتها المَدرسِيّة. فعلت ذلك في مكانها المعتاد: قرب نافذة الغرفة التي تنام فيها مع شقيقتيها. تذكَّرت أحمد ورسالته، فعاد قلبها إلى الخفقان. وكأيّة عاشقة مُبتدِئة، نظرت في الأفق المُمتدّ، وأطلقت زفرة التياع طويلة. مرَّت بنظرها على الشارع؛ ففوجئت بأحمد يسير نحو البناية المقابلة. رأته وهو يجلس أسفل تلك البناية؛ وتحديدًا على درجاتها المنسابة على الرصيف. غمرتها فرحة كبيرة. احمرَّت وجنتاها، وعاد قلبها إلى الاهتزاز.

ثَبَّتت نظرها على الفتى الوسيم، الذي كانت قد صارت تتعامل معه باعتباره حبيبها. وجدته يسترق، بين لحظة وأخرى، نظرات خاطفة إلى نوافذ شقَّتها. أهملت مذاكرتها، وتفرَّغت لمراقبته، من خلف زجاج النافذة العاكس للرؤية. وعندما غادر، بعد نحو ساعة، بقت في مكانها؛ على أمل عودته، لكنه لم يعد.

صباح اليوم التالي، ذهبت إلى المدرسة، فرأته ينتظرها في مكان وقفته الصباحية المعتادة، قرب منزلها. ابتسمت له ابتسامة مرتبكة، وهي تَمُرّ في رصيف المشاة الضيق، يمين الشارع. اكتفى بتلك الابتسامة، واتَّجه إلى مدرسته دون أن يلحق بها. عصرًا، قصد رصيف البناية المقابلة لبناية سكنها، حيث

قضى وقتًا طويلًا يتصرَّف بخِفَّة ورشاقة، معتقدًا أنها تراه من خلف زجاج إحدى النوافذ. كانت بمفردها في الغرفة، ففكَّرت أنه إذا لم يعلم بأنها تشاهده فقد يغادر بلا رجعة. فتحت جزءًا من النافذة، وأطلَّت بوجهها. التقت عيونهما، فرمته بابتسامة ساحرة، ثم اختفت خلف النافذة. باغته ظهورها، وبَثَّ الحياة في مساءاته.

التزم مكانه، مُتصَنِّعًا التَّشاغُل بحديث مع أحد أصدقائه. إلاَّ أن ما كان استراقًا لنظرات عابرة تحوَّل إلى تركيز كامل ومحموم على النافذة التي ظهرت منها. راجعت دروسها، بسرعة وبذهن مُشَتَّت؛ إذ كان عقلها منشغلًا بمراقبة فتاها. بعد ساعة، ظهرت مرة أخرى، وجعلته يشاهدها. ابتسمت له، ثم أغلقت النافذة. من يومها، واظب على قضاء أغلب ساعات العصر في ذلك المكان.

في الصباح التالي، لَحِقَ بها، وسلَّمها رسالة دسَّتها سريعًا في جيبها، ولم تستطع قراءتها إلاَّ في حمّام المنزل، بعد عودتها من المدرسة. رُشَّت الرسالة بذات العطر رخيص الثمن الذي رُشَّت به الرسالة الأولى.

جدَّد أحمد انبهاره بجمالها "الساحر". وفي السطر التاسع والأخير من الرسالة، قال إنه مازال ينتظر رَدَّها. بعد أسبوع، رَدَّت عليه برسالة سلَّمتها له صباحًا. تطورت علاقتهما. وفي إجازة نصف العام الدِّراسِي، وافقت على الخروج معه؛ لكنهما لم يجدا مكانًا مناسبًا يجلسان فيه. كانت قد بدأت في ارتداء اللثْمَة مع البالطو؛ وستلتزم ذلك بقية حياتها.

تتابعت رسائلهما الغَراميّة؛ ذلك أنها لم تكن قد حصلت على موبايل شخصي. تسكَّعا مرارا في بعض شوارع المدينة، ثم توقفا عن ذلك، بسبب مضايقات تعرَّضا لها من قِبل المارة والباعة وسائقي السيارات والدراجات النارية. لتجنُّب تلك المُنغِّصات، وافقت، في إجازة نهاية السنة الدِّراسِية، على

الذهاب معه إلى شقَّة أحد أصدقائه تقع في إحدى بنايات حَيٍّ قريب. اقتنعت بتلك المغامرة بعد أن أكد لها أنهما سيكونان بمفردهما، وأنه لن يفعل ما يغضبها.

61

ارتدت سُهى بلوزة سوداء على بنطلون حريري أسود، وأخبرت أمها أنها ستزور صديقتها "نوال". كانت الثالثة عصرًا، حين غادرت منزل أُسرتها، وقلبها يرتجف بشدة. رأت أحمد ينتظرها في المكان الذي أخبرها به. سارت خلفه، على بُعد يكفي لتجنُّب إثارة الشُّبهات. جعلها تُشاهِده وهو يَدخُل البناية، التي فيها شُقَّة صديقه. صعد السلالم سريعًا. دخل الشُّقَّة، وترك بابها نصف مفتوحٍ. عبرت عتبة الباب، فوجدته ينتظِرها خلفه مباشرة. اضطربت واختلج قلبها خوفًا ولوعة.

أغلق أحمد الباب، فيما سارت هي نحو نافذة الغرفة الرئيسية، حيث وقفت تسترق النظر قليلا، كي تَطمَئِنّ أن أحدًا لم يتبعها، وأن الحركة طبيعية في الخارِج. اطمأنَّت، فأطلقت نفسًا عميقًا وجلست. استجابة لإِلحاحه خلعت البالطو، على استحياء. انبهر الفتى الوسيم بجمالها وجسدها، وقال إنها أكثر "سحرًا وفِتْنَة" مما كان يتوقَّعَ. اقترب منها، وهو يتفوّه بكلمات الغزل المتداولة. أمسك يدها، فوجدها ترتعش. كانت مرتبكة وخائفة. وحين دنا منها وقَبَّلَها، أخذت ترتجف. انحنى عليها، أكثر، وأمطرها بعاصفة من القُبَلِ. مرَّر يده اليمنى على صدرها، فتصاعد اضطرابها، فيما تزايد ارتعاش جسدها.

غَرِقَت في اللِّذَّة، واستسلمت له وهو يخلع بلوزتها. تحسَّسها باشْتِهاء جامح. أخرج نهديها من تحت حمالة الصدر السوداء. حَظِيَ نهداها بنصيب

الأسد من المُداعبة والقُبَلِ. استسلمت أكثر للنّشْوَة؛ لكنها لم تسمح له بتعرية الجزء الأسفل من جسدها. توقَّف عن محاولته خلع بنطلونها، فاطمأنَّت. وبدافع ذلك الاطمِئنان، أخذت تتراجع بجسدها حتى استلقت؛ فأتاحت له المجال ليَمُدّ جسده على جسدها نصف العاري.

استعرت الرغبة بلقاء الجسدين. وبينما هو منهمك في تقبِيلها، ومداعبة نهديها، مرَّر يده اليمنى على بنطلونها؛ محاولًا استكشاف الجزء الأسفل من جسدها. بمشاعر راجِفة، تلمَّس أطراف ردفيها. مرَّر يده على فخذيها المسترخيين، حتى بلغ منطقة التقائها، حيث أَحسَّ بحرارة تتصاعد من تحت بنطلونها. ارتجف قلبه، وهو يتحسَّس منطقتها المُقَدَّسة، ببروزها اللحمي المهتاج. انتقلت الرجفة إلى كامل جسده، وهو يَحُسّ حرارة أنثوية حميمة تنبعث بين أصابعه. توقَّع أنها ستبعد يده، وتقفل فخذيها؛ لكنها لم تفعل. استرق النظر إليها، فوجدها مغمضة العينين، مُستسلِمة لنقرات الحُبّ، وعاصفة الرغبة. مضى في مداعبة منطقتها المُقَدَّسة التي تصاعد انبعاث الدفء منها. بعد دقائق، حَضنته بقوة، وقَبَّلَته بعنف حتى عَضَّت شفته السفلى. انتهت الرعشة، فنهضت، وارتدت ملابسها، ثم غادرت وهي غاضبة.

خلال الأيام الثلاثة التالية، ظَلّت نافذة غرفتها مغلقة، فيما واصل هو الجلوس في مكانه المعتاد، على الناصية المقابلة؛ وقد أضفى على ملامحه تعابير من الحزن والأسف. عصر اليوم الرابع، خرجت، تنوي زيارة صديقتها نوال. لحِقها، وعندما اقترب منها راح يُعاتِبها على الجفاء الذي تجرَّعه منها الأيام الماضية. قالت إنها غاضبة من تمادِيه وتمادِيها، في لقائهما الأخير. توهَّج وجهه بحمرة الخجل، قبل أن يقول إنه كان تماديًا لذيذًا. التفتت إليه بعينين ناعستين وباسمتين؛ فاعتبر ذلك إعلان موافقة منها على صحة ما قال. أكد أنه يعرف

الحدود المقبولة للتمادي، ولا يمكنه تجاوزها، فرمقته بنظرة بالغة الرِّضا والاطمئنان. انهال عليها بكلمات الاشتياق والحُبّ، واستطاع إقناعها بلقاء جديد حدَّدت هي موعده: بعد يومين. أَصرَّت على أن يكون اللقاء في مطعم، لكنه أقنعها، بسهولة، أن من الأفضل لهما الالتقاء في منزل صديقه؛ تجنُّبًا للمضايقات التي يتعرَّضان لها في الأماكن العامة.

وَصَلَت، في الموعد، إلى منزل صديقه، وهي ترتدي بلوزة نصف عارية، وتنورة قصيرة. بعد ربع ساعة، وجدت نفسها غارقة في اللِّذّة، وهي بملابسها الداخلية فقط. برغبة مجنونة، تلمَّسَ تفاصيل جسدها المتَّقد شهوة. مرَّر يده اليمنى، على سروالها الداخلي، وتحديدًا على منطقتها المُقَدَّسة. فعل ذلك كجسّ نبض. تدافعت دقات قلبه، إذ لم يجد منها أيّة ممانعة. اختلس النظر إليها، فوجدها مغمضة العينين، مُستسلِمة لنقرات الحُبّ، وعاصفة الرغبة. مضى في مداعبة وتَحَسُّس منطقتها المُقَدَّسة، حتى ابتَلَّ جزء من سروالها الداخلي بمائها المُقَدَّس. رفع الطرف الأيسر للسروال، وأدخل أصابعه. لمس الماء المُقَدَّس اللَّزِج، وشَعَرَ بحرارة الرغبة المتصاعدة. أحسَّ بقلبه يَدُقّ كمطرقة، وهو يتلمَّس المنطقة المُقَدَّسة؛ ببروزها اللحمي مهتاج الشفرات، وماء الحياة المتدفِّق منها. وجد الحرارة الأنثويّة أكثر دفئًا وحمِيميّة وفِتْنَة. رأى فتاته غارقة في رغبة مُلتَهِبة. انحنى برأسه يريد مشاهدة غارها المُقَدَّس؛ بيد أنها أمسكت رأسه، وضَمَّت ما بين فخذيها. رفع رأسه إلى الأعلى، وفَضَّلَ مواصلة تقبِيلَها، فيما يده اليمنى تعبث في الأسفل. بعد دقائق، حضنته بقوة، وعَضَّت رقبته. انتهت الرعشة، فنهضت، وارتدت ملابسها، ثم غادرت وهي غاضبة. ظَلّت نافذة غرفتها مغلقة لأسبوع كامل.

دامت علاقة أحمد وسُهى قرابة ثلاث سنوات؛ حتى أكملت هي الثانوية العامة. تواصلت لقاءاتهما، بشكل مُتقطِّع، خلال تلك السنوات

الثلاث، في المنزل ذاته. عاش أوقاتًا جميلة ومجنونة، تمكَّن خلالها من مشاهدة منطقتها المُقَدَّسة، ومداعبتها بلسانه، ولعق ماء الحياة الذي يخرج منها مختلطًا بالحرارة الأنثوية الحمِيمة. كان بإمكانه فض بكارتها؛ لكنه لم يفعل. حافظ على عذريتها؛ لا حُبًّا فيها، بل خوفًا من أن يتورط في الزَّواج بها.

انتظرت منه أن يَتَقَدَّم رسميًا لخِطبَتِها؛ غير أنه لم يفعل. حدثته في الموضوع، أكثر من مرة. وحين أَلحَّت عليه، صدمها بقوله إنه لا يستطيع الزَّواج بها، لأن والده يريد تزوِيجه بابنة عَمِّه. قطعت علاقتها به. حينها، كانت رغبتها الجنسية قد كَبُرَت، وكان قد أصبح لديها موبايل.

62

لا تعمل الثقافة في اليمن كآلية لجذب قلوب النساء، بل لنفورهن.

تأكد ناصر قاسم من هذا الأمر بعد الإهانة التي وجهتها إليه مريم، زوجة سمير، لتجبره على قطع معرفته العابرة بها، وهي معرفة نشأت في تلك الليلة التي قضاها معها في منزل أحد أصدقائه. بعد أسبوع من تلك الليلة، اتصل ناصر بمريم، وكله أمل فى الحصول على موعد للقائها. أجرى ذلك الاتصال في ساعة متأخرة من الليل، بعد أن أغلق على نفسه باب غرفته، وتَجَهَّز لإجراء مكالمة جنسية مع العاهرة الجميلة التي مازالت تفاصيل جسدها طرِيّة في ذاكرته. بحث عن اسمها في موبايله، ثم ضغط زِرّ الاتصال، وهو متلهِّف لسماع صوتها. خفق قلبه حين سمعها ترد: "ألووووو"، بحروف ممطوطة، وتغنُّج مثير.

– كيفك يا حلوة؟

– من معي؟!

صدمه السؤال، وكأنما كان يتحدَّث إلى حبيبة يعرفها منذ الطفولة، لا مجرد امرأة التقاها في ليلة عابرة! تبدَّدت سعادته. صدمه سؤالها، إذ يتذكَّر جيدًا أنه دوَّن لها رقم موبايله؛ خلال تلك الليلة التي قضاها معها في منزل صديقه. وإلى هذا، فقد كان على ثقة تامة أنها لن تنساه بعد أن أدهشها بثقافته الواسعة!

بنبرة حزينة، عاتبها لأنها لم تُسَجِّل رقم تلفونه في موبايلها. لم يعرف أنها رمت الورقة، التي دوَّن عليها رقم تلفونه، ما إن غادرت منزل صديقه.

– مَعِك ناصر قاسم. اتصلت أطمئن عليك..

– ناصر قاسم من؟!

سألت مندهشة.

تضاعفت صدمته. حَكّ عُنقه، وأغمض عينيه وفتحهما ثلاثًا، وحَرَّك رقبته إلى اليسار واليمين، بشكل سريع ومتتابع، ثم أجاب، بتعجب واستغراب:

– ناصر قاسم! ناصر قاسم!.. ما لك؟! قد نسيتي؟!

– ناصر قاسم؟! أمممم.. والله ما أذكر!

دهمه صمت جارح ومهين. ذَكَّرَهَا بلقائهما. وإذ تذكّرت، قالت، بازدراء:

– هاااااه.. أيوه، أيوه.. ذكَرتك.. أنت اللي قلت ان القحاب أشرف من في اليمن! أيوه، صح، أنت اللى كنت تشتيني أكلِّمك عن عملي، وعن.. عن.. عن أيش؟! أيش سَمّيته أنت؟! أيوة، ذكَرت.. أنت الي كنت تشتيني أكلِّمك عن عملي، وعن مجتمع الدعارة؟!

رَدَّ، بصوت خفيض ونبرة خجول:

– أيوة.. أنا.. كنت أشتي..

وصَمَتَ بانتظار كلمة ترحيب منها تُلطِّف السخرية التي وجَّهتها إليه؛ لكنها باغتته بما هو أقسى:

– شوف يا بَطَل، انسي إنك عرفتني، وانتبه تتصل بي مرة ثانية!

قالت ذلك بصوت ساخط، ثم أغلقت الخط في وجهه.

باغتته رَدَّة فعلها؛ إذ كان يَظُنّ أنه استطاع، في تلك الليلة التي قضاها معها، أن يبهرها بثقافته. كان يعتقد أنها لن تنساه، وستحرص على إقامة علاقة صداقة معه.

بانكسار، رمى الموبايل جانبًا، وتلفَّت حوله للتأكد من أن أحدًا لم يسمع الإهانة التي تلقَّاها. كان وحيدًا في غرفته؛ لكن الصدمة أفقدته توازنه.

63

عبد الكريم هو بطل قصة الحُبّ الثالثة في مسيرة سُهى. تعرَّفت عليه في أحد الأسواق التجارية، حيث تبادل وإياها نظرات الإعجاب، ثم سلَّمها ورقة دَوَّن فيها رقم موبايله. تناولت الورقة، لأنها أعجبت بوسامته، وقدَّرت أنه يسير في بداية الثلاثينيات؛ في سن مناسبة لها ولرغبتها في العبث العاطفي. بعد اتصالات عدة، اكتشفت أنه مُتزوِّج ولديه طفل. مع ذلك، لم تقطع علاقتها به؛ حرصًا على المبالغ المالية البسيطة التي كانت قد بدأت تحصل عليها منه.

خرجت معه في ستة لقاءات غَراميّة جرت في سيارته. تَعِبَ من استراق العبث معها في السيارة، وهي ترتدي البالطو واللثْمَة، فأقنعها بالسفر معه إلى مدينة عدن الساحلية. وافقت بعد أن سلَّمها ثلاثين ألف ريال "مصروف جيب"، والتزم بتسليمها مبلغًا آخر عند العودة.

في صباح شتوي، غادرت منزل أُسرتها، وتوجَّهت معه إلى عدن. أخبرت أمها بأنها ستذهب إلى صديقتها نوال. بعد الظهر، اتَّصلت الأم بنوال، فتفاجأت بها تنفي زيارة سُهى لها.

دخل وقت العصر وانتهى، وسُهى لم تعد. التزمت نادية بطقوسها اليومية في "تَخْزِين القات"؛ لكن بذهن مكتئب، وروحٍ مضطربة. جثم عليها غَمٌّ كئيب ومتثاقل. كان الخوف يلتهمها بمرور الوقت. وعندما حَلّ المساء، كانت قد أُصِيبت بحالة من الهستيريا. تقاذفتها الهواجس والظنون. اقترح سمير إبلاغ الشرطة. رمقته أمه بنظرة ازدراء، وزجرته:

– اسكت أنت وهذا الكلام الأهبل! خَلِّينا ننتظر، يمكن أختك ترجع بعد قليل!

في السابعة مساءً، أيقنت نادية أن شيئًا ما حدث لابنتها. تعاظم الخوف والقلق في نفسها. ثبَّتت نظرها على ساعة الحائط، وأخذ فزعها يتزايد مع مرور كل دقيقة. بين وقت وآخر، كانت تنهض من مكانها، وتدور في الشقَّة وهي تطلق زفرات ألم واهتياج. نهشتها لحظات الانتظار، واستبدَّ بها الجزع. بكت، أخيرًا، وهي تشاهد عقربي الساعة يتعامدان على الرقم 11. عند منتصف الليل، تناقشت مع أبنائها، للمرة التاسعة، عما يمكن فِعلهُ. أحجم سمير عن تقديم أيّ مقترح، فيما أكدت سلوى على ضرورة إبلاغ الشرطة. صرخت نادية، وهي تنظر نحو ابنها:

– لو معي رَجَّال كان قد راح الظهر يبَلِّغ الشرطة، ويدَوِّر أخته في المستشفيات!

أجاب سمير، وعلامة الحيرة والارتباك ظاهرة عليه:

– أنا قلت لكِ بعد الظهر نَبَلِّغ الشرطة، قلتِ لي: اسكت أنت وهذا الكلام الأهبل!

قَرَّعتهُ أمه، بصوت مرتفع:

- لو كنت رَجَّال كنت الآن تدَوِّر على أختك خارج، مش جالس جَنبِي مثل النِّسوان!

تهالك وهو ينهض من مكانه، ثم تلعثم يقول:

- الآن با اروح أبلِّغ الشرطة، وبعدين با اروح أدَوِّر في المستشفيات.

- عادك ذكرت الآن تعمل هذي الحاجات؟! لو أنت رَجَّال كنت عملتها الظهر!

- أنتِ ما رضيتي! والآن معانا وقت أروح.

- اسكت أنت وهذا الكلام الأهبل! خَلِّينا ننتظر، يمكن أختك ترجع الصباح.

جلس في مكانه ملتزمًا الصمت، بينما كانت أمه تُطلق زفرات مضطربة، وبين وقت وآخر تنهض من مكانها وتدور في الشقَّة، وهي في حالة من الهياج والقلق. كانت تبكي وهي شبه منهارة. لم تستطع النوم ذلك المساء، وفي الصباح، منعت ابنها من إبلاغ الشرطة، والبحث في المستشفيات، على أمل أن تعود شقيقته في الظهر. وحين اعتزم تنفيذ المهمة، ظهرًا، حالت دون ذلك، على أمل أن تعود سُهى عصرًا.

عادت سُهى في الثامنة مساءً؛ بعد 35 ساعة من الاختفاء. أول ما دخلت الشقَّة انفجرت باكية، وأخبرت أمها أن صاحب تاكسي خطفها؛ عندما كانت في طريقها إلى منزل نوال. انفجرت الأم فى الصراخ، فطمأنتها ابنتها أن "خاطِفها" لم يلمسها. وقفت نادية مرتابة غير مُصَدِّقة ما سَمِعَت، فأقسمت سُهى أنها مازالت عذراء. وفيما بعد، روت تفاصيل القصة لصديقتها نوال. قالت إنها نامت مع عبد الكريم في غُرفة داخل أحد فنادق

عدن. قالت إنها سمحت له بأن يُداعِبها ويُعرّي الجزء الأعلى من جسدها؛ لكنه لم يكتفِ بذلك:

– ما رضيت أَخَلّيه يَحُّل لي البنطلون. ولمَّا أصرّ، قلت له إني باصِيح بأعلى صوتي، وافضحه. ابتعد وما عاد قرب مني!

زعمت أنها رفضت أن تنام، تلك الليلة، معه على السرير العائلي الخاص بغرفة الفندق. قالت إنها نامت على فراش في أرضية الغرفة، وظهر اليوم التالي أجبرته أن يعود بها إلى صنعاء.

64

خلال عامه الجامعي الأول، اعتمد ناصر قاسم على والده المغترِب في السعودية، الذي كان يُرسِل له، شهريًا، مبلغًا ماليًا زهيدًا. لم يكن ذلك "المصروف الشهري" يكفيه إلاَّ أسبوعا واحدا. لهذا، كان يقضي الأسابيع الأخرى من كل شهر في البحث عما يسُدّ رمقه وفمه.

بداية عامه الجامعي الثاني، توقَّف أبوه عن إرسال المال إليه. مذاك، وَجَدَ نفسه مُعدمًا، دون سند أو عائل. كان أمام مفترق طرق: ترك الدِّراسة في الجامعة، أو خوض مغامرة الاستمرار فيها دون سند. أدرك أنه، في حال فضَّل الخيار الأول، سيتحول إلى عامل بالأجر اليومي، أبعد أحلامه الحصول على "فيزا عمل" لدخول السعودية، وقضاء بقية عمره هناك في غربة مضنية وكفيفة المحصول. وهكذا، لن يكون بإمكانه تحقيق حُلمه في أن يكون سياسيًا ومثقفًا معروفًا. اختار الخيار الثاني بلا تردُّد، ولم يكن أمامه غير تكريس ذاته للبحث اليومي عن قيمة الأكل والقات. ولعل نجاحه في الأمر هو ما جعله رهينة للسلبيّة الذاتية وحياة البطالة الدائمة.

مع أن والده تَخَلَّى عنه، إلاَّ أنه ظَلّ ملتزمًا نحوه بواجبات الابن. أصبح كل هَمّه إرضاءه. دونما وعي، صار سعيه المشوَّش للنجاح في الحياة مدفوعًا برغبة إرضاء أبيه، لا رغبته الشخصية بتحقيق ذاته وطموحه. كان يظُنّ أن والده سيعود لدعمه بـ"المصروف الشهري" الزهيد، إلاَّ أن ذلك لم يحدث. وكلَّما كان أبوه يمضي قُدُمًا في التَّخَلِّي عنه، كان هو يمضي أبعد في التَّخَلِّي عن التزاماته وواجباته الدِّراسِية. ربما يُفَسِّر ذلك ارتخاء الحافز والطموح لديه، وافتقاده التدريجي للدافع الشخصي. والنتيجة أنه تَخَرَّج في الجامعة بتقدير ضعيف، ودونما إتقان للغة الإنجليزية. والمفارقة أنه تعامل مع الأمر باعتباره خذلانًا لأبيه، أكثر منه فشلًا ذاتيًا خاصًا. ورغم ما كان يبديه أبوه من عدم اكتراث به، وبتحصيله العلمي، فإنه حَرِصَ على إخفاء ذلك عنه.

بعد اجتيازه للجامعة، واجه فشلًا جديدًا. صارت مشكلته الكبرى هي الفشل في الحصول على وظيفة. اعتاد إرجاع فشله هذا إلى انعدام الوظائف، وارتفاع نسبة البطالة في البلاد. استغل أبوه ذلك لتبرير تَخَلِّيه عنه، وصَعَّد من حملة التَّشنِيع به. كان يقول لمعارفهما وأهل قريتهما:

– مُش قلت لكم ان ناصر صعلوك ومُش رِجَّال؟! مُش حق دِراسة ولا حق عمل! ضَيَّع نفسه بالسياسة والكلام الفاضي!

لم يكن يعرف أنه تَخَرَّج في الجامعة بتقدير ضعيف، وأنه صار ينام حتى الظهر؛ وإلاَّ لكان استخدم ذلك كقرينة تثبت فشله.

لم يحدث أبدًا أن تحدَّث ناصر عن قسوة أبيه، واعتاد تبرير تَخَلِّيه عنه بالقول إنه "مجرَّد نجار يعمل بالأجر اليومي". وإلى هذا، كان يفخر بأنه درس الجامعة "معتمدًا على نفسه".

في العامين التاليين لانتهائه من الدِّراسة الجامعية، داومت أمه على الاتصال به، لتسأله عما إذا استطاع الحصول على وظيفة. وعندما بدأت

تختنق بمرارة فشل ابنها الأكبر؛ قلَّصت اتصالاتها غير المنتظمة به، ولم تعد تسأله عن الوظيفة. لقد استسلمت لحقيقة فشله، وواصلت العيش مُكابِدة مرارة الضياع الذي هو فيه.

منذ فترة طويلة، لم يستطع السفر إلى القرية لزيارة أمه، وأفراد أُسرته (لديه شقيق وثلاث شقيقات). مازال غير قادر على السفر إلى القرية، بسبب افتقاره الدائم للنقود. صار نَفسًا كسِيحة ومُعذَّبة، ولم تعد لديه قدرة حتى على التفكير فى آلامه وإخفاقاته. لديه قدرة كبيرة على التعالي، وتسويق الأوهام؛ لكنه لم يستطع التعالي على فشله، أو تسويق وهمه الذاتي.

قضى أربع سنوات من عمره وهو يتنقَّل بين الوزارات والجهات الحكومية، والشركات الخاصة، بحثًا عن وظيفة. قَدَّمَ عشرين ملفًا اختفت في أدراج مسئولي المؤسسات الحكومية، الذين ظَلّوا يوزعون الوظائف على أقربائهم، وذوي الوساطات والنفوذ. قَدَّمَ سبعة عشر ملفًا لشركات خاصة، عشر منها أهملت طلبه، فيما خاض اختبارات قبول في السبع الأخرى؛ لكنه فشل في كل تلك الاختبارات. قبل عامين ونصف العام أوقف بحثه عن وظيفة، بعد أن بدا له الأمر بمثابة تبديد للوقت والجهد دونما فائدة. وحين قرَّر الآن، منتصف عام 2015، إحصاء خيباته، عادت إليه وطأة ذلك الإحساس باللهاث، الذي كان قد تخلَّص منه قبل عامين ونصف العام.

مضت ثماني سنوات منذ تخرُّجه فى الجامعة. مازال عاطلًا عن العمل، ويعيش في مدينة صنعاء؛ في غرفة ضمن شقَّة يسكنها طلاب وافدون من قرى تعز. مازال يعتمد على أصدقائه ومعارفه، الذين يواصلون تقديم العون المالي له، حسب ظروفهم، وحالاتهم النفسية والمزاجية، ومسيرة علاقتهم به. مازال ينام وجيوبه فارغة من النقود، ويصحو كل يوم كي يبدأ البحث عمَّن يتكفَّل بتقديم العون له. تَعِبَ من كونه معدمًا، وانتابه شعور بالرعب إذ وَجَدَ نفسه

قد تَكَيَّف مع حياة التَّبَطُّل والعوز، ويعيشها برضا كامل، دونما طموحٍ أو أمل.

65

أجرت نادية فحصًا طبيًا لابنتها الصُغرى؛ كي تتأكد من أنها لا تزال عذراء. تَنَفَّسَت الصُّعداء، حين أكد الفحص صحة ما قالته سُهى. مع ذلك، تشدَّدت في مراقبتها. قَيَّدت خروجها من المنزل، ولم تعد تسمح لها بدخول غرفتها لإجراء مكالماتها الغَراميّة الطويلة. ويوم أيقنت أنها غير قادرة على الحفاظ عليها، قرَّرت إدخالها الخدمة للعمل ضمن شبكة الدعارة التي تديرها. فكَّرت في عرضها على أحد زبائنها الأثرياء. انشغلت طويلًا في البحث عن الشخص المناسب لعقد الصفقة. فكَّرت في تاجر خمسيني سمين تعرَّفت عليه قبل نحو شهرين.

بعد أسبوعٍ من التفكير والحيرة، اتَّصل بها هذا التاجر، يريد فتاتين، له ولصديق عزيز عليه. أشرفت بنفسها على تجهيز إيمان ومريم وأرسلتهما إليه. ظهيرة اليوم التالي، عادتا ومع كل منهما مائة ألف ريال. في المساء، استغرقها التفكير في كرم "الزبون الجديد". تأكدت أن ابنتها سُهى ستُحطِّم الرقم القياسي؛ إذ ستكون صاحبة أغلى بكارة في اليمن.

قبل أن تمضي سبعة أيام، اتَّصلت نادية بـ"زبونها الجديد"، وأبلغته أنها تريد زيارته كي تُقَدِّم له مفاجأة. أغلقت التلفون، وهي مبتهجة. استدعت ابنتها الصُغرى إلى غرفتها، وأخبرتها بأنها ستأخذها معها، عصر غد، لزيارة رجل من أثرياء البلاد. طلبت منها أن ترتدي أجمل ملابسها، مؤكدةً أن الحياة ستفتح لها أبوابها. أدركت سُهى طبيعة الزيارة، وما عليها القيام به. وعندما ذهبت، اليوم التالي، إلى التاجر الخمسيني السَّمِين جعلت لُعابه يسيل.

استقبل التاجر السَّمِين نادية وهديتها، في فِيلّا ضخمة، فيما انتظر سمير داخل السيارة، في الحوش. صافحهما الخمسيني السَّمِين، بسعادة. قادهما إلى غرفة استقبال فخمة وهو يُكَرِّر عبارات الترحيب بحرارة. طلب منهما أن يأخذا راحتيهما، وكأنهما في بيتهما. تبادلت نادية وإياه عبارات المجاملات المعتادة، ثم غادرت إلى الصالة كي تخلع البالطو. التحقت بها سُهى، ووشوشتها قائلة إنها ستبقى بالبالطو؛ لأنها تخجل من الظهور أمام الرَّجُل بالملابس غير المحتشمة التي ترتديها. صوَّبت الأم إلى ابنتها نظرة غاضبة، ونصحتها، بنبرة آمرة، وعينين تقدحان حَزْمًا، بعدم إضاعة الفرصة من بين يديها. علَّقت نادية البالطو الخاص بها على الشماعة النفيسة، ثم همست في أُذن فتاتها:

– لا تستحي! خَلِّيكِ واثقة من نفسكِ، وارفعي رأسي. أني باسبقك لداخل، وأنتِ حُلِّي البالطو واِلحقيني.

قفلت نادية عائدة إلى غرفة الاستقبال، وبعد دقيقتين لَحِقتها سُهى. الأم شاهدت الخمسيني السَّمِين يُحدَّق مشدوهًا في ابنتها، التي كانت ترتدي ملابس أنيقة وقصيرة أظهرت تفاصيل جسدها البَضّ. قال، وهو فاغر الفم:

– ما شاء الله! اللهم صلِّ على النبي!

احمرّت وجنتا الفتاة، وهي تَتَّجِه لتجلس جوار أمها. ركَّز عليها نظرات حادة من عينيه اللتين بدتا كعيني صقر يترصَّد فَرِيسَته. مرة أخرى، أطلق عبارات ترحيب، وأضاف:

– ما شاء الله! اللهم صلِّ على النبي!

أدار وجهه نحو الأم، وابتسم لها ابتسامة مترعة بالشكر والعرفان. وكنوعٍ من المجاملة، قال إنها مازالت جميلة. شَعَرَت نادية بسعادة دافئة، ورَدَّت عليه، بخجل مُتَصابٍ:

– شكرًا يا نَظَر. هذا من حسن نظركم.

عَرَّفته بسُهى. أخبرته أنها ابنتها الصُغرى، وأن عمرها عشرون عامًا. نهضت من مكانها، واتَّجهت لتجلس جواره. تمايلت في مشيتها، وعندما جلست تَعَمَّدت الاقتراب منه حَدّ الملامسة. غمزت له غمزة لعوب، ووشوشته قائلة إن سُهى هي المفاجأة التي وعدته بها. وإذ تَهَلَّل وجهه، أكدت له أن فتاتها ما تزال عذراء. ازداد وجهه إشراقًا، وصوَّب إلى سُهى نظرة ماجنة، وهو يُمَسِّد شاربيه. أطرقت الفتاة بعينيها خجلًا. التفتت إليها أمها، وطلبت منها أن ترتدي البالطو وتسبِقها إلى السيارة. قبل أن تمر عشر دقائق، خرجت نادية، وفي يدها ظرف فيه ثلاثمائة ألف ريال. صَعَدَت السيارة عائدة إلى منزلها، وهي منشرحة الصدر. قالت لسمير إنه سيعود بسُهى، عصر غد، إلى هذه الفِيلَّا.

دخلت نادية غرفة نومها، بعد أن طلبت من ابنتها الصُغرى اللحاق بها. دلفت الفتاة الغرفة، وأغلقت الباب خلفها. حضنتها أمها بقوة، وقَبَّلتها قائلة: "مبروك.. مبروك.. مبروك... باتحطِّمي الرقم القياسي". أدركت سُهى ما تقصده أمها، وفوجئت بها تقول لها، بالفرح النَّشوان ذاته:

– ليلتك الأولى باتكون بخمسمائة ألف.

أضافت نادية، بغبطة، وهي تمسك بيدي ابنتها، وتنظر في عينيها:

– باتكوني صاحبة أغلى بكارة في اليمن!

تَعَمَّدت الفتاة إظهار ملامح محايدة. أحاطتها الأم بنظرة حنونة، وقالت، وهي تضغط على يديها:

– أنتِ عارفة إن الليلة الأولى لمريم كانت بمائتى ألف، وإيمان بثلاثمائة ألف، وجميلة بمائة وخمسين ألفًا بس؟! وعلى زماننا كانت أغلى بنت قدَّمت بكارتها بخمسين ألفًا بس!

اجتاح سُهى زهو فضفاض؛ إذ تأكدت أنها ستحطِّم الرقم القياسي بفارق كبير. شَعَّ وجهها بفرح غامر، ولاحت ابتسامة متباهية على محياها. حضنتها أمها بقوة، لأنها تعاملت مع ابتسامتها تلك كموافقة نهائية على المضي في الصفقة التي عقدتها مع الخمسيني الثري.

ببشاشة، فتحت نادية الظرف الذي عادت به، وقَرَّبته من ابنتها، تُريها المبلغ المالي الذي دفعه الرَّجُل عربونًا لليلة التي ستقضيها معه غدًا. انشرحت الفتاة وهي تشاهد الرُّزَم الثلاث داخل الظرف. تتبعت يد أمها وهي تُخرِج رزمة منها، وتدفعها إليها. ثم استمعت إليها وهي تطلب منها أن تأخذ عشرين ألفًا وتخرج إلى السوق، من ساعتها، لتشتري لنفسها ملابس وقارورة عطر. أكدت لها أنها ستذهب غدًا لقضاء ليلة مع الرَّجُل، وستعود صباح اليوم التالي بمأتى ألف ريال. أضافت، وهي تُحَدِّق في عينيها:

– لا تقلقي! غشاء البكارة يتم إصلاحه بخمسين ألفًا، ولمَّا يجي نصيبك في الزَّواج عليَّ كل شي.. ما لك إلاَّ أَرَجِّعِك بنتًا بغشاء بكارة جديد لنج. المهم، بكرة ترفعي رأسي، ولا تقلقي من أيّ شي.

هزَّت الفتاة رأسها مبتسمة بروح مُتطَلِّعة للعمل في مهنة أمها. غادرت، بخيلاء ومعنويات مرتفعة، باعتبارها صاحبة أغلى بكارة في اليمن.

66

أحصى ناصر قاسم خيباته، فَشَعَرَ بالأسى على نفسه. وَجَدَ أنه مُثخن الجراح أكثر مما ينبغي، وأكثر مما كان يظنّ. انتبه إلى أن سنوات طوالًا مرَّت من عمره، منذ أنهى دراسته الجامعية، ومازال بلا وظيفة، بلا منزل، وبلا زوجة. تضاعف شعوره بالفشل والضياع، وأَحسَّ بثقل الإخفاق، ووطأة التقدُّم في العمر. شَعَرَ بروحه تَلهَث بينما هو جالس دون حركة منذ ساعتين.

أعاد إحصاء خيباته، فوجدها لا تحتمل. أيقن كم أنه فاشل، وعاجز، وضعيف. لكن ما يُثقِل كاهله أكثر هو حالة الخذلان والشعور بخيبة الأمل التي تسبَّب بها لأبويه.

قرَّر عدم إحصاء خيباته مرة أخرى. غادر غرفته بحثًا عن عشاء، بعد أن عَثَرَ على خمسمائة ريال في أحد بنطلوناته الرَّثّة.

كانت العاشرة مساءً، وكان الظلام يَلُفّ العاصمة. انتابته رغبة في السير. كان السير وسيلته الفضلى للتغلُّب على مشاعر الفشل، وآلام الفقر، وبؤس الحاجة. اتجه نحو "شارع حدة"، وسط المدينة. سار بخطى وئيدة، محتضنًا جروحه وآلامه، وأمامه صنعاء القاسية والموحشة والكئيبة.

الشوارع مُظلِمة، والحركة شبه مُنعدِمة فيها؛ إذ كان الآلاف قد غادروا العاصمة عائدين إلى قراهم؛ بسبب الحرب، التي تسببت بأزمة إنسانية كبيرة؛ جراء توقُّف الحياة والأعمال، والنُقص الحاد في الأغذية والوقود.

الظلام مُوحِش. والحركة نَشِطة في السماء، خلافًا لما هي عليه في الأرض. بروح مُنكسِرة وخائرة، واصل المثقف العاطل عن العمل سيره، وهو يسمع، بوضوح، هدير طائرات "التحالف العربي" تجوب سماء العاصمة، وتقصف، بين وقت وآخر، أهدافًا على الأرض. سَمِعَ أصوات انفجارات عنيفة، فخمَّن أنها لصواريخ أطلقتها الطائرات النَّشِطة في الأعلى. أصاخ السمع لأصوات رصاص الرشاشات المضادة للطيران، ورأى زخات مضيئة منها في السماء. لم يَشعُر بفضول لمعرفة المواقع التي قصفتها الطائرات. لم يَشعُر بقلق من الرصاص "الرَّاجِع" من الأعلى، رغم أنها كانت قد أودت بعشرات الضحايا. كذلك، لم ينتابه أيّ فضول لمعرفة المواقع التي قصفتها الطائرات.

مضى في سيره مُتخفِّفًا من ذاته ومشاعره، باستثناء مشاعر النِّقمة والغضب. كان مسكونًا بفشله، وأمامه صنعاء القاسية والموحشة والكئيبة.

مرَّ بنقطة تفتيش يتمركز فيها مسلَّحون حوثيون يرتدون زَيّ قوات الأمن. أوقفه أحد المسلَّحين وسأله عن وجهته وهويته. قال إنه ذاهب لتناول العشاء. لثوانٍ، تَطَلَّع المسلَّح في بطاقة هويته، ثم أعادها إليه، وهو يقول له، بصيغة الأمر:

– يا أصحاب تعز، نشتيكم تكونوا وطنيين!

كان مدَوَّنًا على بطاقة الهوية أن ناصر ينتمي إلى محافظة تعز. وكانت المناطقية والطائفية مُتأجِّجة في البلاد، جراء اجتياح مسلَّحي الحوثي للعاصمة، ثم توجّهم، بمساندة الجيش الموالي للرئيس السابق، إلى مناطق ومحافظات عدة، محاولين السيطرة عليها بالقوة.

تعامل المسلَّح الحوثي مع ناصر باعتباره "آخر"، باعتباره نقيضًا طائفيًا ومناطقيًا؛ لهذا نظر إليه على أنه "غير وطني"، وأمره بأن يكون "وطنيًا"، هو وكل المنتمين إلى تعز. حينها، كانت قد تشكَّلت في تعز مقاومة شعبية دخلت في مواجهات عنيفة ضد مقاتلي الحوثي والجيش المساند لهم.

تعز هي أكثر المحافظات اليمنية سكانًا؛ وتذهب التقديرات إلى أن عدد المنتمين إليها يصل إلى ستة ملايين (قرابة ربع سكان اليمن). ينتشر أبناء تعز، بشكل كثيف، في جميع المحافظات، ما دفع الدكتور أبوبكر السقاف إلى القول، قبل سنوات طويلة، بأنهم "مِلْح الأرض اليمنية". مئات الآلاف من سكان العاصمة صنعاء ينحدرون من تعز. مع ذلك تعامل المسلَّح الحوثي معهم انطلاقًا من هويتهم المذهبية والمناطقية النَّقِيضة لهوية جماعته. وبسبب هذه الهوية النَّقِضة، صَنَّفهم في خانة "غير وطنيين"! الأرجح أن ذلك عائد،

أيضًا، إلى رفض أغلب أهالي تعز لانقلاب الحوثيين ومحاولتهم السيطرة على اليمن بالقوة.

يعيش ناصر قاسم في صنعاء منذ سنوات طويلة، ويقول إنه أحَبَّها لأنها "عاصمة الوطنية اليمنية"، ولأنه اعتاد الحياة فيها. وكانت تلك هي المرة الأولى التي يلتقي فيها مع الطائفية والمناطقية وجهًا لوجه، وبتلك الفَجاجة التي أظهرها المسلَّح الحوثي. ليلتها، استشعر المثقف المُتحمِّس فداحة مُضِيّ جماعة الحوثي في إعادة فرز اليمن على أساس طائفي جهوي. وإذ امتصَّ تلك الفجاجة؛ تداخلت لديه آلام العوز والفشل بمشاعر النقمة والغضب. مضى في سيره، هو يحاول التخفيف من تداعيات أوجاعه وسخطه.

بَلَغَ بداية "شارِع حدة"، فَدَخَل أحد البوفيهات، وطلب سندويتشًا بالجبن، مع كوب من عصير مانجو. وحين شَرَعَ في الأكل، تذكَّر أنه رَدّ على المسلَّح الحوثي بكلمتين فقط: "إن شاء الله". اجتاحته نوبة غضب؛ إذ تأكد أنه جبان ورِعدِيد. اضطرب اضطرابًا شديدًا، حتى إن يده كانت ترتعش وهي تمسك كوب العصير. كان غاضبًا من عنجهية واستعلاء المسلَّح الحوثي، ومن رَدِّه المتراخي والجبان عليه. تداعى احتدامه الذاتي. غَرِقَ في التفكير بما كان عليه أن يقوله لذلك المسلَّح. تواردت في ذهنه كلمات وعبارات بالغة الشجاعة، وأخرى توبيخية رصينة. فرز سيناريوهات للرَدّ العقلاني، وأخرى للعِراك. فَكَّر فى احتمال أن يتم اعتقاله والاعتداء عليه. كان متوتِّرًا أكثر منه خائفًا؛ لهذا همهم يؤكد لنفسه أنه سيعود "لتقريع المسلَّح الوقح، وإخباره بأن صنعاء عاصمة لكل اليمنيين، وأنه ليس من شأنه التفتيش عن وطنية الآخرين، أو فرزهم على أساس من هو وطني ومن هو غير وطني".

تذكَّر إسقاط الحوثيين للعاصمة، باعتباره سببًا في اندلاع الاقتتال الأهلي، وتصاعد المشاعر الطائفية والمناطقية في البلاد. تذكَّر أنه بكى بألم

عند سقوط صنعاء؛ حيث كان قد قطع علاقته بجماعة الحوثي منذ أشهر. أَحسَّ الآن بحاجته إلى البكاء مجددًا على "عاصمة الوطنية اليمنية". تصاعدت المشاعر الوطنية لديه، فدمدم يقول لنفسه: "لولا سقوط صنعاء لما تعامل معي هذا المسلَّح الوقح بهذا الشكل".

كان يُفَضِّل مواجهة انقلاب مليشيا جماعة الحوثي بالعمل المدني السلمي. بيد أنه تأكد الآن ألا طريق غير الحرب لإيقاف تغوُّل هذه الجماعة، واستعادة "الدولة الوطنية" المخطوفة. خطر في باله ما قاله هوبزباوم عن الفاشية، فقال: "جماعة الحوثي هي الحرب بذاتها؛ لهذا فمن السُّخف مهادنتها، أو الدعوة لمواجهتها عبر النضال السلمي". تذكَّر مواقفه السابقة، فهمهم يقول في نفسه: "صحيح، أنا كنت مع العمل السلمي لمواجهة مليشيا الحوثي؛ لكن أنا قلت أكثر من مرة إن من حق اليمنيين اللجوء إلى السلاح لمقاومتها".

فَكَّر بكل ذلك وهو في طريق العودة إلى غرفته. وبين وقت وآخر، كان يؤكد اعتزامه تقريع المسلَّح الذي تعامل معه كـ"آخر، غير وطني"!

كان المسلَّح الحوثي مازال يقف في نقطة التفتيش ذاتها. وكان المثقف الغاضب عازمًا على تقريعه؛ لكنه تراجع عن ذلك، بمجرَّد ما التقت عيناه بعينيه. رمقه المسلَّح بنظرة عنجهية، فجفّ اللعاب في فمه، وبدأت يداه في الارتجاف. أطرق بنظره، وحاول أن يتمالك نفسه، ويتغلَّب على خوفه. أخفى اضطرابه المحتدم، ومرَّ من نقطة التفتيش دون أن يتفوَّه بكلمة. مرَّ بخطى متهالكة، وهو يتحاشى النظر إلى المسلَّح الحوثي، الذي ظَلّ يتبعه بنظرة تعال وتجهُّم. لم يتفوَّه ناصر بكلمة، والمسلَّح لم يأمره بالتوقُّف لتفتيشه، أو سؤاله عن هويته، والمكان الذي جاء منه والذي يقصده.

للمرة الثانية، جَبُنَ المثقف المضطرم، رغم أنه لم يكن فيما اعتزم قوله ما يُغضِب، أو ما يمكن أن يدفع المسلَّح الحوثي للاعتداء عليه، أو اعتقاله. حاول تبرير موقفه الجبان بإلباسه رداء الحكمة. قال لنفسه إن الحكمة تقتضي تجنُّب الدخول في أيّ خلاف، مهما كان صغيرًا وتافهًا، مع مسلَّح مليشياوي غبي، لاسيما والبلاد تعيش حربًا منفلتة. لم يقتنع بهذا التبرير. تصاعد خوفه وتوتُّره. أخذ يحتدم مضطربًا ومهتاجًا. ظلّ محتدمًا حتى وَصَلَ غرفته، ونام متعبًا من كثرة السيناريوهات التي نسجها في ذهنه لما كان عليه أن يقوله لذلك المسلَّح. بعد ثلاثة أيام، بدأ غضبه يذوي، بيد أنه لم ينسَ ما جرى.

67

في طريقها إلى الخمسيني السَّمِين، كانت سُهى خائفة ومتوتِّرة. ركَّز سمير جهده لِإستراق نظرات متتالية إليها، عبر المرآة الداخلية للسيارة. دهمه حزن جارح، فوجَّه –في سره طبعًا– سيلًا من الشتائم واللعنات لأمه. قاد السيارة بصمت، وعندما أوقفها في حوش الفِيلَّا، أدار وجهه إلى الخلف، وقال لشقيقته الصُغرى، بعاطفة عاجزة ووجه مُكفَهِرّ:

– انتبهي على نفسك!

بعينين خائفتين، حرَّكت الفتاة رأسها إلى الأعلى والأسفل، وهي تنظر إلى شقيقها بامتنان وحُبّ لم يسبق لها أن شَعَرَت بهما نحوه. قالت له، بنبرة حزينة ومرتجفة:

– سمير، أني فدا لك، سامحني!

سمَّرت نظرها عليه، بطريقة من يطلب الصَّفح والغفران. سَعَلَ سُعَالاً خفيفًا، قبل أن يقول لها، بصوت متهدِّج مثخن بالمرارة والحزن:

– وأنتِ سامحيني، وانتبهي على نفسكِ!

ظَلّت تنظر إليه بعينين صافيتين. رأت الانكسار في حاجبيه السوداوين، والخجل على جبهته المسطَّحة. أما عيناه الغائرتان فقد كانتا مسكونتين بذُلّ سرمدي نجم عن بطش دائم من قوة غاشمة. أشعّت عيناها بعاطفة أخوية صادقة نحوه، وكادت تخنقها العبرة. أطرقت مثقلة بالمرارة والألم.

– أني فدا لك، سامحني!

قالت ذلك، مجددًا، ثم فتحت باب السيارة، وتَرَجَّلت دون أن تسمع ما سيقوله شقيقها، أو ترى الدموع التي سالت على خَدّيه. يبدو أن التجارب القاسية هي أفضل أداة للتقريب بين البشر.

تَسَمَّر ينظر إليها وهي ترتقي سلالم الفِيلَّا. ارتقت السلالم وهي خائفة ومُرتَبِكة، كما لو أنها في طريقها إلى ساحة الإعدام. تذكَّرت أمها، وهي تقول لها: "ارفعي رأسي". فنصبت قامتها، ومضت بثقة وتوثُّب، كما لو أنها في مهمة مصيرية. تماسكت وهي ترتقي السلالم، محاولة التغلُّب على ارتجاف الرعب في جسدها. مسح سمير دموعه، وغادر وهو يوجِّه سيلًا من الشتائم لنفسه ولأمه. يومها، كان في الرابعة والعشرين من عمره.

صباح اليوم التالي، اتصل الخمسيني السمين بنادية، وأبلغها أن سُهى ستبقى لديه يومًا آخر، وستعود إليها غدًا، مع مبلغ إضافي. وفي التاسعة من صباح اليوم التالي، عادت سُهى إلى منزل أُسرتها ومعها ظرف فيه مئتا وخمسون ألف ريال. استقبلتها أمها بفرح. احتضنتها بقوة، وسحبتها إلى غرفتها، حيث طلبت منها أن تحكي لها ما جرى. بعد ربع ساعة، غادرت الفتاة الغرفة ومعها مائة ألف ريال.

دخلت سُهى الغرفة الخاصة بها وشقيقتيها، اللتين كانتا مازالتا نائمتين. تجنَّبت إثارة أيّة جلبة، وبهدوء شرَعَت في تغيير ملابسها. غير أنها فوجئت بإيمان تقول لها، وهي تبتسم غامزة:

– صَبَاحِيَّة مُباركة.

ابتسمت سُهى ابتسامة خجول، ثم أشاحت بوجهها إلى الجهة الأخرى. استيقظت سلوى، فرحَّبت بشقيقتها العائدة من تجربتها الأولى في مهنة الدعارة. دخلت عليهن الأم، وأبلغت صُغراهن أن فطورها جاهز. قالت سُهى إنها قد تناولت الفطور؛ إلاَّ أن أمها أصرَّت، بحُجّة أنها أعدَّت لها فطورًا خاصًا.

قبل الظهر، قصدت سُهى شقيقها إلى غرفته؛ حيث احتضنته واعتذرت له، ثم دَسَّت في جيبه عشرين ألف ريال. استغرب وهو يُشاهدها منتعشة فرحًا، كما لو أنها ليست تلك التي كانت خائفة ومُرتعِبة عصر أمس الأول. التجارب القاسية لا تُجَسِّر المسافات بين البشر فحسب، بل تخلق لضحاياها لحظات سعادة وهمية.

استمرت علاقة سُهى بالخمسيني الثري خلال الأشهر الستة التالية. وحين أهملها، بعد أن شَبِعَ منها، عرضتها أمها على "زبائنها" المميزين. ولعام كامل، ظَلّت سُهى العاهرة الأغلى ثمنًا بين جميع الفتيات العاملات لدى نادية.

بعد نحو عامين وأربعة أشهر، فرَّ سمير من منزل أُسرته، وبدأ حياته الجديدة، التي عُرِفَ فيها باسم "أبو الليث سمير اليمني".

68

قبل ثلاثة أعوام من ثورة فبراير **2011**، فرَّ سمير من منزل أُسرته.

في إحدى نوبات صمته وتوحُّده، داهمته فكرة الهروب من جحيمه الأُسري والاجتماعي. طرد الفكرة من ذهنه؛ لكنها عادت إليه بإلحاح، ثم سكنته وصارت تتبدَّى له كطريق للخلاص. قضى أيامًا طويلة وهو يُفَكِّر فى

الهروب. بحث عن أبعد مكان يمكن أن يبدأ فيه حياة جديدة، فلم يجد غير مدينة المكلا، الواقعة على بعد 794 كيلومترا من صنعاء. لم يأخذ معه شيئًا؛ عدا الثمانين ألف الريال التي سَرِقَها من زوجته مريم؛ تَحوِيشة العمر، التي استطاعت تجميعها خلال أشهر من العمل المضني في الدعارة.

في الليلة السابقة لهروبه، قضى أغلب وقته وهو يتأمَّل مريم، وضاجعها بحرارة لم تعهدها منه؛ حتى إنها سألته، ببشاشة غامزة، وهي مازالت مستلقية على السرير، عن سِرّ القدرة الجنسية التي أظهرها. ارتبك خجلًا، ولم يستطع الرَدّ، أو قول شيء. ابتسمت له بتحنُّن، محاولة امتصاص خجله وارتباكه؛ دون أن تعرف أن اعتزامه الهروب من حياة المَذَلَّة حرَّر قدراته الذاتية وطاقاته الجسدية والروحية.

نامت مريم في الثانية فجرًا، فيما واصل هو تأمُّل وجهها وجسدها، ثم تسلَّل إلى الحَمّام واغتسل، استعدادًا للرحيل. عاد إلى الغرفة بخطى وئيدة، متجنِّبًا إيقاظ أحد. ارتدى ملابسه، وهو يسترق النظر إلى زوجته التي كانت نائمة وظهرها إليه. بهدوء، فتح دولاب الملابس، وبحث عن نقودها، التي كان يعرف أنها تخفِيها أسفل الدولاب، ملفوفةً بقطعة قماش. وإذ تأكد أن مريم تَغُطّ في نوم عميق، فتح قطعة القماش، وأخرج منها المبلغ المالي، ودَسَّه في جيبه. على التسرِيحة، ترك مفتاح سيارة أمه، ثم غادر خِلسة، بهدوء وحذر شديدين. غادر وهو مسكون بذهنية المنبوذ واللص، في آن.

كان يرتجف خوفًا، وينسلّ بخطوات حذرة، فيما السكون يُخَيِّم على المنزل. كانت السادسة والنصف صباحًا، حين أغلق خلفه باب الشقَّة، ونَزَلَ سَلالِم البناية بخِفَّة عصفور يغادر قفص سجنه.

في الشارِع، تَنَشَّق هواءً نظيفًا، فأحسَّ لأول مرة برشاقة جسده، وبانتعاش حَيَويّ في رئتيه. قَصَدَ "فَرْزَة" باصات النقل الجماعي، وقطع تذكرة

سفر إلى المكلا، ثم بحث عن أكل، قبل انطلاق الرحلة. في مطعم قريب، تناول فطوره، وهو يُمَرِّن نفسه على نسيان أُسرته وماضيه. صَعَدَ الباص بروحٍ مُتَوثِّبة، وذات مُتَطَلِّعة لم تستطع إخفاء الانكسار الذي يسكنها.

جَلَسَ جوار إحدى النوافذ الزجاجية للباص، ومنها ألقى نظرات الوداع الأخير على المدينة التي كانت قاسية معه. كانت نظراته مثخنة بالسخط والكُره، وكانت صنعاء مُتجهِّمة وقاسية، كعادتها.

أخرج الشريحة من موبايله، ووضعها في جيبه. أتلفها، عند وصوله المكلا، بعد سفر مضنٍ امتدَّ ساعات طويلة. قضى يومه الأول في فندق رَثّ رخيص. واليوم التالي بدأ البحث عن عمل. حَصَلَ على وظيفة غاسل صحون في مطعم شعبي، ثم التحق بالجماعة الإرهابية، حيث عاش حياة جديدة تزوَّج فيها جليلة، التي أَجْبَرَهُ "بن صالح" على إحراق ملابسها "الإفرنجية الكَافِرة".

استيقظت مريم من النوم، فلم تجد سمير جوارها. توقَّعَت أنه غادر إلى السوق لشراء مُتطلبات إعداد وجبة الغداء؛ لكنها وجدت أمه تبحث عنه، تريد منه القيام بذلك. كان تلفونه خارج نطاق التغطية. كرَّرت زوجته الاتصال به مرارًا، وفي كل مرة كان المجيب الآلي يَرُدّ: "الرقم الذي تَتَّصِل به قد يكون مغلقًا أو خارج نطاق التغطية".

انتظرت مريم عودته، دون فائدة. جالت بنظرها في الغرفة، فوجدت مفتاح السيارة على تسرِيحتها. نظرت من النافذة، فرأت السيارة حيث اعتاد إيقافها. تضاعف ارتيابها، لكن لم يخطر ببالها أن يكون سمير قد هرب.

تجاوزت الساعة الثانية عشرة ظهرًا، فخرجت نادية لشراء ما يتم طبخه للغداء.

بَقِيَ تلفونه خارج نطاق التغطية. تحوَّل الارتياب إلى قلق. تناولت الأم، وبناتها وزوجة أخيهن، الغداء وهن يُفَكِّرن فيه، وأين يمكن أن يكون.

كانت زوجته وشقيقاته قلقات عليه، فيما كانت أمه قلقة على انتهاء القات الجيد من السوق، بعد الثالثة عصرًا. كنَّ جميعًا قلقات على حياته، فيما نادية تُفَكِّر بشخص يمكن أن يذهب ليشتري لها قاتًا. أخيرًا، اتَّصلت بأحد معارفها، وطلبت منه ذلك. وحين جاءها بقات نوعيته رديئة وسِعره مرتفع، أمطرت ابنها سمير بسيل من الشتائم واللعنات.

ظَلّ تلفونه خارج نطاق التغطية. تحوَّل القلق إلى خوف؛ عندما تجاوزت الساعة السابعة مساءً. تناولت الأم، وبناتها وزوجة أخيهن، العشاء وهن مُتوجِّسات يُفَكِّرن فيما قد يكون حدث له. كانت زوجته وشقيقاته خائفات من أن يكون قد تعرَّض لمكروه، فيما أمه تُفَكِّر فيمن سيشتري لها القات غدا!

في الحادية عشرة مساءً، أدركن أن غيابه ليس أمرًا عاديًا. فَكَّرن في أن مكروهًا قد يكون حدث له؛ إذ لم يحدث أبدًا أن غادر المنزل بهذه الطريقة، وتأخر كل هذا الوقت في الخارج.

اتَّصلت نادية بضابط شرطة من "زبائنها"، وأبلغته باختفاء سمير. ناشدته مساعدتها، فطلب منها أن تهدأ حتى الغد، وفي حال لم يَعُد، فعليها التَّوَجُّه إلى أقرب قسم شرطة والإبلاغ رسميًا باختفائه.

لم تنم مريم تلك الليلة. مكثت مشغولة البال على زوجها، وهي تصيخ السمع في انتظار طرقه المعتاد على باب الشقَّة. في الرابعة فجرًا، غلبها النوم، بعد أن تملَّكها اليأس والخوف على من صارت تتعامل معه باعتباره رَجُلَهَا.

في الصباح، قالت نادية إنها لم تنم، بسبب القلق الذي استبدّ بها. أردفت، بحنق متأجِّج:

– فين بايكون راح هذا ابن الكلب؟!

خيَّم الصمت على المنزل. تبادلت نادية وبناتها وزوجة ابنها نظرات القلق. كُنَّ عاجزات عن القيام بشيء، وغير قادرات حتى على البكاء. كان عليهن أن يبكينه؛ بيد أنهن لم يجدن ما يدعوهن لذلك؛ ذلك أنه لم يكن على هامش حياتهن فحسب، بل على هامش مشاعرهن أيضًا.

بين فترة وأخرى، كانت الأم تُبَدِّد الصمت بإعادة السؤال ذاته:

– فين بايكون راح هذا ابن الكلب؟!

شَعَرَت نادية بحاجتها إلى رَجُل. كذلك الحال بالنسبة إلى بناتها، وزوجة ابنها. جميعهن وجدن أنفسهن وقد أصبحن مكشوفات دون رَجُل؛ بيد أنهن لم يكنّ قد اكتشفن أهمية سمير في حياتهن. كُنَّ قد ربطن أهميته في توفيره غطاءً اجتماعيًا يُمَكِّنهن من ممارسة عملهن؛ لكنهن سيكتشفن أن أهميته تتجاوز ذلك.

اتَّصل أحد "زَبَائِن" نادية يطلب منها أن ترسل إليه إحدى فتياتها. حينها، تنبَّهت إلى أن حاجتها لابنها لا تتوقَّف عند شراء القات، ومستلزمات البيت فحسب، بل تمتدّ إلى ما هو أهم: إيصال عاهراتها إلى "الزَّبَائِن". أمعنت التفكير فى الأمر، فاكتشفت أن ابنها "كان يقوم بكل شيء". مذاك، تصاعد شعورها بوطأة غيابه. ولتوضيح حجم الخسارة التي حَلَّت بها، كانت تقول إن مُصِيبتها كبيرة لأنها لم تخسر ابنها، بل رَجُل بيتها.

في اليوم الثالث لاختفاء سمير، اكتشفت مريم أنه سَرَقَ "تَحوِيشة عمرها": الثمانين ألف ريال. أيقنت أنه الفاعل؛ لأنه الشخص الوحيد الذي يعرف أين تضع مالها. غضبت منه غضبًا شديدًا، وتَخلَّصت من تبكيت الضمير الذي تملَّكها لأنها لم تبكِ اختفاءه. تأكدت أنه لا يستحق أن تسكب أيّة دمعة عليه. استيقظت فيها كل عيوبه ومساوئه. قالت لنفسها إنه لا يستحق دموعها؛ كما لم يستحق قلبها وجسدها. أبلغت حماتها أنه "أخذ"

مالها. من باب اللَّياقة، لم تَقُلّ إنه "سَرَقَها". لم تتحدَّث مع أمه وشقيقاته عن مساوئه وعيوبه؛ رغم أن عدم بكائهن عليه أكد لها حضوره الباهت في حياتهن.

69

منذ اجتياح العاصمة صنعاء، صَعَّدَ ناصر قاسم من نقده لجماعة الحوثي، ودخل في عداء كامل معها. تأكد، أخيرًا، أنها مليشيا انقلابية تريد إعادة اليمن إلى ظلمات الماضي، لهذا أطلق عليها اسم "قوى الكهنوت والتخلف". نَدِمَ على موقفه المتساهل إزاء جماعة مليشاوية لم يخطر بباله أن توسُّعها يمكن أن يصل إلى القصر الجمهوري. لام نفسه على عدم إدراكه المبكِّر لذلك الخطر. المواقف المسبقة تُصيب صاحبها بعمى وتجعله غير قادر على رؤية الحقيقة والصواب. هو عَرَفَ المعنى القاسي لذلك العمى الذي تُخَلِّفه الخصومة المدفوعة بمواقف شخصية مسبقة.

حَلَّت جماعة الحوثي كعدو جديد له بدل أعدائه السابقين، الذين كان يُطلق عليهم اسم "قوى التخلف". كان خصومه السابقون خليطًا سياسيًا وعسكريًا وقَبَلِيًّا ودينيًا، فيما خصمه الحالي ميليشيا دينية منظَّمة. أصدقاؤه السابقون صاروا أعداءه الحاليين. تبعًا لذلك، تبدَّلت تصنيفات الإدانة لديه؛ إذ أصبح الحوثيون هم "الخطر الأكبر" الذي يُهَدِّد اليمن واليمنيين.

الجماعة، التي لم يستشعر خطرها، فرضت سلطتها، ونَكَّلت بخصومها. وَجَدَ نفسه يقف في مساندة خصومه السابقين، بعد أن صاروا ضحايا؛ رغم أنهم "سَرَقوا الثورة غير المكتملة"، وكانوا مسئولين عن اعتقاله وتعذيبه. لقد سَانَدَهم ضد الملاحقات والاعتقالات التي تعرَّضوا لها، وأعلن رفضه لعمليات

نهب ممتلكاتهم، وتفجير منازلهم، وغير ذلك من التنكيل الذي أنزله بهم مسلَّحو الحوثي.

تنقَّل المثقف المُتحمِّس من جبهة إلى أخرى، ومن خصم إلى آخر. انتقل من مواجهة قوى رجعية متخلِّفة، إلى مواجهة مليشيا أكثر رجعية وتخلُّفًا. صار في خندق واحد مع خصومه السابقين لمواجهة خصومه الجدد. وقد خاض معركته الجديدة بذات الحماسة التي خاض بها معركته السابقة. تغيَّرت مواقع الخصوم؛ إلاَّ أن حماسته بقيت على سابق عهدها.

لم تكن مخاوفه كبيرة من الحرب التي فرضتها جماعة الحوثي على اليمنيين. قال إن هذه الحرب ضرورية لإنضاج الحالة الوطنية لدى اليمنيين، ورفع الإحساس العام لديهم بأهمية الدولة. قال ذلك في جلسة عقدت في منزل أحد السياسيين. وبحماسته المعتادة، أضاف:

– كانت هذه الحرب كامنة داخل المجتمع اليمني، وكان لابد لها من أن تنفجر للإطاحة بقوى الهيمنة الطائفية والمناطقية. يعني، هذه الحرب ضرورية لأنها ستكسر حالة الهيمنة والاحتكار الدائم للسلطة، وستضمن لليمنيين حق مشاركتهم في السياسة، وستقضي على المليشيات الإرهابية والطائفية لصالح دولة المواطنة والحقوق المتساوية.

استطرد، وهو يتفحَّص وجوه حاضري الجلسة:

– أتمنَّى اندلاع حرب أهلية وطائفية أكثر دموية، في اليمن وفي المنطقة العربية ككل؛ حرب طاحنة يسقط فيها ضحايا بأعداد كبيرة.

قال ذلك بعدم اكتراث، ودون تقدير لخطورة كلامه، أو لحساسية اللحظة؛ لهذا جلب على نفسه حالة سخط لاحقته أكثر من شهر.

رمقه حاضرو الجلسة بنظرات ملؤها الدهشة والاشمئزاز. احتدّ أحدهم يقول له:

– تشتي اليمن تتدمَّر وتغرق في بحر من الدماء؟! أكيد أنت مجنون! لبنان غَرِقت ربع قرن في حرب أهلية دامية، ومع ذلك ما تزال دولة فاشلة محكومة بالطائفية والفساد. المجتمعات لا تتطور بالحروب، ولا تنضج بالاقتتال الأهلي، إنما بالعلم والصناعة.

حَكّ المثقف المُتحمِّس عُنقه، وأغمض عينيه وفتحهما ثلاثًا، وحَرَّك رقبته إلى اليسار واليمين، بشكل سريع ومتتابع، ثم رَدَّ، محاولًا تبرير موقفه:

– الحروب الأهلية ستخلق لنا ذاكرة وطنية عامة، وستُنضِج إنسانيتنا، وستدفعنا نحو المستقبل؛ إذ ستجعل بناء دولة النظام والقانون خيارًا مُلَّحًا بالنسبة لنا.

تبادل الحاضرون نظرات الاستنكار، وصوَّبوا عليه مزيدًا من نظرات الاشمئزاز. أدرك أن دفاعه غير مُقنع، فاستشهد بغابرييل دو مابلي الذي قال إن "الحروب الأهلية قد تكون، في بعض الأحيان، علاجًا شافيًا للمجتمع". كذلك، استشهد بالشاعر الإيطالي مارينيتي، الذي أكد أن "الحرب هي الوسيلة الوحيدة لتنظيف العالم".

اتَّسعت على وجوه الحاضرين ابتسامات الازدراء والاستخفاف. تجاهل ناصر ذلك، ومضى يقول، بثقة المثقف الممتلئ بالمعرفة:

– نيتشه نَصَحَ "الشعوب التي تتعرض قواها للاستنزاف، أن تتخذ الحرب كعلاج، إذا أرادت أن تستمر حية". يعني، الحروب ستُحرِّر العرب من حالة الاستلاب والسلبيَّة، ومن الإرث الدِّيني المتخلف، وهيمنة الجماعات الطائفية والإرهابية.

بصوت مسترخٍ، استطرد:

– المنطقة العربية بحاجة إلى تنظيف، والعرب بحاجة إلى بلوغ مرحلة النُّضج، ولا سبيل إلى ذلك إلا بالحروب. يعني، الحروب تُنضِج الشعوب، وتُرسي قواعد وقيمًا أخلاقية للحياة العامة. يعني، المسألة واضحة يا إخوة!

تعرَّض لنوع من التَّقرِيع، وشهدت الجلسة حالة من اللَّغَط. سأله البعض إن كان يؤيد الحرب التي تشنّها على اليمنيين جماعة الحوثي، والجيش الموالي للرئيس السابق. رَدَّ، بهدوء:

– أنا ضد هذه الحرب؛ لأنها ساهمت في ازدهار الإرهاب، وأعادت فرز المجتمع اليمني طائفيًا وجهويًا بشكل غير مسبوق. لكن هذه الحرب ضرورية، وصِحِيَّة.

سأله أحد حاضري الجلسة بتأفُّف ساخر:

– كيف أنت ضد الحرب، وتقول إنها صِحِيَّة؟!

حَكّ ناصر عُنقه، وأغمض عينيه وفتحهما ثلاثًا، وحَرَّك رقبته إلى اليسار واليمين، بشكل سريع ومتتابع، ثم أجاب:

– هذه الحرب صِحِيَّة لأنها عملت على انبعاث العنفوان اليمني لمواجهة تغوُّل مليشيا الحوثي، وستعمل، بغض النظر عن نتائجها، على تحصين اليمنيين ضد ثقافة الهيمنة، التي يستند عليها الرئيس السابق، وضد خرافات الماضي، التي يستظل بها الحوثي.

أضاف، دون أن يسمح لأحد بالكلام:

– مليشيا الحوثي لم تتمكَّن من ابتلاع اليمن، بل استنهضته. والمؤكد أن الحرب الحالية دشَّنت البداية الفعلية للقضاء على التجليات الماضوية لـ"الإمامة" كنظام حكم، وكتطلعات سلالية وعنصرية مصمتة. يعني، الحوثي قضى على أيّة فرصة لعودة "الإمامة" لحكم اليمن. وحتى لو انتصر الحوثي عسكريًا في هذه الحرب، فَسَيُهزَم في المجتمع؛ لأنه كرَّس نفسه في الذهنية

العامة باعتباره عدوًا لكل اليمنيين. يعني، الحوثي جعل اليمنيين يدركون أهمية ثورة 26 سبتمبر 1962، ويوقنون بأن "الإمامة" هي عدوَّهم الرئيسي.

مضى يقول دونما اعتبار لمزاج حاضري الجلسة، أو وقع كلامه عليهم:

– شأن الإرهابيين، تبني جماعة الحوثي حضورها على الفراغ الذي تركه انهيار الدولة المركزية الهشة في اليمن، وحالة الغضب والرَّفض الاجتماعية للسلطة المركزية. لكن الحوثي يريد إعادة "الإمامة" لحكم اليمن، عبر توظيف الطاقات الطائفية والعسكرية للنظام السابق، الذي يريد البقاء في الحكم باستخدام العصبية الطائفية، بما في ذلك مسلحي الحوثي.

بنفاد صبر، قال رامي مُكرِد:

– يا ناصر، خَلِّيك من رصّ الكلمات بدون معنى!

حَكّ المثقف المُتحمِّس عُنقه، وأغمض عينيه وفتحهما ثلاثًا، وحَرَّك رقبته إلى اليسار واليمين، بشكل سريع ومتتابع، ثم استأنف حديثه، دون اهتمام برامي وما قاله:

– يعني، النظام السابق لم ينشغل في بناء دولة قوية، بل في ترسيخ سيطرته على المجتمع، عبر الفساد وشراء الولاءات. من هنا يمكن أن نفهم لماذا مازال الرئيس السابق قويًا حتى اليوم، فيما الدولة تَضعضعت وانهارت، هذا الانهيار مفهوم بالنظر إلى أن الرئيس السابق عمل على تقوية نفوذه وتحالفاته على حساب قوة ونفوذ الدولة. يعني، هو ربط مصير الدولة ومؤسساتها بمصيره الشخصي والأسري. لهذا، ظهر تداعيه وانهياره الخاص كما لو أنه تداعٍ وانهيار لليمن ككل؛ دولة ومجتمع. هو ربط مصير البلاد بمصيره، ثم سلَّم كل شيء للحوثي، مدفوعًا برغبة الانتقام من خصومه، وإبقاء الحكم في قبضة المنطقة الجغرافية والمذهبية التي ينتمي لها. لهذا أدى الانهيار إلى تصاعد قوة ونفوذ

جماعة الحوثي الطائفية، وذلك عَمِلَ على صعود الجماعات الإرهابية بشكل صارخ.

تحدَّث بعض حاضري الجلسة عن "ازدواجية تفكير الأخ ناصر"، وأشاروا إلى أن تحمُّسه للحرب يُظهِر عدم اكتراثه بضحاياها، لاسيما من المدنيين. رَدًّا على ذلك، أعرب عن تعاطفه مع كل ضحايا الحروب، ثم قال:

– كان تشرشل يقول إن "التضحية قادرة، في حَدّ ذاتها، على خلق الحوافز". لهذا، أرى أن على المجتمعات المتخلِّفة أن تُقدِّم تضحيات كي تَخلُق في نفسها حوافز حقيقية تدفعها نحو التطور والتحديث.

زادت حِدّة نظرات الاستغراب بين حاضري الجلسة. تجاهل ناصر ذلك، واسترسل يقول:

– في ثورات الربيع العربي تَفَجَّر غضب بعض مجتمعاتنا طلبًا للتغيير، فلجأت قوى الاستبداد، السياسية والطائفية، إلى الحرب باعتبارها أداة فاعلة لدفن الثورات، وإعادة إنتاج دولة الهيمنة، وقتل تطلعات الناس، ومصادرة حقهم في ممارسة السياسة. يعني، قوى الاستبداد حوَّلت "الحرب إلى ميدان وحيد لممارسة السياسة"، لهذا يجب على المجتمعات العربية أن تخوض تجربة الحرب حتى النهاية، ذلك أن إنهاء احتكار السياسة، وتجاوز بُنى الاستبداد، صار مرهونًا بالقضاء أولًا على احتكار الحرب وأدواتها. يعني، بالحرب يمكننا أن ننزع آخر رهانات الاستبداد، وبالحرب وحدها سنتجاوز بُنى الهيمنة والقهر، وسنتمكن من إقامة دولة العدالة الاجتماعية والمواطنة المتساوية.

عاد إلى غرفته، مساءً، وشَرَعَ في البحث عن فضائل الحروب، ثم كرَّس أيامه التالية للحديث عن تلك الفضائل. لكنه تنبّه، بعد أسبوع، إلى أنه انزلق فعلًا نحو تمجيد القتل وأعمال العنف. مع ذلك، لم يتراجع عن موقفه؛ إذ كان قد أصبح مسألة شخصية بالنسبة له.

70

نهاية الأسبوع الثاني لاختفاء سمير، انفجرت أمه في البكاء، بعد أن تأكدت أن حاجتها إليه كبيرة. بَكَت بحرقة وألم، ثم نسته، وتابعت شئون حياتها بدونه. لم تعد للبكاء عليه إلاَّ بعد سنوات. لكنها ظَلّت تُؤَنِّب نفسها، باستمرار، على إهمالها له، وقسوتها في التعامل معه. كان تأنيبها لنفسها يبلغ ذروته عندما تتذكَّر حياة القسوة والإذلال التي عاشتها. وفي كل مرة كانت تتأكد أن حياة القسوة تلك سحقت روح الإنسان فيها، وجعلتها تتعامل مع ابنها بقسوة روح منتهكة وجريحة.

ماتت أم نادية بعد أربع سنوات من ولادتها، ثم مات أبوها بعد شهر من موت أمها. لم يكن لها إلا خالة وحيدة (أخت غير شقيقة لأمها)، مُتزوِّجة برجل ميسور الحال لديه منزل بحوش صغير. على مضض، أخذتها خالتها كي تُرَبِّيها مع أطفالها الثلاثة (مصطفى، وابتسام، وأماني)؛ إلاَّ أنها جعلتها خادمة لها ولهم، ولزوجها طبعًا.

عاشت الطفلة نادية في جحيم حقيقي. لم تكن تحصل على مصروف يومي، وقضت سنوات طفولتها محرومة من الحنان، ومن الشوكولاتا والألعاب. في البداية، كانت تنقضّ، وهي تبكي، على الشوكولاتا والبسكويتات، التي يشتريها، عصر كل يوم، أطفال خالتها بمصروفهم اليومي. ضربتها الخالة بعنف، حتى أجبرتها التَّوَقُّف عن ذلك.

كانت الخالة قاسية القلب مع ابنة أختها المتوفّاة. كانت تضربها بعنف، بعصا نحيفة العود خصصتها لها. أدمت العصى جسد الطفلة اليتيمة، وطبعت عليه خطوطًا حمراء تقاطعت تورماتها، ولم تختفِ آثارها إلاَّ بعد سنوات. كانت تُشبِعها ضربًا ولطمًا، وهي تصرخ فيها:

– يا بنت الكلب، من فين أَبي أجيب لكِ مصروف كل يوم؟! احمدي الله انكِ تعيشي وتأكلي وتشربي بلاش، عادك تشتي مصروف؟!

وجدت الطفلة اليتيمة مكانًا تهرب إليه من فضاضة وقسوة خالتها. صارت، عصر كل يوم، ترتقي السلَّم المؤدي إلى سطح المنزل، وتنزوي أعلاه؛ حيث تَظَلّ تبكي حتى تنام، على الصرح البارد، وهي ترضع إبهام يدها اليمنى. كانت تَبقى هناك ساعات، في المساحة الصغيرة على يسار الباب المؤدي إلى سطح المنزل.

بقيت على ذلك الحال أسبوعين، ثم تَدَخّل زوج خالتها، ونفحها مبلغًا زهيدًا.

اليوم التالي، رافقت أطفاله إلى دكان الحيّ، لكنها عادت تبكي إذ لم تستطع شراء ما اشتروه لأنفسهم. اتَّجهت إلى مكانها المعتاد، وانزوت تبكي هناك، حتى نامت على الصرح البارد، وهي ترضع إبهام يدها اليمنى. أحجمت، بعد ذلك، عن مرافقة أولاد خالتها إلى الدُّكان. التزمت مكان عزلتها، حيث ترعرعت مع اليُتم، والقسوة، والبرد.

تجرَّعت نادية مرارة القسوة والعَزْل حتى على مائدة الطعام. في الأيام التي يقدمون فيها لحمًا للغداء، كانت الخالة تضع قطعة صغيرة منها أمام الطفلة اليتيمة؛ لتمنعها من تناول أيّة قطعة أخرى من الطبق الموضوع وسط المائدة. كم تمنت نادية لو يُسمح لها أن تأكل من طبق اللحم، كأطفال خالتها. كَبُرت وتلك أمنيتها!

كان طبق اللحم متاحًا للجميع؛ إلا نادية! تعلَّمت هذه القاعدة منذ يومها الثالث في منزل خالتها. يومها، وضعت الخالة أمامها قطعة لحم صغيرة. اعتقدت الطفلة أن خالتها تُحِيطها بالرعاية والاهتمام اللازمين. أكلت تلك القطعة، ثم مَدَّت يدها إلى الطبق كي تتناول أخرى، بيد أن الخالة أمسكت

يدها ولم تسمح لها برفعها إلاَّ بعد أن تركت قطعة اللحم التي كانت قد التقطتها. تتذكَّر أن خالتها زمجرت فيها بغضب:

– نادية! أنت أكلت لحمتك! تَعَلَّمِي الأدب، ولا تمدي يدك إلا للشي اللي قُدَّامك!

سحبت الطفلة يدها بهدوء، فيما انزلقت دموع حارة على وجنتيها. أرادت إكمال الأكل؛ لكن دموعها حالت دون ذلك. حينها، عرفت المعنى القاسي لليتم.

حتى الفواكه، كانت الخالة تُخفيها عن ابنة أختها المُتوفاة؛ ومن أجل ذلك منعتها من فتح دولاب المطبخ. كان أطفال الخالة يفتحون الدولاب براحتهم، ويأكلون منه ما يريدون، أما نادية فممنوع عليها حتى مجرَّد فتحه. وفي المرة الوحيدة التي فتحته فيها، فوجئت بخالتها تمسكها من الخلف، كمن يضبط لصًا. سحبتها من أذنها، ولطمتها لطمتين قويتين على مُؤَّخِّرة رأسها. مذاك، صارت نادية كُلَّما وجدت نفسها بالقرب من الدولاب، دون قصد أو في لحظة سهو، تبتعد عنه مذعورة وهي تَتَلَفَّت حولها، وتتحسَّس مُؤَّخِّرة رأسها.

في الشهر الرابع ليُتمها، حَلَّ عليها أول عيد وهي دون أب. اشترت الخالة ملابس جديدة لأولادها، فيما بقت نادية دون ملابس. أرادَت الطفلة اليتيمة أن تبكي؛ لكن قسوة وعنف خالتها أجبراها على حبس دموعها. صَعَدَت إلى مكان العُزْلَة الخاص بها، وظَلّت تبكي هناك، حتى نامت على الصرح البارد، وهي ترضع ابهام يدها اليمنى.

بعد عام ونصف العام، التحقت بالمدرسة، مع أماني التي تكبرها بثلاثة أشهر فقط. خاطت الخالة ما يشبه حقيبة مدرسية لطفلتها، فيما استكثرت ذلك على ابنة أختها المتوفاة.

العام التالي، خاطت الخالة "حقيبة" جديدة لطفلتها، وأرادت أن تعطي الحقيبة القديمة لنادية. لكن أماني تمسَّكت بحقيبتها القديمة، وبكت رافضة التخلِّي عنها. لم تُغضِب الخالة طفلتها، ولم تبذل جهدًا لإقناعها بالتنازل عن حقيبتها القديمة لابنة خالتها. ولتبديد أيّ شعور بالذنب، بحثت لابنة أختها المتوفاة عن كيس تفتَتِح به عامها الدراسي الثاني.

ظَلّت "الحقيبة" القديمة لأماني في مخزن المنزل حتى تم رميها، بعد عامين. لم تهتم طفلة الخالة برمي حقيبتها، ولم تبكِ على ذلك، كما فعلت يوم أُرِيد منحها لنادية.

تكرَّست حالة الحزن والحرمان لدى الطفلة اليتيمة، خلال عامها الدِّراسي الأول، إذ كانت تذهب إلى المدرسة دون أيّ مصروف. بمرور الوقت، تعزَّزت علاقتها مع مكان العُزْلَة الخاص بها، كما تعزَّزت علاقة فمها بإبهام يدها اليمنى. أَلِفت الحياة في أعلى السلَّم الداخلي للمنزل، لهذا فَرَشَته بحصيرة صغيرة مهترئة عثرت عليها أمام أحد المحال التجارية في طريق المدرسة. بدأت تُذَاكِر دروسها في ذلك المكان، ثم اعتادت النوم فيه، على فرش صغير، وبغطاء خفيف مهترئ؛ نقلتهما من مكان نومها السابق في الصالة الصغيرة أمام المطبخ. كذلك، نقلت معها الصُّرَّة القماشية التي تضع فيها ملابسها. لقد تحوَّل مكان العُزْلَةُ إلى عُشّ حياة بالنسبة للطفلة اليتيمة.

كَيَّفت الطفلة نادية نفسها مع ظروف عيشها القاسية، بيد أن خالتها فرضت عليها ظروفًا أَشَدّ قسوة. كانت في السابعة من عمرها حين ألزمتها بتنظيف المطبخ وغسل الصحون يوميًا، بعد وجبتي الغداء والعشاء. في السنة التالية، أضَافت إليها مهمة تنظيف المجلس والصالتين الداخلية والخارجية.

يتناول زوج الخالة القات مع أصدقائه في المجلس، يوميًا. عادة، يغادر آخر أصدقائه في الثامنة مساءً، فتنزل الطفلة اليتيمة لتنظيف المجلس. في أحد

الأيام، تأخر أحد "المُخزّنِين"، فاستسلمت نادية للنُعاس، وغَطَّت في نوم عميق. نَظَّفت الخالة المجلس، وهي تُجَمجِم بشتائم للطفلة النائمة في أعلى السلَّم. وكي لا يتكرَّر الأمر، قرَّرت تأخير تقديم وجبة العشاء لها إلى ما بعد قيامها بتنظيف المجلس، بغض النظر عن الوقت الذي ينتهي فيه زوجها وأصدقاؤه من "تَخْزِين القات". أبلغت الطفلة اليتيمة بقرارها، وطلبت منها الالتزام به. لكن الطفلة نسيت ذلك، فنزلت بعد المغرب بحثًا عن عشاء. وجدت أطفال خالتها يتناولون عشاءهم وسط الصالة، جوار أمهم. تَقَدَّمت تريد الانضمام لهم؛ بيد أن خالتها نظرت إليها شزرًا، وصرخت فيها بتجهُّم:

– مش قلت لك ما فيش عشاء إلا بعد ما تنظِّفي المجلس؟! ها..؟!

– أيوة!

أجابت الطفلة وهي تسترق النظر إلى وجبة العشاء التي يتناولها أطفال خالتها.

– خلاص، اطلعي فوق! عشاءك بعدين، مش تتعشِّي وترقدي بدون ما تنظِّفي المجلس!

استدارت الطفلة اليتيمة، وصَعَدَت درج السلَّم، ودموعها تسيل على خدّيها.

تناول أطفال الخالة العشاء وناموا، فيما أُجبِرَت نادية على الانتظار وقتًا طويلًا وهي تقاوم الجوع والنوم. ظَلّت تنتظر انتهاء زوج خالتها من "تَخْزِينته"، ليتسنى لها تنظيف المجلس. في الثامنة والنصف، شَرَعَت في تنظيفه، وحين انتهت من ذلك، دخلت خالتها لتتأكد ما إذا كانت قد قامت بالمهمة على أكمل وجه. بِتَبَرُّم، ألقت المرأة القاسية على الطفلة ملاحظات تتعلَّق بكيفِيَّة القيام بالعمل بشكل جيد، ثم غادرت نحو المطبخ، وقدَّمت لها العشاء

هناك، وأمرتها بغسل الصحون بعد أن تنتهي من الأكل. من تلك الليلة، بدأت نادية تتناول عشاءها على الأرضية الباردة للمطبخ.

في اليوم الثالث، تأخر بعض أصدقاء زوجِ الخالة في "تَخْزِين القات"، فنامت نادية دون عشاء. لم تكتفِ الخالة بأن جعلت ابنة أختها المتوفاة تنام وهي جائعة، بل راحت تناديها تريد إيقاظها. كانت الطفلة تَغُطّ في نوم عميق، فلم تسمع مناداة خالتها. ارتقت الخالة درجات السلَّم، وهي تزمجر غاضبة. وجدتها نائمة، دون غطاء. بدلًا من تغطيتها، لكزت ظهرها بقوة. استيقظت الطفلة مذعورة، وأصيبت بالفزع وهي تسمع زمجرات خالتها قاسية القلب.

تحاملت الطفلة اليتيمة على نفسها، ونزلت خلف خالتها، التي كانت تلعنها وتلعن أباها بكلمات جارحة ومهينة. نَظَّفت المجلس بصمت، والدموع تتساقط من عينيها. وضعت المخلفَّات في كيس وأخرجته إلى الحوش المظلم، ثم صعدت درج السلَّم؛ عائدة إلى مكان عُزْلَتها، وهي دون عشاء. ازداد انهمار الدموع من عينيها مع كل درجة كانت تخطوها صعودًا باتجاه عُشّ العُزْلَة الخاص بها. وصلت فراشها، وانفجرت باكية بصوت لم تستطع كتمانه. ظَلّت تبكي بألم وهي جائعة. شربت من قنينة الماء الخاصة بها؛ محاولة التلاعب بالجوع وإلهائه. في الصباح، استيقظت وهي مثقلة بالجوع والإِهانة.

71

بعد ثلاثة أعوام وأحد عشر شهرًا من ثورة فبراير، أكمل الحوثيون سيطرتهم على العاصمة صنعاء، بالهجوم على دار الرئاسة، ومنزل رئيس الجمهورية. شَنُّوا ذلك الهجوم بعد أن افتعلوا مشكلة مع جنود إحدى سيارات قوات الحماية الرئاسية. تصدَّى لهم بعض أفراد اللواء الثالث حماية

رئاسية، فيما كل القوات العسكرية والأمنية الأخرى التزمت الحياد، وعلى رأسها قوات الحرس الجمهوري.

في أَقَلَّ من ثلاثة أيام، سيطر الحوثيون على الرئاسة، ووضعوا الرئيس تحت الإقامة الجبرية في منزله، الذي تمكَّنوا من اقتحامه وتفتيشه ونهب ما فيه، بعد قتل وجرح عدد من أفراد حراسته. سادت حالة من الغضب الشعبي؛ فما حدث اعتُبر إمعانًا في إهانة اليمنيين. اتسعت المشاعر الطائفية والمناطقية، ثم تفجَّرت على شكل حرب واسعة، بعدما توجَّه مسلَّحو الحوثي إلى محافظات ومناطق أخرى سيطروا عليها بالقوة.

في إحدى جلسات القات، شَنَّ ناصر قاسم هجومًا عنيفًا على جماعة الحوثي. بسخط، قال:

– بانقلابها، لم تُلغِ جماعة الحوثي الشرعية الدستورية والشعبية والتوافقية فحسب، بل ألغت الأساس الجوهري الذي أقام عليه اليمنيون دولتهم الحديثة، منذ إعلان الوحدة بين الشمال والجنوب، عام **1990**. الجماعة ألغت السياسة، والتعددية الحزبية، وهامش حرية الصحافة والتعبير؛ لهذا حدثت الفوضى، وتصاعدت الهويات الصغيرة، وارتفعت النزعات الانفصالية في الجنوب، وازدهر الإرهاب. يعني، ما عاد فيش أحد يشعر بأن الدولة المركزية في صنعاء تُمَثِّله.

كان طه نعمان يستمع بإنصات، بينما أضاف ناصر:

– يعني، الجماعة ضربت رمزية صنعاء كعاصمة للوطنية اليمنية. وبدلًا من فساد واستبداد الدولة المركزية، وَجَدَ اليمنيون أنفسهم أمام مليشيا طائفية أكثر استبدادًا وفسادًا. والأخطر هو أن الجماعة ابتكرت وتبتكر رموزًا وطقوسًا خاصة بها، ومضادة للرموز والطقوس الوطنية الجامعة لليمنيين.

لم يُقاطِعه أحد، فاستطرد:

– يعني، حضور جماعة الحوثي يأتي ضمن ما يُعرف بـ"الجماعات المُنْفَصِلة"، التي يقول هوبزباوم إنها تُشَكِّل "مجتمعات مضادة"، و"ثقافات مضادة"، لضرب السياق الاجتماعي الوطني. يعني، هذه الجماعات تَظَلّ تنهش الدولة الوطنية، وتتغذَّى منها، ويصبح نجاحها مرتبطًا بتدمير الدولة الوطنية وكل ما هو وطني. هوبزباوم يطلق على هذه الجماعات اسم "الحشود الانقلابية الفعلية أو المضمرة"، ويؤكد أن الحركات الدِّينية الجماهيرية "تنزع إلى إقامة شبكة من الجمعيات والجماعات المضادة حول مواقع الولاء المنافسة للدولة". يعني..

اعترف المثقف المُتحمِّس بصدمته من طريقة تعامل جماعة الحوثي مع خصومها، ومع المجتمع اليمني بكل قواه السياسية وفئاته المجتمعية. قال، وهو يُجِيل نظره في المكان:

– تنكيل جماعة الحوثي بخصومها ليس تعبيرًا عن نوازعها الانتقامية فحسب، بل هو، أيضًا، تجسيد لطبيعتها البنيوية، وعقيدتها الثأرية، وتوجهها الظلامي. يعني، تنكيل الجماعة بخصومها له مرجعيات فكرية وجذور تاريخية؛ فالإمام الهادي كان يُفَجِّر منازل خصومه ويحرق مزارعهم ويصادر ممتلكاتهم، وحذا حذوه جميع الأئمة الطغاة، الذين أضافوا إلى ذلك قائمة طويلة من الجرائم، مثل أخذ رهائن. يعني، كُلّنا نعرف أنهم كانوا يأخذون الأطفال رهائن، ولا يفرجون عنهم إلاَّ بعد سنوات طوال.

أردف يقول، بعد أن حَكّ عُنقه، وأغمض عينيه وفتَّحهما ثلاثًا، وحَرَّك رقبته إلى اليسار واليمين، بشكل سريع ومتتابع:

– يعني، الحوثي هو امتداد للأئمة، والرابط المشترك بينه وبينهم هو السعي الحثيث لإخضاع اليمنيين، وحكمهم بالقوة والإرهاب. يعني، تنكيل الحوثي بخصومه يأتي كمحاولة لاستعادة النظام الإِمامي الكهنوتي، ودفاعًا عن الهيمنة

الطائفية والمناطقية، ومحاولة تأبيدها. الحوثي تغوَّل على المجتمع بكل فئاته، ويريد تنصيب نفسه وصيًا على اليمنيين؛ اعتمادًا على الغلبة، ووهم الأفضلية في النَّسب.

قاطعه رامي مُكرِد:

– يا ناصر، خَلُّونا نجرِّب الحوثيين، ونشوف كيف بايحكموا. اِنتظروا. جيبوا لهم فرصة، مثل غيرهم.

غمغم طه، ساخرًا:

– صح يا ناصر، جيبوا لهم فرصة!

حَكّ المثقف المُتحمِّس عُنقه، وأغمض عينيه وفتحهما ثلاثًا، وحَرَّك رقبته إلى اليسار واليمين، بشكل سريع ومتتابع، ثم رَدَّ بانزعاج وصوت حاد:

– كيف نجيب فرصة لجماعة مليشاوية تشتي تحكمنا بالحديد والنار؟! ما لك يا طه؟! أيش حصل لك؟!

أطلق ذو البنية الجسدية الضخمة ضحكة مجلجلة، ثم أجاب:

– كنت أقول لك من زمااااان، ان جماعة الحوثي هي الخطر الحقيقي والأكبر على اليمن، وأنها لو سيطرت سترتكب جرائم تفوق جرائم النظام السابق، وجرائم الجنرال وحلفائه، وأنت كنت تقول لي: خَلِّينا نجيب للحوثيين فرصة..! يعني، ما فيش فرق بين كلامك زمان، وكلام رامي الآن!

زمجر ناصر بغضب:

– أنا عمري ما قلت هذا الكلام! أنا عمري ما قلت نعطي للحوثيين فرصة لحكم البلاد!

رَدّ طه بهدوء:

– إلاَّ قُلته.. وقُلت أيضا إنك كنت مع الحوثيين لأنهم بايستعيدوا الثورة من الجنرال وحلفائه!

تصاعد انفعال ناصر:

– يا أخي من فين تجيب هذا الكلام؟ لعنة الله عليك! أقسم بالله أني ما قلت هذا الكلام!

– أنت قلت بالنص: خَلّينا نشوف الحوثيين، وإذا عملوا أيّ تجاوزات بانوقف ضدهم!

– هاااااا.. أنا كنت ألوم سكوتكم عن تجاوزات حلفائكم ضد الثورة وشبابها وناشطيها.. وأذكر أنك قلت لي، حينها، إن الحوثيين سيرتكبون تجاوزات أكبر، وأنا قلت: "خَلّينا نشوفهم، إذا عملوا أيّ تجاوزات سنقف ضدهم"، مش خَلّينا نجيب لهم فرصة يحكموا اليمن! يعني، كنت أقول لك إننا لن نسكت على تجاوزات الحوثيين مثلما سكتم أنتم عن تجاوزات حلفائكم. يعني، كلامي كان واضحًا، ما فيش فيه أيّ غموض أو لبس!

– "خَلّينا نشوف الحوثيين" ما لهاش معنى إلا نجيب لهم فرصة يحكموا البلاد!

– يا جني، الحوثيين مليشيا، وأنا كنت أقصد بكلامي: خَلّينا نشوف ايش بايفعلوا، مش خَلّينا نجيب لهم فرصة يحكموا!

كان رامي يرمق "ناصر" بنظرات تشفٍّ وسخرية. بهدوء، كان يُحَرِّك رأسه يمنة ويسرة، وعلى وجهه ابتسامة مشرقة، فرحًا بمأزق الشخص الذي لطالما تعالى عليه وازدراه.

شَرِبَ ناصر من قنينة الماء الخاصة به، ثم سأل طه بانفعال:

– بعدين، متى أنا قُلت إن الحوثيين سيستعيدون الثورة من الجنرال وحلفائه؟!

– أنت قُلت ما فيش معانا إلاَّ الحوثيين يواجهوا اللي سرقوا الثورة!

– أقسم بالله إني ما قُلت هذا الكلام، أبدًا! عيب عليك يا طه..!

– هاهاهاها! والله إنك قُلتُه! أنت داري إننا ما أكذب، وان ذاكرتي قوية.

– والله إنك كذاب، وذاكرتك خراء!

شَعَرَ رامي بانتعاش وتحسُّن في المزاج، فدمدم يقول، محاولًا تأكيد إدانة خصمه التاريخي:

– يا ناصر، أنت كنت تقول: ضروري نعطي الحوثيين فرصة يحكموا اليمن، لأنهم أشرف وأنظف من الجنرال واصحابه! أقسم بالله إنك كنت تقول هذا الكلام، بالحرف الواحد!

التفت إليه ناصر بتقزُّز، وسأله بنبرة احتقار:

– أنا متى قُلت إن الحوثيين أشرف وأنظف من الجنرال وأصحابه؟!

أجاب رامي، وعلى وجهه ابتسامة مُغَلَّفة بتلك النشوة المُقترنة بالظَّفر:

– قُلته مرات كثير، وفي عدة أماكن. يا ناصر، مشكلتك إنك تتكلَّم كثير، واللي يتكلَّم كثير يكذب، لأنه ينسى أيش قال.

كَعْكَعَ ذو البنية الجسدية الضخمة ضاحكًا، فيما فتح المثقف المُتحمِّس راحتي يديه وآمالهما إلى الأعلى، وهو يجول بنظره في المكان؛ تعبيرًا عن اندهاشه من بلوغ التلَّفيق ضده ذلك المبلغ.

تضاءلت ضحكة طه، وقال، كمن يُدلي بشهادة براءة ذمة:

– بصراحة، أنا ما قد سمعت ناصر يقول إن الحوثيين أشرف وأنظف من الجنرال وأصحابه!

أكد رامي، وهو يهرش رأسه، ويفتح عينيه على اتساعهما:

– أنا سمعته يقول هذا الكلام أكثر من مرة!

صرخ ناصر في رامي، بانفعال مهتاج:

– أنت اسكت! إحنا نتكلَّم جِدّ، مش وقت حَقَّك الكذب والتلفيق وتصفية الحسابات!

- أسكت ليش؟! والله ما أسكت! أنا أتكلَّم جِدّ، والله إنك قلت هذا الكلام أكثر من مرة!

حدجه ناصر بنظرة شديدة الضجر والتبرُّم، ثم أشاح بوجهه عنه، وقال لطه:

- شفت كيف يا طه؟! أنت تمزح، وهذا الأخ (أشار بيده نحو رامي دون أن ينظر إليه) صدَّق، وزاد فوق الكذبة كذبة أكبر وأسوأ.

قهقه ذو البنية الجسدية الضخمة، ثم قال:

- بالنسبة لي، والله ما كنت أمزح! أنا أتكلم جد!

- يعني، أنت يا طه مُصرّ تَلَفِّق لي هذا الكلام؟! شوف، أنا ما يهمَّني كل الكلام اللي لفَّقته لي؛ لكن أؤكد لك أننا سنواجه جماعة الحوثي، ولن نسكت على تجاوزاتها كما سكتم أنتم على تجاوزات اصحابكم..

قاطعه طه صارخًا:

- الآن تقول لي إنكم ستواجهونها، بعد ما عملتم في خدمتها؟! من زمااااااان، وأنا أقول لك إن هذه جماعة خطرة، وأنت ما كنت تصدِّق. واليوم، بعدما وقع الفأس في الرأس، صدَّقت كلامي، وتقول إنكم ستواجهونها! عادك صحيت الآن، بعدما راحت البلاد مِلح، بسبب جهلكم ومراهقتكم السياسية؟! لا، لا، ما في معكم إلاَّ تجيبوا للجماعة فرصة عشان تدَعِّس عاركم مثلما دَعَّست غيركم.

حَكّ ناصر عُنقه، وأغمض عينيه وفتحهما خمس مرات، وحَرَّك رقبته إلى اليسار واليمين، بشكل سريع ومتتابع، ثم سأل طه، بانفعال متأجِّج:

- يعني، أنت تحمّلني مسئولية سيطرة الحوثيين على صنعاء؟!

تجاهل طه السؤال، ومضى يقول:

– يا ناصر، أنا قلت لك زمااااان إنك ستدرك في الأخير فداحة ما عملته بخدمتك لجماعة الحوثي. كل كلامي كان صحيحًا، بس أنتم كنتم أغبياء ما تفهموا. كنتم تفرحوا بهزائم السَّلفيّين والقوى القَبَلِيّة، وهزائم الجنرال والحزب الدِّيني المتحالف معه، وكنت أقول لكم إن كُرهنا لهذه الأطراف يجب ألا يُعمِينا عن رؤية الخطر الحوثي.

– أنت تشتي تعمل لنفسك بطولات على حسابي! يعني، أنت كنت فاهم كل شي، واحنا كنا حَمِير ما نفهم شي؟! أنت واخذ بنفسك مقلب. والله إني ما قلت أيّ شي من الكلام اللي لفَّقته لي. يعني، والله إنك تتوهَّم، وتُلَفِّق كلام. لكن عادي، اعتبرني قُلتُه؛ عادي، أنا قُلتُه.. وأنا موافق أتحمَّل مسئولية سيطرة الحوثيين على صنعاء، عشان تطلع أنت ذكي وخطير. تمام؟! ارتحت؟!

صَدَحَ رامي، متعمِّدًا لَفَّ الحبل أكثر حول رقبة ناصر:

– طه والله ما يكذب، ولا يبحث عن بطولات. والله إنه صادق بكل ما قال. أقسم بالله يا ناصر إنك قلت كل الكلام اللي قاله طه! أقسم بالله إنك قُلتُه، ما فيش داعي للكذب والمُكَارحة[12]!

انفجر المثقف المفتَرَى عليه، ناهرًا رامي:

– قُلنا لك اسكت يا حمار! مش وقتك أنت وحَقَّك الكذب والسخافة!

اندفع رامي وأمسك بقنينة الماء التي أمامه، ورمى بها "ناصر"، وهو يقول له باهتياج:

– والله ما حمار ابن حمار إلاَّ أنت! والله ما كذاب وسخيف إلاَّ أنت! أنا بارِبِّي أبوك يا كلب يا ابن الكلب!

([12]) لفظة شعبية تعني العناد في النقاش، وخوضه دون منطق.

تحاشى ناصر قنينة الماء، التي ارتطمت بالحائط خلف رأسه مباشرة. ظَلّ جالسًا في مكانه مبهوتًا، رغم أن "رامي" اندفع نحوه يريد الاعتداء عليه. ولو لم يتدخَّل طه، وبعض الحاضرين، لكان قد ناله الأذى من خصمه الهائج. نجح الآخرون في إعادة رامي إلى مكانه، فيما لملم ناصر، بيدين مرتعشتين، أشياءه وغادر، وهو يقول:

– أنيك عاركم أنتم وهذا المقيل! أنيك عاركم يا بَلاطِجة!

كان الوقت مبكِّرًا على العودة إلى غرفته، لهذا أراد ناصر إكمال مقيله في مكان آخر. قادته خطاه إلى منزلٍ قريبٍ، لصديق له اعتاد استقبال الناس في مجلسه يوميًا. وَصَلَ وهو متجهِّم الوجه، مغتمّ الفؤاد. كان المجلس مكتظًا بأشخاص يعرفهم، وآخرين لا يعرفهم. اِتَّكأ على مسند، وراح يمضغ القات كئيبًا، على غير عادته. أثار صمته استغراب وعجب من يعرفونه.

– ما لك ساكت يا ناصر؟! خير؟! أيش فِيك؟!

– ولا شي، بس زعلان من الوضع وحال البلاد!

بعد نصف ساعة، عاد المثقف المُتحمِّس إلى طبيعته، فيما كان الصمت قد خيَّم على المقيل. تحدَّث، فجأة، عن "الخطر الأكبر"، الذي تُمَثِّله جماعة الحوثي على اليمن واليمنيين. كالعادة، أكمل النقاش، الذي غادر المقيل السابق دون أن ينتهي منه.

تكلَّم بحماسة ونشاط من استعاد السيطرة على نفسه. استرسل، بتجلٍّ وذهن رائق. بدَّد صمت المكان، وأَجْبَرَ من فيه على التفاعل معه. تركَّز حديثه على مهاجمة جماعة الحوثي، وإظهار مساوئها وأخطائها؛ دون أن ينتبه لوجود أحد المنتمين لها. حين اشتدَّ الهجوم على جماعته، كَشَّر الشاب الحوثي عن أنيابه، وصرخ يُهَدِّد "ناصر":

– احترم نفسك، وتكلَّم عن أسيادك بأدب، وإلا عَد (سوف) نعرف كيف نرَبّيك!

ارتجف قلب المثقف المُتحمِّس خوفًا. تمالك نفسه، ورَدّ بانفعال ساخرًا ومتهكِّمًا. دمدم الشاب الحوثي مطلقًا مزيدًا من عبارات التهديد والوعيد. تدخَّل الحاضرون لتهدئة الموقف، وامتصاص التوتُّر. بعدها، غادر ناصر حانقًا، ويديه أكثر ارتعاشًا. مذاك، بدأ يُردِّد: "لساني هو عدوي". ومع توالي تهديدات الحوثيين له، قرَّر مغادرة صنعاء.

72

تجاوزت الطفلة نادية الصف السادس، بدرجة متوسطة. وبينما كانت تنتظر مشتاقة بداية العام الدِّراسي الجديد، فوجئت بخالتها قاسية القلب تبلغها بأنها لن تذهب إلى المدرسة مرة أخرى. قَطَّبت الخالة حاجبيها، وقالت مبرِّرة قرارها:

– أيش تشتي بالدِّراسة، أيش با تطلعي دكتورة وإلاَّ مهندسة؟! نهايتك تتزوَّجي وتجلسي في بيت زوجك؟! قدكِ اجلسي مرتاحة في البيت لمَّا يجي لك النَّصيب.

بكت الطفلة اليتيمة، فنهرتها خالتها بحزم:

– يلعن أبوكِ يا بنت الكلب! من فين أبي أَدَرِّسكِ؟! احمدي الله إني دَرَّستكِ لمَّا خَلِّيتكِ تَتَعَلَّمي القراءة والكتابة!

طوال شهرين، ظَلّت الطفلة اليتيمة تبكي، كل صباح، عندما تشاهد "مصطفى" و"ابتسام" و"أماني" (أبناء خالتها) يذهبون إلى المدرسة.

الخالة قاسية القلب قالت للجيران إن نادية رفضت الذهاب إلى المدرسة، وأنها تَعِبت كثيرًا وهي تحاول إقناعها بمواصلة دراستها! كانت الطفلة

اليتيمة تلتزم الصمت أمام الجيران، ثم تعود إلى مكان العُزْلَة الخاص بها، وتظَلّ تبكي، حتى تنام على الصرح البارد، وهي تَرضَع إبهام يدها اليمنى.

كانت في الثانية عشرة من عمرها، حين منعتها خالتها من الذهاب إلى المدرسة، وفرَّغتها للعمل كخادمة في البيت. كانت تقوم بمهام قاسية ومهينة لا تتناسب مع طفولتها وقدرتها البدنية. أصبحت تقوم بمهام أكثر إهانة وقسوة. صارت تتولَّى تنظيف البيت بالكامل؛ الحَمّام والمطبخ وكل الغرف. كذلك، أُجْبِرت على غسل ملابس العائلة، منتصف كل أسبوع، وغسل أغطية النوم، ومفارش المنزل، نهاية كل شهر. ولم يمض الكثير من الوقت حتى أُضيفت إليها مهام الطباخة. صار منزل الخالة أشبه بسجن نائٍ تقضي فيه حكمًا بالأشغال الشاقة.

واصلت الطفلة اليتيمة النوم في عُشّ العُزْلَة الخاص بها. لكن، ما كان لذلك المكان أن يظَلّ يتَّسِع لجسدها رغم توالي السنين. لقد كبرت وضاق بها المكان. رغم ذلك، لم تسمح لها خالتها القاسية النزول للنوم في غرفة ابنتيها، أو في الصالة الداخلية للمنزل.

قبل أن تَبلغ عامها السادس عشر، تعرَّضت للاغتصاب من قِبَل ابن خالتها، مصطفى، الذي يكبُرها بخمس سنوات. حَمَّلتها الخالة مسئولية ذلك، وقالت إنها استدرجت ابنها لتضطره للزَّواج بها. بعد أربعة أشهر استخدمت الخالة القوة لإجهاض حملها. ما إن تماثلت الفتاة المغتصبة للشفاء حتى فرَّت من حياة العذاب والقسوة التي سرقت وانتهكت سني طفولتها ومراهقتها. لجأت إلى امرأة مُطلَّقة كانت قبل سنوات تسكن في ذات الحَيّ الذي تسكنه الخالة. كانت تلك المرأة تعاملها بعطف وشفقة. وعندما انتقلت إلى حَيّ آخر، دعتها سِرًّا لزيارة منزلها الجديد، وطلبت منها أن تأتي إليها متى تَعِبت من الجحيم الذي تعيش فيه.

قبل انتهاء الشهر الأول على هروبها، امتهنت نادية الدعارة، وعاشت ثلاث سنوات كعاهرة في منزل المرأة المُطَلَّقة؛ التي كانت تعمل في هذه المهنة مع بعض صديقاتها.

بداية العام الرابع لهروبها، تعرَّفت نادية، بالمصادفة، على عامل في محل لبيع المواد الغذائية في حَيّها الجديد. لفت نظرها بارتباكه الخائر، وسحنته المُذعِنة. أحسَّت بأنه زوجٍ مناسب لشابة فقدت عُذرِيتها، وتمضي بخطىً حثيثة في مهنة الدعارة. كانت تبحث عن زوجٍ، لأنها تريد المضي بقلب مُطْمَئِنّ في مهنتها كعاهرة. بسهولة، أقنعت ذلك العامل بأن يتزوَّجها، فأصبح "أبًا" لسمير وسلوى وإيمان وسُهى. بعد شهرين من الزَّواج، تَمَّ طرده من العمل، فبقِيَ دون عمل طيلة حياته. تمكَّنت نادية من الاستمرار في دفع إيجار شُقَّة سكنهما، وتوفير المصاريف اللازمة لها ولزوجها، الذي تحوَّل من عامل في محل لبيع المواد الغذائية إلى قَوَّاد، فيما تحوَّل منزله الأُسري إلى ماخور.

كُلَّما كانت نادية تتقدَّم في المهنة، كان يتعاظم إِذلال زوجها. مع الوقت، والتقدُّم في السِنّ، عَزَفَ عن الحياة، والتزم العيش في العُتمة، داخل المنزل، حيث كان ينتظر المصروف اليومي من زوجته، ويقوم بعمل واحد: شراء القات له ولها. لم يعد يوصلها، أو صديقاتها، إلى طالبي المتعة. ذوى في صمته المتوحِّد، وسريعًا ما تجعدت سحنته بشكل ضاعف من حالة الإِذعان المُتجسِّدة فيها. بعد سنوات طوال من الإذلال، قرَّر الهروب من الحياة المُهِينة، فلم يجد سبيلًا غير شنق نفسه في حَمّام العُتمة التي توارى فيها.

القسوة التي تعرَّضت لها نادية انتزعت من روحها عاطفة الحنان؛ لهذا لم تعبأ بزوجها، ثم بابنها سمير، وجعلتهما يذويان في عُزلتهما القاتلة.

73

غادر ناصر قاسم العاصمة صنعاء، بعد أن ضاقت عليه الحياة فيها. ترك كُتُبَهُ وأغلب أشيائه، في غرفته، بعد أن دَفَعَ لصاحبها إيجار شهرين قادمين. كان يَظُنّ أن الحرب ستنتهي سريعًا وسيعود. حَمَلَ بعض ملابسه وأغراضه الشخصية، واتجه إلى مدينة تعز، حيث انخرط، بحماسته المعهودة، في الحرب ضد الحوثيين وقوات الرئيس السابق.

اشترك في المعارك باندفاع وإقدام من لا يخشى الموت. حَظِيَ بحضور لافت، وسط المقاتلين في الجبهة التي حارب فيها. ولأن أغلب هؤلاء من ذوي التَّوجُّهات اليَساريّة، فقد أحاطوا المثقف القادم من العاصمة بالرعاية والاهتمام. وأبدوا قلقهم من اندفاعه غير الهَيَّاب أثناء المواجهات. بيد أنه كان يزداد اندفاعًا، ويقول إن "الرصاص يعرف الأشخاص الذين عليهم أن يموتوا". وعادة ما كان يضيف، مستعيرًا ما قاله الأمير أندريه بولكونسكي في رواية "الحرب والسلم":

– "سأعرف كيف أموت كالآخرين إذا استدعت الضرورة ذلك".

خاض ناصر القتال وفي ذهنه شجاعة جريجوري، بطل رواية "الدون الهادئ". المؤكد أنه تقمَّص من بطل رائعة شولوخوف روح الاندفاع غير الهَيَّاب من الموت. الفوارق كبيرة بينه وجريجوري؛ لكن يجمعهما مأزق الانتماء إلى "الكتلة الثالثة"، التي عادة ما تتشكَّل خلال الصراعات والحروب. وإلى هذا، يجمعهما كُرهُهُما للماضي، ورفضه. بالنسبة لناصر، يتجسَّد الماضي في جماعة الحوثي والرئيس السابق، فيما يتجسَّد الماضي لدى جريجوري في "البيض"، الذين كانوا يريدون إعادة روسيا إلى حكم القيصرية. وبينما يُمَثِّل الأول اليمنيين العالقين بين رئيس الجمهورية من جهة، والرئيس السابق

وجماعة الحوثي من جهة ثانية؛ يُمَثِّل الثاني الروس، وقوزاق نهر الدون، العالقين بين "البيض" و"الحمر".

تحدَّث ناصر كثيراً عن رواية "الدون الهادئ". وفي كل مرة، كان يتحدَّث عنها بحرارة فياضة وحماسة متجدِّدة، كما لو أنه يفعل ذلك للمرة الأولى. حَفِظَ مشاهد وعبارات كاملة منها. وعلى الدوام، كان يسرد تلك المشاهد، ويلقي تلك العبارات، بطريقة فخمة وشائِقة. روى قصة بطلها الشجاع الذي رفض الظلم، ولم يؤمن بالخزعبلات الغيبية. سكنته شخصية جريجوري، الذي خاض حربًا بعد أخرى، طوال سبع سنوات؛ جريجوري الذي قاتل في الصفوف الأولى، وفرض نفسه كقائد حتى صارت تحت إمرته فرقة عسكرية كاملة، رغم أنه غير متعلِّم.

مرارًا، روى ناصر المشهد الذي يقول فيه جريجوري: "لقد تخلَّصنا، نحن رِجَال الصفوف الأمامية، من الله، منذ أمد بعيد". كان يروي ذلك المشهد بمتعة وتَمَزُّج؛ لأنه يهوى التجديف، ويحفظ سرديات وقصص عدة لأبطاله. استحضر بعض تلك السرديات والقصص، التي راقت المقاتلين اليَساريّين. لكنه كَفّ عن التفوُّه بأيّ منها، بعد أن تلقَّى تحذيرًا نَبَّهَهُ إلى وجود متطرِّفين يقاتلون في صفوف "المقاومة". باغته الأمر. أطرق صامتًا، مستسلمًا لمشاعر الخوف والقلق التي انتابته. قال، بعد أن حَكّ عُنقه، وأغمض عينيه وفتَّحهما ثلاثًا، ثم حَرَّك رقبته إلى اليسار واليمين، بشكل سريع ومتتابع:

– قيام جماعة الحوثي بإسقاط "الدولة" لم يؤدِّ إلى إغراق اليمن في الفوضى فحسب، بل مَنَحَ الجماعات الإرهابية مبرِّرًا لتنظيم نفسها بشكل ميليشياوي، وفتح المجال أمامها لاستخدام العنف على نطاق أوسع. كان المبرِّر مواجهة انقلاب الحوثي؛ لكن ما حدث في الواقع هو التسابق للسيطرة على "الدولة"

وميراثها. يعني، ما فعله الحوثي هو التَّشرِيع للعنف المسلَّح، بجعله الوسيلة الوحيدة لتحقيق الأهداف السياسية وغير السياسية.

وبحماسته المعهودة، كان يضيف:

– يعني، جماعة الحوثي تتحمَّل هذا الازدهار المجنون وغير المسبوق للإرهاب والإرهابيين في اليمن. يعني، هذه الجماعة غذَّت الطائفية في البلاد، واستنهضت الإرهاب النائم في المجتمع، تحت مُبَرِّر مواجهة تغوُّلها الطائفي والمناطقي. يقول مونتسكيو، في كتاب "تأملات في تاريخ الرومان"، إن "الاتجاه العام متحكم في الحوادث الجزئية". يعني، انقلاب الحوثي هو الاتجاه العام، وازدهار الإرهاب هو الحادث الجزئي.

أدت الحرب إلى تدمير واسع في المنازل والممتلكات، وسقوط أعداد كبيرة من القتلى والجرحى، في صفوف المدنيين، ومقاتلي طرفي الصراع. رغم ذلك، لم يُغيِّر ناصر موقفه المُرَحِّب بالحرب، التي ظَلّ يقول إنها ضرورية لإنضاج الحالة الوطنية، وترسيخ دولة القانون والمواطنة المتساوية.

سيطر الحوثيون، وقوات الرئيس السابق، على مواقع عدة في مناطق المواجهات في تعز، وفرضت حصارًا خانقًا على المدينة. أصيب كثير من مسلَّحي "المقاومة" بالإحباط. حاول ناصر رفع معنوياتهم، وقهر مشاعر الهزيمة في نفوسهم. أكد أن ما حدث ليس نهاية الحرب، وأن "المقاومة" تعتمد حروب العصابات في القتال، لهذا فمن الوارد أن تخسر موقعًا هنا وآخر هناك؛ لأن الطريقة التي تقاتل بها لا تقوم على التَّشبُّث بالمواقع، بل على تنفيذ هجمات مباغتة لإرهاق العدو قبل فرض السيطرة العسكرية على الأرض. وبيقين راسخ، كان يقول إن "المقاومة" ستنتصر؛ لأنها تقاتل من أجل اليمن، فيما يقاتل خصومها في سبيل أوهام سُلَالِية ومناطقية وطائفية.

عاش المثقف القادم من العاصمة أيامًا عصيبة ومروِّعة في الحرب. شاهد فداحة الدمار، ولَمِسَ بشاعة القتل. بيد أنه بَقِيَ على موقفه المُتحمِّس للحرب كفكرة ومعنى. وحين أصيب برصاصة في ربلة ساقه اليمنى، أدرك المعنى الكارثي للحرب، وذاق جانبًا من مرارة الآلام التي تُسَبِّبها لضحاياها. مَكَثَ خمسة عشر يومًا يتلقَّى العلاج في مستشفى ميداني، ثم غادر قاصدًا القرية، لزيارة أمه وأُسرته. تهلَّلت أمه فرحًا إذ رأته. ما إن انتهت من عناقه، حتى سألته عما إذا كان قد حَصَلَ على وظيفة. أجابها بالنفي، فاستفسرت، بخيبة أمل، عما إذا كان ذلك قريبًا. أجابها بالنفي، فاستفاقت فيها مشاعر الخذلان واليأس. ابتلعت غُصَّتها، وأطلقت نهْدَة طويلة. تضاعفت الغُصَّة في حلقها، وهي تسمعه يقول:

– يا اماه، الله يحفظك، أيش من وظيفة والدنيا حرب؟! الناس طُرِدوا من وظائفهم، ومعد يستلموا رواتب، وأنتِ تشتيني أتوظَّف؟!

هَزَّت رأسها، تعبيرا عن تفهمها، ثم قالت مثقلة القلب:

– أهم شي يا ابني انك بخير، والوظيفة شتجي(13). بس، أني فدا لك اجلس عندي، لا ترجع تقاتل! الله خارجك ونجَّاك من الحرب، لا ترجع لها بيدك ورِجلَك!

هي خمسينية مُسِنّة، بجسد هزيل، ووجه متجعِّد. ورغم أن "ناصر" جرَّعها مرارة الخذلان، وأصابها بخيبة أمل طويلة؛ إلاَّ أنها لم تفقد الأمل فيه، ومازال أقرب أولادها إلى قلبها. في المساء، تحدَّثت معه عن ضرورة زواجه. سردت عليه أسماء بعض فتيات القرية ليختار إحداهن، ووعدته بإقناع والده ليتحمَّل تكاليف الزَّواج. رفض ناصر مبادرة أمه، واقترح عليها تزويج شقيقه مازن،

---

(13) كلمة شعبية دارجة تعني: ستأتي.

الذي كان قد التحق، قبل نحو شهرين، بصفوف القوات الموالية للرئيس السابق، لقتال "المقاومة" في مناطق عدة حول مدينة تعز، التي ظَلّت محاصرة منذ بداية الحرب.

74

على فراش نومه المهترئ، ذي الروائح البشرية الكريهة، غَرِقَ سمير في تَذَكُّر ماضيه، فيما جلست زوجته جليلة على الفراش المهترئ الآخر، وراحت تبكي، واضعة وجهها بين ركبتيها المُطَوَّقتين بيديها؛ حزنًا على إحراق ملابسها "الإفرنجية الكَافِرة". تصاعد نحيبها المختلج، فقطعت على زوجها التداعيات التي غرق فيها، مُتذكِّرًا حياته السابقة، وماضيه الذي مازال يلاحقه. اقترب منها، واحتضنها. ارتمت في حضنه، وتحوَّل بكاؤها إلى نشيج طفولي. كانت تنشج كطفل انتُزِعت منه ألعابه. وكان سمير يدرك فداحة النُّدُوب والتَّقَيُّحَات التي تحدث في روح الإنسان وذاته جراء تعرُّضه لضروب شتى من القسوة والإذلال. احتضن جليلة بحنان، وطبطب عليها بشفقة. تبلَّلت أجزاء من ملابسه بدموعها. اجتاحته مشاعر حُبّ جارف نحوها، رغم أنه كان يتعامل معها كشيء طارئ وغريب على حياته. هَزَّته عاطفة كبيرة تجاهها، فاستخدم يديه وكُمَّ ثوبه لتجفيف دموعها. أخذ يمسح عينيها ووجنتيها، وهو يوزِّع القُبَلِ على وجهها. تلك كانت المرة الوحيدة التي أحسَّ فيها بانتماء جليلة إليه وانتمائه إليها.

صلَّى مغرب ذلك اليوم في مسجد المُخيَّم، خلف قائده، الذي ازداد كرشه ترهُّلًا. اعتاد "بن صالح" إلقاء محاضراته اليومية على مسلَّحيه، بين صلاتي المغرب والعشاء. وكالعادة، كان سمير يجلس وسط المسجد، أمام

"الأمير" مباشرة، مستجمعًا كل طاقته لإظهار قدر من التركيز أثناء الاستماع لمحاضرته.

أنهى "بن صالح" المحاضرة، فَرُفِعَ آذان العشاء، وبعد دقائق أُعلن عن إقامتها. أمَّ الرَّجُل مسلَّحيه لتأدية الصلاة، وفور انتهائه استدار نحوهم، وتَربَّعَ جالسا في مكانه حيث صلَّى. من هناك، راح يراقب المشهد، وهو يفرد كَفِّيه على فخذيه، وفمه يلهج بالاستغفار والتسبيح.

نهض الجميع، بشكل عشوائي غير منتظم، يُصَلُّون، فرادى، ركعتي السُّنَّة التاليتين لصلاة العشاء. غادر أغلبهم، بعد ذلك، فيما لبث سمير جالسًا في مكانه، وهو في حالة الخشوع المصطنعة التي دأب على تَقَمُّصَهَا بعد كل صلاة: يفرد كَفِّيه على فخذيه، ويستغرق في الاستغفار والتسبيح، وهو مطرق الرأس مغمض العينين، دلالة على عمق إيمانه بالله. ورغم حالة الاستغراق الإيمانية الكاملة تلك؛ إلاَّ أنه لا ينفك يختلس النظر إلى قائده، بين لحظة وأخرى. الاستغراق الإيماني الزائف يحضر كطابع عام لدى أغلب المُتديِّنين؛ ذلك أنهم يوظِّفون كل طاقاتهم للظهور بتلك الحالة من الخشوع، بهدف تضليل الناس والسيطرة عليهم. وذلك لم يفعل غير ترسيخ الزِّيف والادعاء باعتبارهما مرتكزين رئيسيين للأديان. لعل هذا هو جذر استغلال رِجَال الدِّين لله وتوظيفه كأداة لإخضاع البشر.

خَفَّ الزِّحام داخل المسجد، وأمام بوابته الخارجية، بعد انصراف أغلب المسلَّحين. نهض "بن صالح"، وأصلح هيئته، بذات الطريقة التي اعتاد القيام بها عندما يَهِمُّ بمغادرة المسجد. انتفض سمير واقفًا، وتحرَّك بارتباك، بذات الطريقة التي اعتاد القيام بها عندما يشاهد قائده يَهِمُّ بالمغادرة. تأرجح "المُخبِر" في محيط "سَيِّدَهُ"، محاولًا إثارة انتباهه. وقف "الأمير" خارج الباب،

وتلفَّت حوله مودِّعًا من بَقِيَ من مسلَّحيه. حينها فقط، شاهد سمير يقف خلفه. تبسَّم له بوجه عابس، وأمره باللحاق به.

بقامته القصيرة، وكرشه التي زادت انتفاخًا، صَعَدَ قائد الجماعة المنحدر الجبلي المؤدي إلى سكنه، وخلفه كان يسير حراسه السبعة، و"مُخبره". اقترب من سكنه، نَشِطًا، ويتنفَّس بشكل طبيعي. تجاوز الحاجز الترابي الصغير، الذي يحيط بالساحة الأمامية لسكنه. وقف هناك بعض حراسه، أمام ما يفترض أن يكون المدخل إلى فناء المنزل، فيما جلس آخرون على الحاجز الترابي الذي يسوّر المنزل. انعطف الرَّجُل يسارًا، قاصدًا مكان جلوسه، المُطِلّ على مُخيَّمه. بَلَغَ الساحة الترابية المستوية، وجلس في مكانه المعتاد، على حصيرة السعف القديمة. على بُعد خطوات، كان يسير "مُخبِره"، وهو يلهث ويتنفَّس بصعوبة.

– مرحبًا بك يا أبا الليث. تفضَّل، اجلس.

قال "بن صالح"، وهو ينظر إلى سمير.

لَهَجَ "المُخبِر" بشكر قائده، والدعاء له، ثم جلس أمامه، حيث أشار عليه بالجلوس.

– يا أبا الليث، لقد انشرح صدري بإحراقك الملابس الإفرنجية الكَافِرة. بذلك، أنت أكدت لنا التزامك بكتاب الله وسنة رسوله، وإِخلاصك في جِهادك، وفي طاعة أميرك ووَلِّي أمرك.

تلعثم سمير يقول، بارتباك، وهو يبالغ في تنكيس رأسه، وخفض نظره:

– لا يمكنني، أيها الأمير، إلاَّ أن أُطِيعك وأُنفِّذ أوامرك. وكل ما يُهمّني هو رضى الله ورضاك عني.

– أنا راض عنك، وأسأل الله أن يرضى عنك. سأُكلِّفك بمهمة عليك أن تقوم بها على أكمل وجه؛ لأنها تَصُبّ في خدمة الجِهاد في سبيل الله، وخدمة الإسلام والمسلمين. وبإنجازها، ستنال رضا الله ورسوله، ورضاي.

– أنا طوع أمرك، ورهن بنانك، فأمرني بما تريد أيها الأمير.

– كان الشيخ أبو البيداء، رحمة الله عليه، من كبار قادة الجِهاد ودُعاتِه، وقد استُشهِد وهو يدافع عن دين الله ولإعلاء كلمته، والواجب علينا أن نُنَفِّذ ما يأمرنا به ديننا في تكريم الشهداء، والإحسان إلى أهلهم. يشهد الله أن "أبا البيداء" كان من أحَبّ الناس إلى قلبي، لهذا فأنا أَشَدُّ حرصًا على تنفيذ ما يأمرنا به ديننا في التعامل مع أهله.

– أنت أهل لذلك، أيها الأمير.

– أنت تعرف أن أرملة الشهيد أبا البيداء، التي لم تنجب منه، تعيش الآن بين أظهُرنا هنا في المُخيَّم، بعيدة عن أهلها، ولا أظنَّها ترغب في العودة إليهم، لأنها لا يمكن أن تقبل العودة إلى مجتمع الجاهلية والكفر الذي هاجرت منه. أنا وَلِّي أمرها، وفقًا لكتاب الله وسنة رسوله، ولأن لي في عنقها بيعة..

– صدقت أيها الأمير.

– دعني أُكمِل يا أبا الليث.. لقد وجدتُ أن من العيب عليّ أن أترك أرملة أخي وصاحبي الشيخ أبي البيداء تُقَاسِي الضياع ووحدة التَّرَمُّل دون زوج. وباعتباري أميركم ووَلِّي أمركم، فإن ديننا يُلزمنِي أن أختار لها زوجًا. وقد رأيت أن أتزوَّجها أنا؛ إكرامًا وتقديرًا لأبي البيداء، فهو أخي وصاحبي، ولا أريد لأرملته أن تتزوّج شخصًا لا أدري كيف سيعاملها.

همهم سمير بتصاغر:

– نِعمَ الوفاء ما تُبدِيه أيها الأمير. لقد وُفِّقت في اتخاذ القرار الذي يرضي الله ورسوله فامض به على بركة الله. لن يُضيِّعنا الله وأنت أميرنا ووَلِّي أمرنا!

أصلح "بن صالح" من جلسته، ثم مضى يقول:

– أنت تعرف يا أبا الليث أن ديننا يجيز للمسلم مشاهدة وجه وكفي المرأة قبل الزَّواج بها. وتعرف أنه لا يليق بي الذهاب لمشاهدة وجه ويدي أرملة أبي البيداء. لهذا، أريدك أن تسأل عن جَمَالها ومواصفاتها. اسأل عنها زوجتك. الرسول صلَّى الله عليه وسلَّم قال: "تُنكح المرأة لأربع: مالها وجمالها وحسبها ودينها، فاظفر بذات الدين تَرُبَت يداك"، أو كما قال ﷺ.

– سأفعل إن شاء الله.

– أريدك أن تأتيني، صباح الغد، بالخبر اليقين.

– لك ذلك، أيها الأمير.

تبسَّم "بن صالح" ابتسامة عريضة، ثم أَذِنَ لـ"مُخبِره" بالانصراف.

75

لم يأتِ أحد من أهل القرية لزيارة ناصر، يوم وصوله إلى منزل أُسرته. اعتبر الأمر إهانة شخصية له؛ إذ كان يتوقَّع احتشاد جميع أهالي القرية لاستقباله. صَنَّفَ الأمر باعتباره "استقبالًا فاترًا"، واحتدم يبحث عن أسباب ودواعي ذلك.

صباح اليوم التالي، زاره "الرفيق" عبده غالب، وطلب منه، بإلحاح، أن يأتي عصرًا للمقيل في منزله. بعد الظهر، استقبله استقبالًا حارًا في منزله، وأجلسه في صدر المِقيَل. تَمَّ ذلك بحضور بعض أهالي القرية. ابتهج المثقف العائد من جبهة الحرب بحفاوة الاستقبال التي حَظِيَ بها. وبصدر منشرح،

تبادل مع الحاضرين الأسئلة المعتادة عن الحال والأحوال. سرعان ما سأله "الرفيق عبده" عن تطورات الحرب، وقراءته لمآلاتها المحتملة. كان السؤال اعتياديًا وبروتوكوليًا، أكثر منه رغبة حقيقية في معرفة تطورات الحرب، أو تحليل مسارها. بيد أن المثقف المُتحمِّس لإثبات ذاته، حوَّل الإجابة إلى حديث طويل أشبه بمحاضرة. استرسل في الحديث أكثر مما يجب، حتى ملَّه الحاضرون، وبدأ بعضهم يقاطعونه بنقاشات جانبية، وأسئلة عن قضايا أخرى. رغم ذلك، وَاَصَل الحديث، مدفوعًا بقوة الطِّباع لديه. أدرك أن عودته الحالية إلى القرية جعلته في مواجهة نهائية مع رهانه المصيري القديم. استعرض ما حفظه من معلومات، وأسماء كُتُب ومؤلِّفين. حشد أسماء مفكِّرين كُثر، على رأسهم كارل ماركس، الذي كان لا يزال ينطق اسمه بلكنة قروية تحريفية غير دقيقة، يَكسِر فيها حرف الكاف ويُلحِقَهُ بياء خفيفة وممدودة. لم يعد بحاجة لإثبات قدرته على الحديث؛ لكن حاجته صارت أكبر للحصول على التقدير الذي يَظُنّ نفسه جديرًا به. أَجْبَرَ الحاضرين على الإنصات له؛ لكنه فشل، مجددًا، في أن ينتزع منهم ذلك التقدير والخشوع الذي أبدوه للسياسيين الثلاثة الذين زاروا القرية قبل سنوات. اتَّسع الحديث الجانبي، إلى درجة أن الحاضرين ظهروا غير مهتمين بسماع ما يقوله المثقف العائد من الجبهة، ولا يُكِنُّون له أيّ احترام. أيقن أنه أخفق، مرة أخرى، في كسب رهانه المصيري القديم، الذي ربط به ذاته وحياته. أُجْبِرَ، في النهاية، على تحرير المقيل من سيطرته الكلامية. بعد ساعة، عاد إلى منزل أُسرته غاضبًا من نفسه، وساخطًا على "الرفيق عبده"، والقرية وأهلها.

حال غضبه دون أن يحصل على السكينة الذاتية والاستشفاء المطلوب. لم يستمتع بهدوء القرية، وأقام حاجزًا بينه وبين بساطة أهلها. التزم

البقاء في المنزل. وخلال الأسبوعين اللذين قضاهما في القرية، لم يعد مرة أخرى إلى مقيل "الرفيق عبده"، رغم الدعوات المتكرِّرة التي وُجِّهت إليه.

آبَ ناصر إلى مدينة تعز، وقد شُفِيَ جرحه؛ لكن روحه كانت مثقلة بمرارة الإخفاق والهزيمة. كان عليه أن يعود إلى جبهة القتال، إلاَّ أنه فَضَّل دخول المدينة لزيارة بعض أصدقائه. وبسبب الحصار، سلكت السيارة، التي كان عليها، طرق فرعية استغرق المرور فيها ثماني ساعات طوال (ضعف الوقت الذي يتم فيه قطع المسافة بين صنعاء وتعز).

ظَلّ المثقف المُتحمِّس أيامًا في المدينة المحاصرة، ثم رفض العودة إلى جبهة القتال، وصار يتحدَّث عن الحرب باعتبارها "حربًا قذرة". حدث ذلك التحوُّل في موقفه من الحرب بعد أن عَلِمَ بقصة مقتل صديقه أبوبكر مُصلِح.

كان مُصلِح قد عزَّز حضوره في محيطه الاجتماعي باعتباره من أتباع جماعة الحوثي. وزاد من النقمة عليه أن عددًا من أقربائه قاتلوا في صفوف مسلَّحي الجماعة، ضد محيطهم المحلَّي في مدينة تعز. ومن سوء حظّه، أنه عاد إلى المدينة، في ذروة الحرب، تلبية لرغبة والديه برؤيته، وشوقهما الجارف إليه. قَدِمَ من العاصمة مطمئنًا، بعد سيطرة مقاتلي جماعته على مناطق عدة في تعز، لاسيما الحَيّ الذي تسكنه أُسرته، والأحياء المجاورة له. زار والديه، وحَظِيَ بيومين وادعين في كنفهما. وإذ تعزَّز الاطمئنان في قلبه، قرَّر التَّحَرُّك بحرية دونما خوف أو قلق. ظهيرة اليوم التالي، غادر المنزل لشراء القات، وعند عودته وَجَدَ الموت كامنًا له في الطريق. تَقَطَّعَ له مسلَّحون كانوا قد توعَّدوه بالقتل، على خلفية انتمائه إلى جماعة الحوثي. كَمَنُوا له قرب أحد المداخل المؤدية إلى الحَيّ. تفاجأ بهم يوجِّهون فوهات أسلحتهم نحوه. اقتادوه إلى الجهة الأخرى من المدينة، حيث احتجزوه داخل مدرسة حكومية يستخدمونها، منذ الشهر الثاني للحرب، مقرًا لهم. توالت جلسات التحقيق

معه طوال خمسة أيام، تعرَّض خلالها للضرب والتعذيب. كانوا يحقِّقون معه وهو معصوب العينين، موثق اليدين والقدمين. في اليوم السادس، أبعدوا المَشَدَّة التي عصبوا بها عينيه. انصدم عندما رأى بينهم ثلاثة من أصدقائه القدامى. استطاع التَّعرُّف عليهم رغم أنهم كانوا قد أصبحوا بلِحَى كَثَّة، ورغم مضي أربع سنوات على انقطاعه عنهم. توسَّل إليهم إنقاذ حياته؛ إلاَّ أنهم كانوا الأكثر حماسة لقتله. عدَّدوا ما قالوا إنها جرائمه: "العداء لله ورسوله، تأييد الحوثة الرَّوافِض، مهاجمة المُجاهِدين وأهل السُّنَّة في القناة الفضائية التابعة للحوثة". وإذ وصفوه بـ"الرَّافِضِي"، و"المُرْتَدَّ"، أكدوا أن حكم إعدامه قد صدر ممن أسموه "الأمير أبو جندل التعزي". أخرجوه إلى ساحة المدرسة. بكى، وهو يرى المسلَّحين مصطفِّين حول الساحة، ضمن طقوس أدرك، بالحدس، أنها أُعِدَّت لقتله. تقدَّم منه أحدهم وذبحه بسكين، فيما البقية أطلقوا صرخات التَّكْبير. أخذ أربعة من المسلَّحين الجثة، ورموها، فجرًا، في المكان الذي اختطفوه منه، بالقرب من برميل قمامة. في المساء، تلقت أُسرة مُصلِح مقطع فيديو يُوثِّق جريمة ذبحه.

سيطر الرعب على ناصر وهو يسمع تفاصيل ما جرى لصديقه أبوبكر، فقرَّر عدم العودة إلى جبهات القتال. انتهى اندفاعه للحرب، ولم يعد لديه أيّة حماسة لها. اعترف لبعض رفاقه بأنه خاض الحرب بحثًا عن المغامرة، ورغبة في الحصول على تجربة، وقد حصل على ذلك خلال شهر ونصف الشهر هي فترة بقائه في الجبهة.

قضى المثقف المُتحمِّس يومين لدى صديقه أحمد جابر، في مدينة تعز، ثم داهمه شعور بالكآبة والاختناق. تأكد أنه غير قادر على الحياة خارج صنعاء. خفق قلبه ما إن تَذَكَّر صنعاء. أعتزم العودة إليها، رغم الخطر الذي قد يلقاه. ودَّع أصدقاءه في تعز، وهو يقول لهم:

– لا تستعجلوا على جماعة الحوثي، فسيطرتها لن تستمر طويلًا؛ لأن جميع اليمنيين سيخرجون لمواجهتها، بسبب إمعانها في إهانتهم وإذلالهم. يعني، هي متماسكة الآن لأنها نجحت في حشد قبائل شمال الشمال حولها، ولأن الرئيس السابق مازال يتستَّر خلفها، ويستخدمها كأداة لتصفية حساباته مع خصومه. لكن تماسكها لن يستمر طويلًا. يعني، هذه الجماعة ستنتهي؛ لأنها تعمل بوتيرة متسارعة على خلق "دورتها التدميرية الخاصة".

أضاف، بنبرته الوعظية المعتادة، بعد أن حَكّ عُنقه، وأغمض عينيه وفتحهما ثلاثًا، وحَرَّك رقبته إلى اليسار واليمين، بشكل سريع ومتتابع:

– لا تجُرَّكم جماعة الحوثي إلى أمراضها الطائفية والمناطقية. عليكم أن تُقاتلوها باعتبارها مليشيا انقلابية سيطرت على العاصمة صنعاء واختطفت الدولة. يعني، قاتلوها باعتبارها مليشيا خارجة على القانون، وباعتباركم يمنيين تدافعون عن اليمن، لا باعتباركم سُنَّة تخوضون حربًا دينية ضد الرَّوَافِض الشّيعة.

76

تَحَوَّل "المُخبِر" إلى "خَاطِبة" لقائده. كان عليه القيام بالمهمة على أكمل وجه. ولأنه تعامل مع الأمر باعتباره فرصة لإثبات ذاته، اعتزم الذهاب أبعد من استفسار زوجته جليلة عن جَمَال أرملة شقيقها "أبي البيداء". لقد ألزم نفسه بتزويج الأخيرة لـ"بن صالح"، والقيام بجميع الترتيبات المتعلقة بمراسيم هذا الزَّواج، الذي سيتم في اليوم التالي لانتهاء عِدَّتها.

انصرف من عند قائده مبتهجًا. هبط، تلك الليلة، المنحدر الجبلي بخِفَّة ونشاط فتى في الرابعة عشر من العمر. حَثَّ خطاه عائدًا إلى سكنه، وهو يُفَكِّر فيما سيقوله لزوجته. زرع السعادة في نفسه، معتمدًا على تفسير

خاطئ لدلالات المهمة التي كَلَّفَهُ بها "بن صالح". تعامل قائد الجماعة مع "مُخبِره" باعتباره الشخص المناسب للقيام بالمهمة؛ كونه صِهر نائبه القَتِيل، الذي يُرِيد الزَّواج من أرملته. تعامى "المُخبِر" عن ذلك، ورأى أن الأمر يؤكد أنه صار الشخص الأكثر قربًا من "الأمير". لهذا، رَفَعَ رأسه، وباعد بين خطاه، وهو يهبط المنحدر عائدًا إلى سكنه. سار متبخترًا، بقامة مرفوعة، وروحٍ مندفعة، رغم الظلام بالغ الحلكة. دَخَلَ سكنه، مزهوًا وسعيدًا. سألته جليلة عن سبب ذلك، فابتسم لها، ثم سار نحو الحَمّام، وطلب منها تقديم العشاء.

أثناء العشاء، أخبرها بما دار بينه وبين "بن صالح". أبدى حرصًا على إطلاق لقب "الأمير" على الأخير، حتى وهو يتحدَّث مع زوجته، خلف جدران سكنهما.

قالت جليلة إن أرملة شقيقها "مش حلوة". تفاجأ سمير بالأمر. تَكَدَّر مِزَاجه، وشرد ذهنه في التفكير بما سيقوله لقائده الذي يريد الزَّواج بها. توقَّع أن تقول زوجته إن أرملة شقيقها "حلوة"، أو "عادية" على الأقل! لكنها باغتته بقولها ذاك. بعد برهة من التفكير، اعتبر "مش حلوة" أفضل من "بشعة". استغرق في التفكير أكثر، ثم صارح جليلة بما يشغل باله:

– الأمير ضروري يتزوَّج زوجة أبي البيداء (قال زوجة، ولم يقل أرملة). مستقبلنا، أنا وأنتِ، مرتبط بهذا الزَّواج. أنتِ عارفة إن هذا الزَّواج سيُقَرِّبني من الأمير أكثر. هذا الزَّواج بايخَلِّينا، أنا والأمير، أُسرة واحدة.

كانت جليلة تستمع باندهاش وتعجُّب، قبل أن تقول له، وهي ترمقه بنظرة ساخرة:

– كيف باتكون أُسرة واحدة أنت والأمير؟! هو يشتي يتزوَّج واحدة مش من أُسرتك ولا من أُسرتي؟! هذه اللي يشتي يتزوَّجها هي الآن أرملة أخي. يعني،

ماعد فيش بيني وبينها أيّ صلة قرابة غير أنها كاااااانت زوجة أخي. أنت تفهم هذا أيش معناه؟!

– أيوه، فاهم! ما لك من الفلسفة حَقِّك.

استفزَّها رَدّه الواثق هذا أكثر من كلامه السابق. زادت دهشتها، فسألته، وهي تُحَدِّق فيه مغتاظة:

– كيف "أيوه، فاهم"؟! أيش اللي فهمته؟!

– الكلام اللي قلتيه! بس هذا الزَّواج ضروري يتم لأنه بايْخَلِّيك، أنا والأمير، أُسرة واحدة.

تحوَّلت دهشتها إلى توتُّر. قالت، بعد أن أطلقت زفرة غاضبة:

– طيب، كيف تقول إن هذا الزَّواج بايْخَلِّينا، أنت والأمير، أُسرة واحدة؟!

– أيوه، إذا تزوَّج الأمير زوجة أخوكِ، بانكون إحنا وهو أُسرة واحدة.

زاد توتُّرها، واندفعت تقول، بعد أن أطلقت زفرة أكثر غضبًا:

– أووووووووف.. اللهم طوِّلك يا روح! طيب، انت داري أيش قرابتي بأرملة أخي؟! هي أصلًا قرابة ضعيفة وبعيدة! يعني، هي كاااااانت زوجة أخي. هي مش أختي ولا بنت عَمِّي! وإذا كانت قرابتي بها بعيدة، فقرابتك بها أبعد، وغير موجودة أصلًا.

– هذا كلام معروف.

– طيب، هل تعرف أن مقتل أخي قطع القرابة الضعيفة اللي كانت تربطني بزوجته؟! تعرف أن زواج الأمير حَقَّك بأرملة أخي سيقطع قرابتي السابقة بها؟! تعرف انها لمَّا تتزوَّج من الأمير ستصبح "زوجة بن صالح"، وماعد باتبقى أرملة أخي؟! تعرف ان انقطاع قرابتي بها يعني انقطاع أيّة علاقة لك بها؟! وأصلًا ما فيش أيّة علاقة أُسرية تجمعك بها حتى وعادها زوجة أخي.

– أنا فاهم كل هذا الكلام، وما فيش داعي تقوليه!

– طيب، إذا أنت فاهم هذا الكلام، كيف تقول إن هذا الزَّواج بايخَلِّيك أُسرة واحدة أنت والأمير؟! تتكلَّم وكأن الأمير بايتزوَّج أختك، مش أرملة أخو زوجتك! وحتى لو تزوَّج أختك فلن تصبح أنت وهو أُسرة واحدة، بل أصهار.

– ما لكِ من هذي الفلسفة، وهذا الكلام الأعوج! إذا تَمّ هذا الزَّواج ستكون بيني وبين الأمير قرابة أُسرية، فهو سيصبح زوج أرملة أخو زوجتي. هذه قرابة أُسرية واضحة وضوح الشمس. القرابة الأُسرية مش ضروري تكون مباشرة وقريبة جدًا. كُنَّا زمان، وإحنا في المدرسة، نتعامل مع صاحبنا منير الفُشفُشِي على أنه من أُسرة مدير مدرستنا، رغم انه ابن عم زوجته. بالله عليك، قولي لي أيش الفرق بين وضعي الذي سيكون مع الأمير، وبين وضع منير الفُشفُشِي مع مدير مدرستنا زمان؟! والله ما في أيّ فرق!

لاحت ابتسامة تائهة على وجه جليلة، فيما واصل سمير كلامه وهو يبتسم ابتسامة بلهاء:

– المهم هو أن الأمير كَلَّفني بهذه المهمة، عشان كذا أقول لك ضروري هذا الزَّواج يَتِمّ، ضروري يَتِمّ، ضروري يَتِمّ.. حتى لو ما أصبحناش، أنا والأمير، أُسرة واحدة، فأنا سأستفيد من نجاح هذا الزَّواج.. مع إني متأكد أننا سنصبح أُسرة واحدة.

تيقَّنت جليلة أن البلادة ضاربة جذورها في أعماق زوجها وعقله. تأكدت أن الفشل سيكون مصير أيّ جهد ستبذله لمحاولة توضيح الأمر له. قرَّرت عدم مواصلة النقاش الجاد معه، فماحكته قائلةً:

– ابتهال ستوافق على هذا الزَّواج؛ لكن الأمير حَقَّك با يتراجع إذا أنت قلت له بالحقيقة: إنها مش حلوة!

شَحَبَ وجهه، وتجعَّدت ملامحه. تمتم يقول، بعد أن تنفس نفسًا عميقًا:

– هذه هي المشكلة! لكن مش ضروري أقول للأمير إنها مش حلوة.. أنا متأكد إن فيها أشياء حلوة، وأنتِ ضروري تقولي لي أيش الأشياء الحلوة اللي فيها، عشان أكَلِّم الأمير عنها.

– هو قال لك تسألني إنها حلوة أو لا، وأني قلت لك الصِّدق. أنت المفروض تقول له الحقيقة، مش تطَلِّب لك خبر مش موجود عشان تخَلِّيه يتزوَّجها! وبعدين، أني من فين أجيب لك حاجات حلوة فيها؟!

– قلت لكِ ان هذا الزَّواج ضروري يَتِمّ، لأنه في صالحنا كُلَّنا. أنتِ بس خَلِّي نِيَّتك طيبة، وباتحصِّلي أشياء حلوة في زوجة أخوكِ. فَكِّري بالموضوع صح، وأقسم بالله إنكِ باتشوفي إنها حلوة وجميلة.

– بصراحة، ما فيش فيها حاجة حلوة (قالت ذلك وهي تضحك).

– مش معقول ما فيهاش حاجة حلوة؟!

– أقسم بالله ما فيها حاجة حلوة!

– طيب، أوصفي لي شكلها وجسمها، وأنا باقول لك أيش الحاجات الحلوة اللي فيها.

– هي طويلة، طويلة كثير، وسمينة زيادة. صدرها كبير، كبير جدًا، ونخرتها كبيرة، وشعرها سلس، بس قصير..

– أيوة، هذا كلام جميل.. يعني، هي حلوة.

– كيف حلوة؟! كل الأوصاف اللي ذكرتها لك تؤكد أنها مش حلوة، وأنت تقول إنها حلوة! أقول لك والله ان وجهها خيبة شَمَات، وجسمها مش متناسق خالص.

– الجَمَال جَمَال الروح.

– من ناحية الطيبة، فابتهال طيبة كثير، وقلبها نظيف، ومؤدبة وشريفة ومحترمة، بس الأمير حَقَّك سأل عن جَمَالها، أيش باتقول له؟! الجَمَال جَمَال الروح؟!

– باقول له الصدق. باقول له إنها ما شاء الله والصلاة على النبي، طول في عرض؛ طويلة، وأنفها عربي، وشعرها سلس، وقلبها طيب، وذات أخلاق وحسب ونَسَب.. وأنا متأكد انه سيتزوَّجها.

– بعدما يتزوَّجها، بايكتشف انها مش حلوة، والله اعلم أيش بايعمل بك! أنت بعدين أيش باتقول له؟! لا تَدَخِّل نفسك في مشكلة ما فيش لها داعي.

– مش معقول بعد الزّواج بايقول لي انها مش حلوة! وبعدين هو يعرِف أننا ما أعرفها ولا شفتها، وأننا نقلت له ما سمعته منكِ عنها.

فغرت جليلة فاها، وصرخت بغضب واهتياج:

– أيش؟! أيش؟!.. أنت مجنون؟! تشتي تحمِّلني المسئولية، وتَخَلِّيني أطلع كذابة؟! الأمير حَقَّك بايقول إني كذبت عليه عشان يتزوَّج أرملة أخي! هذا الكلام ما ينفع، ضروري تقول له الحقيقة، مثلما قلتها لك إني بالضبط! ضروري تقول له إني قلت إنها مش حلوة.

ارتبك سمير، وفتح عينيه مشدوهًا، كما لو أنه لم يدرك خطورة ما قاله، ولم يتوقَّع رَدَّة فعل زوجته عليه. قال، وهو يبتسم محاولًا تطمينها:

– لا تقلقي، سأنقل للأمير ما قُلتِيه لي بالنص، بالحرف الواحد.

دَخَلَ ناصر قاسم صنعاء وكُلّه أمل بألّا تكون جماعة الحوثي قد أدرجته ضمن قائمة المطلوبين لها. وقد عاد إلى العاصمة لأنه كان مُطمَئِنًّا إلى أن الجماعة لم تعرف بمسيرته القتالية ضدها في تعز.

كانت الحرب الميدانية المباشرة ماتزال بعيدة عن العاصمة صنعاء. لكن آثارها حاضرة في الفقر والبؤس الواضحين على وجوه الناس، وفي عمليات القصف التي تُنَفِّذها طائرات "التحالف العربي" على مواقع مسلَّحي الحوثي وقوات الرئيس السابق.

كان الناس منهكين في صنعاء، ويكظمون سخطهم على الحوثيين، وينتظرون لحظة الخلاص منهم. ارتفعت أسعار جميع السلع والخدمات، فيما الموظفين الحكوميين بلا مرتبات، منذ أشهر طويلة. أما موظفو القطاع الخاص فأغلبهم سُرِّحوا من وظائفهم، والبقية تعرَّضت رواتبهم لتخفيض قسري.

أَضْرَبَ عمال النظافة بسبب عدم صرف رواتبهم، فتكدَّست القمامة في شوارع العاصمة، وبقية المدن. انتشرت الأمراض والأوبئة، على رأسها مرض الكوليرا. خضعت جماعة الحوثي، فصرفت رواتب عمال النظافة. إلاَّ أن مرض الكوليرا كان قد تحوَّل إلى وباء، وبدأ الفتك بالمئات.

وَجَدَ "ناصر" غرفته كما تركها، وأصدقاؤه أكثر بؤسًا وفقرًا مما كانوا. لزم غرفته، متجنِّبًا إثارة الانتباه إليه. أخبر أصدقاءه، الذين زاروه، أنه قضى فترة غيابه في القرية، عند أمه. أول زواره كان صديقه طه نعمان، الذي لم يُعتقل، كما لم يتعرَّض، طيلة فترة بقائه في العاصمة، لأيّ ملاحقات أو مضايقات من قبل مسلَّحي الحوثي.

في اليوم الثالث لعودته، استقبل ناصر صديقه القديم وائل محمود، الذي ينتمي إلى مدينة عدن، ويحرص دائمًا على التذكير بهويته الجنوبية كهوية

نقيضة للهوية اليمنية. كان وائل قد احتفى بإخراج مقاتلي الحوثي من مدينة عدن وبقية المحافظات والمناطق الجنوبية التي كانوا قد سيطروا عليها، باستثناء بعض المناطق في شبوة. وفي زيارته لناصر، أعاد الحديث عن ذلك بفرح استعراضي، ثم أكد بثقة أن ما جرى ويجري هو خطوة نحو انفصال الجنوب. نظر إليه المثقف العائد إلى العاصمة بشفقة، ثم قال له:

– ما يجري لن يؤدي إلى انفصال الجنوب، بل إلى تشظِّي اليمن. يعني، الفوضى الحالية لن تُبقِي على شمال كي يكون هناك جنوب.

هتف وائل، ساخطًا:

– لا يمكن أن نقبل الخضوع لتحالف صنعاء الانقلابي بذريعة أن اليمن ستتشظَّى! طُزّ باليمن، تتشظَّى وتروح مِلْح، أهم شي الجنوب. نحن جنوبيون، ولا شأن لنا باليمن.

حَكّ ناصر عُنقه، وأغمض عينيه وفتَّحهما ثلاثًا، وحَرَّك رقبته إلى اليسار واليمين، بشكل سريع ومتتابع، ثم قال لوائل، وهو ينظر إليه بقدر أكبر من الشَّفَقة:

– اليمن ستتدمَّر، وستغرق في جحيم الفوضى والاقتتال. يعني، لا تحلموا بأن الجنوب سيبقى متماسكًا وسيكون بإمكانه الانفصال! لا تحلموا حتى بقيام كيانات كانتونية صغيرة في الجنوب؛ لأن الفوضى ستبسط ذراعيها على اليمن ككل. يعني، ستصبح السيادة للفوضى، للفوضى فقط. وكما قلت لك فلن يكون هناك شمال ليبقى هناك جنوب.

– الشمال دَمَّرَ الجنوب في حرب صيف **1994** وما بعدها، لهذا فالحرب الجارية ستُدَمِّر الشمال، أما الجنوب فليس لديه ما يخسره. نحن الجنوبيين، ليس لدينا ما نخسره، وما معنا شي نخشى تدميره وتشظِّيه. وأصلًا لن يجرى لنا شي؛ لا تشظِّي ولا أم الجن. من حَقّنا أن نَسْتَغِلّ هذه الحرب كي نستعيد

دولتنا الجنوبية. أنت تعرف، يا ناصر، أن انهيار السلطة المركزية في صنعاء سيُعجِّل باستعادة الدولة الجنوبية، وسيجعل ذلك أمرًا سهلًا وفي متناول اليد.

– أقول لك المخاطر المُحدِقة باليمن كبيرة. يعني، المخاطر أكبر من قدرة اليمن واليمنيين، وأكبر من قدرة الجنوبيين على الانفصال. يعني، الفوضى الحاصلة ستُغرق الشمال والجنوب، ولن تجدوا جنوبًا كي تستطيعوا استعادة دولتكم الشَّطرِية فيه. يعني، ستجدون أمامكم الخراب، والمليشيات، ومشاريع السَّلطَنَات التي قضت عليها ثورة 14 أكتوبر عام 1967، وعلى أنقاضها وحَّدت الجنوب بهويته السياسية الحالية التي تقولون إنكم تقاتلون اليوم من أجلها؛ لكن تحت رايات ليست رايتها، بل عدوة لها.

– ما يهمَّنا هو استعادة الدولة الجنوبية، وهذا أمر أصبح في متناول أيدينا..

قاطعه المثقف المُتحمِّس:

– كيف استعادت الدولة الجنوبية، وأنتم لم تستطيعوا تأمين مدينة عدن؟! يعني، أن مسلَّحي المقاومة الجنوبية، والقوات الموالية للرئيس الانتقالي، لم يتمكَّنوا من السيطرة على عدن وضبط الأمن فيها؛ رغم مرور فترة طويلة منذ إخراج مقاتلي الحوثي منها. يعني، الفوضى والاغتيالات مستمرة في عدن حتى اليوم. حتى حقّكم الحراك الجنوبي كان مجرَّد فقاعة، فلم يكن له أيّ دور على طول الجنوب، باستثناء في محافظة الضالع. مسلَّحو الجماعات الإرهابية كانوا، ومازالوا، هم أصحاب الصوت الأعلى في الجنوب، وسيطروا ويسيطرون على مناطق عدة في الجنوب، وداخل عدن نفسها.

– لا تُصَدِّق يا ناصر أن الإرهابيين يسيطرون على مناطق داخل عدن والجنوب. هذا كلام غير صحيح، وهو شائعات هدفها خدمة الحوثي

والمخلوع عفاش([14]). هناك بعض الإرهابيين في عدن والجنوب، لكنهم يتبعون المخلوع. حتى الاغتيالات تقوم بها خلايا نائمة تابعة للحوثي والمخلوع.

– إذا كان الإرهابيون، ومنفِّذو الاغتيالات، يتبعون الحوثي والرئيس السابق، فذلك أدعى إلى قتالهم وإخراجهم بالقوة من عدن، مش إنكار وجودهم!

– نحن، الجنوبيين، لن ندخل في مواجهات فيما بيننا؛ لأن ذلك سيخدم الحوثي والمخلوع. المهم، نحن متأكدون من أننا في طريقنا لاستعادة دولتنا الجنوبية، وأنت حُرّ يا ناصر، تصَدِّق هذا الكلام أو لا تُصَدِّقه!

وسّع ناصر من حجم الابتسامة الساخرة على وجهه، وقال بشيء من الجهد:

– إذا رحَّلتم المواجهة مع الإرهابيين، فأنتم تعملون على تقويتهم، وإتاحة الفرصة أمامهم كي يُثَبِّتُوا أقدامهم على الأرض، وهذا سيجعل مواجهتهم مُكَلِّفة وفادحة في المستقبل. يعني، إذا نظرت بعقل منفتح ومُتحرِّر من الانحيازات المسبقة، إلى التغييرات الموجودة على الأرض، فستعرف أن ما ينتظر الجنوب ليس استعادة دولته الشطرية، بل التَّشَظِّي والإرهاب والفوضى.. وكذلك الأمر بالنسبة للشمال. كلّنا سنغرق في الخراب!

أطلق المثقف المُتحمِّس نفسًا عميقًا، ثم أردف يقول، بعد أن حَكّ عُنقه، وأغمض عينيه وفتحهما ثلاثًا، وحَرَّك رقبته إلى اليسار واليمين، بشكل سريع ومتتابع:

– إذا افترضنا، يا وائل، أنكم تَمكَّنتم من استعادة دولتكم الجنوبية، فهل تَظُنّ أن ذلك سينهي مشاكلكم؟! بالتأكيد لا. يعني، مشاكلكم لن تنتهي بالانفصال؛ لأن بيئة التخلف واحدة في اليمن. يعني، إذا افترضنا أنكم تَمكَّنتم

([14]) عفاش لقب صار يُطلق، منذ ما بعد ثورة 2011، على الرئيس السابق وأسرته.

من مواجهة الإرهاب وأخطار التَّشَظِّي، فلن تنجوا من الفساد والصراع القَبَلِي الجهوي على السلطة. لا يمكن لليمن أن يتخلَّص من مشاكله وأزماته إلاَّ وهو كيان موحّد. يعني، لا تهربوا من مشاكلنا الوطنية إلى الانفصال! الانفصال مش حل!

78

بروحِ خَاطِبة تسعى إلى عقد زيجة دِسِمة، صَعَدَ سمير، في الثامنة صباحًا، المنحدر المؤدي إلى سكن "بن صالح". ارتقى المنحدر بثقة وسرعة غير معتادتين. اقترب من مدخل السكن، وهو نَشِط ويتنفَّس بشكل طبيعي. رَحَّب به أفراد الحراسة، وأخبروه أن "الأمير" ينتظره في مجلسه المعتاد. تجاوز الحاجز الترابي، وانعطف يسارًا، وبعد خطوات قليلة وَجَدَ نفسه أمام قائد الجماعة، الذي استقبله ببشاشة، ووجه تغشاه لهفة الانتظار والترقب. دون أن ينتبه إلى تلك اللَّهفة، أعاد عليه سمير الكلمات التي قضى أكثر وقته في حفظها، منذ الليلة الماضية:

– أيها الأمير، سأقول لك، بالنَصّ، ما قالته زوجتي عن زوجة أبي البيداء. قالت إنها، ما شاء الله والصلاة على النبي، طول في عرض؛ طويلة، وأنفها عربي، وشعرها سلس، وقلبها طيب، وذات أخلاق وحسب ونَسَب.. هذا ما قالته لي زوجتي بالحرف الواحد.

أشرق وجه "بن صالح" غِبطة. نهض من مكانه مسرورًا. خطا ثلاث خطوات، وقال، بعد أن أمسك بكتفي سمير:

– إذن، يا أبا الليث، اذهب من فورك إلى أرملة أبي البيداء وابلغها أني قرَّرت الزَّواج بها.. أو.. أبلغها أني أريد أن أخطبها لتكون زوجة لي..

– لقد أكرمنا الله بك أيها الأمير، وهي لن تجد أفضل منك. إنه لشرف عظيم لأيّ امرأة أن تتزوَّج بك، وإنه لشرف عظيم لأيّة أُسرة أن تصبح أنت صِهرها، وإنه لشرف عظيم لأيّ شخص أن يصبح من أُسرتك.

– اذهب، يا أبا الليث، إلى سكنها، وأخبرها بما حدَّثتك به أمس عن مكانة أبي البيداء لديَّ. قُلْ لها إن أبا البيداء كان صاحبي وأخي، وإني قرَّرت أن أتزوَّجها، لأن من العيب أن أترك أرملة أخي أبي البيداء تقاسي الضياع ووحدة التَرَمُّل دون زوجٍ. وقُلْ لها إن واجبي، باعتباري أميركم ووَلِّي أمركم، أن أختار لها زوجًا، وقد اخترت لها أن تصبح زوجتي؛ إكرامًا وتقديرًا لها ولأبي البيداء، فهو أخي وصاحبي، ولا أريد لأرملته أن تتزوّج شخصًا آخر لا أدري كيف سيعاملها.

– سمعًا وطاعة أيها الأمير.

– ستبقى واقفًا في الخارج حين تكَلِّمها. وستُكَلِّمها وهي من وراء حجاب. لا تَنْسَ أنك لست من محَارِمها.

– سمعًا وطاعة أيها الأمير.

– قل لها إني أرسلتك كي تَخطِبَها لي. وأخبرها أننا سنُحَدِّد مَهرها ومُؤَخَّر صَدَاقها وفقًا لكتاب الله وسُنَّة رسوله وللعرف السائد بين المُجاهِدين، وأنها سَتُزَفّ إليَّ بعد انتهاء فترة العِدَّة.

– سمعًا وطاعة أيها الأمير.

كان سمير يريد أن يستأذن للانصراف؛ إلاَّ أن "بن صالح" تابع كلامه:

– هي تعرف أنها ستكون الزَّوجة الرابعة لي؛ لهذا قُلْ لها إنها ستبقى في سكنها، وأني ملتزم بالعدل الذي أمرني به الله تعالى في التعامل مع زوجاتي، وأوزِّع ليالي نومي بينهن بالتساوي.

– هي أين ستجد من هو أعدل منك أيها الأمير؟!

انطلق سمير نحو سكن صِهره القتيل، وبعد ربع ساعة عاد يحمل لقائده خبر موافقة "ابتهال" على الزَّواج به.

في ذروة ابتهاجه بنجاحه في الترتيب لإتمام مشروع هذا الزَّواج، تذكَّر سمير، فجأة، أن أرملة "أبي البيداء" ليست جميلة، فاضطرب اضطرابًا شديدًا. عاش أيامًا عصيبة تحت ضغط هذا الكابوس.

ما إن انتهت فترة العِدَّة، تزوَّج "بن صالح" بأرملة "أبي البيداء". تزوَّجها دون أيّ مظهر من مظاهر الاحتفال. تولى "أبو خشافة"، وهو أحد الجِهاديين القدامى، العقد لهما، عصرًا، بحضور شاهدين. وفي المساء رافق "المُخبِر" قائده إلى أمام سكن عروسه الجديدة.

ليلتها، وَجَدَ سمير صعوبة في النوم؛ إذ كابد مخاوفه من رِدَّة فعل "الأمير" بعد أن يكتشف أن عَرُوسه "مش حلوة". بقلب جزِع، أدى صلاة الفجر خلف قائده، في مسجد المُخيَّم، ثم انسحب سريعًا، مُتجنِّبًا لقاءه. لزم مسكنه، في انتظار رَدّ الفعل المرتقب.

في التاسعة صباحًا، أرسل إليه "بن صالح" أحد أفراد حراسته يأمره بالحضور إليه. اتَّجه سمير نحو سكن قائد الجماعة، وهو يتوجَّس خوفًا، بيد أنه فوجئ بالرَّجُل يستقبله بحفاوة، وسعادة بالغة. عانقه بحرارة، ثم قال، وهو يهزّه من كتفيه بودّ حمل نوعًا من رفع الكُلفة:

– صدقتْ زوجتك. العَرُوس جميلة كما وصفتْها. جزاكما الله خيرًا على ما قدَّمتماه للجِهاد في سبيل الله، ولخدمة الإسلام والمسلمين.

كانت تلك هي المرة الأولى والأخيرة التي يقف فيها "الأمير" لاستقبال "مُخبِره"، ويُسلِّم عليه أخذًا بالأحضان. المؤكد أنه لم يكن يستقبل "مُخبره"، بل "خاطِبته".

79

قضى ناصر قاسم أسبوعه الأول في صنعاء بهدوء ودون منغِّصات. انتهى الأسبوع الثاني بسلام؛ فظَنَّ أنه في مأمن. زاد اطمئنانه إذ لم يلحظ وجود ما يشير إلى ما يُهدِّد حياته وأمنه الشخصي. غادر غرفته، عائدًا إلى حياة الجلبة والصَّخب، بعد أن ألزم نفسه بتجنُّب الحديث عن جماعة الحوثي، أو مهاجمتها. قضى الأسبوع الثالث مُتنقِّلًا من مِقيل إلى آخر. في اليوم الأول، لم يتعرَّض للجماعة؛ لكنه لم يستطع المضي في ذلك إلى النهاية. كانت المجالس العامة والخاصة مشغولة بالحديث عن الحرب، والفوضى، وجرائم وفساد الحوثيين. ولئن كان من الصعب على المثقف المُتحمِّس التزام الصمت في جلسات القات اليومية، فإن التهرب من مناقشة تلك القضايا كان بمثابة المستحيل بالنسبة له. في البداية، راقب نفسه، وكبح جماح رغبته في الحديث عن الجرائم التي ترتكبها جماعة الحوثي. لكن شعوره بالأمان أنساه المحظورات التي وضعها لنفسه، ودفعه إلى ما هو أبعد منها. وهكذا، راح يهاجم الجماعة بحدِّيته المعروفة في النقد، وبصخبه المعتاد في الحماسة. ولم يمضِ اليوم الخامس إلاَّ وهو معتقل.

كانت الحادية عشرة ليلًا حين فوجئ بمسلَّحين حوثيين يُداهمون غرفته، ويعتدون عليه بوحشية. في البداية، سَمِعَ طرْقًا قويًا على باب الشقَّة، التي يسكنها مع عدد من طلاب الجامعة. سَمِعَ باب الشقَّة ينفتح ترافقه جلبة غريبة ومقلقة. زادت الجلبة في الصالة، وارتفعت حِدَّة أصوات هَلِعة ومرتبكة، بعضها لرفاق السكن. لم ينهض من مكانه. كان مستلقيًا على فراشه، مستسلمًا لعادتيه الأثيرتين: الكسل، والتدخين. بعد ثوان وَصَلَ الطَّرق العنيف إلى باب غرفته. انتفض فَزِعًا. مضى نحو الباب، وهو يلعن الضجيج ومحدِثيه، الذين وتَّروا سكونه الليلي، وقطعوا لحظات استرخائه وتأمُّله. فتح

الباب بتبرُّم، وهو يعتزم الصراخ فيهم وتوبيخهم، لكنه بوغت بلكمة أفقدته توازنه. تراجع إلى وسط الغرفة مذعورًا. اندفع خلفه سبعة مسلَّحون. أربعة منهم انهالوا عليه ضربًا، بينما وقف الثلاثة الآخرون يُصوِّبون نحوه فوهات بنادقهم. سقط مرتاعًا، فتواصل الاعتداء عليه ركلًا، وضربًا بالهراوات وأعقاب البنادق.

تعاملوا معه بغلظة وعجرفة وعنجهية؛ متعمِّدين إهانته. فعلوا ذلك وهم يصفونه بـ"الداعشي"، في إشارة إلى اتهامه بالانتماء لتنظيم الدولة الإسلامية (داعش). لم يكن في وضع يسمح له بالحديث، أو نفي التهمة؛ إذ كان قد سقط أرضًا، وتَكَوَّم على نفسه، محاولًا إخفاء وجهه بين يديه للحيلولة دون تعرُّضه لمزيد من الضرب واللَّكم والصَّفع. أدرك خطورة الوضع؛ فاتهامه بالإرهاب كان يعني أن جماعة الحوثي صارت تُصَنِّفه كعدو لها؛ ذلك أنها اعتادت توجيه هذه التهمة لخصومها وأعدائها بهدف ترويعهم والتنكيل بهم.

سال الدم من وجهه ورأسه، بينما كان جسده يرتعش من شِدَّة الهلع. بعد دقائق خاطفة من الضرب العنيف، أوقفه مسلَّحان في الزاوية القريبة من الباب، فيما تولى الخمسة الآخرون تفتيش الغرفة. شاهدهم ينثرون ملابسه، ويرمون كُتبه، ويدوسون فراش نومه بأحذيتهم المتسخة. شاهدهم يأخذون موبايله، ولابتوبه، وأغراضًا شخصية أخرى، بينها بعض الأوراق والكُتب. كان مرتاعًا ومُتَبَلِّدًا، وجسده يزداد ارتعاشًا. لم يستطع حتى إطلاق صرخة استغاثة. لقد أصيب بذلك التَّبَلُّد الذي يفترس المرء بعد تعرُّضه لضرب مبرح.

أنهى المسلَّحون تفتيش الغرفة، فعصبوا عينيه واقتادوه إلى مكان مجهول. رموه في غرفة أُغلقت نوافذها بصفائح حديدية من الخارج؛ ما حال

دون تعرُّفه على المكان. انشغل في التفكير بما يجب عليه قوله لإنكار قتاله ضد الحوثيين في تعز، وتبرير استمرار مهاجمته للجماعة، لاسيما الهجوم الذي شَنَّه على زعيمها، قبل يومين، في مقيل أحد السياسيين.

حقَّقوا معه وهو معصوب العينين، مقيد اليدين إلى الخلف. نفى أن يكون قد قاتل في تعز، وأوضح بأن ما قاله ضد جماعتهم وقائدها يندرج في خانة النقد، وحرية الرأي والتعبير. ما إن قال ذلك، حتى تلقى صفعة قوية قلبته من على الكرسي الذي كان جالسًا عليه. أحسَّ بألم في الجانب الأيمن لجبهته؛ بسبب سقوطه المفاجئ والقوي على الأرض. وقبل أن يحاول الحركة، داس أحد المُحَقِّقين على خَدّه الأيسر، وصرخ فيه بانفعال:

– أيش من نقد، أيش من كلام فاضي؟! عندنا ما فيش حاجة اسمها نقد وحرية رأي وتعبير؟! عندنا مسيرة قرآنية، وقائدها سيدي وسيدك عبد الملك بدر الدِّين الحوثي. وأنت إما تكون مع القرآن ومسيرته، وإما مع الشيطان وأعداء الله. إما تكون مع سيدي عبد الملك، ابن رسول الله، وإما مع الشيطان، وأعداء رسول الله.

ضغط المُحَقِّق قَدَمَهُ بقوة على خَدّ ناصر، وأمطره بسيل من الشتائم واللعنات. شَعَرَ المثقف المعتقل بألم في وجهه ورأسه. كان يَئِن متوجِّعًا، فيما المُحَقِّق يطلب منه "مُبَايَعْة" الحوثي:

– اِعلن الولاء والبراء.. اِعلن الولاء لسيدي عبد الملك، والبراء من أعدائه، أعداء الله ورسوله..

رفع المُحَقِّق قَدَمَه، فأصدر ناصر أنات متوجِّعة، وقلب جسده إلى الناحية الأخرى، ليريح خَدّه الأيسر. وقبل أن يسترد أنفاسه، فوجئ بمُحقِّقٍ آخر يدوس خَدّه الأيمن، ويصرخ فيه بانفعال أشد:

– نقد وحرية رأي وتعبير ضد ابن رسول الله؟! نقد ضد سيدي عبد الملك والمسيرة القرآنية؟! من أنت لمَّا تشتي تنتقد ابن رسول الله؟! أنت، يا صعلوك، تتجرأ على ابن رسول الله؟! أنت عميل للعدوان! اعترف، وقل لنا مع من تعمل. من هم الذين تعمل معهم؟ وأين زَرَعتُم شرائح لطائرات العدوان تقصف؟ اعترف! قل لنا أين الشرائح، وكيف تستلمون الفلوس من العدوان ومرتزقته؟

تعرَّض ناصر لتعذيب عنيف، حتى إنه لم يستطع الوقوف على قدميه بعد انتهاء جلسة التحقيق الأولى. استخدموا الكهرباء في تعذيبه خلال جلسة التحقيق تلك، وست جلسات تالية كان يخرج منها وهو غير قادر على الوقوف أو الحركة. تَوَرَّم جسده من التعذيب، لاسيما مؤخِّرته، التي كان مُعَذِّبوه يتعمَّدون ضربها بالهراوات. ظَلّت آثار الدم الأسود المتجلط واضحة على إليتيه. لدى الحوثيين وَلَع بضرب مؤخِّرات سجنائهم. أغلب الذين أفرجوا عنهم، خرجوا بمؤخِّرات مُتَوَرِّمة. لا أحد يدري سبب وَلَع الحوثين بهذا النوع من التعذيب!

اليوم الثامن، نقلوا "ناصر"، معصوب العينين، إلى سجن داخل منشأة عسكرية تتعرَّض باستمرار للقصف من قِبَل طائرات "التحالف". وَضَعُوه في زنزانة فيها ستة سجناء، ينتمي ثلاثة منهم إلى الحزب الدِّيني المتحالف مع الجنرال. كان الحوثيون قد اعتَقلوا عددًا كبيرًا من قادة وناشطي هذا الحزب، في حملات اعتقالات تمّت فيها مداهمة منازلهم.

تذكَّر ناصر أن جماعة الحوثي تعمَّدت اعتقال معارضيها وسجنهم في مواقع عسكرية تستهدفها الطائرات. انتابه القلق، وفَقَدَ شغفه بالحياة، وحماسه للثقافة والسياسة. كان كُلَّما سَمِعَ طائرة تُحلِّق في السماء، وضع رأسه بين ركبتيه وأحاطه بيديه. تعرَّضت المنشأة، التي سُجِنَ فيها، لغارات عنيفة

ومتكرِّرة. أمكنه إحصاء تسع غارات استهدفتها خلال الأسبوع الأول لاعتقاله فيها. في كل غارة، كانت مباني المنشأة تهتزُّ وتتساقط أجزاء منها. وفي كل مرة، كان ناصر ورفاق سجنه يصابون بالرعب، وينجون بأعجوبة.

توقَّفت جلسات التحقيق؛ لكن بدأ تعذيب آخر أشد فتكًا. عصر كل يوم، كان يدخل الزنزانة فتى في الخامسة عشر من عمره يقرأ على السجناء أجزاء من "ملازم" حسين الحوثي، مؤسس الجماعة. كانت تلك "المحاضرات" تستمر نحو نصف ساعة يوميًا. وكان على المثقف المُتحمِّس أن ينصت بتركيز، ويَهُزَّ رأسه موافقًا على ما اعتاد وصفه بـ"الكلام الفاضي" و"الخزعبلات". لم يستطع أيٌّ من السجناء الاعتراض، أو حتى مناقشة ما يُقرأ عليهم.

في أحد مساءات الشهر الثاني، هَزَّ انفجار ضخم المبنى الذي يضمّ السجن. استهدف الصاروخ مبنىً مجاورًا. سُمِعَت أصوات جنود، ومسلَّحين حوثيين، يفرُّون من المكان، وسط حالة من الفزع. بعد دقائق، عاد عدد منهم، وبينما كانوا يعملون على إسعاف زملائهم الجرحى، وانتشال جثث القتلى، استُهدف المبنى ذاته بصاروخ ثان، فقُتل أغلبهم. هرب بقية المسلَّحين والجنود. انتشروا خارج المنشأة، ورفضوا العودة إليها لانتشال القتلى والجرحى، خوفًا من تعرُّضهم لقصف مماثل.

كثَّفت الطائرات قصفها لمواقع ومبان أخرى داخل تلك المنشأة العسكرية. سيطر الذعر على ناصر، وبقية السجناء، لاسيما وقد عرفوا أن المسلَّحين والجنود فرُّوا وتركوهم داخل السجن الواقع في الطابق الأرضي من مبنى يضمّ أربعة طوابق. هَزَّت المبنى خمسة انفجارات عنيفة رفعت السجناء من أماكنهم ورمتهم أرضًا متكوِّمين على بعض. تعالى صراخهم مطالبين بإخراجهم من المكان. ظَلّوا يصرخون دون جدوى. تأكدوا أن سَجَّانِيهم

تعمَّدوا تركهم عرضة للقتل خلف قضبان السجن. بعد دقائق، هَزَّ المبنى انفجار أعنف. وَجَدَ ناصر نفسه ملقى تحت الركام. الخرسانات الاسمنتية كَوَّنت، حول النصف العلوي من جسده، فراغًا بعرض نصف متر. أَحسَّ بسائل حار يسيل من جبهته. أخرج طرف لسانه، فذاق طعم الدم. أراد الخروج من تحت الركام؛ لكنه عجز عن تحريك يديه، أو أيٍّ من أجزاء جسده. أراد أن يصرخ فلم يستطع. لم يكن أمامه غير الأنين. سَمِعَ رفاق سجنه يئنون أيضًا، تحت الأنقاض بجواره. تذكَّر أمه، ثم دخل في غيبوبة.

تَمّ رفع الأنقاض، بعد ثماني ساعات. كان ناصر قد أصبح جثة هامدة. وُجِدت رجله اليمنى مُهَشَّمة، واليسرى مصابة بثلاثة كسور. يداه أصيبتا بعدة كسور، وعموده الفقري تعرَّض لكسر أعلى الحوض. أما رأسه فقد أُحدِث فيه شُجَّ غائر بعمق ثمانية سنتيمترات، وعرض خمسة. مات دون أن يعرف أن رامي مُكرِد هو من وَشَى به.

80

تغيرت حياة سمير، بفضل نجاحه في مهمته كخَاطِبة. أصبح أكثر من مجرَّد "مُخبِر"، وأقل من ساعد أيمن لقائد جماعته. لقد نال ثقة الأخير، وصار من جلسائه وأهل مشورته. بيد أنه ظَلّ مسكونًا بخوف لا نهائي من كابوسه الشخصي.

بدأت أيام سَعْده، بعد نجاحه في تَزوِيج "بن صالح" بأرملة "أبي البيداء". تعدَّدت المهام التي أُوكلت إليه. ورغم تدنِّي ثقافته، حَظِيَ بامتياز إلقاء محاضرات دينية على الملتَحِقِين الجُدد بالمُخيَّم. طاعته العمياء زادته قُربًا من قائد الجماعة. وقد تسارعت مسيرة ترقِّيه، حتى أصبح "المبعوث الخاص للأمير".

في البداية، استطاع إقناع "بن صالح" بضرورة ضَمّ خمسة مسلَّحين للعمل كـ"مُخبِرين" تحت إمرته. تاليًا، طلب، برأس مُنَكَّس، بناء غرفة صغيرة من اللِّبن لتكون "مقرًا" له و"مُخبِريه". وقد بنيت الغرفة في الطرف الجنوبي الغربي للمُخيَّم، وأُطلق عليها اسم "وحدة الأمن الجِهادي". مذاك، راح يُعَرِّف نفسه بـ"رئيس وحدة الأمن الجِهادي"، ويتصرَّف كما لو أنه قائد لجهاز استخباراتي حقيقي.

استطاع الرَّجُل الهارب من ماضيه تحقيق ذاته في "المجتمع الجِهادي"، وصار يلمس المعنى الحقيقي لوجوده وحياته. لكن تأثيره ظَلّ محدودًا، وفاعليته هامشية. ولئن فَشِلَ في مغادرة شخصيته كـ"مُخبِر"، أخفق في التَّمَوضع باعتباره "مبعوثًا خاصًا". مع ذلك، تَكَيَّف "بن صالح" مع الوضع الجديد لـ"مُخبِره"، وبدأ يعتمد عليه كـ"مبعوث خاص" يُرسِله إلى زعماء القبائل، والجماعات الجِهادية الأخرى، أو يُكلِّفه بمراقبة سير الهجمات والعمليات التي يُنفِّذها مسلَّحوه.

مطلع الربع الأخير من عام 2016، جهَّز قائد الجماعة خمسين من مسلَّحيه، عَيَّن "أبا البيرق" قائدًا لهم، وكَلَّفَهم بتنفيذ عملية هجومية خاطفة ضد مسلَّحي الحوثي، الذين ظَلُّوا يتمركزون، مع قوات الجيش المساندة لهم، في مديرية بيحان، التابعة لمحافظة شبوة.

أطلق "بن صالح" على العملية اسم "غزوة قطع ذنب الرَّوَافِض"؛ محاكيًا تسميات حروب فجر الإسلام. تدارس مع "أبي البيرق" الخطوط العريضة للعملية، وزَوَّده بأسماء وأرقام موبايلات شخصيات قَبَليّة "صديقة" سَتَمُدّه بمقاتلين، وستستقبله ومسلَّحيه قبل وصولهم إلى المنطقة التي ينتشر فيها خصومهم.

أوفد قائد الجماعة "مبعوثه الخاص" مع "الحملة" لمراقبة سير الأحداث فيها. وقد تمّ التقاط صور لسمير و"أبي البيرق" والمسلَّحين الخمسين، قبل مغادرتهم المُخيَّم، لاستخدام بعضها مع البيان الذي سيصدر بشأن العملية بعد تنفيذها. كان الحرص على التقاط الصور أكثر من الحرص على وضع خطة العملية الهجومية؛ ذلك أن الجماعات الجِهادية والطائفية اعتادت نشر صور قتلاها لتنميط معنى البطولة فيهم، واستقطاب مزيد من المقاتلين إلى صفوفها؛ اعتمادًا على تعميم مفهومها الخاص للشجاعة و"الشهادة".

استقلّ مسلَّحو "أبو البيرق" إحدى عشرة سيارة عسكرية مكشوفة الظهر، من تلك التي كانوا قد نهبوها من معسكرات الجيش. ارتدوا بدلات عسكرية، وحملوا أسلحة خفيفة ومتوسطة، إضافة إلى قنابل يدوية، وصواريخ "لو"، وقذائف (آر بي جي). رغم ارتدائهم الزيّ الرسمي للجيش؛ فإنهم لم يستطيعوا إِخفاء سحنتهم الجِهادية، لاسيما وقد أبقوا على لِحاهم الكَثَّة غير المُهذَّبة. لم يضعوا على رؤوسهم "البِرِيهْ" العسكري، الذي ينتصب في مقدِّمته النسر فاردًا جناحيه المطليين بالعلم الوطني. شأن مقاتلي الحوثي، يستخدم المسلَّحون المتطرِّفون إرث ومقدرات الدولة الوطنية، لتنفيذ أهدافهم؛ لكنهم يرفضون رفع رموزها وشعاراتها. يرفضون ذلك لأنهم يحاولون بناء مشاريعهم الماضوية الخاصة على أنقاض الدولة الوطنية، ويرفعون رموزهم وشعاراتهم على أنقاض رموزها وشعاراتها.

خُصِّصت إحدى السيارات العسكرية لـ"رئيس وحدة الأمن الجِهادي"، الذي جلس جوار السائق، وسلاح كلاشنكوف على فخذيه، بينما في الخلف هناك ستة مسلِّحون. كان يرتدي بدلة عسكرية، مع "جُعبة" ملتفة حول بطنه، فيها ثلاثة مخازن ذخيرة، وأربع قنابل يدوية. أحيط حضور

سمير في تلك المهمة بهالة كبيرة؛ لاسيما وغالبية المشاركين فيها هم من المُنضمِّين للجماعة حديثًا.

ورغم أن المسلَّحين المُكَلَّفين بتنفيذ العملية كانوا يطلقون لقب "الأمير" على "أبي البيرق"، التزامًا بالإرث الإسلامي؛ فإن أعينهم كانت تَتَّجِه نحو سمير باستمرار. "أبو البيرق" نفسه لم يكن يَبُتّ في أمر إلاَّ بعد الرجوع إلى سمير. وقد استحوذت على الرَّجُل الهارب من ماضيه حالة من الزَّهو وهو يشاهد ما أصبح عليه.

بعد أربع ساعات، وَصَلَ "أبو البيرق" ومسلَّحوه إلى المنطقة القَبَلِيّة "الصديقة"، التي تقع على بعد نحو ثلاثة كيلومترات عن المنطقة التي يتمركز فيها مقاتلو الحوثي والقوات المساندة لهم. وَضَعَ سمير و"أبو البيرق"، بالاشتراك مع قادة حلفائهم القَبَليّين، خطة الهجوم والترتيبات النهائية لتنفيذه. فجر اليوم التالي، تقدَّموا نحو المنطقة التي يفترض أن تكون مسرحًا للعمليات. ساروا بثقة من يلعب على أرضه وبين جمهوره، لكنهم وقعوا في فَخّ قاتل. ما إن قطعوا نحو كيلومترين اثنين، حتى فوجئوا بهجوم كثيف شَنَّته عليهم قوات الحوثي والرئيس السابق، من ثلاث جهات. وضمن ما تَرَدَّد، قِيل إن هذه القوات نصبت ذلك الكمين مستفيدة من علاقات الرئيس السابق بعدد من رِجَال القبائل في تلك المنطقة. وأكد عدد من الأهالي أن بعض ضباط شعبة الاستخبارات العسكرية، التابعة للقوات الموالية للرئيس السابق، كانوا قد مسحوا المنطقة، قبل يومين، وقرروا، بناءً على ذلك، نصب الكمين في ممر بين جبلين صغيرين. نُشِرت القوات على الجبلين، وحولهما. وحين وَصَلَ المسلَّحون "الجِهاديون" وحلفاؤهم القَبَليّون، شُنّ عليهم الهجوم، بأسلحة خفيفة ومتوسطة وثقيلة.

بوغت "أبو البيرق"، ومن معه، بوابل من القذائف والرصاص ينهال عليهم بكثافة. في الحال، سقط سبعة عشر جريحًا، واثنان وثلاثون قتيلًا، بينهم "أبو البيرق". قبل أن تبدأ المعركة، وَجَدَ مقاتلو "بن صالح" أنفسهم دون قائد. كان يفترض بـ"رئيس وحدة الأمن الجِهادي" سَدّ ثغرة القيادة؛ إلاَّ أنه كان في المُؤَّخِّرة، ويفتقد للحد الأدنى من صفات القائد.

ساد الهلع صفوف مقاتلي "أبي البيرق"، ورِجَال القبائل المساندين لهم. كُلٌّ حاول النجاة بنفسه، فقُتِل وجُرِح عدد آخر منهم، بينهم سمير، الذي تناسى موقعه القيادي منذ بدء الهجوم، وأراد الفرار؛ رغم أنه كان في الخلف. اعتراه الخوف، فأمر سائق السيارة العسكرية التي كان عليها بالتراجع فورًا. نفذ السائق الأمر، وأثناء ذلك سقطت على السيارة قذيفة مدفعية.

سَمِعَ سمير دوي انفجار القذيفة، ثم أفاق وهو مقلوبًا على بطنه، ومُضَرَّجًا فى دمائه؛ على بعد مترين ونصف المتر من الهيكل الرئيسي المُتبقِّي من السيارة. شاهد الهيكل المُتبقِّي من السيارة يحترق، والسائق جثة متفحِّمة داخله. أراد الابتعاد قليلًا، لكنه لم يستطع الحركة. كانت الدماء تسيل من رأسه، ووجهه، ومن عدة أماكن في جسده. تفقَّد نفسه، فوَجَدَ بطنه مفتوحة، ورجله اليمنى مبتورة من الركبة، ويده اليسرى مكسورة من منتصف الذراع. أصيب بالهلع وهو يرى ركبته اليمنى مهشَّمة، وبلا ساق أو قدم. زاد هلعه حين انتبه إلى أن الإصابة التي في بطنه بليغة. أيقن أن ساعته قد حانت، وألا أمل له في الحياة. أخذ نفسًا عميقًا، ثم فقد الوعي، وعلى محياه ابتسامة مُطمَئِنة؛ خلافًا للحالة التي كان فيها! أغمض عينيه، وعلى وجهه سكينة مُدعَّمة بهالة عجيبة من الثقة والاطمئنان. لعله شَعَرَ بأنه تحرَّر أخيرًا من كابوسه الشخصي: امتهان أُسرته للدعارة.

بعد 18 دقيقة، استعاد وعيه على أصوات أشخاص يحصون عدد القتلى والجرحى، ويحاولون التَّعَرُّف على هوياتهم. أصاخ السمع لخطوات تقترب منه، غير مكترث بهوية أصحابها. أَنّ متوجِّعًا عندما قلبه مسلَّحان حوثيان على ظهره. فتح عينيه بصعوبة، فرأى مسلَّحًا يقف أمامه، بانتشاء ظافر، ويصرخ فيه سائلًا عن هويته. استجمع سمير قوته، وأجاب بصوت خافت يكاد لا يُسمع:

سـ.. مـ.. ير.. نا.. د.. ية.

أدرك المسلَّح الحوثي خطورة إصابة سمير، فتركه ومضى؛ إذ كان يبحث ورفاقه عن الجرحى ذوي الإصابات الخفيفة، الذين يمكن الاحتفاظ بهم كأسرى. أغمض سمير عينيه، ولم يفتحهما بعد ذلك أبدًا. لفظ أنفاسه الأخيرة بهدوء. وقبل ساعة من حلول منتصف الليل، بدأ ضبع صغير في نهش جثته. أكل الضبع أجزاء من بطنه ورجليه. وصباح اليوم التالي، واصل كلبان عملية نهش جثته، التي لم يبق سليمًا منها إلا تلك الابتسامة المُطمَئِنة.

سيطرت قوات الحوثي، والرئيس السابق، على المكان الذي نُصب فيه الكمين، والمنطقة القَبَلِيّة التي استقبلت مسلَّحي "أبي البيرق". ومساء اليوم التالي، توصَّلت إلى اتفاق مع قبائل المنطقة، تَمَّ بموجبه السماح بانتشال جثث القتلى، التي كانت كلاب وحيوانات مُفتَرِسة قد نهشت ما استطاعت منها.

انهار "بن صالح" حين بلغه خبر فشل "غزوة قطع ذنب الرَّوَافِض"، والمقتلة التي حدثت لمسلَّحيه فيها. مع ذلك، أصدر بيانًا باسم جماعته، تحدَّث فيه عن "النصر المؤزَّر"، الذي قال إن "المُجاهِدين" تمكَّنوا فيه من "قطع ذنب الرَّوَافِض"! زَعُمَ البيان أن عشرات القتلى والجرحى سقطوا في صفوف "الحوثة الرَّوَافِض" و"الجيش المُتَحَوِّث"، مُقابل "استشهاد خمسة

مُجاهِدين" فقط! بدورها، قالت جماعة الحوثي إن "تسعين إرهابيًا سقطوا بين قتيل وجريح" في ذلك الكمين.

عمَّ الحزن والكمد "مُخيَّم الإيمان والهجرة". فُجِعَت جليلة بخبر مقتل زوجها. وبعد ثلاثة أسابيع تفاجأت، بزوجة شقيقها سابقًا، زوجة "بن صالح" حاليًا، تزورها في مسكنها، كي تَخطُبها للأخير:

– الأمير يشتي يتزوَّجِك، وأرسلني أخطُبِك له. هو قال إن أبو الليث كان من كبار المُجاهدين، وكان مثل أخيه، ولذلك هو لن يتركِك تضيعي من بعده. المهم، قال إنه يشتي يتزوَّجك إكرامًا وتقديرًا لأخيه أبي الليث.

غَرِقَت جليلة في التفكير، وفجأة سَمِعَت "ابتهال" تخبرها بأن "الأمير" سَيُطَلِّق إحدى زوجاته الأربع، كي يستطيع الزَّواج بها، بعد انتهاء عِدَّتها.

81

مع البيان، نشرت جماعة "بن صالح" أسماء وصور مسلَّحيها الخمسة، الذين قالت إنهم "استشهدوا" في "غزوة قطع ذنب الرَّوَافِض". تَمّ تداول البيان والصور في وسائل التواصل الاجتماعي، بعد كتابة أسماء أصحابها عليها، مسبوقة بكلمتي "الشهيد المُجاهِد".

بالمصادفة، رأت سُهى تلك الصور. توقَّفت عند إحداها، لأن صاحب الصورة قريب الشَّبه بشقيقها المُختَفِي منذ ثماني سنوات. لفت انتباهها الاسم المكتوب أسفل الصورة: "الشهيد المُجاهِد أبو الليث سمير اليمني". كَبَّرت الصورة، وأمعنت النظر فيها. استطاعت أخيرًا تمييز ملامح شقيقها، رغم أنه كان قد أصبح بلِحية كَثَّة، ووجه ممتلئ. رأت جزءًا من ندبته الصغيرة ظاهرًا على وجنته اليمنى. أعادت النظر في الصورة، وهي تَهُزّ رأسها مدهوشة، وتهمهم، مرارًا: "أبو الليث سمير اليمني". بحثت عن الاسم في الإنترنت، فوجدت بيانًا أصدرته أجهزة الأمن في صنعاء، تضمن الاسم الحقيقي لشقيقها باعتباره "أحد أخطر الإرهابيين".

أبلغت أمها وشقيقتيها ومريم، زوجة شقيقها، التي كانت لا تزال تعيش في شُقَّة نادية، وتعمل في شبكة الدعارة التي تديرها. عرضت عليهن الصورة. لم يُصَدِّقن، في البداية، أن "سمير" يُمكن أن يصبح إرهابيًا. تناقلت، سلوى وإيمان ومريم، موبايل سُهى، وأخذت كل منهن وقتها في التركيز على الصورة، بحثًا عن النَّدبة، ونقاط التشابه والاختلاف بين صاحبها ورَجُلَهُن المُختَفِي.

تدافعت دقات قلب نادية، وبكت، ما إن نظرت في الصورة.